وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد

الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي

تأليف

الدكتور لبيد ابراهيم أحمد
استاذ التاريخ الاسلامي
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة بغداد

الدكتور عبد الواحد ذنون طه
استاذ التاريخ الاسلامي
قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة الموصل

الدكتور عبد القادر سلمان المعاضيدي
استاذ التاريخ الاسلامي
قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة بغداد

بغداد
١٤١٢ - ١٩٩٢

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد

الدولة العربية الاسلامية في العصر الاموي

تأليف

الدكتور لبيد ابراهيم أحمد
استاذ التاريخ الاسلامي
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة بغداد

الدكتور عبد الواحد ذنون طه
استاذ التاريخ الاسلامي
قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة الموصل

الدكتور عبد القادر سلمان المعاضيدي
استاذ التاريخ الاسلامي
قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة بغداد

بغداد
١٤١٢ - ١٩٩٢

١

المقدمة

على الرغم من كل الأشكال الثقافية والفكرية والسياسية التي قدمها عصر الدولة العربية في الخلافة الأموية فان ملامح العصر في الحصيلة التاريخية لم تكن متناسبة مع عظمة العصر ومع الانجازات الحضارية التي اكتملت فيه ، والتوسع الهائل الذي صاحب مسيرته ، وقد أدرك الباحثون المعاصرون هذه الحقيقة ، وأدركوا الدوافع الأساسية التي حالت دون ابراز الجوانب الحية التي أصبحت سمة متميزة من سماته المشرقة ، فراحوا يستطلعون الأحداث ، ويستشفون الوقائع ، ويدرسون الأسباب التي وقفت وراء هذا الطمس والاخفاء ، ولعل ازدحام الفترة بالأحداث ، وتكالب القوى التي شعرت بالضياع والحيرة بعد قيام الدولة الجديدة ، واحساسها بتوحيد الأمة وترسيخ دعائم استقرارها ، وتهادي الدول أمام هذه الجحافل المؤمنة بالقيم الخلقية النبيلة التي اصبحت جزءً من حياتها قد دفعت هذه القوى الى اثارة الاضطرابات ، واختلاق الأحداث ، وتأليب النحل والفرق ، متذرعة باسباب الدين تارة ، وبالسلطان والتعصب والاعتزاز تارة اخرى . ولابد أن يدخل في هذا الاطار كتابة الأحداث والعصر الذي سجلت فيه أخبار الدولة لأن المصادر المتوفرة لدينا عن هذه الفترة ، وصلت الينا من عصر العباسيين أعداء الأمويين الألداء وان هـذه المصادر قد ساهمت الى حد كبير في تشويه الصورة وتزييف الواقع والصاق التهم بالخلفاء الأمويين والقادة الفاتحين والولاة الحاكمين والأمراء الذين وقفوا الى جانب الدولة وبذلوا مايستطيعون في تثبيت كيانها ، وتوطيد دعائمها ومجابهة الحركات الخارجة عليها مهما كانت هويتها...

ولم يقتصر الحكم على التاريخ ، ولم تقف نزعة التجاوز والتزوير على الخلفاء والقادة ، وانما امتدت تأثيراتها فشملت كل جانب ، وتطاولت حدودها حتى وصلت الى كل زاوية من زوايا الدولة .. حتى ظهر العصر وكأنه احاديث الف ليلة وليلة ، والخلفاء وكأنهم لاهم لهم إلا معاقرة الخمرة وسماع الغناء ومجالسة الجواري .. أما الولاة فكانوا جلادين قتلة ، والولاة مغتصبين لاهم لهم الا الجباية والضرائب .

ان ماجاء في الاسطر السابقة والتي كانت مقدمة لكتاب "شعراء امويون"[1] هو ذات الكلام الذي يدور في خلد اللجنة المؤلفة وبهذا تكون قد عملت بالمثل القائل "سعيد من اكتفى بغيره".

وان اللجنة لترجو ان تكون المادة العلمية في كتابها هذا محاولة صادقة لتغير الصورة المظلمة في اعراف العديد من المؤرخين واعادة رسم صورة هذا العصر بابعاد واضحة وبالوان نقية- مخالفة بذلك بعض الدراسات الظالمة التي رسمت صورة العصر الاموي بابعاد مشوهة والوان باهتة فتركته شلواً ممزقاً ولوحة دامية الابعاد- ولم يتحقق لها ذلك إلا بدراسة موضوعية تعتمد النص وتستخلص الحقيقة وفق مقاييس بعيدة كل البعد عن الحقد او الانبهار غير الموضوعي لان كل منها يبعد الانسان عن الحقيقة.

والامانة العلمية تقتضي بيان عمل اعضاء اللجنة:

فكان الباب الاول والثالث من نصيب الاستاذ الدكتور عبد الواحد ذنون طه، والباب الثاني والسادس من نصيب الاستاذ الدكتور عبد القادر سلمان المعاضيدي، والباب الخامس والسابع من نصيب الاستاذ الدكتور لبيد ابراهيم احمد، اما الباب الرابع، فالفصل الأول منه كان من نصيب الدكتور عبد القادر المعاضيدي، والفصل الثاني كان من نصيب الدكتور لبيد ابراهيم احمد.

ونحن نسأل الله توفيقاً لما توخيناه وعوناً على ما نويناه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

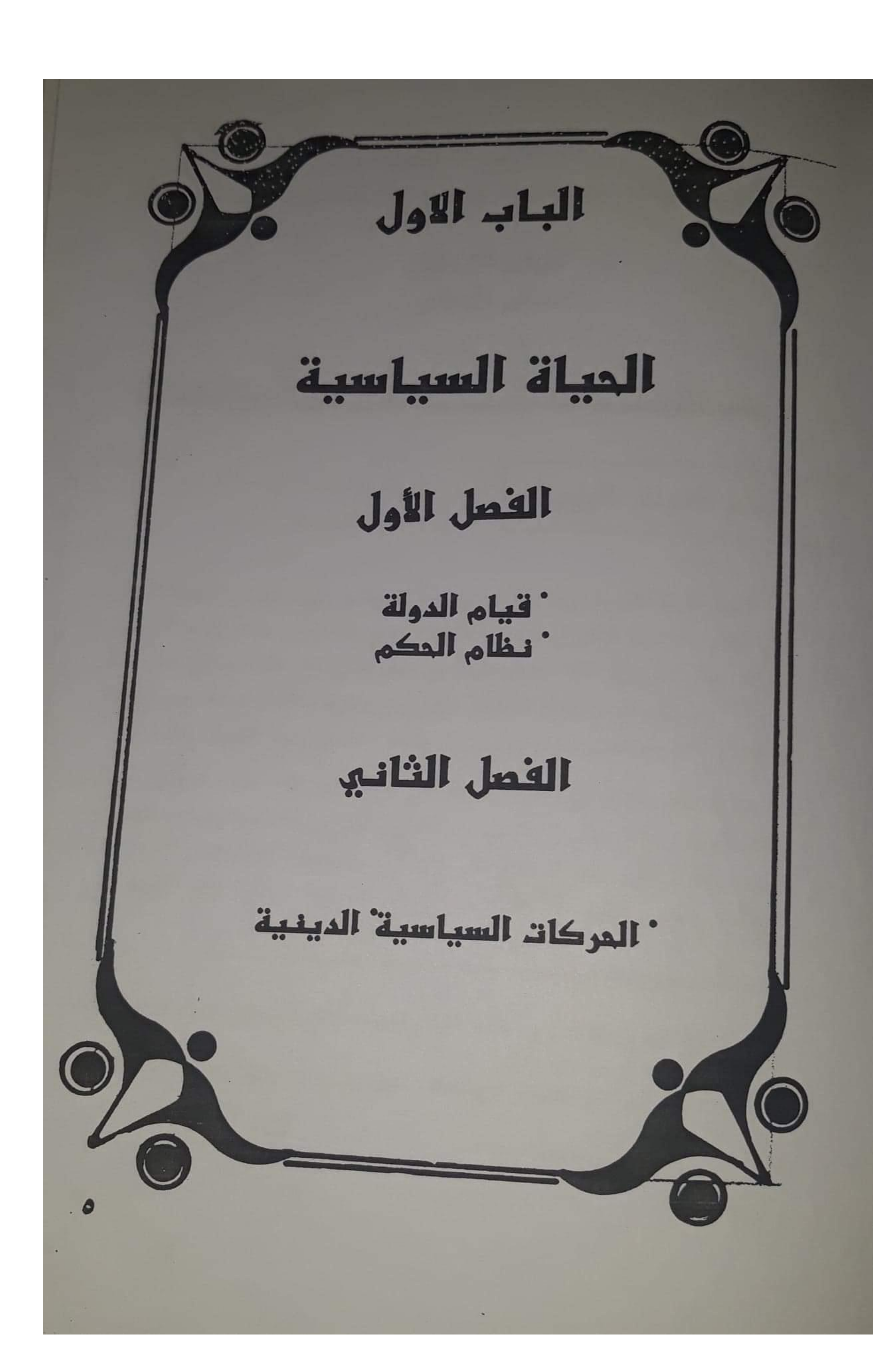
المؤلفون

بغداد ٥ جمادي الاول ١٤١٢ هـ

١٩٩١/١١/١١ م

---

(١) الاستاذ الدكتور نوري حمودي القيسي. شعراء امويون، ط١، مطبعة المجمع العلمي العراقي (بغداد ١٩٨٢) ص ٥- ٧.



الباب الأول

الحياة السياسية

الفصل الأول

- قيام الدولة
- نظام الحكم

الفصل الثاني

- الحركات السياسية الدينية



الفصل الأول

- قيام الدولة
- نظام الحكم

قيام الدولة الاموية:

قامت الدولة الاموية نتيجة لجهود مؤسسها معاوية بن ابي سفيان ، الذي كان والياً على الشام منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . حيث تولاها نحو سبع سنين ، وظل عليها في اثناء خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه نحو اثني عشر سنة اخرى[1] . يضاف الى ذلك أن الخليفة عثمان جمع لمعاوية سنة ٢٥ هـ/٦٤٥ م الجزيرة مع الشام[2] ، فأصبحت ولايته تضم مناطق واسعة جداً من الدولة العربية الاسلامية .

وقد استفاد معاوية من الحقبة الطويلة التي أمضاها في ولاية بلاد الشام في تثبيت سلطته ونفوذه ، وكان يعمل على كسب رضا الخليفة عمر بن الخطاب ليبقيه في منصبه ، فاهتم باستكمال تحرير مدن الساحل مثل طرابلس ، وقيسارية ، وعسقلان ،[3] وشحنها بالرجال ، وحصن الثغور الاسلامية عملاً برأي الخليفة ، وأقام نظام المرابطة على

---

(١) ابو حنيفة احمد بن داود الدينوري ، الاخبار الطوال ، تحقيق ، عبدالمنعم عامر (ط١، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٠) ، ص١٤٠-١٤١ .

(٢) احمد بن يحيي بن جابر البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق ، رضوان محمد رضوان (القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٥٩) ، ص١٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص١٤٦-١٤٨ .

البيزنطيين في اثناء الصيف ، كما رأى ضرورة اتباع سياسة بحرية قوية للوقوف بوجه السواحل البيزنطيين ، فعمل على انشاء عدد كبير من السفن مستعيناً بالبحريين من اهل الشام ومصر[٤].

كذلك استطاع معاوية ان يكسب تأييد القبائل العربية التي كانت تشكل القوة العظمى في اجناد أهل الشام ، التي كانت تتألف من جند دمشق ، وجند حمص ، وجند الاردن ، وجند فلسطين. وقد تلاقت مصالح هذه الاجناد مع مصالح معاوية في اقامة نظام مستقر في بلاد الشام ، خال من المشاكل والاضطرابات التي تميزت بها بعض الأمصار الاخرى ، نتيجة لتعدد الجماعات المتنفذة فيها ، واختلاف مصالحها وهكذا تمكن من اعداد جيش قوي متماسك يتألف من هذه الاجناد جميعاً ، وقف معه بصلابة في كل الظروف التي جابهته ، وخدمه في اقامة الدولة الموحدة التي حاول انشاءها مستفيداً من الظروف التي رافقت نهاية عهد الخلفاء الراشدين ، وماتمخض عن استشهاد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقد حاول معاوية منذ خلافة الخليفة عمر بن الخطاب أن يجعل لوجوده في بلاد الشام صفة مميزة ، من حيث فرض هيبة الحكم والسلطان ، واتخاذ ابهة الملك ، والتخلي عن مظاهر الخشونة التي التزمها الصحابة. فأصبح لايسير الا في موكب يحيط به الحراس والحجاب ، ومظاهر الترف والعظمة. وقد استنكر الخليفة عمر بن الخطاب هذا الأمر عندما استقبله معاوية في الشام في مثل ذلك الموكب قائلاً : «اكسروية يامعاوية؟ فقال : ياامير المؤمنين انا في ثغر تجاه العدو وبنا الى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة. فسكت عمر ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين ...»[٥].

ولكن على الرغم من اتخاذ معاوية لكل مظاهر الأبهة والترف التي بررها للخليفة عمر ابن الخطاب ، لم يطلق لنفسه العنان ، وظل ممسكاً بزمام نفسه حتى وفاة الخليفة ، لأنه كان يخشاه الى درجة كبيرة ، ويمتثل بأوامره وآرائه. لهذا ، فقد امتنع عن القيام بأية حملات بحرية ، نتيجة رفض الخليفة لفكرة حمل المسلمين في البحر، على الرغم من ميل معاوية الكبير الى هذه الحملات ، لاسيما الى قبرس لقربها من بلاد الشام[٦].

---

(٤) ينظر: السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية (الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، د. ت) : ٢/٣١٧.

(٥) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ، المقدمة ، (بيروت ، دار احياء التراث العربي ، د.ت)ص٢٠٣.

(٦) ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، نشر ، دي غوية ، (ليدن ، مطبعة بريل ، ١٨٧٩-١٩٠٣) : ١/٢٨٢٠-٢٨٢٢.

وبعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، تعزز موقف معاوية في بلاد الشام ، وتحقق طموحه في الاستئثار بحكم كل أقاليم هذه البلاد . فلم تمض سنتين فقط على خلافة عثمان بن عفان ، حتى أسند اليه كل ولاية الشام ، بالاضافة الى الجزيرة . وقد ازدادت صلاحياته في ادارة بلاد الشام في هذه الحقبة ، لاسيما على المستوى الاداري والمالي والعسكري . وأخذ يعمل على توطيد سلطانه فيها ، وتحقيق حلمه القديم في ارسال الحملات البحرية الى الجزر القريبة من الساحل الشامي . وقد الح على الخليفة عثمان بن عفان في هذا الأمر ، حتى أذن له بذلك ، فقاد معاوية أول حملاته البحرية الى جزيرة قبرص ، وتمكن من السيطرة عليها ، وتهديد الاسطول البيزنطي منها[7] . كما تُوجت انتصارات معاوية في البحر في معركة ذات الصواري التي جرت سنة ٣٤هـ/٦٥٥م بين كل من الاسطول الشامي بقيادة معاوية بن ابي سفيان ، والأسطول المصري بقيادة عبد الله بن سعد بن ابي سرح ، حيث انتصرا على البيزنطيين انتصاراً كبيراً[8] . وقد كسب معاوية بهذا الانتصار ، وبما حققه من انجازات على صعيد الحملات البحرية الاخرى كسباً كبيراً دعم مكانته في قلوب اهل الشام واجنادها ، وثبت سلطته في حكمها[9] .

وعندما عصفت فتنة الامصار بالمدينة المنورة ، وتعرض الخليفة عثمان بن عفان الى الخطر ، نتيجة عدم رضا بعض الجماعات القبلية على سياسته العامة ازاء الظروف الجديدة ، والتأثيرات الاقتصادية التي نتجت عن توسع حركات التحرير ، استغل معاوية ابن ابي سفيان الأمر عندما أرسل اليه الخليفة للقدوم والمشاورة مع بقية الولاة . فاقترح عليه ان ينتقل معه الى دمشق ، حيث يجد انصاراً ورجالاً يذودون عنه ، لأن اهلها كانوا موالين للخليفة ولمعاوية . ولكن عثمان أبى ان يترك المدينة قائلاً : «أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء وان كان فيه قطع خيط عنقي»[10] . ويبدو أن معاوية كان يهدف من وراء دعوته للخليفة عثمان بالانتقال الى دمشق ، أن يكتسب بوجوده هناك سنداً روحياً يمهد له الظفر بالخلافة من بعده . ويؤيد هذا الأمر خطابه لجماعة المهاجرين والأنصار بالمدينة قبل

---

(٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ – ١٥٨ .
(٨) الطبري ، تاريخ ٢٨٦٧/١ وما بعدها ، ٢٩٢٧ .
(٩) ينظر: سالم ، المرجع السابق : ٣١٩/٢ .
(١٠) الطبري ، تاريخ : ٣٩٤٩/١ .



مغادرته الى دمشق ، وتلويحه لهم بتحول الرئاسة الى بني أمية اذا ماتعرض الخليفة عثمان الى اعتداء الخارجين عليه ، ولم ينصره المهاجرون والانصار في المدينة[11] .

وقد أدى استشهاد الخليفة عثمان بن عفان سنة ٣٥هـ/٦٥٦م الى زيادة نفوذ معاوية في بلاد الشام ، حيث أتيحت له الفرصة لينفرد بالشام ، ويتزعم بني أمية في المطالبة بدم الخليفة . فاستطاع ان يقنع اهل الشام بعدالة قضيته ، وضمن تأييدهم الفعال له في هذا المجال. ففي الوقت الذي كان فيه الخليفة الجديد ، علي بن ابي طالب ، يواجه مشاكل عديدة نجمت عن ظروف اغتيال سلفه الخليفة عثمان ، وانقسام قريش ، وجرأة بعض قبائل الامصار على المدينة وخرق حرمتها ، كان معاوية يعمل على استغلال هذه الظروف بالذات لتعزيز مكانته ، لاسيما وانه يمتلك القوة العسكرية التي تتيح له تحقيق مايطمح اليه من الوصول الى الخلافة .

وساعد معاوية على تحقيق اهدافه اقتناع اهل اشام بوحدة مصالحهم معه ومع بني امية ازاء السياسة التي يمكن ان يسير عليها الخليفة الجديد ، والتي كما يرى احد الباحثين المحدثين[12] ، قد تحرمهم من الامتياز المطبق منذ عهد عمر وعثمان ، والذي يقضي بضرورة ابقاء بلاد الشام بعيدة عن الهجرة غير المحددة للقبائل العربية اليها لضمان استقرارها وسلامتها من الخطر البيزنطي . ويبدو ان الخليفة الجديد لم يكن يرى سبباً لمنح بلاد الشام مركزاً مميزاً لمجرد أنهم يقومون بالدفاع عن حدودهم ، وليس من المعقول ان تطغى الهجرة غير المحددة من القبائل العربية على العراق بينما تبقى بلاد الشام بعيدة عن ذلك كل البعد ، ولاتسهم بحل مشاكل الامة كلها ، ومنها ايجاد اماكن جديدة للاستقرار بالنسبة للقادمين الجدد من الجزيرة العربية . وهذا يعني فقدان بلاد الشام لامتيازات ثمينة ، وهدم ماحققه معاوية خلال ولايته الطويلة من انجازات ساعدته على حماية مصالحه ومصالح أهل الشام ، ومهدت لسيطرته التامة عليها[13] .

---

(١١) المصدر نفسه : ٣٩٤٨/١؛ ويقارن : سالم ، المرجع السابق : ٣٢٠/٢ ، محمد جمال الدين سرور ، **الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الاول والثاني بعد الهجرة** (القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٠) ، ص ٦٤-٦٥.

(١٢) ينظر: محمد عبدالحي شعبان ، **التاريخ الاسلامي ، تفسير جديد- صدر الاسلام والدولة الاموية ٦٠٠-٧٥٠م/ ١٣٢هـ** (بيروت ، الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٣) ، ص ٨٥.

(١٣) المرجع نفسه ، ص ٨٥.

وعملت الظروف التي رافقت خلافة علي بن ابي طالب ايضاً على ترجيح كفة معاوية ابن ابي سفيان، فقد ازداد الاتجاه القبلي، لاسيما وان دعوى الاخير للمطالبة بدم الخليفة عثمان كان على اساس قبلي واضح، لأن هذه المطالبة، كما يقول عبد العزيز الدوري[14]، كانت من واجب الدولة وحقها، وليس من حق الأقرباء. ويدل التفاف الكثيرين حول معاوية على قوة هذا الاتجاه القبلي، الذي حاول الخليفة علي أن يقف ازاءه، بتطبيقه المبادئ الاسلامية الأساسية. وهكذا اصطدم في بداية خلافته مع هذا التيار، وكان عليه ان يغادر المدينة المنورة لمحاربة الخارجين عليه في البصرة، ومن ثم سار الى الكوفة لوجود المال والرجال. ولكن أهل العراق الذين كانوا ايضاً مدفوعين بالنزعة الاقليمية والاتجاه القبلي، حاولوا التأثير على الخليفة علي، فتحكمت فيه أهواء اهل الكوفة، الذين يفكرون بمصلحتهم ومصلحة اقليمهم، ويريدون الاستئثار بما لديهم، والاحتفاظ بتنظيماتهم القبلية. ولهذا لم تناسبهم سياسة الخليفة، ولم تلبث اتجاهاته ان اصطدمت معهم بشأن مختلف الازمات التي جابهها، فقد أفسدوا عليه في معركة الجمل استعداده للتفاهم مع خصومه، حين هاجموا دون علمه وسببوا تلك المعركة الدموية بالقرب من مدينة البصرة سنة ٣٦هـ / ٦٥٦م[15]. وقد دفعوه في صفين الى التحكم دفعاً، بعد ان ملوا القتال، ثم فرضوا عليه أبا موسى الأشعري ليمثله، ولم يكن من الموالين له، بل كان من الذين اعتزلوا الفتنة بعد استشهاد الخليفة عثمان[16].

ويعد ظهور الخوارج من العوامل الاخرى التي أسهمت في ضعف موقف الخليفة علي، وتعزيز قوة معاوية. فقد كان معظم هؤلاء من رجال القبائل العربية الذين استقروا في الكوفة والبصرة بعد التحرير، وانفصلوا عن جيش الخليفة علي بن ابي طالب بعد أن وافق على صيغة التحكيم، وأدى هذا الأمر الى تخلخل الجبهة الداخلية للخليفة، وقاد الى صراع مسلح بينه وبين المنشقين عليه، كان نتيجته ان اوقع بهم الهزيمة في النهروان سنة ٣٨هـ / ٦٥٨م[17]. لكنه مع ذلك لم يتيسر له القضاء عليهم وعلى آرائهم، فظل بعضهم يقيم بالكوفة والبصرة، معلنين عدم خضوعهم للدولة والحكم المركزي. وهكذا كان على الخليفة علي أن يعمل في وسط هذه البيئة القبلية والاتجاهات التي لاتناسب سياسته. ولذلك

---

(١٤) مقدمة في تاريخ صدر الاسلام (ط ٢، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦١)، ص ٥٨.
(١٥) الطبري، تاريخ: ١/ ٣١٨٢.
(١٦) ينظر: الدوري، المرجع السابق، ص ٥٩.
(١٧) الطبري، تاريخ: ١/٣٣٨٧.

كان ، كما يقول أحد الباحثين المحدثين[18] ، «كمن يطرق في حديد بارد» . أما معاوية فثار على اساس قبلي ، واصطدام بعلي الذي «كان يسير على سياسة اسلامية في وسط قبلي فاصطدم بظروفه وبخصمه في آن واحد ، ولهذا فلا غرابة أن انتصر معاوية لأن الظروف والأوضاع كانت مواتية له ، وكان انتصار معاوية انتصاراً واضحاً للتيار القبلي . وقد جاء الأمويون على هذا الاساس ، فكانت دولتهم نتيجة طبيعية لتطور الاوضاع العامة في عصر الراشدين بدون ان يحصل انقطاع في التطور التاريخي»[19] .

استمرت الظروف السياسية تسير في صالح معاوية ، فبعد ان فرغ الخليفة علي من اخماد فتنة الخوارج بصورة مؤقتة ، دعا أنصاره من أهل العراق للخروج من جديد الى بلاد الشام ، لكنهم تثاقلوا ورفضوا قائلين بلسان أحد كبار قادتهم ، الأشعث بن قيس الكندي : «يا أمير المؤمنين ، نفدت نبالنا ، وكلت سيوفنا ، ونصلت أسِّنة رماحنا ، فارجع بنا الى مصرنا ، لنستعد بأحسن عدتنا»[20] فعاد بهم الى معسكرهم بالنخيلة خارج الكوفة ، فعسكروا بها اياماً ، ثم صاروا يتسللون الى الكوفة ، حتى لم يبق معه الا نحو ألف من وجوه الناس فقط[21] .

إستغل معاوية هذه الظروف والانتكاسات التي حلت بخصمه في اعقاب صفين ، والتحكيم ، والنهروان ، في تدعيم موقفه ، وكسب التأييد المطلق من أهل الشام . وقد اكسبه زواجه من ميسون بنت بحدل الكلبي ، الذي ينتمي الى قبيلة كلب اليمانية ، سنداً قبلياً قوياً له .[22] وكان انصاره طوع أمره وارادته ، حيث أجمعوا على مبايعته اميراً عليهم . فقد أرسل الرسل الى مختلف نواحي الشام يطلب منهم ان يبايعوه بالامارة ، فبايعوا له بذلك . وقد ذهب والي حمص ، شرحبيل بن السمط الكندي ، الى أبعد من ذلك ، فبايعه بالخلافة ، هو وأهل حمص ، ثم كتب الى معاوية يقول : «اما بعد فإنك أخطأت خطأً عظيماً حين كتبت اليَّ أن ابايعك بالامرة ، وانك تريد ان تطلب بدم الخليفة المظلوم وانت غير خليفة وقد بايعت ومن قبلي لك بالخلافة . فلما قرأ معاوية كتابه سره

---

(١٨) الدوري ، المرجع السابق ، ص ٦٠ .
(١٩) المرجع نفسه ، ص ٦١ .
(٢٠) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٢١١ .
(٢١) المصدر نفسه ، ص ٢١١ .
(٢٢) الطبري ، تاريخ : ٢/٢٠٤ ؛ وينظر: الدوري ، المرجع السابق ، ص ٦٠ .

ذلك ، ودعا الناس ، وصعد المنبر ، واخبرهم بما قال شرحبيل ، ودعاهم الى بيعته بالخلافة ، فأجابوه ، ولم يتخلف منهم أحد . . . »[٢٣] .

ونتيجة للوهن الذي أصاب حكومة الخليفة علي بن ابي طالب ، لاسيما بعد معركة النهروان ، تشجع معاوية ، فبدأ بالهجوم على المناطق التي كانت خاضعة لسلطة الخلافة . فوجه عمرو بن العاص على مصر ، فقدمها سنة ٣٨ هـ/٦٥٨ م ، ومعه جيش كبير من اهل الشام ، استطاع ان يقتل واليها محمد بن ابي بكر ، وان يدخلها في سلطان معاوية[٢٤] . وكان لوقوع هذه الولاية المهمة الغنية بخراجها أثراً كبيراً في دعم موقف معاوية ، الأمر الذي ساعد كثيراً على قيام الدولة الاموية . كما استمر معاوية في توجيه الحملات ، والاغارة على اطراف العراق وغيرها من المناطق الخاضعة للخليفة علي ، فوجه النعمان بن بشير الى عين التمر سنة ٣٩ هـ/٦٥٩ م في ألفين من رجاله ، فأغاروا عليها . ووجه في هذه السنة ايضاً سفيان بن عوف للاغارة على هيت والانبار ، وعبدالله بن مسعدة الفزاري الى تيماء ، والضحاك بن قيس الى موضع بالقرب من الكوفة يسمى القطقطانة . كما قاد معاوية بنفسه حملة توخت الوصول ، كما يبدو ، الى شمال العراق حتى وصل الى نهر دجلة ، ثم عاد راجعاً الى الشام[٢٥] .

وعلى الرغم من ان هذه الحملات كانت مجرد طلائع مغيرة يهرب فيها أهل الشام بغنائمهم بعد ان تتبعهم قوات الخليفة[٢٦] ، لكنها مع ذلك حققت البلبلة في صفوف اهل العراق ، ونجحت في بث الرعب بين اتباع الخليفة . وقد تشجع معاوية بعد النجاح الذي احرزته بعض هذه الحملات على اطراف العراق ، على المضي في انفاذ حملات اخرى الى مناطق بعيدة مثل اليمن . لاسيما بعد انوصلتهمن هناك رسائل من بعض اهلها تدعوه لان يبعث لهم عاملاً من عنده ، وانهم مازالوا على بيعة الخليفة عثمان بن عفان .

---

(٢٣) ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المنسوب) ، **الامامة والسياسة** ، تحقيق ، طه محمد الزيني (القاهرة ، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع ، د. ت) : ١/٧٤ .

(٢٤) احمد بن ابي يعقوب بن واضح اليعقوبي ، **تاريخ اليعقوبي** (بيروت ، دار صادر ، توزيع دار مصعب ، د. ت) : ٢/ ١٩٣-١٩٤ .

(٢٥) الطبري ، تاريخ : ١/٣٤٤٤-٣٤٤٧ ؛ وينظر ايضاً : اليعقوبي تاريخ : ٢/١٩٥-١٩٦ ؛ ابو الحسن علي بن ابي الكرم المعروف بابن الأثير ، **الكامل في التاريخ**/بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٩) : ٣/٣٧٥-٣٧٧ .

(٢٦) بوليوس ولهاوزن ، **الدولة العربية وسقوطها** ، ترجمة . يوسف العش (دمشق ، مطبعة الجامعة السورية ، ١٩٥٦) ، ص ٨٤ .

فارسل اليمن في سنة ٤٠ هـ/٦٦٠م حملة بقيادة بسر بن أرطاة ، أو (ابن أبي أرطاة)[27] . وكانت مهمته تتلخص في التوجه الى المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، والطائف ، ومن ثم الى اليمن للسيطرة عليها ، وتتبع انصار الخليفة علي بن ابي طالب فيها . وعندما وصل بسر الى المدينة المنورة فر واليها ابو ايوب الأنصاري الى الكوفة ، فتوجه بسر الى مكة ، حيث اكره اهلها على البيعة لمعاوية ، ومضى منها الى اليمن ، التي فر عاملها عبدالله بن عباس ، فاتيحت الفرصة لبسر ليقضي على كثير من انصار الخليفة علي[28] . وقد امتدت عمليات بسر بن ارطاة الى انحاء مختلفة من الجنوب الغربي للجزيرة العربية ، فيقال انه بلغ عدن ، والشحر ، وهي ساحل حضر موت[29] . ولكن بسراً لم يمكث طويلاً في اليمن بسبب سماعه بتوجه حملة مضادة من العراق اليه بقيادة جارية بن قدامة السعدي ، فهرب وتفرق أصحابه[30] .

وفي سنة ٤٠ هـ/ ٦٦٠ م جرت مراسلات طويلة بين الخليفة علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، اتفق الجانبان على أثرها على الهدنة ووقف الحرب بين الطرفين ، على أن يكون العراق لعلي بن ابي طالب ، والشام لمعاوية بن ابي سفيان ، ولا يتدخل احدهما في عمل الآخر، ولا يغير عليه[31] ولكن هذه الهدنة لم تدم طويلاً ، بسبب تسمي معاوية بالخلافة ، ومبايعة اهل الشام له في القدس.[32] وقد عَدّ الخليفة علي ابن ابي طالب هذه الخطوة تحد له ولسلطته في الخلافة ، فرد بأعداد حملة كبيرة للتوجه

---

(٢٧) ينظر: خليفة بن خياط ، **تاريخ خليفة بن خياط** ، تحقيق ، اكرم ضياء العمري (النجف ، مطبعة الآداب ، ١٩٦٧) : ١/١٨٢ ، اليعقوبي ، **تاريخ** : ٢/١٩٧ ؛ الطبري ، **تاريخ** : ١/٣٤٥٠ ؛ ابو محمد احمد بن عثمان بن اعثم الكوفي ، **الفتوح** (ط ١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦) : ٢/٢٢٨ .

(٢٨) اليعقوبي ، **تاريخ** : ٢/١٩٩ ، ابن اعثم ، الفتوح : ٢/٢٣٢ .

(٢٩) ابو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن احمد بن ابي مخرمة ، **تاريخ ثغر عدن** (ليدن–مطبعة بريل ، ١٩٣٦) اعادت طبعه مكتبة المثنى ببغداد : ٢/٢٦ ، احمد بن عبدالله الرازي الصنعاني ، **كتاب تاريخ مدينة صنعاء** ، تحقيق ، حسين عبدالله العمري وعبدالجبار زكار (صنعاء ، ١٩٧٤) ، ص ١٧٠ ، وينظر ايضاً ، ابن اعثم ، **الفتوح** : ٢/٢٣٣ .

(٣٠) احمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، **انساب الأشراف** ، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي (بيروت ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، ١٩٧٤) : ٢/٤٥٧ ، الطبري ، **تاريخ** : ١/٣٤٥٢ ؛ ابو مخرمة ، المصدر السابق : ٢/٢٦ .

(٣١) الطبري ، **تاريخ** : ١/٣٤٥٢–٣٤٥٣ ؛ ابن الاثير ، **الكامل** : ٣/٣٨٥ .

(٣٢) الطبري ، **تاريخ** : ٢/٤ .

الى بلاد الشام ، تتألف من نحو أربعين ألف رجل (٣٣) . وبينما كان يستعد للمسير بهذا الجيش ، طعنه أحد الخوارج ، ويدعى عبدالرحمن بن ملجم المرادي في مسجد الكوفة ، فاستشهد في رمضان سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ - ٦٦١م . (٣٤)

بايع اهل الكوفة الحسن بن علي بالخلافة ، وقد اشترط عليهم أن يسمعوا ويطيعوا ، ويسالموا من سالم ، ويحاربوا من حارب ، فارتاب اهل العراق في امره حين اشترط عليهم هذا الشرط ، وتوقعوا أنه يريد الصلح . (٣٥) وكان معاوية بعد سماعه باستشهاد الخليفة علي ، قد تسمى بامير المؤمنين ، وسار على رأس جيش من جند الشام ، حيث نزل مسكن على دجلة . فارسل له الحسن بن علي جيشاً وَضع على مقدمته قيس بن سعد بن عبادة ، وخرج بنفسه في اثره في عدد من اهل العراق . وقد حاول معاوية أن يبث الفرقة بين جند الحسن ، ونجح في ذلك الى حد كبير ، فاظهروا التواكل والانصراف عن الحرب ، فاعلن الحسن انه لايريد أن يحملهم على مايكرهون ، وأن الجماعة خير من الفرقة . ولكن على الرغم من زهدهم في القتال وتواكلهم عنه ، لم يعجب بعضهم مقولة الحسن ، فهاجوا ، وهاجموا مصلاه ، وانتزعوا متاعه ، وطعنه أحدهم في فخذه ، فمضى الحسن حتى دخل المدائن وهو جريح . (٣٦)

ونتيجة لهذا أيقن الحسن أن جنده ليسوا جادين في نصرته ، وأنه لاقبل له بمعاوية وانصاره من اهل الشام ، ففضل سلوك طريق المفاوضات والتوصل الى الصلح بقصد حقن دماء المسلمين لمصلحة الأمة . (٣٧) وقد تم الاتفاق بين الطرفين على ذلك سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م ، وتنازل الحسن عن الخلافة الى معاوية ، على الرغم من معارضة اخيه الحسين . وكان من جملة شروط التنازل ، أن يعمل معاوية بكتاب الله وسنّة نبيه ، وسيرة الخلفاء الصالحين ، وان ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده ، وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين من بعد معاوية ، وتأمين اهل العراق ، وبقية الناس في الامصار الاخرى على انفسهم وأموالهم . (٣٨)

---

(٣٣) ابن الاثير ، الكامل : ٣/٤٠٤ ؛ وينظر : ولها وزن ، المرجع السابق ، ص ٨٥-٨٦.

(٣٤) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٢١٤ ؛ اليعقوبي ، تاريخ : ٢/٢١٢ ؛ الطبري ، تاريخ : ١/٣٤٦٠.

(٣٥) المصدر نفسه : ٢/٥.

(٣٦) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٢١٦-٢١٧ ، اليعقوبي ، تاريخ : ٢/٢١٤-٢١٥.

(٣٧) الطبري ، تاريخ : ٢/٣.

(٣٨) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٢١٨ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/٣ ؛ وينظر : سرور ، المرجع السابق ، ص ٩١.

وكان قائد جيش الحسن، قيس بن سعد بن عبادة، متردداً في قبول الصلح، فكتب اليه الحسن يحثه على الدخول في طاعة معاوية، لاسيما وأن معظم الجند قد وافقوا على ذلك. لكنه رفض البيعة حتى استماله معاوية وبذل له ولأصحابه من أنصار الخليفة علي بن ابي طالب الأمان[٣٩]. وقد سار معاوية الى الكوفة لتأكيد بيعته هناك، حيث التقى بالحسن بن علي، وجدد له التعهد بالموافقة على شروط الصلح. كما أخذ البيعة من اهل الكوفة في ربيع الآخر سنة ٤١ هـ ٦٦٧ م. وقد ألقى الحسن خطبة في جامع الكوفة امام معاوية، أشار فيها الى موقفه من الصلح، وحقن دماء المسلمين قائلاً: «اما بعد، يا أيها الناس فإن الله قد هداكم بأولنا وحقن دماءكم باخرنا، وان لهذا الأمر مدة، والدنيا دول وان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم، وان ادري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين»[٤٠]. ثم غادر الحسن الكوفة متوجهاً الى المدينة المنورة، فلم يزل مقيماً فيها حتى توفي سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م.[٤١]

وهكذا أصبح معاوية خليفة للمسلمين، وصاحب السيادة المطلقة على العراق والشام ومصر، اضافة الى الحجاز وبقية ولايات الدولة العربية الاسلامية. وأصبح العام الذي تنازل فيه الحسن عن الخلافة، وهو عام ٤١ هـ / ٦٦١ م يُعرف بعام الجماعة، لاجتماع الأمة على بيعة معاوية في جميع الأمصار،[٤٢] وهو عام قيام الدولة الأموية التي استمرت حتى سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م.

ولاشك ان لشخصية معاوية اثراً كبيراً في نجاح قيام الدولة الأموية، فقد أحسن الاستفادة من الظروف التي كانت تمر بها الامة العربية، واستطاع بمقدرته، ودهائه، وصبره، وبما عُرف عنه من حلم، أن يوازن بين مختلف القوى السياسية التي كانت تحيط به. والواقع أن صفتي الحلم والدهاء اللتين كان يتمتع بهما، ساعدتاه كثيراً في حل معظم المسائل المتعلقة بشؤون الدولة والحكم. وقد أطنب المؤرخون العرب في وصف هاتين

---

(٣٩) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص ٢١٨؛ الطبري، **تاريخ**: ٢/٣-٤، ٧-٨.

(٤٠) المصدر نفسه، ٢/٦.

(٤١) اليعقوبي، **تاريخ**: ٢/٢٢٥.

(٤٢) ابو الحسن علي بن ابي الكرم المعروف بابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة** (مصر، ١٢٨٥ هـ): ٤/٣٨٧؛ وينظر: عبدالمنعم ماجد، **التاريخ السياسي للدولة العربية في عصر الخلفاء الامويين** (القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١): ٢/٢٠.

الصفتين ، فيذكر اليعقوبي ،[٤٣] انه «كان لمعاوية حلم ودهاء ، وجود بالمال على المداراة ... » ، وانه كان يقول : «لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ، قيل : وكيف يا أمير المؤمنين؟ قال : كانوا اذا مدوها خليتها ، واذا خلوها مددتها» .

ويبدو ان قدرات معاوية السياسية ، ومؤهلاته الشخصية قد ساعدته كثيراً في اجتياز الحالة التي كانت تعيشها الأمة العربية في ذلك الحين. فقد أدرك انه لامجال لأية فئة أن تحقق جميع رغباتها تحقيقاً كاملاً ، فاستغل الرغبة الشاملة بالسلم للوصول الى تفاهم عام مع جميع الأطراف ، قائم على التسوية . وقد ساعده وجود جند الشام المخلصين له في دعم هذه السياسة ، فاستطاع ان ينفذ الى حد كبير ، وبنجاح سياسته التي كانت تهدف الى الرضى والتوافق في المجتمع ، والى تعزيز الحكومة المركزية . وقد بذل عناية كبيرة في احترام القبائل العربية للاحتفاظ بدعمها في تأييد الدولة . كما عامل خصومه السابقين ، الذين وقفوا مع الخليفة علي بن أبي طالب ، بشهامة رجل الحلم غير المذلة ، وغير المتغطرسة ، فكسب تأييدهم ودعمهم الذي كان بحاجة ماسة اليه لتركيز قواعد الدولة الجديدة .[٤٤]

ويمكن ان نلاحظ هذه السياسة بالذات من طريقة كسب معاوية لقيس بن سعد بن عبادة ، قائد جند الخليفة علي ، وابنه الحسن ، حيث انه لم يأخذ بنصيحة عمرو بن العاص الداعية لاستخدام القوة معه ومع جنده البالغ عددهم نحو أربعين الفاً ، لأن قتالهم كان يعني خسارتهم ، اضافة الى فقدان مايقابل عددهم من جند الشام ، وفي هذا خسارة كبيرة للامة ، وللدولة الفتية التي لم يمض على قيامها سوى وقت قصير. ونجحت سياسة معاوية القائمة على الحكمة واللين في اجتذاب هذا القائد ، ودخوله في طاعته بعدما بذل له ولاتباعه الأمان .[٤٥]

ومن العوامل الاخرى التي ساعدت على توطيد أركان الدولة الأموية ، وقوف بعض القادة ، والرجال الأكفاء ، الذين تميزوا بعقلية قيادية وادارية رائعة ، الى جانب معاوية ، حيث ساعدوا اما في ضم بعض الأقاليم للادارة الجديدة ، مثل مصر ، أو في ضبط

---

(٤٣) التاريخ : ٢/ ٢٣٨ .

(٤٤) ينظر : شعبان ، المرجع السابق ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٤٥) الطبري ، تاريخ : ٢/ ٧-٨ .

الولايات والامصار الاخرى بعد اعلان الدولة الجديدة، مثل الكوفة والبصرة. فقد استطاع عمرو بن العاص أن يضم مصر الى ادارة معاوية بن أبي سفيان سنة ٣٨هـ/ ٦٥٨م، (٤٦) ثم تولى أمر ولايتها. وكان عمرو رجلاً مقتدراً استطاع أن يسيطر على الأوضاع في هذه الولاية الكبيرة، وبوجه العرب منها نحو شمالي افريقيا بنجاح كبير. وظل والياً عليها حتى وفاته سنة ٤٣هـ/ ٦٦٣م، فاستخلف ابنه عبد الله بن عمرو، الذي أقرَّه معاوية لمدة سنتين تقريباً، ثم عزله وعين اخاه عتبة بن ابي سفيان عليها. (٤٧)

أما ولاية العراق التي تُعَد اكثر الولايات صعوبة، فعهد بها الى صحابي ينتمي الى قبيلة ثقيف التي قدّمت للدولة الأموية العديد من الولاة الأكفاء، ويأتي في مقدمتهم المغيرة بن شعبة، الذي تميز بشجاعته في حروب التحرير في العراق وبلاد الشام، حتى ذهبت عينه في معركة اليرموك. كما تولى البصرة والكوفة عدة مرات في عهد الخلفاء الراشدين ولهذا فهو مُطّلع على مشاكل المنطقة منذ زمن بعيد. وقد عرف معاوية كيف يستغل مواهب هذا الرجل المعروف بدهائه السياسي، على الرغم من اعتزاله الاحداث. (٤٨) وقد بدأت خدمات المغيرة لمعاوية حينما أرسله على رأس وفد الى الحسين ابن علي بعد توليه الخلافة، فاقنعه في التنازل عنها لصالح معاوية، وقبول الموادعة والسلم. (٤٩) ولما تم الأمر لمعاوية وأُعلن قيام الدولة الأموية، عين المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة سنة ٤١هـ/ ٦٦١م، واستمر في ولايتها سبع سنين وأشهراً حتى وفاته سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م، وتشير رواية اخرى انه توفي سنة ٥١هـ/٦٧١م. (٥٠) وقد بذل المغيرة بن شعبة في هذه الحقبة جهده في تهدئة الكوفيين، ونجح في دفع خطر الخوارج نتيجة لتعاون أهل الكوفة معه لرضاهم عن ولايته، وذلك لاتباعه سياسة الاعتدال، وتجنبه الشدة مع المعارضين، طالما لم ينتقلوا من مرحلة الكلام الى الفعل. ولقد أطروا ولايته وعدّوها من أفضل الولايات التي مرت عليهم قائلين: «ماولينا والٍ بعده مثله ... قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم أحمدهم للبريْ وأغفرهم للمسيء وأقبلهم للعذر». (٥١)

---

(٤٦) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ٩٣- ١٩٤؛ الطبري، تاريخ: ١/ ٣٤٠٠ فما بعدها، ٣٤٠٦-٤٠٧.

(٤٧) ابو عمر محمد بن يوسف الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تهذيب رفن كست (بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨)، ص ٣١- ٣٤.

(٤٨) الطبري، تاريخ: ٢/ ٨.

(٤٩) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ٢١٥.

(٥٠) الطبري، تاريخ: ٢/ ٨٦، ١١١، ١١٤.

(٥١) المصدر نفسه: ٢/ ١١٢، ١١٤.

واستفاد معاوية من رجل آخر، ينتمي ايضاً الى ثقيف، في ضبط البصرة، التي عجز قريبه عبد الله بن عامر الأموي عن ادارتها، لاستشراء الروح القبلية فيها، وانعدام الأمن والطاعة للدولة.(٥٢) وكان هذا الرجل الثقفي يدعى زياد بن أبيه، وقد عمل مع المغيرة ابن شعبة حينما كان الأخير والياً على البصرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان ايضاً شخصية بارزة في البصرة في عهد الخليفة علي بن ابي طالب رضي الله عنه، الذي استعمله والياً على منطقة فارس، وظل موالياً له حتى استشهاده. ثم تحصن في موقعه متحدياً معاوية بن أبي سفيان، لكن الأخير وسّط المغيرة بن شعبة لاستمالة زياد، فنجح في ذلك، وكف عن معارضته، وقدم الى الشام، فألحقه معاوية بنسبه، وعُرف من ذلك الوقت بزياد بن أبن سفيان.(٥٣) وفي سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م ولاه البصرة التي كان يتبعها أيضاً اقليمي خراسان وسجستان. فقدم زياد البصرة، ونجح في القضاء على الفوضى والاضطرابات التي كانت منتشرة فيها. وقد سار على سياسة الشدة والترهيب، فخافه الناس كثيراً، وسكنت معارضة أهل العراق والخوارج للدولة الاموية، الأمر الذي اكّد السلطة لمعاوية في هذا الاقليم الكبير.(٥٤)

ثم اضيفت ولاية الكوفة ايضاً الى اعمال زياد، بعد وفاة المغيرة بن شعبة، فظل اميراً على العراق كله حتى وفاته سنة ٥٣ هـ/٦٧٢م. وكان يقيم في البصرة ستة أشهر وبالكوفة ستة أشهر،(٥٥) فضبط المصرين مع مايلحق بها من ولايات في المشرق تشمل اقليمي سجستان وخراسان. ثم جمع له معاوية الهند والبحرين وعُمان، اي انه كان مسؤولاً عما يعادل نحو نصف اقاليم الدولة العربية الاسلامية. وكان للدعم الكبير الذي تمتع به زياد من لدن الخليفة معاوية، وللسلطات غير المحدودة التي كانت بيده اثراً كبيراً في اتخاذه تدابير جذرية لاعادة تنظيم هذه الأقاليم الشاسعة المضطربة. فقسم البصرة الى خمسة اقسام يسمى كل منها خمساً، ويشمل على عدد من العشائر، يرأسه رئيس له سلطات واسعة. كما قسم الكوفة ايضاً الى أربعة أرباع لتسهل ادارتها على الدولة، لاسيما بالنسبة لجمع الجند والاعداد للحملات العسكرية.(٥٦) كما نقل عدداً كبيراً من الأسر الكوفية

---

(٥٢) المصدر نفسه: ٢/ ٦٧.

(٥٣) اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ٢٨، وينظر الطبري، تاريخ: ٢/ ٦٩.

(٥٤) المصدر نفسه: ٢/ ٧٣ فما بعدها.

(٥٥) المصدر نفسه: ٢/ ٨٧، ٥٨.

(٥٦) ينظر: صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري (ط٢، بيروت، دار الطليعة، ٩٦٩)، ص ٥٣، ١٢٠- ١٢١.

والبصرية يبلغ مجموع أفرادهم نحو خمسين ألفا ، الى خراسان ، واسكنهم فيها ، (٥٧) لدعم حركة الاستقرار في تلك الولاية البعيدة ، وتطعيم حركة التحرير العربية الاسلامية في المشرق ، ولتخفيف الضغط عن البصرة والكوفة والعراق بشكل عام نتيجة هجرة الكثير من القبائل العربية اليه من انحاء مختلفة من الجزيرة العربية . (٥٨)

وهكذا ونتيجة لجهود هؤلاء الرجال البارزين ، عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبي سفيان ، استطاع الخليفة معاوية أن يدعم قيام الدولة الجديدة ، ويرسي اسسها على قواعد ثابتة ضمنت استمرار الحكم ، وترسيخ المؤسسات ، ودفع حركات التحرير في مختلف الجبهات ، الأمر الذي أدى الى اتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية ، وبسط نفوذها على مناطق جديدة لم تكن تابعة لها في عهد الراشدين .

نظام الحكم:

بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة ، أصبح معاوية بن أبي سفيان خليفة للمسلمين باجماع الامصار الاسلامية ، على الرغم من أن بعضهم قد بايعه كرهاً ، لاسيما أهل العراق الذين رأوا أن خلافته أصبحت امراً لامفر منه . كما دفعت الرهبة فريقاً آخر الى المبايعة ، وان كرهوا ذلك ، يذكر اليعقوبي (٥٩) ، أن الرجل كان يحضر فيقول : «والله يامعاوية اني ابايعك ، واني لكاره لك ، فيقول : بايع ، فإن الله قد جعل في المكروه خيراً كثيراً ... » . وهكذا نرى أن انتقال الخلافة الى معاوية بن أبي سفيان قد غير نظام الشورى الذي كان أساس انتخاب الخلفاء الراشدين ، وأنه عطل ركناً مهماً من أركان الخلافة ، وهو الرضا ، وجعل القوة والنفوذ هما القاعدتان اللتان يُحتكم اليها في الوصول الى الحكم ، فأصبحت الخلافة في عهده ذات طابع سياسي اكثر منه ديني .

ويعلل بعض المؤرخين هذا التطور الذي كان لابد منه نتيجة لتغير الظروف التي احاطت بالدولة العربية الاسلامية ، لاسيما بعد أن اتسعت رقعتها ، وأوشك جيل الصحابة الذين

---

(٥٧) الطبري ، تاريخ ٢/ ٨١ ، ١٥٦ ، ويقارن : العلي ، التنظيمات ، ص ٤٤ هامش (١) .
(٥٨) يقارن : شعبان ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .
(٥٩) التاريخ : ٢/ ١٢٦ .

كانت لهم الأولوية في الذهاب.(٦٠) ولكننا مع ذلك يجب الأ نبالغ في أهمية الدور السياسي لنظام الحكم في الدولة الأموية، لأن معاوية بن أبي سفيان، وان حصل على الخلافة عن غير طريق الشورى، الا أنه كان يحرص دائماً على أن يبقى شيخاً للعرب، اكثر منه ملكاً، كما أن الصفة الدينية للدولة لم تنتفِ، بل ظلت باقية بحكم ان الدين الاسلامي كان دستورها، وهو دين الدولة الرسمي.(٦١)

لقد أكدت النظرية السياسية للأمويين أن الخليفة هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى ذلك فإن اطاعته واجبة، لأنها بمثابة اطاعة الله سبحانه وتعالى.(٦٢) ولكن معاوية بن أبي سفيان لم يكتف بهذا، بل اتجه الى جعل الخلافة وراثية، وحصرها في أهل بيته، فحاول الحصول على البيعة لابنه يزيد. وعلى الرغم من أن البعض يربط بين مبدأ نظام الوراثة الجديد الذي أقره معاوية، والتأثير الأجنبي، لاسيما الفارسي والبيزنطي،(٦٣) الا أن هذا النظام كان معروفاً، سواء في ممالك اليمن قبل الاسلام، أو في زعامة التجمعات القبلية في بقية انحاء الجزيرة العربية. وقد عُرف عن بعض بيوتات العرب أنها كانت تحتكر الزعامة، مثل آل ذي يزن في اليمن، أو آل الجلندي في عُمان، أو آل بدر في غطفان، أو آل دارم في تميم وغيرهم. كما أن مبايعة الكوفيين للحسن بن علي بعد استشهاد والده كانت برأي أحد المؤرخين المحدثين(٦٤)، تأكيداً لنظام الوراثة، الذي سار عليه معاوية، وبقية الخلفاء الأمويين، ومن بعدهم العباسيين. واتبعه العلويون أيضاً فيما بعد بالنسبة لكل الدول التي أقاموها، سواء في اليمن، أو مصر، أو المغرب العربي.

ويبدو ان رغبة معاوية في تلافي النزاعات على الخلافة في المستقبل هي التي دفعته للتفكير في أمر جعلها وراثية، تُنقل بعد وفاته الى ابنه يزيد. ولقد أشار ابن خلدون(٦٥)،

---

(٦٠) سالم، المرجع السابق: ٢/ ٣٢٩.

(٦١) يقارن: ماجد، المرجع السابق، ٢/ ٢٢.

(٦٢) فاروق عمر، **النظم الاسلامية – مقدمة تاريخية** (العين، دار الخليج للطباعة والصحافة والنشر، ١٩٨٣)، ص ٢٠.

(٦٣) ينظر: ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **رسالة في معاوية والأمويين**، نشر وتصحيح، عزت العطار (القاهرة، ١٩٤٦)، ص ١٦؛ سالم، المرجع السابق: ٢/ ٣٣١؛ توفيق سلطان اليوزبكي، **دراسات في النظم العربية الاسلامية** (ط٣، الموصل، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٨) ص ٥٧؛ نيكيتا ايليسف، **الشرق الاسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة منصور ابو الحسن، (بيروت، دار الكتاب الحديث، ١٩٨٦) ص ١٤٧.

(٦٤) عبد العزيز الدوري، **النظم الاسلامية** (بغداد، مطبعة نجيب، ١٩٥٠) ص ٣٧.

(٦٥) **المقدمة**، ص ٢٠٦.

الى هذه الناحية ، حينما علل ايثار معاوية لابنه يزيد بالبيعة خوفاً من افتراق الكلمة ، لعلمه ان بني أمية لن يرضوا بتسليم الأمر الى سواهم ، لذلك فان العهد الى يزيد في نظره ، «انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ في بني أمية ، إذ بنو أمية يومئذ لايرضون سواهم ، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم ، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها ...»[٦٦].

وقد استمر نظام ولاية العهد في الدولة الأموية . وتطور في خلافة الخلفاء الذين جاءوا بعد معاوية ، حيث أصبحت ولاية العهد متعددة ، اي يمكن العهد لأكثر من شخص واحد . وتمثل هذا الاتجاه بشكل واضح منذ خلافة مروان بن الحكم واعقابه ، الى نهاية الدولة . ولم يكن نظام تعدد ولاية العهد مجرد رغبة شخصية ، ولا كان خطأً كما يُتصور دائماً ، وانما كان لضرورة سياسية أيضاً اقتضتها مصلحة المروانيين ، وحرصهم على عدم خروج الخلافة من بينهم ، بعد أن اتعظوا بما حل بالدولة نتيجة عدم تفكير معاوية وابنه يزيد في هذا الأمر ، واحجامهم عن العهد لأكثر من واحد[٦٧] ، وهكذا شغر منصب الخليفة بعد وفاة معاوية الثاني ابن يزيد ، حيث لم يكن هناك مرشحاً آخر لولاية العهد. وقد عانى الأمويون كثيراً ، ومعهم أهل الشام في سبيل أن تبقى الخلافة في البيت الأموي ، ونجحوا في ذلك ، اثر اتفاق اجناد الشام على بيعة مروان بن الحكم[٦٨] .

ويضاف الى التجديد الذي أدخله معاوية بن أبي سفيان على الخلافة ، انه استحدث اموراً اخرى خاصة بها لم تكن موجودة في عهد الراشدين ، مثل اقامة الحرس الخاص بالخليفة ، وقيام الشرط على رأسه اذا سجد في المسجد ، كذلك اتخذ المقصورة ، وهي مكان مخصص للخليفة يصلي فيه لحمايته في اثناء تأدية الصلاة .[٦٩] وكانت هذه الامور غير معروفة عند العرب ، ولكن اقتضتها الضرورة ، لاسيما بعد تعرض معاوية لمحاولة اغتيال من قبل أحد المعارضين.

وتطلبت ظروف الدولة الجديدة ايضاً أن تنقل العاصمة الى الشام ، فأصبحت دمشق مركزاً للخلافة بعد المدينة المنورة التي كانت عاصمة الدولة في عهد الراشدين . وكان من

---

(٦٦) المصدر نفسه ، ص ٢١٠.

(٦٧) يقارن : الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٦٧.

(٦٨) ينظر: اليعقوبي ، تاريخ : ٢/ ٢٥٥ – ٢٥٦ ؛ الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٢١٥ .

(٦٩) الطبري ، تاريخ : / ٣٤٦٥.

الطبيعي أن يبقىٰ معاوية في دمشق التي قضى فيها حقبة طويلة ، تقرب من عشرين عاماً ، والياً على الشام ، اكتسب خلالها خبرات واسعة في شؤون الادارة والسياسة والحرب ، وتعود على أهلها وطبيعة الحياة فيها . يضاف الى ذلك ان بلاد الشام كانت مقراً للقبائل الشامية التي اتخذت من أجنادها موطناً لاستقرارها . وقد عُرفت هذه القبائل العربية بتأييدها التام لمعاوية وللدولة الأموية ، فليس من المستغرب أن يبقىٰ معاوية الى جانبها ويتمتع بحمايتها . وهكذا انحسر النفوذ السياسي عن الحجاز والمدينة المنورة ، وأصبحت دمشق مركز القرار في الدولة ، كما أصبح تغيير العاصمة منذ ذلك الحين يعني في التاريخ العربي الاسلامي نهاية حقبة ، وقيام اسرة حاكمة جديدة . وقد تكرر هذا الأمر عند انتهاء الدولة الأموية ، واعلان الدولة العباسية ، حيث نقلت العاصمة الى الكوفة اولاً ، ومن ثم الى هاشمية الانبار ، واستقرت اخيراً في مدينة بغداد.[٧٠]

إستعان الخلفاء الامويون ببعض ذوي الرأي لمشاورتهم في شؤون الحكم ، وكان هؤلاء الرجال يقومون بعمل الوزراء ، وان لم يلقبوا بلقب وزير ، لأن هذا المنصب لم يستكمل تطوره بعد في الدولة الأموية ، ومع ذلك ، فقد لقب زياد بن أبي سفيان بلقب وزير في عهد معاوية الأول ، وروح بن زنباع الجذامي في عهد عبد الملك بن مروان . كما اتخذ خلفاء بني امية الكتّاب ايضاً ، ومن ابرز من ذاع صيتهم عبد الحميد الكاتب ، كاتب الخليفة مروان بن محمد . وقد صاحب الخلافة الأموية أيضاً تطور جديد تمثل في ظهور منصب الحجابة ، حيث اتخذ معاوية بن ابي سفيان ، ومن جاء بعده من الخلفاء ، الحجّاب .[٧١]

---

(٧٠) يقارن : ماجد ، المرجع السابق : ٢/ ٢٤ .

(٧١) عن منصب الحجابة ينظر الباب الثاني " التنظيمات الادارية " فيما بعد .

الفصل الثاني

الحركات السياسية الدينية

قامت في العصر الأموي العديد من الحركات السياسية والدينية التي هددت الدولة وكلفتها الكثير من الجهد والمال في سبيل القضاء عليها والتخلص من خطرها، وسنحاول في هذا الفصل التعرض الى أهم هذه الحركات :

اولاً : - حركات الخوارج :

الخوارج هم الجماعات التي خرجت على الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد قبوله التحكيم في صفين، وقالوا «لاحكم الا الله»[1] ، اي أنهم كانوا يرغبون في استمرار المعركة لحسم النزاع مع معاوية، ولهذا فقد عُرفوا ايضاً «بالمحكمة». كذلك عُرفوا «بالحرورية» نسبة الى قرية حروراء القريبة من الكوفة التي انحازوا اليها. وكان معظم هذه الجماعات ينتمي الى قبائل بكر وتميم التي كانت تسكن بالأصل في اليمامة. وقد تطورت لديهم فكرة المعارضة هذه حتى وصلت الى حد الخروج على نظام الخلافة القائم. وكانوا في اول أمرهم حزباً سياسياً حديث النشأة لايعدو بحثه مسألة الخلافة ومايتصل بها، فاعترفوا بصحة خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان في سنيه الاولى، وعلي الى أن حكّم الحكمين. وقد جعلوا الخلافة جائزة في غير قريش لكل عربي حر. ولكن آراءهم تطورت بالنسبة لهذا الأمر، لاسيما بعد أن انضم الى حركتهم عناصر غير عربية، فجعلوا حق الامامة لكل مسلم يتصف بالصفات الحسنة، اي أنها لابد أن تُعهد الى أفضل الناس

(١) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٩٦، ٢٠٢.

بغض النظر عن أصله وجنسه، مادام قادراً عليها، وعارفاً بالكتاب والسنّة. كما اعتقدوا أيضاً بوجوب الخروج على الامام الجائر.(٢)

وقد بذل الخليفة علي بن أبي طالب جهده في سبيل اقناع هذه الجماعات التي كانت في صفه ثم انشقت عليه، وأخذ يفاوضهم، لكنهم أبوا الرجوع عن افكارهم، فحاربهم في معركة النهروان، وهزمهم هزيمة منكرة، وقتل زعيمهم عبد الله بن وهب الراسبي في سنة ٣٧ هـ/٦٥٨م، وذلك لاقتناعه انهم عملوا على تمزيق وحدة المسلمين، واعتدوا على كل من لايشاطرهم رأيهم.(٣) لكنهم مع ذلك استطاعوا أن يثأروا لهذه المعركة، حيث دبر أحدهم مؤامرة لاغتيال الخليفة علي بن أبي طالب، ونجح في تنفيذها، الأمر الذي أدى الى استشهاده سنة ٤٠هـ/٦٦٠م.(٤)

١- الخوارج في عهد معاوية بن ابي سفيان وابنه يزيد:

ناصب الخوارج العداء للدولة الأموية منذ بداية قيامها، حيث واجه معاوية بن ابي سفيان معارضة قوية منهم لاعتقادهم أنه لم ينل الخلافة عن اجماع من المسلمين، وانه عبث باموال الرعية، واتخذ القصور والحراس والحجّاب، وغيرها من مظاهر السلطة التي لم تكن معروفة عند العرب.(٥) وكان أول الخوارج الذين تعرضوا له يضمون مجموعة من خمسمئة رجل بقيادة فروة بن نوفل الأشجعي، هاجموا الكوفة حين كان معاوية مايزال فيها بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة. فأرسل اليهم قوة من جند الشام لم تستطع أن تصدهم عن المدينة، فاستعان حينئذٍ باهل الكوفة مهدداً اياهم، الاّ أمان لهم عنده مالم يكفوا عنه هؤلاء الخوارج، فحاربهم أهل الكوفة، وصدوهم عنها.(٦)

---

(٢) ابو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل (لايبزك، ١٩٢٣): ١/٨٦؛ عبد القادر بن طاهر بن محمد البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة، مطبعة المدني، د. ت)، ص٧٣.

(٣) الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٢١٠– ٢١١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢١٤.

(٥) ينظر: حسن، تاريخ الاسلام السياسي: ١/ ٣٧٩.

(٦) الطبري، تاريخ: ٢/ ١٠.

لكن هزيمة هذه المجموعة من الخوارج لم تثن بقيتهم عن عزمهم على القتال ، فظهرت جماعة اخرى بقيادة حيان بن ظبيان السلمي : وقد تذاكرت هذه الجماعة ما عانته في سبيل مبادئها ، وما فقدته من رجال في النهروان ، وكان حيان من الذين قاتلوا في النهروان ، وعفا عنه الخليفة علي بن ابي طالب . وقد هاجمت هذه الجماعة الكوفة التي كان على ولايتها المغيرة بن شعبة . وكان هذا رجلاً كثير الدهاء ، ويفضل استخدام سياسة اللين مع المعارضين ، فلم يتعرض لهم أول الأمر ، لكنه لما رأى خطورة أمرهم ، وما يمكن أن يسببوه من فرقة ومشاكل ، شدد في طلبهم ، وقبض على زعمائهم وأودعهم السجن . فلما رأى الخوارج ما حل بهؤلاء الزعماء غادروا الكوفة ، وأخذوا يتنقلون في المناطق الواقعة بين البصرة والكوفة ، ويثيرون القلاقل فيها .(٧)

ولما رأى معاوية بن أبي سفيان ازدياد خطر الخوارج في العراق ، ولي زياد بن ابي سفيان البصرة سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م ، الذي أظهر مقدرة فائقة في قتالهم ومطاردتهم ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، كما ملأ سجونه بهم ، وكان همه الاّ يدع احداً منهم ضمن نطاق ولايته ، ولاسيما منطقة البصرة . عند ذلك هرب الخوارج الى بلاد الاحواز التي تقع بين البصرة وفارس . وقد كثر عددهم فيها ، فكانوا يشنون منها هجمات متوالية على البصرة ، لاسيما بعد وفاة زياد وتولي ابنه عبيدالله ، الذي ظنوه سهلاً ليناً ، لكنه قابلهم بقسوة شديدة ، واشتد عسفه بهم ، فحبس من اشتبه بامره ، وتعقب الباقين ، حتى قضى على فريق كبير منهم سنة ٥٨ هـ / ٦٧٧ م . وكان من الذين قتلوا أحد كبار زعمائهم ، ويدعى عروة بن أُديَّة التميمي(٨) . وقد غضب اخوه أبي بلال مرداس بن أُديَّة لمقتله ، فخرج الى الأحواز في أربعين رجلاً من الخوارج ، حيث هزم جيشاً مؤلفاً من ألف رجل أرسله عبيدالله بن زياد(٩) لكنه قتل اخيراً مع جماعته نتيجة لتصميم ابن زياد على القضاء عليهم ، فأرسل اليه قوة اخرى من ثلاثة الآف رجل ، فقتلوه هو وكثير من انصاره سنة ٦١ هـ / ٦٨٠ م .(١٠)

وقد التف الخوارج بعد مقتل أبي بلال حول رئيس جديد ، هو نافع بن الازرق ، الذي أقام مع الخوارج بالأحواز ، ثم قرر التوجه الى مكة لمساعدة عبدالله بن الزبير في

---

(٧) المصدر نفسه: ٢/ ١٨ – ٢٠ ، ٢٨ فما بعدها.
(٨) المصدر نفسه : ٢/ ١٨٦ ؛ وينظر ماجد. المرجع السابق : ٢/ ١٣٨ .
(٩) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٢٦٩ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٨٧ .
(١٠) المصدر نفسه : ٢/ ٣٩١ .

حركته ضد الدولة الأموية ، حيث قاتل معه جند الشام بقيادة الحصين بن نمير. ولكن بعد انسحاب الشاميين من الحجاز نتيجة لوفاة الخليفة يزيد بن معاوية ، تبين للخوارج أن عبدالله بن الزبير يعمل لحسابه فقط ، وأنه ليس على رأيهم ، فانصرفوا عنه ، وعاد قسم منهم الى العراق ، على رأسهم نافع بن الأزرق . أما القسم الباقي بقيادة أبي فديك ، وأبي طالوت ، وعطية بن الأسود اليشكري ، فساروا الى اليمامة .(١١)

٢ - الخوارج بعد وفاة يزيد بن معاوية :

كان الاضطراب قد ساد في البصرة بعد وفاة يزيد الأول ابن معاوية ، كما ضعف نفوذ عبيدالله بن زياد فيها ، بعد أن رفض أهلها بيعته ، واضطروه الى مغادرة المدينة . وقد استغل ابن الأزرق وجماعته من الخوارج هذه الظروف ، فهجموا على سجن البصرة وأخرجوا جماعتهم ، ثم ابتدأوا حركة جديدة من التمرد سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م اتخذت من الأحواز مقراً لها . ولكن رحيل الخوارج الى الاحواز من جديد كان أيضاً بسبب انشقاقهم على أنفسهم ، حيث اعتبر ابن الأزرق كل من تخلف عن الجهاد معه من الخوارج كفرة ويحل قتالهم . وقد تخلف عنه عبدالله بن الصفار، وعبدالله بن أباض ، كما فارقه ايضاً نجدة ابن عامر، وسار الى اليمامة ، فأطاعه الخوارج الذين بها .(١٢)

وهكذا ظهرت فرق متعددة للخوارج نسبت اغلبها الى أسماء المنشقين على نافع بن الازرق ، وتفرقوا في اماكن مختلفة من الدولة العربية الاسلامية . وقد عُرفت الفرقة التي بقيت مع نافع باسم **الازارقة** ، وهي من اكثر الفرق الخارجية غلواً في مبادئ الخوارج ، حيث أنهم يرون قتل أطفال ونساء مخالفيهم ، ويكفّرون القعدة عن القتال . أما **الصفرية** ، وهم اتباع زياد بن الأصفر، فكانوا لايرون ذلك .(١٣) وسُمي أتباع أبي بيهس الهيصم بن جابر **بالبيهسية** ، ومن آرائهم أنه لايُسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله تعالى ومعرفة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وقد تفرقت هذه الفرقة الى فرق عديدة أيضا .(١٤)

---

(١١) ابن الأثير، الكامل: ٤/ ١٦٥ - ١٦٧ .
(١٢) المصدر نفسه: ٤/ ١٦٧ - ١٦٨ .
(١٣) الشهرستاني ، المصدر السابق: ١/ ١٠٢ ؛ البغدادي المصدر السابق. ص ٩٠ - ٩١ .
(١٤) الشهرستاني ، المصدر السابق: ١/ ٩٣- ٩٤ .

وعُرف أصحاب نجدة بن عامر الحنفي **بالنجدات** ، وأصحاب عبدالله بن يزيد الاباضي **بالأباضية** . وهؤلاء يختلفون عن بقية الفرق بانهم لم يتشددوا في الحكم على مخالفيهم .(١٥)

كانت فرقة الأزارقة من اكثر هذه الفرق عداءً للدولة الأموية ، وقد هاجم ابن الأزرق البصرة ، لاسيما بعد أن تسمى بأمير المؤمنين ، وانضم الى فرقته خوارج كثيرون من اليمامة وعُمان ، تمكنوا من هزيمة أهل البصرة في موقع يقال له (دولاب) بالاحواز كما هزموا أيضاً جيشاً آخر لأهل البصرة ، الأمر الذي أدخل الفزع الى قلوب أهلها ، فكاتبوا عبدالله بن الزبير وبايعوه ، وطلبوا اليه أن يرسل لهم عاملاً وقائداً لقتال الخوارج ، فارسل لهم عاملاً على المدينة ، وأوعز الى المهلب بن أبي صُفرة لقتال الخوارج وصدهم عن البصرة .(١٦)

ويظهر أن سبب اختيار المهلب بن أبي صُفرة يعود الى ماعُرف عنه من شجاعة فائقة في حروب الثغور ، ولأنه من سكنة البصرة نفسها ، ومن قبيلة الأزد ذات الوجود الكبير في المدينة . فاختار ثمانية الآف من جنده من هذه القبيلة ، واثني عشر الف رجل آخر من سائر القبائل الاخرى ، وسار بهم لحرب الخوارج ، حيث اصطدم بهم في معارك متعددة ، اهمها معركة سُلّي ، وهي موضع بالاحواز ، وتم في هذه الموقعة قتل زعيم الخوارج نافع بن الازرق .(١٧)

وكان العراق في هذه الحقبة قد وقع تحت سيطرة عبدالله بن الزبير ، الذي ناصب الأمويين العداء ، واعتقد بأحقيته في الخلافة ، فولى أخاه مصعباً على البصرة فدعم المهلب بن أبي صُفرة في حربه للخوارج . واستطاع المهلب من مركزه بالأحواز أن يدحرهم في مواقف عديدة . ويلاحقهم الى فارس وكرمان . ثم نُقل المهلب لتولي ولاية الموصل والجزيرة وأرمينية ، فاستغل الخوارج هذه الفرصة ، ونظموا صفوفهم من جديد بقيادة قطري بن الفجاءة ، حيث هددوا البصرة ، فلم ير مصعب بن الزبير بداً من ارجاع المهلب الى قتالهم ، فبعث اليه ، وهو على الموصل والجزيرة بأمره بقتال الخوارج والمسير اليهم ، فجاء المهلب حتى قدم البصرة ، وانتخب الناس للقتال معه ، ثم توجه الى الخوارج ،

---

(١٥) ينظر: ابن الأثير، **الكامل** : ٤/ ١٦٨ ؛ ماجد ، **المرجع السابق** : ٢/ ١٤٢- ١٤٣ .

(١٦) الدينوري ، **الاخبار الطوال** ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ ؛ وينظر: ابن الأثير، **الكامل** : ٤/ ١٩٤- ١٩٥ .

(١٧) الدينوري ، **الاخبار الطوال** ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ : وهناك روايات اخرى تشير الى أن الذي قتل في هذه المعركة هو القائد الخارجي عبيدالله بن الماحوز، ينظر: الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ٥٨٨ ؛ ابن الأثير، **الكامل** : ٤/ ١٩٩ .

فقاتلهم نحو ثمانية أشهر في سنة ٦٨ هـ / ٦٨٧ م[١٨]. وفي هذه الأثناء حدثت معركة مسكن بالقرب من دير الجاثليق بين مصعب بن الزبير وعبدالملك بن مروان، وانتهت بهزيمة مصعب، ودخول العراق في طاعة الخليفة عبدالملك.

٣- الخوارج في عهد عبدالملك بن مروان:

شهدت الحقبة التي تولى فيها عبدالملك بن مروان الخلافة الاموية (٦٥ – ٨٦ هـ / ٦٨٤ – ٧٠٥ م) أعنف حركات الخوارج في العصر الأموي، حيث تهددت الدولة من جهات متعددة. ففي اليمامة، كان نجدة بن عامر الحنفي، الذي شملت حركته حضرموت واجزاء من البحرين واليمن والطائف وعُمان. كما ظلت البصرة مهددة من قبل الخوارج الأزارقة، الذين سيطروا على الاحواز وفارس وأصفهان وكرمان. وفي منطقة الموصل والجزيرة نشطت فرقة الصفرية، كما لعبت فرقة الأباضية في البصرة دوراً مميزاً في تاريخ تلك الفترة، وان لم يشهروا السلاح بوجه الدولة.[١٩]

تزعم نجدة بن عامر في شرق الجزيرة العربية الجماعة التي فارقت زعيمه السابق نافع بن الازرق. وقد بايعته قبائل بني حنيفة باليمامة، ثم سار الى البحرين وعُمان، واستولى عليها، كما مد سيطرته الى حضرموت وصنعاء باليمن. وهكذا أصبح نفوذ نجدة بن عامر كبيراً في الجزيرة العربية. ولكن عبدالملك بن مروان كان مشغولاً في ذلك الحين بالمشاكل الكبيرة في بلاد الشام، ولهذا لم يكن في مقدوره التصدي لنجدة بن عامر ومن معه من الخوارج. فكتب اليه يقره على اليمامة، ولا يسأله عما ارتكب من أعمال شرط أن يبايعه بالخلافة. وكان عبدالملك يرمي الى تحقيق هدفين من هذه الخطوة، الأول هو كسب نجدة الى جانبه، أو على الاقل تحييده في الوقت الراهن، والثاني هو محاولة احداث خلاف بينه وبين اتباعه. وقد نجح عبدالملك في هدفه الثاني، حيث أخذ اتباع نجدة عليه قبول مداهنة عبدالملك، وفارقوه وانحازوا الى زعيم آخر يدعى ابا فديك عبدالله بن ثور، وتربصوا بنجدة

---

(١٨) الطبري، تاريخ: ٢/ ٧٦٥؛ ابن الاثير، الكامل: ٤/ ٢٨٦.

(١٩) ينظر: عبدالأمير عبد حسين دكسن، الخلافة الأموية ٦٥ – ٨٦ هـ / ٦٨٤ – ٧٠٥ م (ط ١، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٣)، ص ٢٧٧.

وقتلوه وهو يهم بالتوجه الى عبدالملك بن مروان سنة ٧٢ هـ / ٦٩١ م[٢٠] . وكان مقتل هذا الزعيم الخارجي سبباً في تفرق جماعة الخوارج النجدية ، فاستطاع عبدالملك بسهولة أن يقضي عليهم بعد أن أرسل اليهم جنداً من اهل الكوفة ، قتلوا أبا فديك في السنة التالية لمقتل نجدة ، وأرسلوا رأسه الى الخليفة ، فتفرق اتباعه ، وسُحقت فرقة النجدات بصورة تامة ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك.[٢١]

أما بالنسبة للعراق ، فقد إنشغل الولاة الأمويون ، الذين عينهم الخليفة عبدالملك بن مروان ، في مكافحة خطر الخوارج ، لكنهم لم يستطيعوا القضاء عليهم بسبب عدم كفاءة القادة الذين تولوا قتالهم . وقد حاول اخو الخليفة عبدالملك ، بشر بن مروان ، بعد تعيينه على البصرة أن يحد من خطر الخوارج ، فأرسل اليهم المهلب بن ابي صفرة على رأس جيش من أهل البصرة ، كما انجده بجيش آخر من أهل الكوفة .[٢٢] ولكن بشراً توفي قبل أن يشرع المهلب بحرب الخوارج ، الأمر الذي أدى الى هروب الكثير من جند المهلب والتحاقهم باسرهم في البصرة والكوفة . ولم يبق مع المهلب الا عدد ضئيل من الرجال ، فاضطر الى الكتابة الى الخليفة محذراً بقوله : «انه ليس عندي رجال اقاتل بهم ، فإما بعثت اليَّ بالرجال ، واما خليت بينهم وبين البصرة » .[٢٣]

وكانت هذه الظروف من العوامل التي أدت الى تعيين الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤ م ، الذي عمل على حل مشكلة الخوارج ، وهدد بالقتل كل من وجد متخلفاً عن جيش المهلب بن أبي صُفرة .[٢٤] وعندما نفذ الحجاج تهديده بقتل أحد المتخلفين سارع بقية الجند للالتحاق بالمهلب ، فتهيأت الفرصة لقتال الخوارج من جديد ، وبذل المهلب قصارى جهده في ذلك ، حتى استطاع أن يدفع خطرهم عن البصرة والأحواز وفارس ، وهزمهم هزيمة ساحقة ، لاسيما بعد أن انشقوا على أنفسهم

---

(٢٠) ينظر: الطبري تاريخ : ٢/ ٨٢٩ ؛ ابن الأثير، **الكامل** : ٤/ ٣٤٥ .

(٢١) الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ٨٥٢ - ٨٥٣ ؛ ابن الأثير، **الكامل** : ٤/ ٣٦٢ ؛ وينظر، ماجد ، **المرجع السابق** : ٢/ ١٥٤ ، دكسن ، **المرجع السابق** ، ص ٢٧٨ - ٢٨٤ .

(٢٢) الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ٨٥٥ فما بعدها .

(٢٣) ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق ، محمد محيي الدين عبدالحميد (ط ٥ ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٧) : ٣/ ١٣٣ .

(٢٤) احمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، **انساب الأشراف** (طبعة اهلورت Ahiwardt ، غريفزولد ، ١٨٨٣) : ١١/ ٢٧١ ؛ وينظر: عبدالواحد ذنون طه ، **العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي** الموصل ، منشورات مكتبة بسام ، ١٩٨٥) ص ٥٩ - ٦٤ ، ٦٧ - ٦٨ .

وتفرقوا ، الأمر الذي أدى الى ضعفهم وقتل زعمائهم من امثال قطري بن الفجاءة وعبد ربه الكبير.[25]

وعلى الرغم من ابعاد خطر الخوارج الأزارقة عن العراق ، والحد من نفوذهم في منطقة البصرة ، فإن خطر فرقة اخرى منهم تدعى الصفرية ، ظهر من جديد في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان . وكانت منطقة الموصل والجزيرة الفراتية مسرحاً لنشاطهم . وقد برز من زعمائهم كل من صالح بن مسرح التميمي ، وشبيب بن يزيد الشيباني . وتنتمي جذور هذه الحركة الى الخوارج الأوائل الذين حاربهم الخليفة علي بن ابي طالب في معركة النهروان ، حيث فر بعضهم الى الشمال ، ووصلوا الموصل واطرافها واستقروا فيها ، لكن مع ذلك لم تنقطع صلاتهم بالكوفة . ويُعد صالح بن مسرح خير مثال على هؤلاء ، حيث كان يأتي الى الكوفة فيقيم بها لفترات متقطعة للالتقاء بأصحابه ، والتذاكر معهم في أمر الخروج على الدولة[26]

ويبدو العامل السياسي – الديني واضحاً في هذه الحركة من ملاحظة كلام صالح بن مسرح مع أصحابه ، وهو يحثهم للخروج قائلاً : « ...ماأدري ماتنتظرون وحتى متى وانتم مقيمون ، هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا ، ولا تزداد هذه الولاة على الناس الا غلواً وعتواً وتباعداً عن الحق وجرأة على الرب ، فاستعدوا وابعثوا الى اخوانكم الذين يريدون من انكار الباطل والدعاء الى الحق مثل الذي تريدون.... »[27] . وعندما اتصل شبيب بن يزيد بصالح بن مسرح اثر دعوة الأخير له للقيام على الدولة ، قال له شبيب يستحثه على ذلك : « اخرج بنا رحمك الله فوالله ماتزداد السُّنة الا دروساً ولا يزداد المجرمون الا طغياناً »[28] . وقد خرج الاثنان فعلاً في بلدة دارا التي تقع لحف جبل بين نصيبين وماردين ، وذلك في صفر سنة ٧٦ هـ/ ٦٩٥ م ، وابتدأوا اعمالهم الحربية بالاستيلاء على خيل لمحمد بن مروان والي الجزيرة ، ساعدتهم على تكوين قوة من الفرسان.[29]

---

(٢٥) الدينوري ، **الاخبار الطوال** ، ص ٢٧٩ – ٢٨٠ .

(٢٦) الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ٨٨١ .

(٢٧) **المصدر نفسه** : ٢/ ٨٨٤ .

(٢٨) البلاذري ، **انساب الاشراف** ، نسخة مصورة بالفوتستات في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة بغداد تحت رقم (١٦٣٤٣ – ١٦٤٤) عن النسخة الأصلية في معهد المخطوطات العربية في الرباط رقم (٦٨) : ج ٦ ، الورقة ٣٩ ب ؛ الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ٨٨٥ .

(٢٩) **المصدر نفسه** : ٢/ ٨٨٥ ، ٨٨٧ .

ونتيجة لمقاومة محمد بن مروان لهذه الحركة ، اضطر صالح بن مسرح وشبيب بن يزيد الى مغادرة أرض الجزيرة والتوجه الى منطقة الكوفة ، حيث قوبلوا بقوات الحجاج بن يوسف والي العراق ، الذي تمكن من هزيمتهم وقتل أميرهم صالح بن مسرح[٣٠] . وقد تراجع من بقي من اتباع صالح مع شبيب بن يزيد الذي تولى قيادتهم ، بعيداً عن الكوفة الى أرض الموصل ، ثم ابتدأ من هناك بشن سلسلة من الحملات على قوات الحجاج بن يوسف تكللت معظمها بالنجاح . وازاء هذا الخطر الداهم ، اضطر والي العراق ان يستعين بجند الشام ، فطلب من الخليفة أن يمده بقوات كبيرة منهم ، فأرسل له ستة الآف مقاتل بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي ، والفين أخرين بقيادة حبيب بن عبدالرحمن الحكمي[٣١] .

وكان شبيب واتباعه في ذلك الوقت يتهيأون للهجوم على الكوفة ولما لم يفلح أهلها ومواليهم في صدهم ، عهد الحجاج الى جند الشام الذين وصلوا اليه في تلك الاثناء بالخروج لمحاربتهم ، فالتقوا بهم في اول الأمر امام الكوفة ، واحتدم القتال بين الجانبين ، ولكن جند الشام استطاعوا ان يحملوا شبيباً على الانسحاب الى منطقة الاحواز ، ثم لحقوا به ، فاضطر شبيب الى عبور جسر على نهر دُجيل ، واشتبك مع من تعقبه من القوات الشامية في عدة معارك ، وعندما حاول العودة من حيث أتى ، غرق في اثناء عبوره ذلك النهر سنة ٧٧هـ /٦٩٧م[٣٢] .

وتُعد نهاية شبيب بن يزيد الشيباني نقطة تحول في حركة الخوارج الصفرية . فعلى الرغم من استمرارهم في تحدي الدولة ، لاسيما في منطقة الأحواز ، لكنهم ، وكما يرى احد الباحثين المحدثين[٣٣] ، فقدوا حماسهم السابق . وقد استمر سفيان بن الأبرد الكلبي في تتبعهم والاشتباك معهم ، فاضطروا أخيراً الى طلب الامان ، فمنحهم اياه .
وهكذا ضعف شأن هذه الجماعة ، بعد أن دوخت القوات الأموية في العراق لحقبة طويلة من الزمن . ويبدو أن خبرة شبيب واتباعه بحرب العصابات ، والمساعدات التي تلقاها من السكان المحليين ، كانت السبب في استمرار حركته وانتصارها على الجيوش العديدة التي أرسلت لقمعها ، على الرغم من قلة عدد أنصار شبيب ، حيث أنهم لم يزيدوا عن ألف رجل . يضاف الى ذلك ان سياسة الحجاج بن يوسف المتسرعة ، والهادفة للحصول على

(٣٠) المصدر نفسه : ٢/٨٨٩-٨٩٢.
(٣١) المصدر نفسه : ٢/٩٤٣.
(٣٢) المصدر نفسه : ٢/ ٩٧٢- ٩٧٦
(٣٣) دكسن ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

نصر سريع ، دفعته الى ارسال الجيوش المتتابعة ، دون ان يدرك الحاجة الى تبني خطة سوقية جديدة لمقابلة تنظيم حرب العصابات التي قادها شبيب بنجاح منقطع النظير، الأمر الذي أدى الى تأخر القضاء على حركته [٣٤].

٤ - الخوارج في عهد عمر بن عبدالعزيز:

كان من نتيجة السياسة الشديدة التي اتبعتها الدولة الأموية مع الخوارج في عهد عبدالملك بن مروان ، أن هدأت ثورة هؤلاء الى حين. فلم تشهد الدولة في عهد الوليد بن عبدالملك واخيه سليمان حركات خارجية ، ولكن المصادر تشير الى نشاط ملحوظ لهذه الحركات زمن الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١ هـ /٧١٧-٧٢٠ م) ، حيث خرج في العراق رجل يلقب بشوذب ، واسمه بسطام من بني يشكر. وكان اتباعه يقدرون بنحو ثمانين فارساً غالبيتهم من ربيعة . فكتب عمر بن عبدالعزيز الى عامله بالعراق الاّ يقدم على محاربتهم الا أن يسفكوا الدماء او يفسدوا في الأرض . وأرسل الى شوذب كتاباً قال فيه : «أنه بلغني انك خرجت غضباً لله ولنبيه ولستَ بأولى بذلك مني فهلم اناظرك فان كان الحق بايدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وان كان في يدك نظرنا في أمرنا . فلم يحرك بسطام شيئاً وكتب الى عمر قد أنصفت وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك» [٣٥].

ويبدو ان الخليفة عمر بن عبد العزيز بما عُرفَ عنه من ميل الى المسالمة وحقن دماء المسلمين ، رأى أن يسلك مع الخوارج نهجاً جديداً يقوم على سياسة اللين والتفاهم، فرحب بالتناظر معهم والاستماع الى حججهم لتتاح له فرصة اقناعهم. وفعلا اثمرت سياسته مع الرسولين اللذين أرسلها بسطام، فلم يزل يناظرهما ويقارعهما الحجة بالحجة حتى اقتنعا بان عمراً على صواب، وقال أحدهما لعمر : «مارأيت حجة أبين ولاأقرب مأخذاً من حجتك ، أما أنا فأشهد أنك على الحق، واني بريءٌ ممن خالفك». وقال الثاني : «ماأحسن ماقلت وأحسن ماوصفت ولكن اكره أن افتات على المسلمين بأمر لاأدري ماحجتهم فيه

(٣٤) يقارن : المرجع نفسه ، ص ٢٩٨ ؛ طه ، العراق في عهد الحجاج ، ٧٦ ، ٧٨ ، ١٠٠ .

(٣٥) الطبري ، تاريخ : ١٣٤٨/٢-١٣٤٩ ، ابن الأثير ، الكامل : ٤٥/٢ .

حتى ارجع اليهم فلعل عندهم حجة لاأعرفها. فأقام الأول في دمشق ولحق الثاني بقومه فقتل معهم»[٣٦].

ولكن أوضاع الخوارج رجعت الى ماكانت عليه سابقاً نتيجة لوفاة الخليفة عمر بن عبدالعزيز المفاجأة، فعادوا الى مناوءة الدولة الاموية والقيام عليها. وقد تم في عهد خَلَف عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ / ٧٢٠-٧٢٤م) القضاء على حركة شوذب، بعد مصادمات كثيرة مع جند الشام، كان من نتيجتها ابادة قواته ومقتله[٣٧].

٥- الخوارج في أواخر عهد الدولة الأموية:

تركزت معظم حركات الخوارج في أواخر عهد الدولة الاموية في منطقة الموصل والجزيرة. وقد تميزت الجزيرة الفراتية بالذات بهذه الحركات حتى أصبحت صفة ملازمة لها[٣٨]. وتشير المصادر الى اماكن متعددة من هذه المنطقة مقرونة بمصطلحي «الشراة» أو «الحرورية»، وهذه الاسماء التي تطلق عادة على المنتمين لهذه الحركات. وتشكل ديار ربيعة عامة أهم هذه المناطق، لاسيما منطقة سنجار، وتل أعفر، والسِّن، والبوازيج، والحديثة[٣٩].

---

(٣٦) ابو محمد عبدالله بن عبدالحكم، سيرة عمر بن عبدالعزيز، تحقيق، احمد عبيد (ط٥، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٧)، ص.١٣، وينظر: المسعودي، مروج الذهب:٢٠٢/٣.

(٣٧) الطبري، تاريخ: ١٣٧٥/٢-١٣٧٨.

(٣٨) ينظر: ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق، عبدالسلام محمد هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٦٤-١٩٦٥): ١٦/١؛ ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٢): ٢٤٨/٦؛ مجهول، أخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده، تحقيق، عبدالعزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧١)، ص٢٠٦

(٣٩) الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق، محمد بن علي الأكوع (بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩)، ص ٢٤٦-٢٤٧؛ المسعودي، مروج الذهب: ١٠٨/٣.

كانت منطقة الجزيرة مناسبة جداً لقيام الحركات المعارضة للحكم الأموي، بسبب موقعها الجغرافي، وضمها لشعوب وعناصر مختلفة من العرب والاكراد والأرمن والروم وغيرهم. فكان من الطبيعي أن يُخلق فيها جو مضطرب النزعات والعقائد والاتجاهات التي تتقبل كل فكرة تدعو الى التمرد والعصيان. يضاف الى ذلك ان القبائل العربية في هذه المنطقة كانت سرعان ماتنظم لأية حركة معارضة للسلطة، لأن نجاح الحركة يُعد كسباً لهذه القبائل، لما يعقب ذلك من الحصول على المكاسب والمغانم. أما في حالة فشل الحركة، فكان من السهل عليهم الهرب الى بادية الشام والعراق والتخلص من الآثار السلبية التي تعقب ذلك الفشل[٤٠]. وليس المقصود بهذا أن جميع حركات الخوارج التي قامت في منطقة الموصل والجزيرة كانت دون أهداف سياسية أو دينية واضحة، أو أن غايتها كانت السلب والنهب والحصول على المغانم حسب، بل أن بعضها كان يتطور مع الزمن ليضم عناصر أخرى إستغلت بعض هذه الحركات لصالحها الخاص، كما في حركة الضحاك بن قيس الشيباني التي سنتحدث عنها لاحقاً. كما تجدر الاشارة الى طغيان العامل الديني على حركة صالح بن مسرح التميمي، وشبيب بن يزيد الشيباني التي أسلفنا الكلام عنها.

ومن الحركات الاولى التي قامت في هذه المنطقة في عهد الخليفة هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م)، حركة بهلول بن بشر الشيباني المعروف بـ (كثارة)، الذي خرج في احدى قرى الموصل، والتف حوله نحو أربعين رجلاً، انكروا أعمال والي العراق خالد بن عبدالله القسري التعسفية، وابتعاده عند الدين. ولم يتمكن هذا الوالي من القضاء عليهم، لاسيما بعد أن انضم اليهم بعض أهالي الموصل. فاضطر الخليفة هشام بعد أن استنجد به والي العراق، وعامل الموصل، أن يرسل قوات شامية ساهمت مع قوات الجزيرة والعراق في دحر بهلول بن بشر وقتله سنة ١١٩هـ/٧٣٧م[٤١].

وتفاقم خطر الخوارج بعد انقسام البيت الأموي اثر مقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبدالملك، فاضطربت امور الموصل والجزيرة والشام والعراق. وقد استغل احد قادة الخوارج، ويدعى الضحاك بن قيس الشيباني، هذه الظروف وانشغال مروان بن محمد

---

(٤٠) يقارن: فاروق عمر، **العباسيون الأوائل** (بيروت، دار الارشاد، ١٩٧٠): ١/٢٥٠-٢٥١؛ محمد جاسم حمادي، **الجزيرة الفراتية والموصل- دراسة في التاريخ السياسي والاداري**. (بغداد، دار الرسالة للطباعة، ١٩٧٧)، ص ٤٥٨.

(٤١) الطبري، تاريخ: ٢/١٦٢٣-١٦٢٧.

بالصراع على السلطة في الشام، فابتدأ حركة خارجية معارضة للدولة في شهرزور، حيث اجتمع معه نحو ألف رجل. ثم توجه الى ارض الموصل فاتبعه منها ومن أهل الجزيرة نحو ثلاثة الآف شخص، وهكذا أصبحت قوته في حدود أربعة الآف مقاتل، وهو عدد لم يجتمع مثله لخارجي قط[٤٢]. لكن الضحاك خشي انه سيكون فريسة سهلة لمروان بن محمد في الجزيرة، لهذا قرر التوجه الى مهاجمة العراق واقتحام الكوفة.

كان الصراع على أشده في العراق بين عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز الوالي السابق، وبين النضر بن سعيد الحرشي الذي عُين بدله من قبل مروان بن محمد بعد توليه الخلافة عام ١٢٧هـ/٧٤٤م. وقد استغل الضحاك هذا الخلاف، فسيطر على الكوفة، وجبى السواد، اي منطقة جنوب العراق.[٤٣] وبعد انضمام عبدالله بن عمر اليه أصبح العراق كله في قبضته، فأقر ابن عمر والياً على العراق، كما استولى على بيت المال، فأصبح لديه مايكفي لتمويل جيشه الذي تضخم الى حد كبير، حتى أصبح يقارب مئة وعشرين الف مقاتل[٤٤]. وبهذه الميزة الكبيرة والتفوق الواضح، أصبح بمقدور الضحاك أن يتقدم الى الشمال مرة اخرى دون أن يخشى قوة الخليفة مروان بن محمد[٤٥]. وقد سار الضحاك الى الموصل بعد أن تركها لمدة عشرين شهراً، واستطاع أن يتغلب على عاملها القطران بن أكمه الشيباني، الذي قتل هو وجماعة من قومه في اثناء الدفاع عن المدينة[٤٦].

إشتد قلق الخليفة مروان الثاني لسماعه بأنباء انتصارات الخوارج، فطلب من ابنه عبدالله التوجه الى نصيبين والمرابطة فيها لمنع الضحاك عن توسط الجزيرة، ثم لحق مروان بابنه عبدالله، والتقى مع الخوارج في نواحي كفر توثا من اعمال ماردين بأرض الجزيرة، حيث دارت معركة عنيفة قتل فيها الضحاك سنة ١٢٨هـ/٧٤٥[٤٧] ولكن هذه المعركة لم

---

(٤٢) المصدر نفسه: ١٩٠٠/٢.

(٤٣) المصدر نفسه: ١٨٩٩/٢

(٤٤) المصدر نفسه: ١٩٣٩/٢؛ وينظر: ابو زكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم الأزدي، **تاريخ الموصل**، تحقيق، علي حبيبة (القاهرة، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، ١٩٦٧): ٦٩/٢.

(٤٥) يقارن: فاروق عمر، **الخليفة المقاتل مروان بن محمد** (بغداد، دار واسط، ١٩٨٤)، ص٦٩.

(٤٦) ينظر: ابن خياط، **تاريخ**: ٣٩٨/٢-٣٩٩؛ الازدي، **تاريخ الموصل**: ٦٩/٢؛ الطبري، **تاريخ**: ١٩٣٨/٢-١٩٣٩.

(٤٧) المصدر نفسه: ١٩٤٠/٢؛ الأزدي، **المصدر السابق**: ٧١/٢.

نفض على حركة الخوارج، فقد قام زعماء آخرون بأمرهم، من أشهرهم شيبان بن عبدالعزيز اليشكري، الذي التجأ الى مدينة الموصل، وعسكر في الجانب الشرقي منها. أما الخليفة مروان بن محمد، فقد لحقهم وعسكر قبالتهم في هذا الجانب ايضاً، وأمضى عدة أشهر في محاربتهم دون أن يحرز نصراً حاسماً عليهم، لأنهم كانوا يتلقون دعماً مستمراً من أهل الموصل. لكنه استطاع فيما بعد وبمساعدة الجيش الذي ارسله اليه قائده يزيد بن عمر ابن هبيرة، الذي كان قد انتزع الكوفة والعراق من أيدي الخوارج، أن يحمل شيبان وجماعته على التخلي عن الموصل، والارتحال الى شهرزور، ومن ثم الى حلوان، والاحواز، وفارس، وعُمان، حيث قُتل شيبان هناك(٤٨).

كان لجهود الخليفة مروان الثاني أثرها الكبير في اضعاف شأن الخوارج في بلاد الجزيرة والعراق، فقد حاربهم ثلاث سنوات زال على أثرها نفوذهم من تلك البلاد. لكن حركة الخوارج لم تخمد في مناطق اخرى من الدولة العربية الاسلامية، حيث برز زعماء آخرون قادوا حركات عنيفة، لاسيما في منطقة الجنوب الغربي للجزيرة العربية. ويأتي في مقدمة هؤلاء طالب الحق عبدالله بن يحيى الكندي، الذي ثار بحضرموت سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٦م على الحكم الأموي. وكان هذا الرجل من الخوارج الاباضية، وقد دفعه للخروج، حسب قوله: الجور الظاهر، والعسف الشديد، وسيرة الولاة القبيحة في الناس. ويبدو أنه كان على اتصال وثيق بمن يشاركه الرأي في شرق الجزيرة العربية، لاسيما في عُمان والبصرة، فكتب الى أصحابه هناك يشاورهم في الخروج، فشجعوه على ذلك، والتحق به أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي، مع رجال آخرين من الأباضية، فدعا أصحابه وبايعوه، ولقبوه بـ «طالب الحق»، وقصدوا دار الامارة في حضرموت وسيطروا عليها(٤٩).

ولما وجد طالب الحق أنه قادر على مجابهة السلطة الأموية، توجه نحو صنعاء، وسيطر عليها. ثم أرسل في موسم الحج لسنة ١٢٩هـ/٧٤٦م ابا حمزة المختار بن عوف مع اثنين من كبار الخوارج على رأس قوة مختارة وأمرهم بالسيطرة على مكة، ومن ثم التوجه الى الشام.

---

(٤٨) الطبري، تاريخ: ٢/١٩٤٥-١٩٤٩؛ وينظر: ابن خياط، تاريخ: ٢/٤٠١؛ الأزدي، المصدر السابق: ٢/ ٧٤-٧٦؛ ابن الأثير، الكامل: ٥/٣٥٤-٣٥٥.

(٤٩) ابو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الاغاني (بيروت، نشر صلاح الدين يوسف الخليل، دار الفكر للجميع عن طبعة بولاق الأصلية): ٢٠/٩٧؛ عبدالحميد بن هبة الله المعروف بابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة (ط١، القاهرة، دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٩): ٥/١٠٦-١٠٧.

وقد اضطر والي مكة والمدينة عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك أن يطلب منهم الهدنة حتى ينتهي موسم الحج، ثم أخلى لهم مدينة مكة فدخلوها بغير قتال (٥٠). ثم سار ابو حمزة الى المدينة المنورة وسيطر عليها في أوائل سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م. ولكنه لم يلبث فيها سوى أربعة أشهر، قرر بعدها التوجه الى الشام حتى وصل الى وادي القرى، وهو بين تيماء وخيبر (٥١).

اهتمت الخلافة الأموية كثيراً بتطورات هذه الاحداث في جنوب غرب الجزيرة العربية وامتدادها الى الحجاز، لاسيما وأن الحركة الخارجية الجديدة لم تكتفي بما حققته من انتصارات في اليمن، بل حاولت التوسع والوصول الى الحجاز، ومن ثم تهديد مقر الخلافة الأموية في الشام. لذلك أسرع الخليفة مروان الثاني بارسال قوة من الجند الشاميين المدربين والمجهزين تجهيزاً ممتازاً، مؤلفة من أربعة الآف مقاتل. وقد استطاعت هذه القوة التي كانت بقيادة عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي أن تتصدى للخوارج المتوجهين الى الشام وتفرق جمعهم. ثم تتبعت بقاياهم الى مكة، حيث تجمعوا مع أبي حمزة المختار، وقضت عليهم بالأبطح بالقرب من منى، وقتل قائدهم أبو حمزة (٥٢).

ثم قرر القائد ابن عطية التوجه الى اليمن تنفيذاً لتوجيهات الخليفة مروان بن محمد. وفي الطريق التقى بقوات طالب الحق عبدالله بن يحيى الكندي الذي خرج لملاقاته. ووقعت معركة عنيفة بين قوات الطرفين انتهت بمقتل طالب الحق، ودخول ابن عطية الى صنعاء (٥٣). وقد انشغل هذا القائد بالقضاء على ذيول حركة طالب الحق، حيث قام بعض أصحاب الأخير في مناطق مختلفة من اليمن، لكن القوات الشامية تمكنت من اخمادها جميعاً. ومع ذلك، فان كل اجراءات القمع التي نفذها ابن عطية في اليمن لم تستطع أن تنتزع المذهب الأباضي، لاسيما من منطقة حضرموت، فقد أصبحت هذه

---

(٥٠) ابن خياط، تاريخ ٤٠٧/٢؛ الأزدي، المصدر السابق: ١٠٢/٢-١٠٣؛ الطبري، تاريخ: ١٩٨١/٢-١٩٨٣.

(٥١) المصدر نفسه: ٢٠١٢/٢-٢٠١٤.

(٥٢) ابن خياط، تاريخ: ٤١٥/٢؛ الأزدي، المصدر السابق: ١١٠/٢-١١٢؛ الطبري، تاريخ: ٢٠١٢/٢-٢٠١٤؛ الاصفهاني، الاغاني: ١٠٨/٢٠-١٠٩.

(٥٣) ابن خياط، تاريخ: ٤١٦/٢؛ الأزدي، المصدر السابق: ١١٣/٢-١١٤؛ الطبري، تاريخ: ٢٠١٤/٢؛ المسعودي مروج الذهب: ٢٥٧/٣-٢٥٨.

البلاد أحد مراكز هذا المذهب، حيث يشير المؤرخ والجغرافي العربي المسعودي الى وجود الكثير من الأباضية في حضرموت في عصره[٥٤].

ثانياً: المعارضة العلوية:

بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، خمدت المعارضة العلوية الى حد ما فيما تبقى من خلافة معاوية. وقد استمر الحسين بن علي في بيعته لمعاوية بعد وفاة أخيه الحسن. ولم يعكر فترة الهدوء هذه سوى معارضة بعض الشخصيات التي كانت في السابق مقربة من الامام علي (رض) في الكوفة، مثل حجر بن عدي الكندي، الذي تزعم أنصار العلويين المستائين من تصرفات الولاة الأمويين، وسوء ذكرهم لسيرة الامام علي بن أبي طالب. فكان حجر يقاطع الوالي المغيرة بن شعبة ويقف بوجهه، معلناً معارضته لهذه السياسة بالقول: «...ان من تذمون وتعيّرون لأحق بالفضل وان من تزكون وتطرون أولى بالذم...». وكان المغيرة يحذره قائلاً: «ياحجر ويحك اتق السلطان اتق غضبه وسطوته فإن غضبة السلطان احياناً مما يهلك امثالك كثيراً»[٥٥]. لكن المغيرة كان يكف عنه ويصفح، بل ويرسل اليه الاموال. وقد تعرض المغيرة لانتقادات قومه بسبب هذه السياسة اللينة مع هؤلاء المعارضين، لكنه كان يبرر ذلك بدهاء، وأنه بعمله هذا انما يقتل حجراً وجماعته، لانهم سيعتادون على مثل هذا الموقف بعد المغيرة، ولايمكن للوالي الجديد تحمل ذلك. وقد شرح لهم سياسته ازاء هذا الأمر والتي تتلخص بقوله: «لاأحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى... ولكني قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بيني وبينهم الموت وسيذكرونني لو قد جربوا العمال بعدي»[٥٦].

وبالفعل صح ماتوقعه المغيرة بن شعبة، فإن الوالي الجديد زياد بن أبي سفيان، لم يتهاون مع حجر بن عدي وجماعته، وجاء مسرعاً من البصرة الى الكوفة بعد أن بلغه موقف هؤلاء من نائبه على الكوفة عمرو بن الحريث، وانهم يجتمعون ويتآمرون على الدولة،

---

(٥٤) المصدر نفسه: ٢٥٨/٣

(٥٥) الطبري، تاريخ: ١١٣/٢.

(٥٦) المصدر نفسه: ١١٤/٢

ويحرضون الناس للقيام عليها. فألقى عليهم القبض، وارسل حجرا مع بعض أصحابه الى دمشق، حيث قتلهم معاوية هناك.(٥٧) وقد ضعفت على أثر ذلك المعارضة في الكوفة، لكن بعض اشراف هذه المدينة استغلو فرصة مقتل حجر بن عدي، ووفدوا على المدينة المنورة لتحريض الحسين بن علي. وقد علم معاوية بن أبي سفيان بهذه التحركات عن طريق عامله مروان بن الحكم، فكتب الى الحسين يذكره بعهده وبيعته، ويحذره من الانسياق وراء الذين يحبون الفتنة، فرد عليه الحسين: «ما أريد حربك ولا الخلاف عليك»(٥٨).

١ – ثورة الحسين بن علي:

وبالفعل حافظ الحسين على هدوئه طيلة ايام معاوية، لكنه بعد وفاة الأخير، وتولي ابنه يزيد الأول، رفض بيعته، كما أنكر تعيين يزيد ولياً للعهد بعد معاوية. وكان يرى انه أحق بالخلافة من يزيد، لتجربته وكبر سنه وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن المرجح أن مطالبة الحسينَ بالخلافة يعود ايضا والى حد كبير الى تحريض أهل الكوفة له، حيث بعثوا اليه بالرسل والكتب قائلين: «أما بعد فحيَّ هلا، فإن الناس ينتظرونك لاامام لهم غيرك، فالعجل ثم العجل والسلام»(٥٩). وكتب له آخرون: «إنا قد حبسنا انفسنا عليك ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي فاقدم علينا»(٦٠) وقد أراد الحسين أن يتأكد مما كتبه اهل الكوفة، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب. فلما وصل الكوفة اجتمعوا اليه وبايعوه وعاقدوه واعطوه المواثيق على نصرة الحسين والوفاء له.

كان والي الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري رجلاً يحب العافية ويؤثر السلم، فلم يحاول أن يتعرض لمسلم بن عقيل بسوء، أو يضيّق على أنصار العلويين، بل نصحهم بعدم اثارة الفتنة، والتقيد ببيعة يزيد. ولكن أحد مؤيدي الامويين كتب الى يزيد بن معاوية بما يحصل في الكوفة قائلاً: «ان كان لك بالكوفة حاجة فابعث اليها رجلاً قوياً ينفذ امرك

---

(٥٧) المصدر نفسه: ١١٦/٢

(٥٨) الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٢٢٥.

(٥٩) اليعقوبي، تاريخ: ٢٤٢/٢، وينظر ايضاً: الامامة والسياسة: ٤/٢.

(٦٠) الطبري، تاريخ: ٢٢٨/٢.

ويعمل مثل عملك في عدوك فإن النعمان رجل ضعيف أو هو يتضعف»[٦١] . لهذا بادر يزيد بعزل النعمان بن بشير ، وولى مكانه عبيد الله بن زياد أمير البصرة ، فأصبح أميراً على المصرين البصرة والكوفة. ثم اقبل عبيد الله مسرعاً الى الكوفة للقضاء على الحركة التي أثارها مجيئ مسلم بن عقيل، فتعقب الأخير، وبالغ في طلبه ، وعلم انه مختبيء في دار هانيء بن عروة المرادي، فاستدعى هانيء، وأرغمه على الاعتراف بالتجاء مسلم بن عقيل اليه، وأرسل في طلبه، وقتل الاثنين معاً[٦٢].

وكان مسلم بن عقيل قد كتب الى الحسين بمبايعة اهل الكوفة له، وأنه قد حصل على تأييد ثمانية عشر الف رجل كلهم بانتظاره. فعزم الحسين على الخروج من الحجاز، ولم يأخذ بنصيحة المخلصين من أقربائه، لاسيما عبدالله بن عباس، الذي حذره من التوجه الى الكوفة، وعرض عليه البقاء في الحجاز أو الذهاب الى اليمن.[٦٣] لكن الحسين أبى الا الخروج ، وهو يأمل أن يستقبله اهل الكوفة استقبالاً حافلاً، ولم يكن يعلم ماحل بمسلم ابن عقيل ، وتحول موقف اهل الكوفة لصالح عبيد الله بن زياد. وحينما اقترب من العراق لقيه في الطريق الشاعر الفرزدق بن غالب، فسأله عن أحوال الناس بالعراق، فأعلمه أنه خلّفَ الناس هناك وقلوبهم معه، لكن سيوفهم مع بني أمية[٦٤] وقد أدرك الحسين مغزى كلام الفرزدق، وقدّر نتائجه، لاسيما بعد أن عرف من مسافرين آخرين بمقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة. وأراد أن يرجع لولا أن أخوة مسلم بن عقيل أصروا على المضي ليأخذو بثأر أخيهم[٦٥].

وقد تصدت لمنع الحسين من الوصول الى الكوفة القوات التي أرسلها الوالي عبيد الله ابن زياد وكانت بقيادة الحر بن يزيد التميمي. ولم يشأ هذا القائد أن يقاتل الحسين، فأرسل عبيد الله بن زياد جيشاً آخر بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص، يتألف من أربعة الآف رجل. وقد رفض ابن زياد العرض الذي قدمه الحسين، والذي يتضمن اما رجوعه

---

(٦١) ابن الاثير ، **الكامل**: ٢٢/٤

(٦٢) الطبري، **تاريخ**: ٢٦٨/٢-٢٦٩

(٦٣) **المصدر نفسه**: ٢٧٣/٢-٢٧٥ ؛ الدينوري، **الاخبار الطوال**، ص٢٤٣-٢٤٤.

(٦٤) الطبري، **تاريخ**: ٢٧٧/٢

(٦٥) الدينوري ، **الاخبار الطوال**، ص ٢٤٧

الى الحجاز، أو توجهه الى أي ثغر من ثغور المسلمين، أو مقابلة يزيد بن معاوية ليرى رأيه فيه. وأصر ابن زياد إلا أن ينزل الحسين على حكمه. وحينما رفض الاخير ذلك، أصبحت الحرب واقعة لامحالة بين الطرفين. ولما كانت كفة القوات الأموية وقوة الحسين غير متوازنة، حيث لم يكن مع الأخير الا نحو ثمانين رجلاً من أهل بيته، فقد انتهت المواجهة التي تمت في العاشر من محرم سنة ٦١هـ-٦٨٠م باستشهاد الحسين والكثير من أهل بيته في كربلاء [٦٦].

وهكذا سددت السلطة الاموية ضربة قوية للمعارضة العلوية، وتخلص الحكم الأموي من أقوى المنافسين للخلافة الاموية. ولكن هذه الموقعة أدت في الوقت نفسه الى شعور قوي بالنقمة على الأمويين، للقسوة البالغة التي استخدمت في قمع هذه الحركة، الأمر الذي أدى الى نتائج خطيرة، وقيام حركات اخرى في المستقبل أدت الى زعزعة الأمن وعدم الاستقرار السياسي في العراق في العهد الأموي.

٢ – حركة التوابين :

ومن جملة النتائج التي أفرزتها واقعة كربلاء، حركة التوابين التي تزعمها خمسة من كبار الشخصيات في الكوفة بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي، الذي كان أحد صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن المقربين من الامام علي بن أبي طالب. أما الزعماء الاربعة الآخرين، فكانوا أيضاً من كبار أصحاب الامام علي، وينتمون الى قبائل، فزارة، والأزد، وبكر، وبجيلة. وقد رأى هؤلاء ومن تبعهم من أنصار العلويين في الكوفة، انهم بحاجة الى تنظيم أنفسهم بعد موقعة كربلاء، فاجتمع هؤلاء الزعماء وتذاكروا أمرهم، وشعروا بكثير من الندم وتأنيب الضمير لموقفهم السلبي من ثورة الحسين، وعدم تأييدهم له، على الرغم من أنهم كاتبوه، وارسلوا اليه للحضور الى العراق، فتابوا عما فعلوا لهذا سموا بالتوابين. ورأوا أنه لايمكن التخلص من هذا الاثم الذي اقترفوه الا بقتل قتلة الحسين ومجاهدتهم، أو الموت في هذا السبيل [٦٧].

---

(٦٦) الطبري، تاريخ: ٢/٢٨٣

(٦٧) المصدر نفسه: ٢/ ٤٩٧.

ظلت هذه الحركة سرية في الكوفة حتى وفاة الخليفة يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م ، فأخذوا في اظهار دعوتهم ، وجذب الأنصار اليهم ، فأستجاب لهم كثير من الناس ، كما كتب زعيمهم سليمان بن صرد الى انصاره بالمدائن والبصرة يحثهم على الالتحاق به للأخذ بثأر الحسين ، فأجابوه الى ذلك (٦٨) . ولكن التوابين لم يكونوا متفقين بالضبط على كيفية الانتقام ، أو الوسيلة المناسبة لذلك . وقد رأى بعضهم الاستيلاء على الكوفة ، وقتل المسؤولين عن مقتل الحسين فيها ، لاسيما الأشراف الذين تواطئوا مع عبيدالله بن زياد .لكن سليمان بن صرد لم يكن على هذا الرأي . فطلب من مؤيديه الآ يتعجلوا حتى لايشك فيهم الأشراف ويقاومونهم فتنتهي حركتهم قبل أن يدركوا ثأرهم . ثم استقر الرأي أخيراً على الخروج من الكوفة ، وتتبع عبيدالله بن زياد المسؤول عن تجميع الجيوش لقتل الحسين (٦٩) ، والذي كان قد ارتحل الى الشام بعد وفاة الخليفة يزيد الأول ، ثم رجع الى الجزيرة والعراق لاعادة السيطرة الاموية عليها ، بعد أن خضعتا لنفوذ عبدالله بن الزبير.

تجمع التوابون في أوائل شهر ربيع الثاني من سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م في معسكر النخيلة بالقرب من الكوفة . ولم يحضر هذا التجمع سوى نحو أربعة الآف منهم ، بسبب عدم وصول أهل البصرة والمدائن (٧٠) ، وكانوا جميعاً مسلحين تسليحاً جيداً . ثم توجهوا الى كربلاء ، حيث زاروا قبر الحسين وترحموا عليه ، وقطعوا على أنفسهم العهود بالثأر له . بعد ذلك ساروا بقيادة زعيمهم سليمان بن صرد عبر نهر الفرات الى الانبار ، ومنها الى قرقيسياء في الجزيرة الفراتية ، حيث اعتصم أحد المعارضين للحكم الاموي ، زفر بن الحارث الكلابي . فأيدهم وشجعهم على حركتهم ، ودلهم على موقف عبيدالله بن زياد وصحبه ، ونصحهم بالتوجه الى عين الوردة ، وهي مدينة رأس العين الحالية ، لملاقاة ابن زياد ، فنزلوا فيها ، وأقاموا بها نحو خمسة أيام . ثم أقبل أهل الشام في قوات كثيفة تبلغ نحو اكثر من ثلاثين ألف رجل بقيادة عبيدالله بن زياد . وكان يساعده قادة آخرين ، منهم الحصين بن نمير السكوني ،وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري ، وعمير بن الحباب . وغيرهم (٧١) .

---

(٦٨) احمد بن يحيىٰ بن جابر البلاذري ، انساب الأشراف ، (طبعه غوتين S.D.F. Goitein القدس ، ١٩٣٦) : ٥/ ٢٠٦ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/ ٥٠٤- ٥٠٥.

(٦٩) المصدر نفسه : ٢/ ٥٤٢.

(٧٠) المصدر نفسه : ٢/ ٥٤٤.

(٧١) البلاذري ، انساب الاشراف : ٥/ ٢٠٤

ابتدأت المعركة في يوم الاربعاء الثاني والعشرين من جمادي الاول سنة ٦٥هـ/ ٦٨٥م مع مقدمة اجناد الشام بقيادة شرحبيل بن ذي الكلاع. ولكن التوابين هزموا هذه المقدمة، مما حدا بابن زياد الى ارسال الحصين بن نمير في اثنا عشر الف رجل آخر، حيث منوا بالهزيمة ايضاً. لكن انضمام شرحبيل بقوة اخرى تقدر بنحو ثمانية الآف رجل، جعل كفة المعركة غير متكافئة بين الطرفين. ثم حُسمت اخيراً بانضمام عشرة الآف جندي آخر من أهل الشام الى قوتهم الرئيسة، الامر الذي أدى الى تمزق التوابين، ومقتل قائدهم سليمان بن صرد وهزيمة الباقين منهم دون أن يطاردهم أهل الشام. وقد التقى هؤلاء الفارون بمن جاء من انصارهم من اهل البصرة والمدائن الذين لم يصلوا الى المعركة في الوقت المناسب، وعاد الجميع الى الكوفة، وهم يجرون اذيال الخيبة لفشل حركتهم (٧٢). ولكن هذا الفشل تطور الى تصميم أكيد على عدم التسليم بالأمر الواقع، وتحيّن الفرص للانضمام الى أية حركة معارضة للسلطة الأموية.

٣- حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي:

ظهرت هذه الحركة بقيادة المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي كان والده أحد قادة المسلمين في حركات تحرير العراق زمن الخليفة عمر بن الخطاب رض الله عنه. وقد عُرف عن المختار أنه كان دائماً ضمن الخارجين على سلطة الولاة الأمويين في العراق، وأنه كان انتهازياً طامعاً يتصف بالكثير من القدرة والحذق، ولايتحرج في اتباع أية وسيلة لتحقيق هدفه في الاستيلاء على السلطة السياسية (٧٣). مثال ذلك انه لما سمع بازدياد نفوذ عبدالله بن الزبير في الحجاز، جاء اليه وبايعه، وعَدّهُ «رجل العرب اليوم» (٧٤). ولكنه كان يريد منه أن يسير على خططه ويسمع قوله، فعرض عليه أمام الناس أن يعلن القيام على الامويين، ويطلب من الناس مبايعته، فغضب ابن الزبير، لأنه لم يكن يريد الكشف

---

(٧٢) المصدر نفسه: ٢/ ٢١٠؛ الطبري، تاريخ: ٢/ ٥٥٨ فما بعدها.

(٧٣) ينظر: البلاذري، انساب الاشراف: ٥/ ٢١٤؛ الطبري، تاريخ: ٢/ ٢؛ ويقارن: علي حسين الخربوطلي، المختار الثقفي، (القاهرة، ١٩٦٣)، ص ٥٢

(٧٤) البلاذري، انساب الاشراف: ٥/ ٢١٥؛ الطبري تاريخ: ٢/ ٥٢٤.

عن نواياه بصورة علنية ، وشعر بخطر المختار وطموحه الذي يمكن أن يهدد حركته ، فلم يسند اليه أي منصب ، ولهذا قرر المختار الرجوع الى الكوفة [٧٥] .

انتهز المختار فرصة الارتباك الذي ترتب على استشهاد الحسين بن علي في كربلاء ، والاضطرابات التي اعقبت وفاة الخليفة يزيد بن معاوية ، لاسيما فشل حركة التوابين ، فادعى انه يعمل باسم العلويين ، وأنه يمثلهم في معارضتهم للحكم الاموي . لهذا فقد أشاع أنه موفد من قبل محمد بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه المعروف باسم ابن الحنفية ، للأخذ بثأر الحسين [٧٦] ويبدو أن ابن الحنفية لم يُستشر بهذا الشأن ابداً ، وحينما ذهب بعض اهل الكوفة اليه للتأكد من الأمر أجابهم جواباً غامضاً غير ملزم بقـوله : « فوالله لوددت ان الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ... » [٧٧] . ولقد عدّ أهل الكوفة هذا الجواب الغامض أشبه بموافقة منه لهم في تأييد المختار ، لاسيما وانه لم يمنعهم من الانضمام اليه . ومهما كانت حقيقة الأمر ، فإن ذلك لم يكن ذا أهمية في الكوفة ، لأن المختار أعلن محمداً بن الحنفية مهدياً ، وكانت تلك خطوة بارعة جداً لكسب تأييد أنصار العلويين ، ثم أعلن المختار أيضاً أنه مستمر في استلام السلطة كوزير للامام محمد بن الحنفية ، الى ان تحقق حركته نجاحها [٧٨] .

لم يكن اشراف عرب أهل الكوفة يرتاحون الى نوايا المختار وحركته ، وكان هؤلاء من زعماء قبائلها واوائل مسلميها . فحذروا منه والي الكوفة وعامل خراجها من قبل عبدالله بن الزبير ، فقبضا عليه وسجناه . وقد عمل المختار وهو في السجن على زيادة أنصاره ، وذلك بترديده لعبارات نثرية مسجوعة اعتبرها بعض المؤرخين بدعة ابتدعها ، وأنه كان يزعم أن جبريل عليه السلام كان يأتيه من عند الله [٧٩] . ولكنه استطاع أن يخرج من السجن بشفاعة زوج اخته عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبكفالة عشرة من وجهاء الكوفة واعيانها ، بعد ان أقسم للوالي ولعامل الخراج : « ... أنه لايبغيها غائلة ولايخرج

---

(٧٥) المصدر نفسه : ٢/ ٥٣٠ – ٥٣١ ؛ ويقارن : دكسن ، الخلافة الاموية ، ص٦٥ – ٦٦ .

(٧٦) الطبري ، تاريخ : ٢/ ٥٣٤ .

(٧٧) المصدر نفسه : ٢/ ٦٠٧ .

(٧٨) ينظر : شعبان ، التاريخ الاسلامي ، ص ١٠٧ .

(٧٩) الطبري ، تاريخ : ٢/ ٥٣٦ ؛ ابن الأثير الكامل : ٤/ ١٧٤ ؛ ويقارن : ماجد ، المرجع السابق : ٢/ ١١٧ .

عليها ما كان لها سلطان ، فإن فعل فعليه ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة ومماليكه كلهم ذكرهم وانثاهم احرار» (٨٠) . فلما وصل داره أسر الى جلسائه انه لن يلتزم بهذا القسم ، وانه لن يضيّع أيه فرصة في سبيل الوصول الى مآربه السياسية .

ولأجل ان يتمكن المختار من مواجهة والي ابن الزبير ، واشراف الكوفة ، كان عليه أن يحصل على تأييد وموآزرة بعض الزعماء المتنفذين في المدينة ، لاسيما ابراهيم بن مالك الأشتر ، أحد اشراف قبيلة النخع من مذحج ، وكان هو ووالده من كبار مؤيدي الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه . وقد أرسل اليه المختار وفداً من وجهاء أنصار الامام علي ، والمتنفذين من اتباعه يطلبون منه الانضمام الى حركته ، ولكن ابراهيم اشترط أن تناط قيادة الحركة به ، الأمر الذي لايمكن أن يقبله المختار. ولكن الأخير حاول مرة ثانية أن يكسب جانب ابراهيم ، فذهب اليه بعد ثلاثة أيام مع عدد من اتباعه وأطلعه على رسالة ادعى انها أرسلت من محمد بن الحنفية اليه يحضه فيها على مؤازرته ، ويمنيه بالولاية على مايسيطر عليه من مناطق ، من الكوفة الى أقصى بلاد الشام ، وهذا نص الرسالة :

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد المهدي الى ابراهيم بن مالك الاشتر سلام عليك فإني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو أما بعد فإني قد بعثت اليكم بوزيري واميني ونجيبي الذي ارتضيته لنفسي. وقد أمرته بقتال عدوي والطلب بدماء أهل بيتي فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك فإنك ان نصرتني واجبت دعوتي وساعدت وزيري كانت لك عندي بذلك فضيلة ولك بذلك أعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام. عليّ الوفاء بذلك على عهد الله فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل الكرامة وان أبيت هلكت هلاكاً لاتستقيله أبداً والسلام عليك» (٨١) .

وعلى الرغم من شك ابراهيم بن الاشتر بمصداقية هذه الرسالة ، لاسيما وانه اعتاد أن يستلم رسائل ابن الحنفية بصيغة اخرى لاتتضمن ذكر محمد المهدي ، بل كتابة اسمه واسم ابيه فقط ، لكنه وافق على الانضمام الى الحركة بعد ان شهد عدد من الشهود أن الرسالة صحيحة ، وهي مرسلة فعلاً من محمد بن الحنفية. وهكذا تعززت حركة المختار، بعد ان

---

(٨٠) الطبري ، تاريخ :٢/ ٦٠٠ ؛ ابن الأثير، الكامل : ٤/ ٢١٢.

(٨١) الطبري ، تاريخ : ٢/ ٦١١ ؛ وينظر: الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص٢٨٩ .

وضع ابراهيم بن مالك الأشتر جميع خدماته بين يديه ، وحضر الاجتماعات التي كان يعقدها المختار في منزله [٨٢] .

ابتدأ تمرد المختار في شهر ربيع الاول سنة ٦٦هـ / تشرين الاول ٦٥٨م ، وبفضل تعاون ابراهيم بن الاشتر، تمكن من اقتحام قصر الامارة في الكوفة ، وطرد عبدالله بن مطيع عامل ابن الزبير. وقد هرب نتيجة لذلك بعض أشراف الكوفة الى البصرة ، واضطر الباقون الى مبايعته . ثم استطاع المختار ان يبسط نفوذه على العراق كله ، وعلى المناطق الشرقية ، مثل اذربيجان ، وهمدان ، واصبهان ، والري ، وولاها لبعض عماله [٨٣] .

ضمت حركة المختار في بداية الأمر عناصر كثيرة من القبائل العربية الموجودة في الكوفة ، كالنخع ، وهمدان ، ونهد ، وشاكر ، وخثعم ، وشبام ، وأسد ، وحنيفة ، وعبس ، والأزد ، ومزينة ، وبكر ، واحمس [٨٤] . وكان معظم هؤلاء يؤيدون المختار بسبب معارضتهم لأشراف الكوفة . وقد ازدادت قوة المختار بسبب انضمام عناصر اخرى غير عربية الى حركته ، لاسيما الموالي من الفرس ، حيث انضم اليه أول الأمر خمسمئة من هؤلاء [٨٥] ، ثم ازداد عددهم حتى بلغ نحو أربعين الفا [٨٦] . وكان هؤلاء من الفرس الذين يقطنون الكوفة ويسمون بالحمراء ، أو بني الاحمر ، وكان منهم ايضاً من أولاد الأساورة من أهل فارس والمرازبة [٨٧] . ولايرجع السبب في انضمام هؤلاء لحركة المختار الى تأييدهم للعلويين ، وانتصارهم لهم ، بل يعود بالدرجة الاولى الى رفضهم للحكم العربي المتمثل بالدولة الاموية ، حيث علقوا آمالاً كبيرة للتخلص من هذا الحكم ، نظراً لشعوبيتهم وعدائهم للعرب ، وقد اتخذوا الاسلام ستاراً وغطاءً لتمرير نشاطهم التآمري [٨٨] .

---

(٨٢) البلاذري ، أنساب : ٥/ ٢٢٣ ، الطبري ، تاريخ : ٢/ ٦١١- ٦١٣ ؛ وينظر: دكسن ،المرجع السابق ، ص ٧٤- ٧٥.

(٨٣) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٢٩١- ٢٩٢ ؛ المسعودي ، مروج الذهب : ٣/ ٨٤.

(٨٤) الطبري ، تاريخ: ٢/٦١٩ فما بعدها.

(٨٥) المصدر نفسه : ٢/٦٢٧.

(٨٦) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٣٠٠.

(٨٧) المصدر نفسه ، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(٨٨) يقارن : الخربوطلي ، المرجع السابق ، ص ٢١٢-٢١٣.

حاول المختار منذ استيلائه على الكوفة أن يوفق بين جميع العناصر التي انضمت الى حركته ، فلم يبدأ بأخذ ثأر الحسين ، كما وعد بذلك قبل اعلان حركته ، بل على العكس من ذلك هادن الأشراف في الكوفة وتقرب اليهم ، واعطاهم مناصب ادارية كبيرة في الولايات التي خضعت الى حركته (٨٩) . وحاول في الوقت نفسه ان يتقرب من ابناء العجم ، ففرض لهم ولأولادهم الاعطيات ، وقرّب مجالسهم ، وولى أحدهم على حرسه ، وهو كيسان ابا عمرة مولى عرينة ، زيادة في الثقة بهم (٩٠) . كما أباح للموالي مشاركة العرب بالفيء ، وركوب الخيل (٩١) . وأعلن أن كل عبد ينضم اليه يصبح حراً (٩٢) ، ولهذا فليس من الغريب أن يزداد عدد أنصاره ، لاسيما من الموالي الذين كانوا يشكلون عنصراً مهماً في المجتمع الكوفي آنذاك (٩٢) .

ولم يكن باستطاعة المختار أن يستمر طويلاً في محاولة التوفيق بين اشراف الكوفة والموالي ، لأن مصالح الاثنين كانت متعارضة تماماً وقد لاحظ الموالي مجاملة المختار للأشراف وتقربه منهم ، فشكوا ذلك الى كيسان زعيمهم ، وقائد حرسه قائلين : «أما ترى ابا اسحق [المختار] قد اقبل على العرب ماينظر الينا» . فدعاه المختار وسأله عما يقوله اولئك الموالي ، فأخبره ، فطمأنه قائلاً : «قل لهم لايشق ذلك عليكم فأنتم مني وانا منكم . ثم سكت طويلاً ثم قرأ انا من المجرمين منتقمون» (٩٤) . فرضي الموالي بهذا الجواب ، وفهموا ان المختار يضمر العداء للاشراف .

ولم يرض العرب أيضاً على سياسة المختار في التقرب من الموالي ، فعاتبوه على ذلك قائلين : «عمدت الى موالينا وهم فيء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فاعتقنا رقابهم نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا» . (٩٥)

---

(٨٩) ينظر: البلاذري ، انساب : ٥/٢٢٨ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/٦٣٤-٦٣٥ .

(٩٠) البلاذري ، انساب : ٥/٢٢٩ ؛ الطبري تاريخ : ٢/ ٦٣٤ .

(٩١) المصدر نفسه : ٢/٦٤٩ ، ٧٢٤ .

(٩٢) البلاذري : انساب : ٥/٢٦٧ .

(٩٣) ينظر: دكسن المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٩٤) الطبري ، تاريخ : ٢/٦٣٤ ؛ وينظر: دكسن ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٩٥) الطبري ، تاريخ : ٢/٦٥٠ .

وعندما عرض المختار على الأشراف ان يترك مواليهم ويجعل فيئهم فيهم شريطة ان يقاتلوا معه بني أمية وابن الزبير، رفضوا ذلك. وقد دفعه هذا الموقف المعادي للاعتماد على الموالي الذين كانوا أطوع له من العرب، وأسرع الى مايريد، فتبين حينئذ للعرب أنه «كذاب يزعم انه يوالي بني هاشم، وانما هو طالب دنيا». وقد اعترف المختار في اثناء حصاره الأخير من قبل مصعب بن الزبير لأحد خاصته، السائب بن مالك الأشعري، بان قيامه «ما كان الا لطلب دنيا». وانه رأى عبدالملك بن مروان قد غلب على الشام، وعبدالله بن الزبير على الحجاز، ومصعب بن الزبير على البصرة، ونجدة الحروري على اليمامة، فلم يكن هو دون أحد من هؤلاء. ولكنه لم يستطع ان يقدر على ما أراد من الدنيا الا باعلان الطلب بثأر الحسين عليه السلام.(٩٧)

أدرك عرب الكوفة نوايا المختار في حب السلطة والزعامة، والانشقاق على وحدة الخلافة العربية، كما أدركوا السبب في تقريبه للعجم ومحاباتهم، واستغلال هؤلاء لهذه الظروف في سبيل الانتقام من الدولة الأموية والتسلط على العرب، وانتزاع السلطة السياسية منهم، فثارت قبائل الكوفة على المختار، واجتمعوا لمحاربته، لاسيما قبائل كندة، والأزد، وبجيلة، والنخع، وخثعم، وقيس، وتيم الرباب، وربيعة، وتميم. وقد قاوم المختار هذا التجمع بابناء العجم، ووعد العبيد منهم بحريتهم اذا انضموا اليه. وكانت النتيجة ان انتصر على اهل الكوفة، وقتل منهم نحو خمسمئة رجل، وأسر مائتا رجل، وهرب بقية اشراف العرب الى البصرة، حيث لحقوا بمصعب بن الزبير هناك، وكان عددهم نحو عشرة الأف رجل، وقد أدوا دوراً بارزاً في تحريض مصعب على مجابهة المختار.(٩٨)

كان على المختار أن يجابه تحديات كثيرة في سبيل بقائه على رأس السلطة في الكوفة، فبالاضافة الى موقف الاشراف المعادي، كان عليه ان يتصدى لمحاولات عبدالله بن الزبير المستمرة في استعادة الكوفة والعراق من قبضته. ولم تنجح سياسة المختار في كسب تأييد ابن الزبير، لأن الأخير لم يكن يثق به، وفشلت كل محاولاته السياسية ومراسلاته معه في اقناعه بالتعاون معه. وفي الوقت نفسه كان على المختار أن يتأهب لصد خطر الجيش الأموي بقيادة عبيدالله بن زياد، الذي كان يتقدم نحو الموصل بعد انتصاره على التوابين في عين

---

(٩٦) الدينوري، **الاخبار الطوال**، ص ٢٩٩.

(٩٧) **المصدر نفسه**، ص ٣٠٧؛ البلاذري، **انساب**: ٢٦١/٥. الطبري، **تاريخ**: ٧٣٧/٢.

(٩٨) الدينوري، **الاخبار الطوال**، ص ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٤.

الوردة. وقد اضطر والي الموصل من قبل المختار، عبدالرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني، أن يترك المدينة ويكتب الى المختار بالأمر. فأرسل الأخير قوة عاجلة تتألف من ثلاثة آلاف فارس، استطاعت ان تشتبك مع جزء من قوة الأمويين وتنتصر عليهم. ولكن وفاة قائد القوة، يزيد بن أنس الأزدي، اثبط عزائمها، وجعلها تنسحب دون الاشتراك في معركة اخرى مع القوة الرئيسة للامويين.(٩٩)

أرسل المختار جيشاً كبيراً بقيادة ابراهيم بن مالك الأشتر لقتال عبيدالله بن زياد. وكان هذا الجيش مؤلفاً بالدرجة الأولى من الموالي، على الرغم من وجود عدد محدود من العرب. وقد استطاع ابراهيم بن مالك الأشتر أن ينتصر على جيش ابن زياد عند نهر الخازر في العاشر من محرم سنة ٦٧ هـ/السادس من آب ٦٨٦ م، فقتل عبيدالله بن زياد، الذي كان مسؤولاً الى حد كبير عن مقتل الحسين، كذلك قتل عدد من قادة الأمويين، من امثال الحصين بن نمير السكوني، وشرحبيل ذي الكلاع، مع عدد من جند الخلافة الأموية.(١٠٠)

ولكن لم يدم هذا الانتصار الذي حققه المختار على أهل الشام، فقد كان عليه أن يواجه خطراً جديداً يتمثل بمصعب بن الزبير في البصرة، التي كان والياً عليها من قبل اخيه عبدالله.(١٠١) لقد خشي ابن الزبير من ازدياد نفوذ المختار، واتساع سلطته التي تجاوزت الكوفة وسوادها الى منطقة الجزيرة باكملها، لاسيما بعد ان انتصر على الجيش الشامي في الخازر. وهكذا فإن المختار اصبح لايقل خطراً، بالنسبة لابن الزبير، عن عبدالملك بن مروان، الذي كان مسيطراً على الشام ومصر. لذلك قرر مصعب بن الزبير مهاجمة المختار قبل ان يستفحل خطره، لاسيما وان الكوفيين الذين التجئوا الى البصرة كانوا يحرضونه دائماً على ذلك.

استدعى مصعب القائد المهلب بن ابي صفرة، الذي كان يقاتل الخوارج في الاحواز وفارس وكرمان للانضمام الى الجيش الذي كان ينوي قيادته لقتال المختار في الكوفة.(١٠٢) واستطاع مصعب أيضاً ان يستميل اليه ابراهيم بن مالك الاشتر، الذي تخلى عن ولائه

---

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٢٩٢-٢٩٣؛ البلاذري، انساب: ٥/٢٣٠، الطبري، تاريخ: ٢/٦٤٣ فما بعدها.

(١٠٠) الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٢٩٥؛ الطبري، تاريخ: ٢/٧١٣-٧١٥.

(١٠١) البلاذري، انساب: ٥/٢٣١؛ الطبري، تاريخ: ٢/٦٨٨.

(١٠٢) المصدر نفسه: ٢/٧١٩-٧٢٠.

للمختار، وانضم الى مصعب وبايعه. ولما راى رؤساء الارباع من الموالي في جيش ابن الأشتر، موقف الأخير المتهاون بامر المختار، تركوه وعادوا الى الكوفة، حيث أرسلهم المختار مع الجيش الذي بعثه لحرب مصعب بن الزبير.(١٠٣)

كان على رأس هذا الجيش قائد للمختار يدعى أحمر بن شميط، وقد التقى مع جيش أهل البصرة في المذار، وهي ميسان على دجلة، وتولى قيادة الموالي كيسان ابو عمرة، رئيس حرس المختار،وحينما التقى الجيشان، حلت الهزيمة الساحقة باتباع المختار، وقتل قائد جيشهم، ولم ينج منهم الا القليل الذين استطاعوا ان ينقلوا نبأ الهزيمة الى المختار، فكان لها تأثير سيء على معنويته، ومعنويات اتباعه من الموالي الذين خاب املهم فيه وفي حركته، لاسيما بعد مقتل عدد كبير جداً منهم مع ابن شميط، فقالوا: لقد كذب المختار هذه المرة.(١٠٤)

وهكذا كانت هذه الهزيمة بداية النهاية لاحلام المختار واتباعه من الموالي الذين انضموا الى حركته وعلقوا عليه آمالهم. فقد استمر مصعب بن الزبير بالتقدم نحو الكوفة، حيث التقت قواته في حروراء بجيش المختار وألحقت به الهزيمة، ولكن الأخير انسحب تحت ضغط اتباعه، وتراجع داخل قصر الامارة في الكوفة. ثم دخلت قوات مصعب المدينة وضربت الحصار على المختار الذي كان معه عدد قليل من العرب، وكثير من الموالي. وقد دام الحصار أربعة أشهر.(١٠٥) أو أربعين يوماً، حسب رواية اخرى،(١٠٦) عانى فيه المحصورون من قلة التجهيزات الغذائية، لذلك فقد أراد المختار من أصحابه أن يخرجوا للقتال معه حتى الانتصار أو الموت، لكنهم رفضوا، وقرروا النزول على حكم مصعب بن الزبير. فاضطر المختار الى الخروج مع تسعة عشر رجلاً فقط، فقاتل حتى قتل في ١٤ رمضان سنة ٦٧ هـ/ ٣ نيسان ٦٨٧ م. أما بقية اتباعه في القصر، فاعدموا جميعاً من قبل مصعب.(١٠٧)

---

(١٠٣) المصدر نفسه: ٢/ ٧٢٠؛ ويقارن: دكسن، المرجع السابق، ص ١٠٨-١٠٩.

(١٠٤) البلاذري، انساب: ٥/ ٢٥٤؛ الطبري، تاريخ: ٢/ ٧٢١-٧٢٤.

(١٠٥) المصدر نفسه: ٢/ ٧٤٩.

(١٠٦) الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٣٠٧.

(١٠٧) المصدر نفسه: ص ٣٠٨، ٣٠٩، وينظر: البلاذري، انساب: ٥/ ٢٦٤، الطبري، تاريخ: ٢/ ٧٤٠-٧٤١.

وهكذا انتهت هذه الحركة التي لم تكن في الواقع سوى «حركة تمرد»[١٠٨]، استغلت الوضع المضطرب والظروف الحرجة التي مرت بالدولة العربية الاسلامية. لكن هذا النظام كان ضعيفاً جداً فعجز عن تحدي السلطة الحقيقية للامويين، أو حتى للزبيريين. ثم انه كان قلقاً جداً بحيث لم يستطع ان يثبت وجوده في الكوفة ذاتها، بسبب موقف قادتها وأشرافها من رجال القبائل المعادية له، على الرغم من استعانته بالموالي، وتعلق هؤلاء به لتحقيق مآربهم الدفينة ضد العروبة والاسلام. وتُعد حركة المختار أول حركة عربية يشترك فيها الموالي باسم الاسلام، ويدعون الى مساواتهم بالعرب في الادارة والمجتمع. ولكن هناك من يقلل من شأن هذه الكتلة،[١٠٩] ويشير الى وجود العديد من القبائل العربية التي أيدت المختار، وان هناك عوامل عديدة أثرت في تقرير أنصاره وخصومه، منها الصراع القبلي، ومدى تقبل القبائل لمبدأ التطرف او الغلو أو رفضه، ومنها الطبيعة البدوية التي ترى ان العرب سادةً، وتأبى التنازل عن بعض الامتيازات. وأدت هذه العوامل ذاتها الى تخلي العرب عن المختار في أحرج أوقاته، وبالتالي الى فشل حركته.

كانت حركة المختار حركة سياسية، حاول استثمار الجانب الديني بالدعوة الى محمد بن الحنفية، فظهرت على أثر ذلك فرقة متأثرة بآراء المختار ومواقفه سميت بالمختارية وتعدّ حسب رأي كتاب الفرق الاسلامية من فرق الكيسانية، نسبة الى كيسان رئيس حرس المختار. ومن أهم معتقدات هذه الفرقة، القول بامامة محمد بن الحنفية، لكنهم يختلفون في كيفية امامته، فبعضهم يزعم أنه كان اماماً بعد والده علي بن ابي طالب، لانه كان صاحب راية ابيه يوم معركة الجمل، والبعض الآخر يقول أن الامامة انتقلت اليه بعد أخويه الحسن والحسين. كما يقولون أيضاً برجعة محمد بن الحنفية، وأنه حيّ لم يمت، وأنه مقيم بجبل رضوي بالقرب من المدينة المنورة، وسيعود من هذا المكان لملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. ويعتقد الكيسانية أيضاً بالبدء أو البداء، اي أن الله سبحانه وتعالى يجوز له أن يغير ماأراد. ويرجع السبب في قول المختار بالبدء الى ادعائه العلم بما يحدث من الاحوال، ووعده لاصحابه بحدوث امور يراها، فإن لم تحدث، قال لأصحابه قد بدا لربكم. ومن الجدير بالذكر ان محمد بن الحنفية قد تبرأ من هذه الآراء والضلالات التي ابتدعها المختار[١١٠].

---

(١٠٨) ينظر: شعبان، المرجع السابق، ص ١٠٨.

(١٠٩) ينظر: فاروق عمر، **طبيعة الدعوة العباسية**، (بغداد، مكتبة الفكر العربي للنشر والتوزيع، ١٩٨٧)، ص ١٠٩.

(١١١٠)ينظر: الشهرستاني، **المصدر السابق**: ١٩٨/١؛ ابو محمد بن موسى النوبختي، **كتاب فرق الشيعة** (استانبول، ١٩٣١)، ص ٢٠-٢١؛ حسن، **تاريخ الاسلام السياسي**: ٤٠٤/١-٤٠٥؛ سرور، **المرجع السابق**، ص ١٤٨.

٤- حركة زيد بن علي بن الحسين:

قامت هذه الحركة سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م في الكوفة في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك. وكان والي العراق في تلك الاثناء يوسف بن عمر الثقفي الذي اتبع سياسة شديدة مع أهل العراق، لاسيما انصار العلويين. وكان زيد يعيش في المدينة المنورة بالحجاز، ولكن سياسة يوسف بن عمر اضطرته للانغمار في الاحداث. فقد اتهمه بوديعة من المال لخالد بن عبدالله القسري، الوالي السابق للعراق، تقدر بستمئة الف درهم، وكتب بذلك الى الخليفة الذي استدعى زيداً الى دمشق، ثم أرسله الى الكوفة ليجمع بينه وبين خالد القسري. وقد أنكر الأخير أن يكون قد أودع أية اموال لدى زيد بن علي، فظهرت براءته. وقد أمر والي العراق زيداً بالرحيل فوراً من الكوفة بناء على تعليمات من الخليفة، وأرسل معه من يتأكد من مغادرته للمدينة. ولكن بعد رجوع الرسل، عاد زيد الى الكوفة، واجتمع بأهلها الذين حرضوه على الخروج على سلطة الأمويين (١١١).

وبطبيعة الحال لم تقم حركة زيد بن علي من فراغ، فقد كان لها أسبابها المباشرة وغير المباشرة. فبالنسبة للأسباب غير المباشرة، يمكن القول أن شخصية زيد بن علي ومايتصف به من تقوى وقول الحق، دفعته الى الخروج والاستشهاد في سبيل مايعتقده من الحق. يضاف الى ذلك تأثره بأهل بيته، وماحدث لهم من تقتيل وتشريد، لاسيما جده الحسين عليه السلام. كذلك فإن سياسة الامويين لم تكن مقبولة لدى العلويين منذ البداية، الأمر الذي جعلهم يثورون عليهم كلما سنحت الفرصة، وماحركات الحسين، والمختار، وزيد الا أمثلة على ذلك. يضاف الى ذلك كله، فإن الجو العام في الكوفة كان ملائماً دائماً للقيام على الدولة الأموية، نتيجة وجود الكثير من أنصار العلويين، الذين تعرضوا الى معاداة الولاة الأمويين، من امثال زياد بن أبي سفيان، وابنه عبيدالله، والحجاج بن يوسف الثقفي، ويوسف بن عمر، فكان من الطبيعي أن تحتضن الكوفة هذه الحركة للتخلص من السياسات القاسية التي سار عليها آخر هؤلاء الولاة، اي يوسف بن عمر (١١٢).

---

(١١١): ينظر: اليعقوبي، تاريخ: ٢/٣٢٥-٣٢٦

(١١٢) يقارن: شريف صالح احمد الخطيب، الامام زيد بن علي (بيروت دار الندوة الجديدة، ١٩٨٤) ص ١١٩-١٢٢.

اما العوامل المباشرة ، فتتمثل في معاملة الخليفة هشام بن عبد الملك الجافة لزيد حين طلبه في دمشق ، وقوله له « لقد بلغني يازيد انك تذكر الخلافة وتتمناها ولست هناك وانت ابن أمة » فرد عليه زيد رداً مفحماً أثار غضبه ، وعجل بارساله الى الكوفة ليجمع بينه وبين خالد القسري ، بشأن مسألة الوديعة التي أسلفنا ذكرها (١١٣) . يضاف الى ذلك أن الخليفة بعث بتعليمات مشددة الى واليه على العراق يأمره بعدم الأبقاء على زيد في الكوفة بعد ان يجمعه بخالد القسري ساعة واحدة لانه « رجلاً حلو اللسان شديد البيان خليقاً بتمويه الكلام ، واهل العراق أسرع شيء الى مثله » (١١٤) وقد نفذ يوسف بن عمر هذا الامر ولم يسمح له بالبقاء ، فخرج بصحبة رجال يوسف ، لكنه عاد بعدما رجع المرافقون له ، لاسيما بعد أن لحقه كثير من أهلها ودعوه للعودة الى بلدهم قائلين : « أين تذهب عنا ومعك مائة الف رجل من أهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم غداً ، وليس قبلك من اهل الشام الا عدة قليلة لو ان قبيلة من قبائلنا نحو مذحج اوهمدان أو تميم او بكر نصبت لهم لكفتكهم باذن الله تعالى فننشدك الله لما رجعت .... » (١١٥) .

ولم يزل أهل الكوفة يحاولون مع زيد بن علي الى ان اقنعوه بالرجوع بعد أن اعطوه المواثيق والايمان المغلظة . وكان زيد يخشى ان يخذله أهل الكوفة ويسلموه كما فعلوا بجده . وقد حذره بعض أقاربه وأنصاره من وعود أهل الكوفة ، وذكروه بما جرى للامام علي بن ابي طالب ، والحسن ، والحسين عليهم السلام (١١٦) . ولكن يبدو ان زيداً لم يقتنع بهذه النصائح ، واعتمد على وعود اهل الكوفة ، فرجع معهم ، وظل عدة أشهر يجتمع فيها بأهلها . كما ذهب الى البصرة أيضاً ، وقضى فيها نحو شهرين ، ثم عاد الى الكوفة ، ومنها كتب الى بقية البلدان الاخرى لغرض كسب الأنصار ، فأرسل الى أهل السواد ، والموصل رجالاً يدعون اليه ، كما انتشرت دعوته في المدائن والبصرة وواسط وخراسان والري وجرجان والجزيرة ، وبلغ عدد اتباعه في الكوفة وحدها نحو خمسة عشر ألف رجل . (١١٧) وقد بايعه هؤلاء على كتاب الله وسُنّة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ، ونصرة أهل البيت . وكان يقول لمن يبايعه : « عليك عهد

---

(١١٣) اليعقوبي ، تاريخ : ٢/٣٢٥ ، الطبري ، تاريخ : ٢/١٦٧٥-١٦٧٦ .
(١١٤) اليعقوبي ، تاريخ : ٢/٣٢٥ .
(١١٥) الطبري ، تاريخ : ٢/١٦٧٧ .
(١١٦) المصدر نفسه : ٢/١٦٧٩-١٦٨٠ .
(١١٧) المصدر نفسه : ٢/١٦٨٥ .

الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله لتفيّن ببيعتي ولتقاتلن عدوي ولتنصحن لي في السر والعلانية ، فاذا قال نعم مسح يده على يده ثم قال اللهم اشهد»[١١٨] .

ولما بلغت إخبار تحركات زيد بن علي الى الوالي يوسف بن عمر في الحيرة ، أعد جموعاً كثيفة من جند الشام للقضاء عليها ، تقدر بنحو اثني عشر ألف رجل . كما قام باجراءات احترازية تتلخص في حشر العرفاء ، والشرطة ، والمقاتلة من أهل الكوفة في المسجد في اليوم الذي سبق اعلان الحركة . وكان من نتيجة ذلك ان إنفض عن زيد الكثير ممن بايعه من اهل الكوفة . وقد احتجوا عليه بأن سألوه عن رأيه في الخليفتين الراشدين ابي بكر وعمر ، فقال فيهما خيراً ، فلم تعجبهم اجابته وفارقوه ونكثوا بيعته[١١٩] . لذلك لم يبق معه حين اعلان حركته ليلة الأربعاء الأول من صفر سنة ١٢٢ هـ / كانون الثاني ٧٤٠م سوى مئتين وثمانية عشر رجلاً . وقد إشتبكت هذه القوة الصغيرة مع القوات الشامية في معارك عديدة ، كان النصر حليف بعضها ، لكن القوات الأموية تمكنت اخيراً من قمع الحركة ، وقتلت زيد بن علي ، الذي أصيب بسهم في جبهته فاستشهد لساعته[١٢٠] .

ولم تنته حركة زيد بن علي بوفاته ، فقد ظل فريق من اتباعه موالين له عُرفوا بالزيدية ، وبايع قسم منهم ابنه يحيى الذي فر الى خراسان ، وقاتلوا معه هناك سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣م ، ولكن حركته انتهت ايضاً باستشهاده وهزيمة انصاره على يد جيش والي خراسان نصر بن سيار[١٢١] .

٥- حركة عبدالله بن معاوية :-

قامت هذه الحركة في العراق ايضاً مستغلة الظروف السياسية التي نجمت عن انقسام البيت الأموي ، لاسيما بعد وفاة الخليفة يزيد الثالث ابن الوليد عام ١٢٦ هـ / ٧٤٤م ، ومبايعة أخيه ابراهيم ، الذي لم يدم حكمه سوى أربعة أشهر فقط . ثم اعقبه مروان بن محمد ، الذي أصبح سيد الموقف في بلاد الشام وذلك عام ١٢٧ هـ / ٧٤٤ - ٧٤٥م . وقد

---

(١١٨) المصدر نفسه : ٢/١٦٨٧ .
(١١٩) المصدر نفسه : ٢/١٦٩٩ - ١٧٠٠ .
(١٢٠) المصدر نفسه : ٢/١٧٠٩ .
(١٢١) المصدر نفسه : ٢/١٧٧٣ - ١٧٧٤ .

تزعم هذه الحركة أحد افراد البيت العلوي ، ويدعى عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن ابي طالب ، الذي وفد على الكوفة مع أخويه الحسن ويزيد في أيام الوالي عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز ، وقد عامله هذا الوالي معاملة حسنة ، وأجرى عليه وعلى اخوته كل يوم ثلاثمئة درهم[١٢٢].

ولكن عبدالله بن معاوية سرعان مااستجاب لبعض أهل الكوفة الذين أغروه بالدعوة الى نفسه قائلين له : «ادع الى نفسك فبنو هاشم أولى بالأمر من بني مروان»[١٢٣] . وحاولوا القيام بعصيان على الوالي عبدالله بن عمر ، الذي كان يقيم بالحيرة ، وهي مقره الرسمي آنذاك . وكان الذي تولى هذه الحركة أحد الموالي ، ويدعى هلال بن ابي الورد مولى بني عجل ، الذي جمع الكثير من الغوغاء ، واقتحم المسجد في الكوفة ، وأعلن البيعة لعبدالله بن معاوية ، وأدخله قصر الامارة الذي كان يقيم فيه شقيق الوالي ، عاصم بن عمر ، ففر الاخير والتحق باخيه في الحيرة[١٢٤] .

وانضمت الى هذه الحركة بعض الشخصيات الناقمة على الخلافة الاموية ، من أمثال عمر بن الغضبان القبعثري ، ومنصور بن جهور الكلبي ، الذي كان والياً على العراق ، وعزل في عهد يزيد بن الوليد . ولكن معظم أهل الكوفة لم يؤيدوا هذه الحركة ، ولم ينضموا اليها ، لكثرة ماأصابهم من محن وأضرار في الفتن السابقة[١٢٥] ، ولسوء سيرة عبدالله بن معاوية وقسوته وقد أشار ابن حزم[١٢٦] ، الى هذه الناحية السلبية في سيرة عبدالله بن معاوية ، ووصفه بأوصاف تدل على عدم الاستقامة وفساد الدين ، ومخالطة الاصدقاء الذين هم على شاكلته .

ولم يكن الموالي في الكوفة ليضيعوا هذه الفرصة ، فانضموا الى حركته بكل طاقتهم . وقد أسلفنا ان احدهم ، هلال بن ابي الورد ، كان هو الذي تولى الدعوة وقاد «غوغاء الناس»[١٢٧] ، وعبيدهم من الاعاجم الى مبايعة عبدالله بن معاوية . بل ان ابن معاوية

---

(١٢٢) المصدر نفسه : ٢/١٨٧٩ ، ١٨٨١ ، ابن الأثير ، الكامل : ٥/٣٢٤ .
(١٢٣) الطبري تاريخ : ٢/١٨٨٠ .
(١٢٤) المصدر نفسه : ٢/١٨٨٣ .
(١٢٥) ابو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين (النجف ، ١٣٥٣ هـ) ص ١٢١-١٢٢ .
(١٢٦) ابو محمد علي بن احمد ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ، عبدالسلام محمد هارون (ط٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٢) ، ص ٦٨ .
(١٢٧) الطبري ، تاريخ : ٢/١٨٨٣ .

نفسه كان يسكن في دار أحد الموالي قبل الشروع في الحركة، وذلك منذ وصوله الكوفة، فقد نزل هو واخوته في النخع في دار مولى لهم يقال له الوليد بن سعيد[128]. وقد أثر هؤلاء على عبدالله بن معاوية وحملوه على اعلان العصيان على الوالي الذي اكرمه واحترمه، وذلك تنفيذاً لمآربهم في مقاومة السلطة العربية، وانتهاز الفرصة لشق عصا الطاعة عليها.

سار عبدالله بن معاوية مع انصاره الى الحيرة لمقاتلة عبدالله بن عمر والي العراق. ولكن الأخير استطاع أن يهزمهم ويفرق شملهم، فانسحب ابن معاوية الى الكوفة في المحرم سنة ١٢٧ هـ/تشرين اول - الثاني ٧٤٤ م. وقد تبعته قوات الوالي وحاربت عناصر حركته في الكوفة عدة أيام.

ثم تمكنت عشائر ربيعة أن تتوصل الى عقد امان له ولأنصاره ليذهبوا حيث شاءوا. وقد تم ترحيله، ومن تبعه من أهل الكوفة، والمدائن، وأهل السواد، فخرج بهم الى المدائن اولاً، ومنها الى حلوان، والجبال، وهمدان، واصبهان، والري. حيث اشتدت حركته هناك بما انضم اليها من موالي وأعاجم[129].

اتخذ عبدالله بن معاوية من أصبهان مقراً لحركته التي وجدت مؤيدين كثيرين استغلوا اسمه في سبيل تنفيذ خططهم في محاربة الدولة الأموية والانشقاق عليها. وقد تعاون معه أحد كبار الموالي، محارب بن موسى، مولى بني يشكر، فاستولى على دار الامارة في اصطخر، وحث الناس على مبايعة عبدالله بن معاوية، كما أغار على كرمان وضمها الى الحركة. كذلك هاجم العامل الأموي في شيراز وقتله، فدخلت هذه المدينة ايضاً في فلك هذه الحركة المعادية للخلافة الأموية سنة ١٢٨ هـ/٧٤٥ م.[130]

انتقل عبدالله بن معاوية بعد ذلك الى اصطخر التي اصبحت المقر الجديد للحركة. ولكن محارب بن موسى اختلف بعد ذلك مع عبدالله بن معاوية وفارقه، ولاتشير المصادر الى سبب هذا الخلاف، ولكن ربما كان عبدالله قد شعر بالنوايا الحقيقية لموسى، ومحاولة الموالي الفرس لجر الحركة تماماً الى خدمة مصالحهم، فحاول التدخل، الأمر الذي لم يرق لمحارب، فانفصل عنه وقد بلغت خلافاتها حداً ادى الى الاصطدام المسلح بين

---

(١٢٨) المصدر نفسه: ٢/١٨٨١.

(١٢٩) المصدر نفسه: ٢/١٨٨٢، ابن الاثير، الكامل: ٥/٣٢٦-٣٢٧.

(١٣٠) الطبري، تاريخ: ٢/١٩٧٦-١٩٧٧، ابن الاثير، الكامل: ٥/٣٢٦-٣٢٧.

الطرفين ، حيث قاتلت قوات ابن معاوية بقيادة اخيه يزيد ، محارباً وجماعته ، فانهزم الأخير الى كرمان حيث لقي مصرعه هناك.[١٣١]

وبالاضافة الى الموالي ، انضم الى هذه الحركة عدد آخر من مختلف الفئات التي كانت تنقم على الامويين ، من أمثال الخوارج ،وغيرهم مما وسع دائرة الحركة ، وشجعها على الاستمرار ، فسيطر ابن معاوية على أموال الجباية من الأقاليم ، وعين العمال على المناطق التابعة له.[١٣٢] ويرى احد الكتاب المحدثين ،[١٣٣] ان كل محاولة لايجاد اساس ايديولوجي لهذا الخليط الذي انضم الى الحركة ، يشكل تحدياً للمنطق ، وان انعدام التنظيم وايديولوجيته هما السبب الأساس في ضعف هذه الحركة. ويمكن ان يكون هذا القول صحيحاً بالنسبة لانعدام التنظيم ، ولكن الاساس الايديولوجي الوحيد الذي اتفقت عليه عناصر هذه الحركة ومن انضم تحت لوائها من مختلف الفئات الناقة على الدولة الأموية ، هو محاولة هدم هذه الدولة واسقاطها ، وان كانت أهداف كل مجموعة تختلف عن غيرها في الغاية من ازالة السلطة.

استمرت هذه الحركة لمدة سنتين بسبب انشغال الخليفة مروان بن محمد في تثبيت سلطته في بلاد الشام والجزيرة ، وما أن تفرغ لها وحول جهده اليها ، حتى وجد المتمردون جميعاً أن لا أمل لهم بالنجاح. فقد وجه اليهم والي العراق الجديد ، يزيد بن عمر بن هبيرة ، قوتين كبيرتين استطاعتا ان تهزما ابن معاوية عند مرو الشاذان ، فهرب الى خراسان. أما بقية رؤوس عناصر حركته ، ففروا الى مناطق بعيدة مختلفة ، مثل السند ، وعُمان ، ومصر. وقد قتل بقية المشتركين في الحركة أو أسروا ، حيث تشير الروايات ، التي ربما كانت تبالغ في عدد الأسرى ، الى أنهم بلغوا نحو أربعين ألفاً من الرجال.[١٣٤]

كانت خراسان قد وقعت تحت سلطة ابي مسلم الخراساني ، الذي كان يعمل باسم الثورة العباسية ، وقد أمر ابو مسلم عامله على هراة بالقبض على عبدالله بن معاوية واخوته وحبسهم ، ثم امره اخيراً بقتل ابن معاوية واطلاق سراح اخويه الحسن ويزيد ، نقتل سنة ١٢٩ هـ/٧٤٦م ، ودفن في هراة.[١٣٥]

---

(١٣١) الطبري ، تاريخ : ٢/١٩٧٧-١٩٧٨ ، ابن الاثير ، الكامل : ٥/٣٧١.

(١٣٢) المصدر نفسه : ٥/٣٧١.

(١٣٣) شعبان ، المرجع السابق ، ص ١٨٢.

(١٣٤) الطبري ، تاريخ : ٢/١٩٨٠ ، ابن الاثير ، الكامل : ٥/٣٧٢.

(١٣٥) المصدر نفسه : ٥/٣٧٣.

ويبدو أن توجه ابن معاوية الى خراسان كان بسبب طموحه في امكانية الحصول على تأييد ابي مسلم له ، لاسيما وان الاخير كان يدعو للرضا من آل محمد . ولكن ابا مسلم لم يكن بحاجة الى وجود عبدالله بن معاوية بعد ان فشلت حركته ، وتفرق اتباعه . وربما شعر بخطورة وجوده في خراسان وتهديده للحركة الجديدة التي قامت هناك لاستقطاب مختلف العناصر الساخطة على الخلافة الأموية . وكان الفرس من اهالي خراسان قد أيدوا الثورة العباسية وانضموا اليها بغية الانحراف بها عن أهدافها الأساسية ، من اجل ضرب الحكم العربي والسلطة الشرعية للدولة . وكان ابو مسلم على رأس هؤلاء ، لهذا لم يطمئن الى وجود عبدالله بن معاوية فتخلص منه . وهكذا لقي قائد هذه الحركة حتفه على يد الفرس ، الذين زيّنوا له العصيان أولاً وشجعوه عليه ، ثم تخلوا عنه وقتلوه بعدما أفل نجمه ، ولم يعد الرجل المناسب لتحقيق اهدافهم ضد العرب .

من هنا

ثالثاً : الحركة الزبيرية :

سميت هذه الحركة بالزبيرية نسبة الى عبدالله بن الزبير بن العوام ، احد كبار الشخصيات القرشية في الحجاز ، الذي كان يطمح الى منصب الخلافة ، ويعارض السلطة الأموية . ولكنه لم يظهر هذه المعارضة ايام معاوية بن أبي سفيان حتى عهد الأخير بتولية ابنه يزيد العهد ، فاستاء من ذلك ، ورفض أن يبايع يزيد ، ولما توفي الخليفة معاوية ، حاول ابنه يزيد الحصول على بيعة كبار رجالات الحجاز ، وعلى رأسهم الحسين ابن علي ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير . وكتب الى عامله على المدينة المنورة ، الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، أن يأخذهم بالقوة ، لاسيما الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير . ولكن والي المدينة لم يعمد الى تنفيذ أوامر يزيد بسرعة ، فأتاح بذلك الفرصة لكل من الحسين وعبدالله بن الزبير بالخروج سراً الى مكة [١٣٦] .

أقام ابن الزبير في مكة ، بينما غادر الحسين ، كما أسلفنا الى العراق حيث استشهد في كربلاء . وبعد استشهاد الحسين خلا الجو لابن الزبير للدعوة لنفسه ، فخطب في أهل مكة منتقداً أهل الكوفة خاصة ، والعراقيين عامة على موقفهم السلبي من حركة الحسين ،

(١٣٦) اليعقوبي ، تاريخ : ٢٤١/٢ .

كما ندد بسياسة الأمويين التي أدت الى تلك المأساة. وقد شجعه أصحابه من أهل مكة على اظهار بيعته، بعد أن كان يبايع الناس سراً، ويظهر انه عائذ بالبيت (١٣٧). وحاول أن يؤكد على الجانب الديني في شخصيته، فقلد الخليفة عمر بن الخطاب في حمل الدرة والطواف بالأسواق، كما ادعى ان الخليفة عثمان بن عفان كان قد جعله على رأس المدافعين عن داره من الرجال، رغم وجود الكثير من رجالات قريش وصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، الذين كانوا أكثر أهلية لمثل هذا العمل. وقد استغل قرابته من الرسول من جهة امه وأبيه، واعتقاد أهل الحجاز أن أولاد الصحابة الأولين هم أولى الناس واحق بالخلافة، لتأكيد حقه في الدعوة لنفسه (١٣٨).

وكان الجو العام في الحجاز مشجعاً لابن الزبير على القيام بهذه الحركة، فبالاضافة الى العوامل السياسية، واعتقاد أهل الحجاز ان الخلافة يجب أن تعود كما كانت في عهد الراشدين، وأن ترجع المدينة عاصمة للدولة العربية الاسلامية، كانت هناك عوامل اقتصادية ايضاً وراء التأييد الذي حصل عليه ابن الزبير. فلقد استاء الكثير من اهل الحجاز من بعض الاجراءات المالية التي أدخلها معاوية بن أبي سفيان، والتي جعلت كل اقليم يساهم في نفقات الدولة، وأن العطاء يمنح فقط مقابل الخدمة العسكرية للدولة، الأمر الذي جرد عدداً كبيراً من اهل الحجاز من عطائهم باعتبارهم ورثة لمستلمي العطاء الأولين (١٣٩). كما استاء اهل الحجاز ايضا من امتلاك الأمويين، لاسيما الخليفة معاوية للمقاطعات الزراعية الكبيرة، مما أثر على سيطرتهم على اسواق الحبوب في الحجاز، وغلاء اسعارها بالمقارنة مع بقية الأقاليم في الدولة العربية الاسلامية (١٤٠).

أدت هذه الاحوال الى التذمر والاستياء، لاسيما في المدينة المنورة، حيث ثار الناس على السلطة الأموية، واخرجوا عامل يزيد بن معاوية، عثمان بن محمد بن أبي سفيان، كما خلعوا طاعة يزيد، وحاصروا كل من فيها من بني أمية واضطروهم على الخروج منها (١٤١). ونتيجة لهذه الاحداث، أرسل الخليفة يزيد بن معاوية جيشاً من أهل الشام يقدر عدده بنحو اثني عشر الف رجل بقيادة مسلم بن عقبة المري. وكانت غايته القضاء

---

(١٣٧) الطبري، تاريخ: ٢/٣٩٦-٣٩٧.
(١٣٨) ينظر: الدوري، **مقدمة في تاريخ صدر الاسلام**، ص ٦٤؛ دكسن، **المرجع السابق**، ص ٢١٥.
(١٣٩) المرجع نفسه، ص ٢١٥-٢١٦.
(١٤٠) ينظر: اليعقوبي، **تاريخ**: ٢/٢٣٤، ٢٥٠؛ دكسن، **المرجع السابق**، ص ٢١٦.
(١٤١) الطبري، **تاريخ**: ٢/٤٠٥ فما بعدها.

على الاضطرابات في المدينة ، والتوجه بعد ذلك لاخماء حركة ابن الزبير في مكة . ولقد استطاعت هذه القوة بالفعل أن تهزم أهل المدينة في موقعة الحرة سنة ٦٣هـ/٦٨٢م ، وتدخل المدينة وتعيد فيها السلطة الاموية[١٤٢] . بعد ذلك غادرت هذه القوة الى مكة ، وفي الطريق توفي قائدها ، فتولى الحصين بن نمير السكوني القيادة ، فسار الى مكة وحاصرها وضربها بالمنجنيق لمدة أربع وستين يوماً . ودافع ابن الزبير وأنصاره عن مكة ، وكان قد جاءه أحد زعماء الخوارج ، نجدة بن عامر الحنفي ، في جماعة من أنصاره ، فوقفوا الى جانبه في القتال . وبينما كان القتال دائراً بين الطرفين ، وصل خبر موت الخليفة يزيد ، الذي توفي في شهر ربيع الاول من سنة ٦٤هـ/٦٨٣ ، فتوقفوا عن القتال[١٤٣] .

وتشير المصادر الى تغير موقف القائد الحصين بن نمير السكوني بعد سماعه بنبأ وفاة الخليفة يزيد ، حيث طلب مقابلة ابن الزبير ، والتفاوض معه بشأن المتغيرات الجديدة . وقد عرض الحصين على ابن الزبير الذهاب معه الى الشام ليأخذ له البيعة من أهلها قائلاً : «ان يك هذا الرجل [يقصد الخليفة يزيد] قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر هلم فلنبايعك ثم اخرج معي الى الشام فان هذا الجند الذين هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لايختلف عليك اثنان وتُؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة»[١٤٤] . فأبىٰ ابن الزبير أن يقبل بهذا العرض . وتوعد بالثأر من اهل الشام . وكان الحصين يكلمه سراً ، وهو يجيب عليه جهراً ، فاستاء الحصين من ذلك ، وقال : «قبح الله من يعدك بعد هذا داهياً قط أو أديباً قد كنت أظن أنَّ لك رأياً ألا أراني اكلمك سراً وتكلمني جهراً وادعوك الى الخلافة وتعدني القتل والهلكة ، ثم قام فخرج ...»[١٤٥] .

وبعد وفاة يزيد بن معاوية مالت معظم أقاليم الدولة العربية الاسلامية الى بيعة ابن الزبير ، فامتدت سيطرته على هذه الأقاليم ، وعين الولاة عليها ، من ذلك مثلاً مصر التي عين عليها عبد الرحمن بن جحدم الفهري ، والكوفة التي عين عليها عبدالله بن مطيع ، والبصرة التي عين عليها الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة ، وخراسان التي عين عليها

---

(١٤٢) المصدر نفسه : ٢/٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤٢٣ .
(١٤٣) المصدر نفسه : ٢/٤٢٤-٤٢٩ .
(١٤٤) المصدر نفسه : ٢/٤٣١ .
(١٤٥) المصدر نفسه : ٢/٤٣١ ، وينظر ايضاً : اليعقوبي ، تاريخ : ٢/٢٥٣ .

عبدالله بن خازم السلمي ، كما عين على اليمن التي خضعت الى سلطته ايضاً ولاة متعددين ، خلال الحقبة التي سيطر فيها عليها.[١٤٦] وقد انقسم أهل الشام على انفسهم بالنسبة للموقف من ابن الزبير والأمويين ، فأيد بعضهم الحركة الزبيرية ، خاصة مجموعات من جند فلسطين ، ودمشق ، وحمص . وقنسرين ، والعواصم ، ووقف أهل الأردن وحدهم بقيادة حسان بن بحدل الكلبي في الصف المعارض لهذه الحركة[١٤٧] .

ولكن تطور الاحداث في بلاد الشام سار في غير صالح ابن الزبير ، فقد اجتمعت معظم اجناد أهل الشام في الجابية من أرض دمشق ، وتناظروا في أمرهم ، وقرروا البقاء على الولاء لبني أمية ، واختيار مروان بن الحكم خليفة للمسلمين ، ومقاومة المعارضين لهذا الأمر ، لاسيما عامل ابن الزبير على دمشق الضحاك بن قيس الفهري ، ومن يؤيده من بقية الأجناد في حمص وقنسرين ، وقد وقعت معركة عنيفة بين الطرفين في مرج راهط ، وهو سهل في شرقي دمشق ، انتهت بمقتل الضحاك بن قيس الفهري في المحرم سنة ٦٥ هـ/ تموز ٦٨٤ م ، وانتصار مروان بن الحكم ومؤيديه من الاجناد ، ثم تمت السيطرة على دمشق ، وبقية بلاد الشام التي عادت الى طاعة الدولة الأموية .[١٤٨]

لم يترك مروان بن الحكم الفرصة لابن الزبير للاستمرار في السيطرة على بقية المناطق من الدولة العربية الاسلامية ، فتوجه فور احكام سيطرته على بلاد الشام ، على رأس جيش الى مصر ، واستعادها من عامل ابن الزبير ، وأخذ فيها البيعة لنفسه ، واستعمل عليها ابنه عبد العزيز بن مروان[١٤٩] . ثم رجع الى الشام ، وأرسل من هناك حملتين ، احداهما الى الحجاز بقيادة حبيش بن دلجة القيني ، والاخرى الى العراق ، بقيادة عبيدالله ابن زياد . وقد فشلت الحملة الاولى في تحقيق أهدافها في السيطرة على الحجاز والقضاء على ابن الزبير ، فلحقت بها الهزيمة في الربذة خارج المدينة . وكان من جملة من انهزم في هذه

---

(١٤٦) ينظر: عمر بن علي بن سمرة الجعدي ، **طبقات فقهاء اليمن** ، تحقيق ، فؤاد سيد (القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٥٧) ص ٤٨-٤٩ .

(١٤٧) اليعقوبي ، تاريخ : ٢/٢٥٥ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/٤٦٩ .

(١٤٨) اليعقوبي ، تاريخ : ٢/٢٥٦ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/٤٧٢ فما بعدها .

(١٤٩) ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم ، **فتوح مصر واخبارها** ، نشر: شارلس توري (نيوهيفن ، ١٩٢٢) ، ص١٠٧ ، ١٤٥ . الكندي ، **كتاب الولاة وكتاب القضاة** ، ص٤٢ فما بعدها .

الحملة الحجاج بن يوسف الثقفي وابوه[١٥٠] . أما حملة ابن زياد ، فقد إنشغلت في الجزيرة الفراتية بقتال زفر بن الحارث الكلابي ، أحد المناوئين للخلافة ، ولم تتمكن من الذهاب أبعد من ذلك ، وتعذر عليها تنفيذ خطتها في حياة الخليفة مروان بن الحكم ، الذي توفي سنة ٦٥هـ/٦٨٤م ، بعد حكم قصير لم يدم اكثر من تسعة أشهر[١٥١] .

خَلَفَ عبدالملك بن مروان اباه في الحكم ، ووجه همّه الى اعادة هيبة الخلافة الأموية ، وتوحيد الأمة . وكانت مشكلة ابن الزبير من أهم المشاكل التي يتوجب عليه حلها والخلاص من خطرها . ولكنه بالاضافة الى هذه المشكلة ، جوبه بعدة اخطار اخرى ، كان لابد من التخلص منها أولاً ، منها التهديد البيزنطي للدولة العربية ، حيث استغل الاعداء تفكك الجبهة الداخلية ، فحرضوا بعض عملائهم في الداخل ، لاسيما الجراجمة الذين كانوا يسكنون في جبل اللكام . وقد اضطر عبد الملك الى عقد معاهدة مع البيزنطيين ، صالحهم فيها لفترة مؤقتة مقابل ألف دينار في الاسبوع ، ليتفرغ للقضاء على مشاكله الداخلية[١٥٢] . ثم التفت الى توطيد الجبهة الداخلية في بلاد الشام ، فقضى على حركة أحد أقاربه ، عمرو بن سعيد الأشدق ، الذي حاول التغلب على مدينة دمشق ، والحصول على الخلافة[١٥٣] . بعد ذلك توجه الى الجزيرة الفراتية ، حيث صالح في قرقيسياء زفر بن الحارث الكلابي[١٥٤] .

ولما تم لعبد الملك التخلص من هذه الاخطار، وجه همه الى القضاء نهائياً على حركة ابن الزبير ، فبدأ بالعراق ، حيث كان مصعب بن الزبير والياً عليه من قبل أخيه . وقد استغل عبد الملك فرصة غياب مصعب عن البصرة ، فحاول أن يجذب أنصار الامويين فيها للوقوف الى جانبه ضد مصعب . وقد نجح في ذلك أول الامر، وتمكن أحد قادته ، خالد بن عبدالله بن أسيد ، من السيطرة على البصرة . ولكن والي المدينة لمصعب بن الزبير تمكن من القضاء على هذه الحركة بعد أن جاءته نجدة من ألف فارس من مصعب ، فتحول ميزان القوى لصالح الزبيريين، وأسفرت المعركة التي جرت بين الطرفين عن هزيمة خالد بن عبدالله بن أسيد سنة ٧٠هـ/٦٨٩م ، ومنحه الامان ، مع من أيده من

---

(١٥٠) البلاذري ، انساب : ١٥٣/٥ ؛ اليعقوبي ، تاريخ : ٢٥٦/٢ .

(١٥١) ينظر: المصدر نفسه : ٢٥٧/٢ ؛ ابن الأثير، الكامل : ١٩٠/٤ .

(١٥٢) البلاذري ، فتوح ، ص١٦٤ .

(١٥٣) المسعودي ، مروج الذهب : ١٠٩/٣ - ١١٠ ؛ الطبري ، تاريخ : ٧٨٤/٢ - ٧٩١ .

(١٥٤) ابن الأثير، الكامل : ٣٤٠/٤ .

البصريين ، فترك البصرة عائداً الى دمشق . وقد حاول مصعب ان يدخل البصرة قبل مغادرة خالد لها ، فلم يفلح ، ومع ذلك ، فقد أنزل عقاباً شديداً بجميع اولئك الذين ابدوا التمرد فيها(١٥٥) .

وصل عبد الملك الى العراق على رأس جيش كثيف ، جعل على مقدمته أخاه مروان بن محمد . وكانت الظروف في العراق قد بدأت بالتحول تدريجياً لصالح الأمويين ، حيث حقد أهل الكوفة على مصعب لقتله المختار الثقفي ونحو ستة آلاف من اتباعه(١٥٦) . وكان اهل البصرة ايضاً قد نقموا عليه لانتقامه منهم بعد فشل حركة خالد بن عبد الله بن أسيد . وبذلك فقد عزل مصعب بن الزبير نفسه عن اهل البصرة والكوفة . يضاف الى ذلك ، فإن الطبيعة القبلية لهؤلاء كانت تدفعهم دوماً لعدم الخضوع والولاء المتغير من حاكم لآخر(١٥٧) . وقد حاول مصعب أن يكسب ولاء أهل البصرة باعطائهم العطاء مرتين في السنة ، ولكن دون فائدة(١٥٨) . كما أن قوة مصعب كانت قد ضعفت بسبب المجابهة المستمرة مع الخوارج ، لاسيما وأن أهل البصرة كانوا مصرين على عدم قتال عبد الملك ، الا بعد أن ينتهي الخطر الخارجي ، وهكذا فقد اضطر مصعب على التخلي عن جزء من جيشه بقيادة المهلب بن أبي صفرة لقتال الخوارج(١٥٩) .

وكان عبد الملك مطلعاً على هذه الامور جميعاً ، فاستغل الفرصة ، وأخذ يكاتب قادة مصعب ، ويمنيهم بالأموال ، والأمان ، وتولي الولايات . ومن جملة الذين كتب اليهم عبد الملك ، ابراهيم بن مالك الأشتر ، الذي استدعاه مصعب وجعله على مقدمة جيشه . وقد سَلَّم ابراهيم رسالة عبد الملك دون أن يفتحها الى مصعب ، وأخبره أن جميع القادة الآخرين قد استلموا مثل هذه الرسالة ، واحتفظوا بها لأنفسهم ، ونصحه بان يلقي القبض عليهم لحين انتهاء المعركة . ولكن مصعباً لم يأخذ بهذه النصيحة(١٦٠) . وكانت نتيجة المعركة الحاسمة التي وقعت بين الطرفين في سنة **٧٢هـ/٦٩١م** بدير الجاثليق بالقرب من

---

(١٥٥) الطبري ، تاريخ : ٢/٧٩٨- ٨٠٠ ، ٨٠١-٨٠٣ .

(١٥٦) البلاذري ، أنساب : ٥/٢٦٢- ٢٦٣ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/ ٧٤٠- ٧٤١ .

(١٥٧) يقارن : دكسن ، المرجع السابق ، ص٢٠٩ .

(١٥٨) البلاذري ، انساب : ٥/٢٧١ .

(١٥٩) المصدر نفسه : ٥/٣٣٢ ، ٣٤٤- ٣٤٥ ؛ وينظر : دكسن ، المرجع السابق ، ص٢١٠ .

(١٦٠) البلاذري ، أنساب : ٥/٣٣٧ ، ٣٤٠- ٣٤١ ؛ الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٣١١- ٣١٢ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/٨٠٥- ٨٠٦ .

الانبار، هزيمة مصعب، ومقتله مع عدد كبير من أنصاره، وعلى رأسهم قائده ابراهيم بن مالك الاشتر. ثم دخل عبدالملك الكوفة، ودعا الناس الى بيعته، فبايعه أهلها، ووزع عليهم الاعطيات، وعين أخاه بشر بن مروان عاملاً على العراق. أما أهل البصرة، فقد بايعواهم أيضاً لعبدالملك بعد أن سمعوا بانتصاره، كذلك بايع قائدهم المهلب بن ابي صفرة، ودخل الجميع في طاعة الدولة الأموية[١٦١].

وبعد الانتصار على مصعب، وجه عبدالملك همه للقضاء على اخيه عبدالله بن الزبير في الحجاز، فاختار الحجاج بن يوسف الثقفي لقيادة الحملة المكلفة بهذا الواجب. وكان لكفاءة الحجاج التي أظهرها في استعادته الضبط والنظام بين جند الخليفة عندما كان على ساقة جيش عبدالملك في حملته على مصعب بن الزبير، اثر كبير في اختياره لهذا المنصب. يضاف الى ذلك جهوده في حمل اهل الشام على التأهب والاسراع للالتحاق بجيش الخليفة، فقد كان الحجاج لايمر على باب رجل من أهل الشام قد تخلف عن الخروج الا أحرق عليه داره. ويختلف المؤرخون في عدد الجند الذين رافقوا الحجاج في هذه الحملة، ولكن الروايات المعتدلة تقدرهم بنحو الفين الى ستة آلآف رجل[١٦٢].

سار الحجاج بهذه القوة الى الحجاز، وكان الخليفة عبدالملك قد سلّمه أمانا، لابن الزبير ولمن معه، ان دخلوا في طاعته. ولم يتعرض الحجاج للمدينة المنورة، بل سلك طريقاً آخر أوصله الى الطائف، مسقط رأسه، حيث اتخذها في أول الأمر مركزاً لقيادته، ومنها كان يرسل البعوث لمناوشة ابن الزبير. وكانت هذه المناوشات غالباً ماتنتهي بانتصار جند الشام على اتباع ابن الزبير. ولما اعتقد الحجاج أن هذه المناوشات لن تؤدي الى نتيجة حاسمة، كتب الى الخليفة يسأله المدد، وأن يأذن له بمهاجمة مكة والقضاء نهائياً على ابن الزبير. فوافق عبدالملك بن مروان على طلب الحجاج، وكتب الى طارق بن عمرو، الذي كان قد أرسله قبل حملة الحجاج الى شمال الحجاز مع خمسة آلآف رجل من اهل الشام، كتب اليه أن ينضم الى الحجاج بن يوسف للعمل سوية على انهاء حركة ابن الزبير. وترك

---

(١٦١) ينظر: الدينوري، **الاخبار الطوال**، ص٣١٣؛ ابن الأثير، **الكامل**: ٣٢٩/٤، ٣٣٤.

(١٦٢) البلاذري، **أنساب الاشراف**، طبعة اهلورت، ص٣٨؛ الطبري، **تاريخ**: ٨٣٠/٢؛ وينظر ايضاً: طه، العراق في عهد الحجاج، ص ٣٦- ٣٧.

الحجاج الطائف في ذي العقدة من عام ٧٣هـ /٦٩٢م ، وتوجه الى مكة وحاصر فيها ابن الزبير ، ونصب المجانيق على جبل أبي قبيس المطل على مكة .(١٦٣)

استمر الحصار الذي فرضه الحجاج على مكة الى مايقرب من ستة أشهر ، عانى فيها ابن الزبير واتباعه كثيراً بسبب نقص المواد الغذائية ، في حين كانت تجهيزات اهل الشام من الكعك والدقيق والسويق تأتي اليهم من بلادهم . فتفرق اصحاب ابن الزبير عنه ، وخذله معظمهم خذلاناً شديداً ، وجعلوا يخرجون الى الحجاج ، حتى بلغ عدد من التجأ اليه نحو عشرة الآف رجل ، من ضمنهم اثنين من ابناء عبدالله بن الزبير ، هما حمزة وخبيب ، حيث أخذا منه أماناً لانفسها(١٦٤) . كذلك تمكن جند الحجاج من تطويق المسجد الحرام من كل ناحية ، وقد تم وضع خطة محكمة لاجتياح المسجد والوصول الى ابن الزبير الذي اعتصم فيه ، وذلك بتقاسم كافة أجناد الشام الممثلين في الحملة الدخول من ابواب المسجد ، فكان على جند حمص الدخول من الباب الذي يواجه الكعبة ، وعلى جند دمشق الدخول من باب بني شيبة ، وعلى جند الأردن الدخول من باب الصفا ، اما جند فلسطين ، فعهد اليهم بباب بني جمح ، كما عُهد الى جند قنسرين بباب بني سهم . اما الحجاج وطارق بن عمرو ، فكانا مع قوة من رجالهما في ناحية الابطح الى المروة . وقد قاتل ابن الزبير مع القلة التي صمدت معه ببسالة ، الى أن قتل في جمادى الاولى سنة ٧٣هـ /٦٩٢م . ثم دخل الحجاج مكة فأخذ البيعة من أهلها لعبدالملك بن مروان(١٦٥) . وأُسندت اليه ولاية مكة والمدينة بالاضافة الى اليمن واليمامة(١٦٦) .

وبهزيمة ابن الزبير ، مُني اقليم الحجاز بنكسة سياسية لها مغزاها ، حيث فقد الأمل نهائياً في استرجاع مكانته التي كان عليها أيام الراشدين . وكانت محاولة ابن الزبير آخر المحاولات السياسية التي بذلها الحجاز في هذا المضمار . ولكن ماهي العوامل التي أدت الى هذه الهزيمة؟ لاشك أن هناك عوامل متعددة لاتقتصر فقط على شخصية ابن الزبير ومواقفه ، انما تشمل كل الظروف المحيطة به ، والتطورات التي طرأت على الدولة العربية الاسلامية بعد تولي عبدالملك بن مروان للخلافة .

---

(١٦٣) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص٣١٤ ؛ الطبري ، تاريخ : ٨٣٠/٢ .

(١٦٤) الطبري ، تاريخ : ٨٤٥/٢ .

(١٦٥) المصدر نفسه : ٨٤٩/٢ – ٨٥٢ .

(١٦٦) المصدر نفسه : ٨٥٤/٢ ؛ وينظر ايضاً : ابن خياط ، تاريخ : ٢٩٤/١ ؛ البلاذري ، انساب ، طبعة اهلورت ، ص٦٧ ، ١٨٩ ؛ المسعودي ، مروج الذهب : ١٢٢/٣ .

ويبدو أن ابن الزبير كان أقل كفاءة في الامور السياسية من منافسه عبدالملك، فقد أضاع فرصاً كثيرة، كان يمكن الاستفادة منها في دعم حركته وسرعة انتشارها، منها عدم التوصل الى اتفاق مع الخوارج الذين جاءوا اليه بقيادة نجدة بن عامر الحنفي. كذلك رفضه لعرض الحصين بن نمير السكوني، الذي ضمن له بيعة أهل الشام، اذا ماوافق على الذهاب معه الى دمشق. والواقع ان اصرار ابن الزبير على البقاء في الحجاز، وحجز نفسه في مكة، جلب عليه نتائج سلبية، منها ان الحجاز منطقة فقيرة من الناحية الاقتصادية وتعتمد على المناطق الاخرى في معيشتها، ويمكن محاصرتها بسهولة، الأمر الذي أدى بالنهاية الى انهيار مقاومة ابن الزبير نتيجة نقص المواد الغذائية. كذلك فان اعتماد ابن الزبير على الآخرين في نشر الدعوة لنفسه، لم يمكنه من النجاح، فقد اعتمد على اخيه مصعب في العراق، وعلى الضحاك بن قيس في الشام، وزفر بن الحارث في الجزيرة. وكان من الحكمة أن يتولى ذلك بنفسه، لأن هؤلاء انشغلوا بمسائل جانبية صرفتهم عن التفرغ الكامل للقضية.

فبالنسبة للعراق، انشغل مصعب في حرب الخوارج، وحرب المختار الثقفي، بالاضافة الى مقاومة الأمويين، الأمر الذي شتت قوته وأضعفه فتمكن عبدالملك في النهاية من الانتصار عليه. كذلك انهمك الضحاك بن قيس الفهري بالصراع مع بقية قبائل الشام، والدخول في حرب أهلية انتهت بموته. أما زفر بن الحارث، فقد توصل الى عقد الصلح مع عبدالملك، نتيجة لبعده عن ابن الزبير، ولشعوره بان الاحداث تسير في صالح الخلافة الأموية.

يضاف الى هذه العوامل أن ابن الزبير لم يكن على استعداد لصرف الاموال بسخاء في سبيل قضيته. فقد كان رجلاً متردداً جداً في التخلي عن امواله حتى ولو أنها كانت ستعود بمردودات ايجابية على حركته. وهذا على عكس مناوئيه، لاسيما عبدالملك بن مروان، الذي كان لايتردد في البذل بسخاء لمن يؤيده. وقد عرف عبدالملك هذه الصفة عند ابن الزبير فتنبأ له بعدم النجاح، كما عرف ذلك عنه أيضاً أصحابه والمقربين منه وتنبؤا له بالفشل، نتيجة هذه السياسة الخاطئة[١٦٧].

---

(١٦٧) ينظر: اليعقوبي، تاريخ: ٢/٢٦٧ - ٢٦٨؛ حسن، تاريخ الاسلام السياسي: ١/٤١٤ - ٤١٦؛ دكسن، المرجع السابق، ص٢١٦ - ٢١٧.

رابعاً : حركة ابن الأشعث :

نسبت هذه الحركة الى عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي ، الذي يعود بنسبة الى ملوك كندة قبل الاسلام . وهو حفيد الأشعث بن قيس ، القائد الكبير في حروب الردة وحملات تحرير العراق . وقد استخدم الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق في عهد عبدالملك بن مروان بن الحكم هذا القائد ، وجعله على رأس جيش كبير وجهه الى منطقة سجستان في ربيع عام ٧٩هـ / ٦٦٩م لتأمين سيطرة الدولة العربية على الاجزاء الشرقية ،بعد أن هدد (زنبيل) ملك سجستان أمن هذه الجهات . وكان هذا الجيش الذي قاده ابن الأشعث متميزاً في تجهيزاته وعدته ، حتى سُمي بجيش الطواويس ، لتكامله وزهو أفراده[١٦٨] .

ابتدأت عوامل حركة ابن الأشعث المباشرة بالظهور حين اختلف مع الحجاج بن يوسف في الطريقة التي اتبعها في القضاء على قوة (زُنبيل) فعلى الرغم من تحقيقه لعدة انتصارات على الأخير، لم يتوغل في بلاده خوفاً من انقطاع خطوط مواصلاته ، يضاف الى ذلك تأجيله للاستمرار بالفتح الى العام المقبل ، واعلامه الحجاج بذلك . ولكن الأخير لم يرضى عن هذه الخطة وعدّها تسويفاً وموادعة من ابن الأشعث ، وأن سبب ذلك هو الجبن لا المكيدة والحرب[١٦٩] . وقد كتب الى ابن الأشعث بذلك ، فغضب هذا من كتاب الحجاج ، واتخذه ذريعة للتمرد والعصيان ، لاسيما وأن هناك عوامل اخرى عديدة كانت تزين له القيام بالتمرد والمطالبة بالسلطة ، منها انه كان يعتز بنفسه كثيراً ويأنف من طاعة أي عربي آخر نظراً لعلو نسبه ورفعة قدره ، كما كان مغتراً بنفسه في الحرب ، ولايحب أن يسمع نصيحة أحد . وقد ذكر عنه انه كان يقول : « مارأيت قط أميراً فوقي الا ظننت أني احق بامرته منه »[١٧٠] .

---

(١٦٨) البلاذري ، أنساب ، طبعة اهلورت : ١١/ ٣٢٠ .

(١٦٩) المصدر نفسه : ١١/٣٢١- ٣٢٤ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/١٠٤٥- ١٠٤٦ ، ١٠٥٢ - ١٠٥٣ .

(١٧٠) البلاذري ، انساب ، طبعة اهلورت : ١١/٣١٨ .

وهكذا أعلن ابن الأشعث تمرده على السلطة وأيده بعض أتباعه والمناوئين للحكم العربي ، وكان ذلك سنة ٨١هـ / ٧٠٠م[١٧١] . وقد اكتفى المتمردون أول الأمر بخلع الحجاج بن يوسف فقط ، ولكن تلهف ابن الأشعث على السلطة ، وازدياد أتباعه والمنضمين اليه شجعه على خلع الخليفة عبدالملك بن مروان ايضاً . وبذلك اكتسبت هذه الحركة بعداً جديداً ، وهو القضاء على السلطة الشرعية للدولة العربية بمساعدة عناصر مناوئة اتخذت من تمرد ابن الأشعث وجنوده ستاراً لتمرير مخططاتها وأهدافها ضد العرب .

ان احتضان الحركة لعناصر اخرى لاعلاقة لها بطموح ابن الأشعث ساعد على توسع نطاقها وانتشارها . من ذلك مثلاً انضمام بعض القراء اليها لاعطائها صبغة دينية[١٧٢] . ولكن بعض احداث الحركة ومواقف المشتركين فيها تشير الى مايناقض هذا الاتجاه الديني ، فقد اعترف ابن الأشعث نفسه بعد هزيمته في دير الجماجم قرب الكوفة ، انه لم يكن سوى طالب دنيا ، لاطالب دين ، حيث قال :

فماكنا أناساً أهل دين ... فنصبر للبلاء اذا ابتلينا
ولكنا أناس أهل دنيا ... فتنصرنا وان لم نرج دينا

يضاف الى ذلك اننا نجد حتى بين القراء من رفض الاشتراك في الحركة واعتزلها لعدم تأكده من أنه لايكون آثماً بخروجه مع القراء . فعندما طلب هؤلاء من الحسن بن يسار البصري أن يبدي رأيه في الاشتراك فيها قال : «ارى أنها فتنة صماء ذلك انكم لم تختلفوا في رب ولانبي ولاكتاب ولاقبلة فرحم الله عبداً اتقى ربه ونظر ليوم معاده ...»[١٧٣] . وبعد فشل الحركة أظهر بعض القراء ندمهم على الاشتراك فيها ، فقال طلحة بن مُصَرف ، وهو أحد قراء الكوفة : وددت أن يدي قطعت ولم أشهد دير الجماجم ، وذكر انه تمنى لو مات قبل دير الجماجم بعشرين سنة . اما الشعبي ، فوصف الحركة على أنها «... فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولافجرة أقوياء»[١٧٤] .

---

(١٧١) ابن خياط ، تاريخ : ٢٨٤/١ ، الطبري ، تاريخ : ١٠٦٢/٢ ؛ وينظر: محمد جاسم المشهداني ، «حركة عبد الرحمن بن محمد الأشعث» ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٢٨ ، السنة الحادية عشرة ، ١٩٨٦ ، ص٧٧ .

(١٧٢) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص٣١٧ ؛ طه ، العراق في عهد الحجاج ، ص٨٤ـ ٨٦ .

(١٧٣) ابن أعثم ، الفتوح : ٧/ ١٠٦ .

(١٧٤) ينظر: ابن خياط ، تاريخ : ٢٨٧/١ ـ ٢٨٨ ؛ الطبري ، تاريخ : ١١١٢/٢ ـ ١١١٣ ؛ طه ، العراق في عهد الحجاج ، ص٨٧ـ ٨٨ .

وكان للمصالح الشخصية أثر بالغ في انضمام بعض العناصر الى هذه الحركة ، فقد اعترف الملقام بن نعيم بن القعقاع ، احد المشاركين فيها ، أنه كان يرجو أن يصبح ابن الأشعث خليفة فيوليه العراق (175) . ويبدو من بعض مواقف الشاعر المعروف بأعشى همدان ، انه كان يطمع في الاموال التي كانت بيد ابن الأشعث ، فطلب منه أن يعطيه بسخاء بسبب تأييده له (176) . كما استغل بعض المساهمين في التمرد الفرصة لتحقيق أطماع شخصية وتسلط على املاك الغير ، واشاعة الفوضى في البلاد ، فأحرقوا الديوان الذي يضم سجلات الأراضي ، فاستولى كل قوم على مايجاورهم وأضافوه الى أراضيهم (177) .

وقد استغل الموالي هذه الحركة التي كانت تخدم دون شك مصلحتهم في العمل على ازالة الدولة العربية أو اضعافها ونشر الفوضى بين صفوف ابنائها ، فشاركوا فيها بكل عناصرهم وفئاتهم المختلفة ، وقد وصل عددهم في هذه الحركة الى نحو مئة الف رجل (178) . لأنهم وجدوا أن هجوم ابن الاشعث وجنده على الخلافة الاموية يناسب تطلعاتهم ويحقق أهدافهم . وكان على رأس الموالي المشاركين ، فيروز حصين ، صاحب نهر فيروز بالبصرة . وقد استغرب الحجاج من وجود هذا الرجل في الحركة التي لاعلاقة له بها من الناحية الظاهرية ، لانها حركة تمرد قائد عربي ، فقال له عندما جيء به أسيراً : «أبا عثمان ماأخرجك مع هؤلاء فوالله مالحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم ...» (179) . وبطبيعة الحال ، فإن فيروز لم يساهم في الحركة حباً في ابن الأشعث ، ولم يكن من الموالي المسحوقين الذين ينادون بالمساواة أو بالعطاء أو بغير ذلك من الحجج والمبررات للتمرد ، بل كان غنياً ويملك الكثير ، وكان محترماً لدى السلطة بدليل مخاطبته بكنيته «ابو عثمان» حتى بعد أسره من قبل الحجاج . ولكن فيروز رأى الفرصة سانحة لتحقيق مايحلم به في تقويض الخلافة الاموية ، واعادة الامجاد الماضية للامبراطورية الساسانية .

---

(175) الطبري ، **تاريخ** : 2/1111 ، 1121 .

(176) أعشى همدان ، **ديوان أعش همدان** ، منشور مع كتاب : **الصبح المنير في شعر أبي بصير ميمون بن قيس بن جندل الأعشى والأعشيين الآخرين** (بيانه ، مطبعة اولف هلز هوسن ، 1927) ، ص 324- 325 .

(177) القاسم بن سلام المعروف بابي عبيد ، **كتاب الاموال** (القاهرة ، طبعة محمد حامد المفتي ، 1353) ص 283 ؛ البلاذري **فتوح البلدان** ، ص272 .

(178) الطبري ، **تاريخ** :2/1072 ؛ ويقارن : زاهية قدورة ، **الشعوبية واثرها السياسي والاجتماعي** (بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1972) ، ص59 .

(179) الطبري ، **تاريخ** : 2/1120 ؛ ابن الاثير ، **الكامل** : 4/487 .

وأيدت طبقة الموظفين الاعاجم الحركة بسبب نقمتها على الخلافة الاموية وممثلها في العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ، لأنه نفذ تعريب الدواوين الفارسية الى العربية . كما أيد الدهاقين ، وهم زعماء فلاحي العجم أو رؤساء الأقاليم والقرى ، ابن الأشعث وصاروا له عيوناً على الحجاج بسبب اصلاحات الأخير النقدية التي كانت ترمي الى تخليص العملة من التأثيرات الفارسية ، وتنظيم الجهاز المالي والاستقرار الاقتصادي في الدولة . وكان لمنع الحجاج هؤلاء الدهاقين من سك النقود والتلاعب بالعملة ، وجعل ضرب النقود من حق الدولة وحدها ، اثراً كبيراً في استيائهم ، الأمر الذي عجل في انضمامهم الى ابن الأشعث [180] .

ويبدو أن ابن الأشعث لم ينتبه تماماً الى النتائج الخطيرة التي كانت ستترتب على حركته ، بعد انضمام هذه العناصر المختلفة اليها . وقد انساق وراء أهوائه في الاستيلاء على السلطة ، وانتشى بعد أن حقق أول انتصار على قوة الدولة الشرعية بقيادة الحجاج في تستر ، احدى مناطق الاحواز ، فاعلن قائلاً : « اما الحجاج فليس بشيء ، لكننا نريد غزو عبد الملك » [181] كما صرح في دير الجماجم ، أنه أعز مكانة وشرفاً من آل مروان . [182]

وكان لابد أزاء هذه الحالة ، والتطورات الخطيرة للحركة من أن يتخذ الحجاج بن يوسف اجراءآت سريعة لمعالجة التمرد واحتوائه ، فأرسل في طلب امدادات من الخليفة في دمشق . فلما أصبح في حالة تمكنه من الزحف على المتمردين ، سار اليهم ، ونازلهم في الاحواز بالقرب من تستر ، لكن النصر كان بجانب ابن الأشعث ، واضطر الحجاج للانسحاب الى البصرة . ثم عسكر الى الشمال الشرقي منها في الزاوية ، حيث دارت معركة اخرى انتهت بانتصار قوات الحجاج ، وانسحاب ابن الأشعث الى الكوفة ، حيث احتل قصر الامارة ، وسيطر على المدينة . [183] ثم لم يلبث أن ترك هو ومؤيديه الكوفة ، وعسكر في دير الجماجم القريب منها . وكان الحجاج منشغلاً في ذلك الوقت بتجميع الامدادات التي تأتيه من الخليفة في مجموعات صغيرة ، ثم جاء اخيراً مدد كبير بقيادة ابن الخليفة ، عبد الله ، وشقيقه محمد بن مروان .

---

(١٨٠) طه ، العراق في عهد الحجاج بن يوسف ، ص٩٦ ، ١٤٤ - ١٤٥ ، ١٧٥ .

(١٨١) الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٠٦٣ .

(١٨٢) المصدر نفسه : ٢/ ١٠٧٥ .

(١٨٣) المصدر نفسه : ٢/ ١٠٨٦ - ١٠٩٥ ، ١٠٩٨ - ١٠٩٩ .

ونظراً لقوة التمرد ، واتساع المساحة الجغرافية التي تمت سيطرته عليها ، فقد ازدادت مخاوف الخلافة الاموية من النتائج الوخيمة التي قد تنجم عن نجاح المتمردين ، لذلك فقد خوّل الخليفة عبد الملك ابنه وأخيه بالتفاوض مع ابن الأشعث بشأن استسلامه هو ومؤيديه لقاء شروط تحفظ وحدة الأمة ، وهي : عزل الحجاج بن يوسف عن ولاية العراق ، ومنح أهل العراق عطاءً مساوياً لأهل الشام ، ومنح ابن الأشعث أي ولاية شاء في العراق مدى الحياة طالما كان عبد الملك خليفة . [١٨٤] وقد رفض المتمردون هذا العرض على الرغم من ميل ابن الأشعث الى قبوله ، وذهبت جهوده سدى في سبيل اقناعهم بالشروط المعروضة والموافقة عليها والتخلي عن التمرد ، ذلك أن الأمر أصبح خارج نطاق سيطرته ، وتحولت حركته الى الاتجاه الذي يريده غالبية المساهمين فيها من الفرس والموالي ، الذين أصروا على القتال ، ظناً منهم بامكانية التخلص من الدولة العربية . ولكن نتيجة المواجهة العسكرية النهائية التي أرادوها في دير الجماجم جاءت مخيبة لآمالهم . فهزموا هزيمة ماحقة ، بعد مئة يوم من القتال المرير سنة ٨٢ هـ / ٧٠١م [١٨٥] ، وهرب ابن الأشعث مع بعض مؤيديه الى الكوفة ، ومنها الى البصرة ، ثم الى سجستان ، حيث لقي مصرعه هناك في عام ٨٥ هـ / ٧٠٤م . [١٨٦] وهكذا انتهى التمرد ، وعادت وحدة الدولة العربية الاسلامية ، كما كانت سليمة قوية ، بفضل حزم وارادة قادتها الأكفاء ، وبقي اعداءها يحلمون بزوالها ، وينتظرون فرصة اخرى للانقضاض عليها ، وذلك بالانضواء تحت راية حركة اخرى مناهضة .

خامساً : حركة الحارث بن سريج :

قامت هذه الحركة في اقليم ماوراء النهر (جيحون) من الدبوسية ، [١٨٧] حيث تزعمها الحارث بن سريج متمرداً على نظام الحكم في خراسان سنة ١١٦هـ / ٧٣٤م . وقد خرج الحارث على الدولة الأموية مدعياً الاصلاح ، وزاعماً أنه المهدي المرسل من الله لتخليص

---

(١٨٤) المصدر نفسه : ٢/ ١٠٧٣ ؛ عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير ، البداية والنهاية في التاريخ (القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٣٢) : ٩/ ٤١ (برواية الواقدي) .

(١٨٥) ابن خياط ، تاريخ : ١/ ٢٨٤ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٠٧٠ ، ١٠٩٤ .

(١٨٦) المسعودي ، مروج الذهب : ٣/ ١٣٩ ، ابن الأثير ، الكامل : ٤/ ٥٠١ - ٥٠٢ ؛ وينظر: دكسن ، المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

(١٨٧) الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٩٢٣ .

المضطهدين ، والأخذ بناصر المظلومين . ولكنه لم يطالب بالخلافة لنفسه أو لغيره . وكان يرى رأي المرجئة وهي احدى الفرق الاسلامية التي ترى ارجاء الحكم على العصاة من المسلمين الى يوم البعث . وتتركز العقيدة الأساسية لديهم في عدم تكفير اي انسان أياً كان مهما ارتكب من المعاصي ، مادام قد اعتنق الاسلام ونطق بالشهادتين ، تاركين الفصل في أمره لله وحده . وقد أصبح هذا المذهب بفعل الظروف السياسية الحادة التي مرت بها الدولة العربية في العصر الأموي ، بمثابة سياسة التوفيق وجمع الشمل بين المتخالفين.(١٨٨)

وقد التحق بالحارث بن سريج أحد علماء المرجئة ، جهم بن صفوان ، الذي يُعَد من المغالين في هذا المذهب . وقد تطورت افكار المرجئة في خراسان ، وخضعت لعوامل اجتماعية واقتصادية خاصة تخالف في طبيعتها تلك التي أوجدت مذهب الارجاء في جزيرة العرب والشام والعراق ، وذلك بأن أُدخل مشروع القيام على الدولة وحمل السلاح للاصلاح بعد فشل المحاولات السلمية والتوفيقية . ومشروع القيام المسلح هذا هو أحد المبادئ الاساسية التي قامت عليها فلسفة الخوارج في الحكم . وربما أدخل الحارث بن سريج هذا الأساس الخارجي الى مبادئ الارجاء ، لان مبدأ الخوارج كان في بادئ الأمر من المبادئ التي كونت معتقداته السياسية والدينية الاولى .(١٨٩)

استولى الحارث على المدن الواقعة على شواطئ نهر جيحون بعد أن خرج من النَّخُذ ، ووصل الى الفارياب ، وأخضع بلخ والجوزجان والطالقان ومرو الروذ .(١٩٠) وبعد نجاحه في طخارستان تضخم جيشه تضخماً كبيراً ، وانضم اليه نائب ملك الترك في طخارستان العليا ، ولم يبقَ بيد الوالي الاموي في خراسان من المدن الرئيسة ، سوى مرو وأبر شهر في غرب خراسان . وقد اجتمع الى الحارث عدد كبير من الموالي الذين انتهزوا الفرصة للقيام على الدولة العربية واسقاطها ، ومنهم دهاقين كبار من أمثال دهقان الجوزجان ، ودهقان الفارياب ، وملك الطالقان ، ودهقان مرو الروذ ، وغيرهم . وقد زحف الحارث بهؤلاء

---

(١٨٨) فلهاوزن ، **المرجع السابق** ، ص ٣٦٨ .

(١٨٩) يقارن : الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ١٥٧٥ ؛ فلها وزن ، **المرجع السابق** ، ص ٣٦٨ ؛ عبد الله مهدي الخطيب ، **الحكم الاموي في خراسان** (بيروت ، مؤسسة الاعلمي ، ١٩٧٥) ص ١٤٦ .

(١٩٠) الطبري ، **تاريخ** : / ١٥٦٦ - ١٥٦٨ ؛ ابن الأثير ، **الكامل** : ٥/ ١٨٣ .

جميعاً واتباعهم الذين بلغ عددهم نحو ستين ألف رجل الى مرو حاضرة خراسان ، [١٩١]
الأمر الذي اضطر واليها عاصم بن عبدالله الأموي على الانتقال منها الى مدينة أبرشهر ،
لاسيما بعد أن اطلع على مكاتبات أهلها وبيعتهم السرية للحارث . وقد طلب الوالي من
الخليفة في دمشق أن يبعث اليه بالامدادات . ولكنه سرعان ماغير رأيه وأظهر الميل لحركة
الحارث بعد أن سمع بنية الخليفة في عزله عن منصبه . وقد فكر في تشكيل جبهة مشتركة
مع الحارث ضد الخلافة ، وكتب بينهما كتاباً للصلح يتضمن : «أن ينزل الحارث اي كور
خراسان شاء وان يكتبا جميعاً الى الخليفة هشام يسألانه كتاب الله وسنة نبيه فإن أبى
اجتمعا جميعاً عليه ، فختم على الكتاب بعض الرؤساء وأبى يحيى بن حضين أن يختم وقال
هذا خلع لأمير المؤمنين» [١٩٢] .

وهكذا انفسخ الصلح نتيجة للموقف القومي الذي اتخذه يحيى بن حضين البكري ،
الذي تزعم قبيلته بكر لتقف في الاتجاه الصحيح من حركة الحارث ، لأنه شعر بان مصلحة
العرب جميعاً أصبحت مهددة بهذه الحركة . وقد أشار أحد العقلاء من أهل الرأي ، وهو
عاصم بن سليمان بن عبد الله اليشكري ، على يحيىٰ بن الحضين ان يتخذ هذا الموقف
ويعارض الصلح لتهديده لمصالح الأمة العليا ووحدتها . وكانت النتيجة أن حاربت قبيلة
بكر الى جانب الوالي عاصم بن عبد الله ، فانهزم الحارث الى مرو الروذ ، ثم جاء الوالي
الجديد ، أسد بن عبد الله القسري ، فزحف اليه بقوات جديدة ، الأمر الذي أدى الى
تغير الموقف العسكري ، واضطرار الحارث الى الانسحاب الى طخارستان ، ومنها الى ماوراء
النهر ، وذلك عام ١١٨هـ / ٧٣٦م [١٩٣] .

التجأ ابن سريج الى الترك ، وبقي عندهم نحو اثني عشر عاماً ، وحينما جاء الوالي نصر
ابن سيار الى خراسان ، استطاع أن يحصل على عفو من الخليفة يزيد بن الوليد عن الحارث
ابن سريج . وقد جاء الأخير الى مرو سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٥م ، وحاول نصر بن سيار أن
يستمر في سياسة المصالحة مع الحارث وأصحابه ، وعمل على تنفيذ بعض مطاليبهم ، مثل
تعيين مندوبين مشتركين من قبل الحارث وقبله ، يوكل اليهم اختيار العمال لولاية ثغري
سمرقند وطخارستان ، وحثهم على معاملة الناس باللين والرفق . [١٩٤] ولكن هذا الاجراء لم

---

(١٩١) الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٥٦٨ – ١٥٦٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل : ٥/ ١٨٤
(١٩٢) الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٥٧٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل : ٥/ ١٨٧ .
(١٩٣) الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٥٨٢ – ١٥٨٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل : ٥/١٨٨ – ١٨٩ .
(١٩٤) الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٩١٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل : ٥/ ٣٤٢ .

برضى الحارث ، ولم يقبل بكل التنازلات التي قدمها له الوالي نصر لحل المشكلة سلمياً ، وانتهى الأمر بين الطرفين الى الصراع المسلح مرة اخرى . وقد استطاع الحارث أن يدخل مدينة مرو ، الا أن نصراً تمكن من اعادة السيطرة عليها ، وطرد الحارث منها ، وقتل بعض أنصاره الكبار ، لاسيما جهم بن صفوان . (١٩٥)

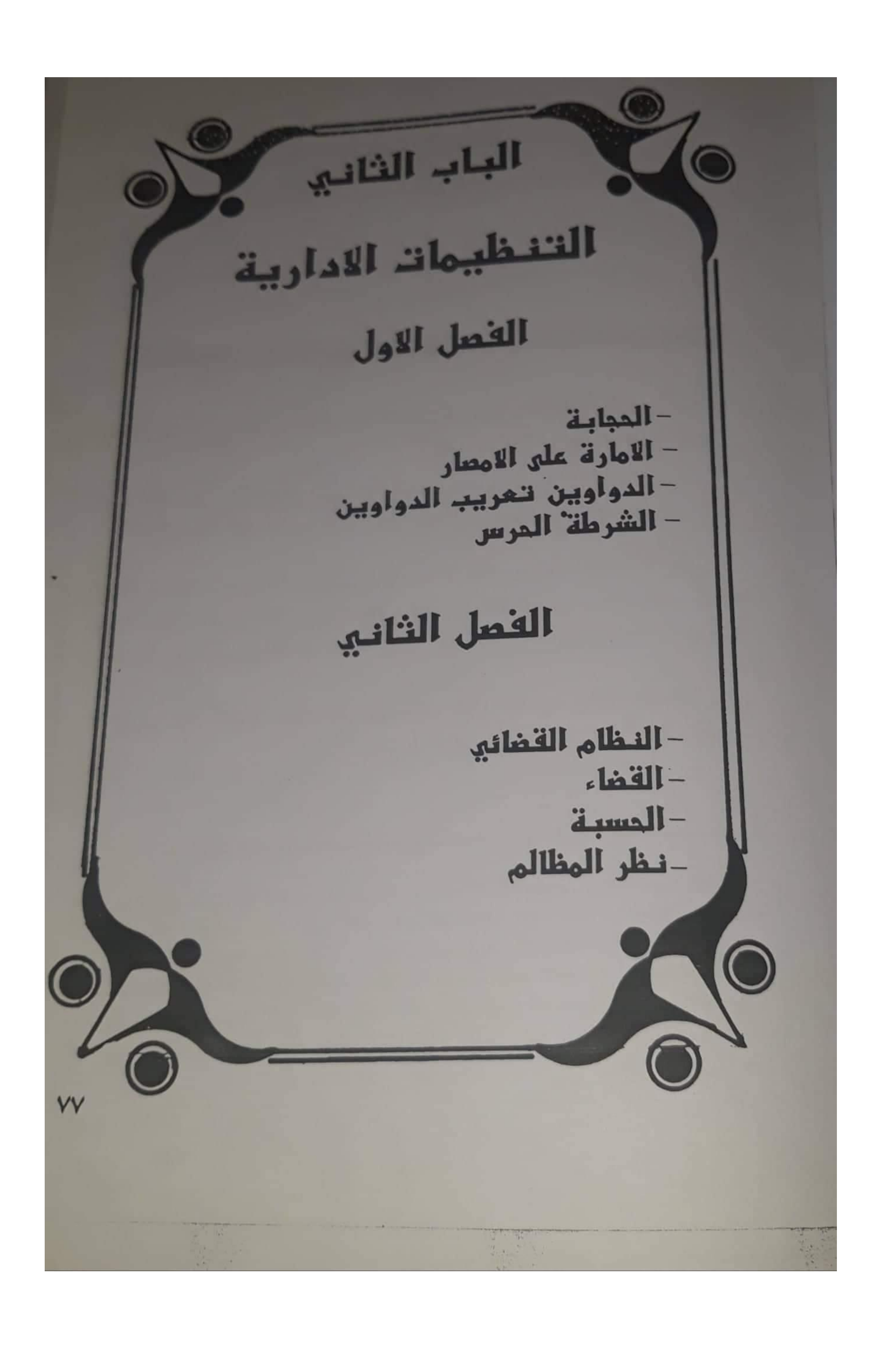
وبعد مقتل جهم بن صفوان ظهرت التناقضات بين قادة الحركة ، وضعفت الروابط بينهم ، وقد انشق أحدهم ، بشر بن جرموز ، الذي اتهم الحارث بالانحراف عن خط الحركة ومبادئها . وقد هز هذا الانشقاق حركة الحارث وأضعفها . كذلك اختلف زعيم الأزد جديع بن علي الكرماني مع الحارث ، وأدى الصراع الذي قام بينهما الى مقتل الحارث سنة ١٢٨هـ / ٧٤٦م . (١٩٦)

وعلى الرغم من الشعارات البراقة التي رفعتها الحركة بزعامة الحارث بن سريج ، وادعت العمل بكتاب الله وسنّة نبيه ، واشاعة العدل بين مختلف السكان في خراسان ، نجد أن الوسائل التي اتبعها الحارث لتحقيق أهدافه ، لايمكن أن تنسجم مع ادعاءآته . فهو قد تزعم حركة مهلكة في خراسان أساسها تقويض النظام القائم ، وهدم الحكم الأموي ، وقد استعان بفئات حاقدة هدفها الأول العمل على التخلص من الخلافة الاموية ، واستعادة امجادها الاولى ، لاسيما كبار الدهاقين ، والموالي الفرس الذين رحبوا بهذه الحركة ، والتجأوا اليها وأيدوها بكل قوتهم . كما يتضح من سياسة الحارث ايضا أنه كان متقلباً يتحالف مع كل القوى التي تضمن له تحقيق أهدافه في التمرد على الدولة ، سواء كانت قوى عربية ام غير عربية ، مسلمة ام وثنية . وما التجائه الى الترك ، وقتاله لهم قبل ذلك الا دليل على انتهازيته التي طبقها أيضاً ببثه الفرقة والخلاف بين القبائل العربية في المنطقة . ففرق بين تميم الذين كان بثباتهم يتعلق استقرار الحكم الأموي وسلطة الخلافة في خراسان . وقد انقلبت عليه ، كما أسلفنا ، احدى القبائل العربية ، بكر ، حينما تبين لزعيمها يحيى بن حضين البكري ، النوايا الحقيقية للحارث ، ودوافعه في الانفصال عن الخلافة .

---

(١٩٥) الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٩٢٤ ، ابن الأثير ، الكامل : ٥/ ٣٤٣- ٣٤٤ .

(١٩٦) الطبري تاريخ : ٢/ ١٩٣٣ - ١٩٣٤ ، ابن الاثير ، الكامل : ٥/ ٣٤٥- ٣٤٦ .



الباب الثاني

التنظيمات الادارية

الفصل الاول

- الحجابة
- الامارة على الامصار
- الدواوين تعريب الدواوين
- الشرطة الحرس

الفصل الثاني

- النظام القضائي
- القضاء
- الحسبة
- نظر المظالم

الفصل الأول

الحجابة :

الحاجب : موظف كان يقف بباب الخليفة ، يعلمه باسماء من يريدون مقابلته وينظم دخولهم الى مجلسه بحسب أهمية مراكزهم [١] .

ذكرت المصادر ان الرسول (ص) والخلفاء الراشدين (رض) كانوا قد اتخذوا حجاباً لهم [٢] ولما انتقلت الخلافة الى بني أمية كان الخلفاء الامويين قد ابقوا هذه الوظيفة [٣] .

ويبدو ان الخلفاء الأمويين كانوا قد تشددوا في شروط الشاغل لهذه الوظيفة فكانوا يختارون حجابهم من بين الاشخاص الذين يثقون بهم ، فقد ذكر صاحب كتاب الفخري أن الخليفة عبد الملك بن مروان أوصى أخاه عبد العزيز حين وجهه الى مصر بقوله :

« وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك فانه وجهك ولسانك ، ولايقفن أحد ببابك إلا اعلمك مكانه لتكون انت الذي تأذن له أو ترده » [٤] .

---

(١) انظر تعريفه : الازهري : تهذيب اللغة : ٤/ ١٦١ . الزمخشري : اساس البلاغة : ٧٣ . ابن خلدون : المقدمة : ٢٤٠

(٢) انظر : اليعقوبي : ٢/ ١٣٨ ، ١٥٩ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢١٣ العقد الفريد : ١/ ٧١ ، ٤/ ٢٥٨ . المسعودي : التبنية والاشراف : ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ . تأريخ خليفة بن خياط : ١/ ٦٤ ، ١٣٠ ، ١٥٧ ، ٨٥

(٣) انظر : اليعقوبي : ٢/ ٢٣٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٩١ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٤٧ ، التبنية والاشراف : ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ . العيون والحدائق : ٣/ ١٤ ، ٣٦ ، ٦٤ ، ٨١ ، ١٠٧ ، ١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ . تأريخ خليفة بن خياط : ١/ ٢١٨ ، ٢٥٩ ، ٣٠٢ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ .

(٤) ابن طباطبا : ١١٣ .

وكانوا يشترطون في الحاجب ايضاف ان يعرف منازل الناس وأنسابهم وطبقاتهم لكي يتمكن ان يعرف من يأذن لهم ومن لايأذن لهم.

فقد ذكر ابن قتيبة انه عندما دخل شريك الحارثي على معاوية قال له: «من أنت؟ فقال: ياأمير المؤمنين مارأيت لك هفوة قبل هذه، مثلك ينكر مثلي من رعيته. فقال له معاوية:

إن معرفتك متفرقة، اعرف وجهك إذا حضرت في الوجوه، واعرف اسمك في الأسماء اذا ذُكرت، ولاأعلم ان ذلك الاسم هو هذا الوجه، فاذكر لي اسمك تجتمع معرفتك»[٥].

وذكر ابن قتيبة ايضاً انه: «استأذن رجلان على معاوية فأذن لأحدهما وكان أشرف منزلة من الآخر، ثم اذن للآخر فدخل عليه فجلس فوق صاحبه. فقال معاوية: إن الله قد ألزمنا تأديبكم كما ألزمنا رعايتكم، وانا لم نأذن له قبلك ونحن نريد ان يكون مجلسه دونك...»[٦].

ويبدو ان الخلفاء الامويين كانوا هكذا يأذنون للناس في الدخول عليهم فقد ذكر ابن قتيبة انه «دخل ابو مجلز على عمر بن عبد العزيز... فلم يقبل عليه: فلما خرج قال له بعض من حضر المجلس: هذا ابو مجلز، فرده واعتذر اليه وقال: إني لم أعرفك»[٧]

الامارة على الأمصار:

لقد وضع الرسول (ص) نواة النظام الاداري للدولة العربية، فكان ينيب عنه عمالاً على القبائل وعلى المدن[٨].

ولما اتسعت رقعة الدولة العربية في العصر الراشدي نظم الخليفة. عمر بن الخطاب (رض) ادارة الدولة حيث قسمها الى اقسام ادارية كبيرة اطلق عليها اسم الولايات وعين عليها عمالاً كانوا يستمدون سلطتهم من الخليفة[٩].

---

(٥) عيوان الاخبار: ١/ ٩٠
(٦) ن. م: ١/ ٩٠
(٧) ن. م: ١/ ٩٠
(٨) انظر: تاريخ خليفة بن خياط: ١/ ٦٣، ٦٤. اليعقوبي: تاريخ ٢/ ١٢٢. الدكتور حسن ابراهيم حسن: النظم الاسلامية: ١٦٨، ١٦٩.
(٩) الطبري: ٤/ ٩٤، ٩٥.

أما في العصر الأموي فقد بلغت الدولة العربية اقصى اتساعها[١٠] وقد أدى هذا الاتساع الى عدم استطاعة الخليفة الأموي ادارة هذه الرقعة الواسعة بصورة مباشرة من عاصمة الخلافة دمشق مما ادى الى تطبيق نظام اللامركزية في الحكم، حيث قسمت الدولة الى عدة اقاليم، وكان على رأس ادارة كل أقليم أمير يعينه الخليفة يحكم باسمه ويكون مسؤولاً تجاهه[١١] وقد كان الأمير قائداً للجيش في الولاية وله إمامة الصلاة والخطبة، ومسؤول عن الادارة العامة في المصر والمقاطعات التابعة له[١٢]

وقد كانت الدولة العربية في العصر الأموي مقسمة اداريا الى خمس ولايات هي :

١ - الحجاز واليمن واواسط الجزيرة العربية.

٢ - العراق: وقد قسم الى ولاية الكوفة وولاية البصرة، ثم اصبحت مدينة واسط هي المركز الاداري منذ انشاءها سنة ٨١ هـ/م.
وكان امير العراق يشرف على ادارة منطقة الخليج العربي والمشرق الاسلامي، وقد قسم امراء العراق المشرق الاسلامي الى ولايات وعينوا عليها امراء يسمون (عمالاً) كانوا ينوبون عنهم في ادارتها. وقد كانت عُمان والبحرين تكون ولاية، وخراسان وماوراء النهر ولاية، والسند والبنجاب ولاية.

٣ - بلاد الجزيرة: ويتبعها أرمينية واذربيجان وبعض اراضي آسيا الصغرى.

٤ - افريقية: ومركز ادارتها القيروان ويتبعها المغرب والاندلس، وجزر البحر المتوسط.

٥ - مصر: ويظهر من اسماء الامراء ان الخلفاء الامويين اهتموا في اختيار امراء الولايات من العناصر التي كانت تتمتع بكفاءة عسكرية وادارية وسياسية كزياد بن ابيه وعمرو بن العاص والحجاج بن يوسف الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم الثقفي، وطارق بن زياد، وموسى بن نصير وغيرهم[١٤].

---

(١٠) الدكتور حسن ابراهيم حسن: النظم الاسلامية: ١٧٥. سيديو: تاريخ العرب العام: ٢٠١. سيد امير علي: مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي: ١٦٢.

(١١) سيد امير علي: مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي: ١٦٢، ١٦٣

(١٢) ن. م: ١٦٤

(١٣) تاريخ خليفة بن خياط: ١/ ٢٩٤ - ٣٠١
الدكتور حسن ابراهيم حسن: النظم الاسلامية: ١٧٦، سيد امير علي مختصر تاريخ العرب: ١٨٠.

(١٤) عن دور هؤلاء الامراء في الادارة وحركات التحرير العربية انظر: الدكتور عبد القادر المعاضيدي: دور امراء العراق في حركات تحرير المشرق في العصر الأموي، مجلة المؤرخ العربي عدد ٢٧ سنة ١٩٨٦، الدكتور عبد الواحد ذنون، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس ص ١١١ - ١٨٧.

الدواوين

١ - الدواوين المركزية

أ - ديوان الرسائل

ب - ديوان الخاتم

جـ - ديوان البريد

٢ - الدواوين المسؤولة عن موارد الدولة

أ - ديوان الخراج

ب - ديوان الصدقة

جـ - ديوان المستغلات

٣ - الدواوين المسؤولة عن النفقات

أ - ديوان الجند

ب - ديوان النفقات

جـ - ديوان الطراز

تعريب الدواوين

اسباب تعريب الدواوين ونتائجه

١ – الدواوين المركزية

أ – ديوان الرسائل :

كان عمل هذا الديوان قائماً على تحرير رسائل الخليفة الى ولاته في اقليم الدولة العربية ، والاشراف على مكاتبات الخليفة مع الدول الاخرى . (١٥)

اتخذ الرسول (ص) كتاباً (١٦) . وكذلك اتخذ الخلفاء الراشدون لهم كتاباً يدونون لهم الكتب والرسائل (١٧) . ومع انه توجد اشارات الى كتاب مختصين بكتابة رسائل الخلفاء منذ بدء الدولة العربية في العصر الأموي (١٨) إلا ان الجهشياري لايذكر ديوان الرسائل صراحة إلا في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ / ٦٨٤ – ٧٠٥ م) (١٩) .

ويظهر من المصادر ان هذا الديوان ظل قائماً طيلة فترة الدولة العربية في العصر الأموي . (٢٠)

كان اسلوب المراسلات في عصر الرسول (ص) والعصر الراشدي بسيطاً . ويبدو ان المراسلات ظل اسلوبها بسيطاً حتى خلافة الوليد بن عبدالملك (٨٦–٩٦هـ / ٧٠٥–٧١٤م) فقد ذكر الجهشياري ان الوليد « أول من كتب في

---

(١٥) القلقشندي : صبح الأعشى : ١/ ٩٠ .

(١٦) انظر : اليعقوبي : ٢/ ٨٠ . الجهشياري : ١٢–١٣ . التنبيه والاشراف : ٢٨٢ . تأريخ خليفة بن خياط : ١/ ٦٤ . الطبري : ٦ / ١٧٩ .

(١٧) تأريخ خليفة بن خياط : ١/ ١٣٠ ، ١٥٧ ، ١٨٤ . الجهشياري : ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٣ . التنبيه والاشراف : ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ . الطبري : ٦/ ١٧٩ .

(١٨) تأريخ خليفة بن خياط : ١ / ٢١٨ . اليعقوبي : ٢/ ٢٨٠ . التنبيه والاشراف : ٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٢ . الجهشياري : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ الطبري : ٦/ ١٨٠ ، ١٨١

(١٩) الوزراء والكتاب : ٣٥ . انظر: الطبري : ٦/ ١٨٠

(٢٠) اليعقوبي : ٢/ ٢٨٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ . التنبيه والاشراف : ٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ . الجهشياري : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٠ . العيون والحدائق : ٣/ ٣٥ ، ٣٦ ، ٦٤ ، ٨١ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١٢٠ ، ١٥٣ . الطبري : ٦/ ١٨٠–١٨٢ .

(٢١) عن كتب الرسول (ص) انظر مثلاً : ابن سعد : الطبقات : ٢/ ٢٤٢ . اليعقوبي : تاريخ : ٢/ ٨٠–٨٣ ، العقد الفريد : ٢/ ٤٧ ، ٤٨ . وعن كتب الخلفاء الراشدين انظر: عيون الأخبار: ١/ ١٤ .

الطوامير (اي الصحف) وأمر ان تعظم كتبه... وكان يقول : تكون كتبي والكتب التي خلاف كتب الناس بعضهم الى بعض"[22]

والظاهرة ان الخلفاء الذين جاءوا من بعده كانوا قد أكدوا على اسلوب الاطالة والاطناب في رسائلهم كما يبدو من رسائل الخليفة هشام بن عبد الملك الى امير العراق يوسف بن عمر الثقفي حول عزله لخالد بن عبد الله القسري[23].

ولما كتب عبد الحميد بن يحيي للخليفة مروان الثاني على الديوان جعل للرسائل قواعد واصولاً في بدئها وختامها ، وجعل لكل مخاطب اسلوباً معيناً يخاطب فيه[24].

ب- ديوان الخاتم :

كان عمل هذا الديوان هو ان الكتاب الذي يصدر عن الخليفة كان يختم بخاتم صاحب الديوان قبل ان يرسل الى الجهة ذات العلاقة[25].

وقد استحدث هذا الديوان في خلافة معاوية بن ابي سفيان (٤١-٦٠هـ/ ٦٦١-٦٧٩م)[26].

ويذكر الجهشياري ان سبب انشاء هذا الديوان هو ان معاوية كان قد أرسل كتاباً الى زياد بن ابيه امير العراق يأمره فيه ان يعطي حامله مائة الف درهم ففض الرجل الكتاب وجعلها مائتي الف درهم ، فلما رفع زياد حسابه الى الخليفة انكر هذا العدد ثم استعاد المائة الف درهم من الرجل ووضع ديوان الخاتم[27].

---

(٢٢) الوزراء والكتاب : ٤٧.

(٢٣) الطبري : ١٤٨/٧.

(٢٤) انظر : الجهشياري : ٧٢ ، ٧٣ ومابعدها.

(٢٥) الدوري : النظم الاسلامية : ١٩٥.

(٢٦) اليعقوبي : ٢ /٢٣٢. الطبري : ٥/٣٣٠. الصولي : أدب الكتاب : ١٤١ ويذكر البلاذري في فتوح البلدان: ٥٦٩ وأنساب الأشراف : جـ١ ق١ : ١٧٦ وقدامة في الخراج : ٥٥ ان زياد بن ابيه هو الذي استحدث هذا الديوان ، إلا ان الراجح ان زياد انشأ هذا الديوان بعد ان تم تزوير الكتاب الذي أرسله الخليفة له.

(٢٧) الوزراء والكتاب : ٢٢-٢٥. انظر : الطبري : ٣٣٠/٥ الفخري : ١٠٢.

ويبدو ان امراء الاقاليم كانوا قد انشأوا مثل هذا الديوان ، فقد ذكرت المصادر ان امير العراق زياد بن ابيه كان يختم رسائله ويحفظ نسخاً من كتبه .(٢٨) وقد ظل هذا الديوان قائماً طيلة العصر الأموي .(٢٩)

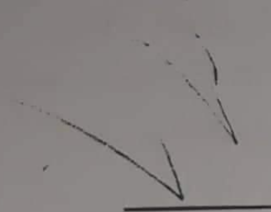
جـ – ديوان البريد :

كانت مهمة صاحب ديوان البريد هي نقل الرسائل والأخبار بين مركز الخلافة دمشق وسائر أقاليم الدولة العربية . وقد استحدث هذا الديوان في خلافة معاوية بن ابي سفيان (٤٠ – ٦٠ هـ / ٦٦٠ – ٦٧٩ م) .(٣٠)

وتذكر المصادر ان الخلفاء الأمويين كانوا قد اهتموا بالبريد(٣١) واستخدموه في نقل الجند في اثناء حركات التحرير العربية(٣٢) او في اثناء قيام الحركات على الدولة .(٣٣)

كما ان خدمات البريد لم تكن قاصرة على مايتعلق بالدولة بل كان في بعض الاوقات يحمل رسائل الناس من اقليم الى آخر .(٣٤)

لقد كانت طرق البريد تقسم الى مسافات يطلق على نهاية كل مسافة اسم السكة . وكان في نهاية كل مسافة دواب معدة لحمل كتب الخليفة ، فتسلم هذه الرسائل الى



---

(٢٨) البلاذري : فتوح البلدان : ٥٦٩ . انساب الاشراف : جـ٤ ق١ : ١٧٦ ، قدامة : الخراج : ٥٥ .

(٢٩) انظر : الطبري : ٥/٣٣٠ ، ٦/١٨٠ ، ١٨١ ، ٧/١٤٨ . اليعقوبي : ٢/٢٩٩ الجهشياري : ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ١٢ ، ٦٨ ، ٦٩ . التنبيه والأشراف : ٣١٦ .

(٣٠) الطبري : ٥/٣٣٥ .
الكامل في التاريخ : ٤/١٣ . ابن طباطبا : الفخري : ٧٩ . صبح الاعشى : ١٤/٣٦٧ .

(٣١) مآثر الأناقة : ٣/٣٤١ . ابن عبدالحكم : فتوح مصر وأخبارها : ٤٦ ، ٥٦ . حلية الأولياء : ٥/٢٩٣ . ابن خلدون : ١/٤٢١ . وقد بلغ اهتمام الخليفة عبدالملك بن مروان بالبريد انه اوصى حاجبه ان لايمنع موظف البريد من الدخول عليه ليلاً او نهاراً . صبح الاعشى : ١٤/٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٣٢) تأريخ خليفة بن خياط : ٢/٣٥٦ .

(٣٣) الطبري : ٦/٣٣٩ .

(٣٤) الجاحظ : البغال : ٦٢ ، ٧٠ . الاصفهاني : الأغاني : ٦/١٠٥ .

موظف البريد ويسير بها مسرعاً حتى اذا وصل الى نهاية هذه المسافة سلمها الى موظف هناك «وكذلك يفعل في المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة».[٣٥]

وقد كان المشرف على البريد موظف خاص يسمى «صاحب ديوان البريد» يكون مركزه في عاصمة الخلافة دمشق ، وله نواب وعيون في سائر اقاليم الدولة يرسلون اليه بالرسائل والأخبار وهو يتولى عرضها على الخليفة ، كما يتولى النقل عن الخليفة مايريد ايراده الى الاقاليم ، وله أيضاً النظر في احوال موظفي البريد ودوابه وامكنته . وينبغي ان يكون عارفاً بالطرق والمسالك الى جميع نواحي الدولة بحيث يجد الخليفة عنده كل المعلومات المطلوبة لانفاذ الجيوش وارسال الاوامر.[٣٦]

والجدير بالذكر انه جائتنا كتابات متأخرة عن الطرق والسكك التي كانت تربط مدن وأقاليم الدولة العربية ، إلا انه لايمكن الاعتماد عليها لمعرفة طرق البريد في فترة دراستنا بصورة دقيقة ، وذلك لأن كلامهم – بلا شك – كان ينطبق على أحوال الطرق في زمنهم .[٣٧]

٢ – الدواوين المسؤولة عن موارد الدولة

ا – ديوان الخراج :

كانت لهذا الديوان أهمية كبرى في الدولة العربية الاسلامية لأنه كان يتولى تنظيم الخراج وجبايته والنظر في مشكلاته .[٣٨]

---

(٣٥) الفخري : ٧٩. والجدير بالذكر انهم كانوا يستخدمون البغال والخيل والابل. انظر: الجاحظ ، **البغال** : ٥٥–٦٣. التنوخي : **نشوار المحاضرة** : ٣٤٣/٨. الخوارزمي : **مفاتيح العلوم** : ٤٢ . البيروني : **اثار الأول** : ٨٨. **العيون والحدائق**: ٨٢/٣. **صبح الأعشى**: ٣٦٦/١٤ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ .
أما السكة فهو الموضوع الذي يسكنه الفيوج المرتبون من رباط او قبة او بيت او نحو ذلك. الخوارزمي : **مفاتيح العلوم**: ٤٢. انظر: **معجم البلدان** ٤١/١ . وقد اختلفت الروايات التأريخية عن مقدار المسافة التي كانت تفصل بين كل سكة والتي تليها ، فالخوارزمي يذكر ان المسافة بينها تقرب من فرسخين (**مفاتيح العلوم**: ٤٢) في حين يذكر القلقشندي انها اربعة فراسخ (**صبح الأعشى**: ٣٦٦/١٤) وهناك من اورد كلا الروايتين (**معجم البلدان**: ١/ ٣٣٧)

(٣٦) قدامة : **الخراج** : ٧٧ ، ٧٨ .

(٣٧) راجع : ابن خرداذبة : المسالك والممالك : ٥٩ . قدامة : **الخراج** : ٢٢٥ ومابعدها.

(٣٨) الدوري : **النظم الاسلامية** : ١٩٥ .

ودواوين الخراج في الدولة العربية في العصر الأموي وجدها العرب في الأمصار التي حُررت، وهي استمرار للدواوين البيزنطية والساسانية، وقد أدى انشغال العرب بحركات التحرير الى بقاء اللغة المستعملة في هذه الدواوين هي اللغة المحلية السائدة قبل التحرير الى ان تم تعريب هذه الدواوين في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان كما سنرى.(٣٩)

لقد اهتمت الدولة العربية بأمر الخراج ونظمته بشكل دقيق وذلك لانه كان من اهم موارد الدولة الرئيسية، ويرجع الفضل في ذلك الى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الذي ابقى الأراضي المحررة بيد اصحابها مقابل مقدار من الخراج وضعها على أراضيهم.(٤٠)

ويظهر ان النظام الاداري في الدولة العربية في العصر الأموي كان قد منح الأقاليم سلطات واسعة تسهيلاً لادارتها وكان هناك اتجاه لامركزي قد ساد المؤسسات الادارية في الدولة، فقد كان امراء الأقاليم يدفعون من أموال الخراج التي بعهدتهم اعطيات الجند، والنفقات الأخرى ثم يرسلون الباقي الى بين المال المركزي في عاصمة الخلافة دمشق.(٤١)

وأغلب الظن ان الأراضي الخراجية المسجلة في دواوين الخراج في الأقاليم كانت أيضاً مسجلة في ديوان الخراج المركزي في دمشق لمقارنة واردات هذه الاراضي في كل سنة مع وارداتها في السنوات السابقة لمحاسبة الامراء المقصرين.(٤٢)

---

(٣٩) انظر: تعريب الدواوين في هذا الفصل.

(٤٠) انظر: ابو يوسف: كتاب الخراج: ٢٦، ٣٧. ابن سلام: **الأموال**: ٦٨ وما بعدها. البلاذري: **فتوح البلدان**: ٣٣٠. **تأريخ اليعقوبي** ١٥٢/٢. الماوردي: **الأحكام السلطانية**: ١٧٤، ١٧٥.

(٤١) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: **واسط في العصر الأموي**: ٢٩٠.

(٤٢) ن. م: ٢٩٠.

ب – ديوان الصدقات :

كانت مهمة هذا الديوان النظر في موارد الزكاة والصدقات وتحديد مستحقيها وتوزيعها بينهم [٤٤] حسب ماجاء في القرآن الكريم ، حيث يقول الله تبارك وتعالى «انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها . والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل» [٤٥]

وقد ورد ذكر هذا الديوان لاول مرة في خلافة هشام بن عبدالملك (١٠٥ – ١٢٥ هـ/ ٧٢٣ – ٧٤٢ م) [٤٦] .

وقد أشارت المصادر الى الشروط التي يجب ان تتوفر في متولي هذا الديوان وهي ان يكون من أهل العفاف والصلاح ، وان يوثق بدينه وامانته [٤٧] .

ج – ديوان المستغلات :

لقد كان هذا الديوان ينظر في ادارة اموال الدولة غير المنقولة من أبنية وعمارات وحوانيت [٤٨] .

وقد ورد ذكر هذا الديوان لأول مرة في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ/ ٧٠٥ – ٧١٤ م) [٤٩]

---

(٤٣) الصدقة تعني الزكاة ايضاً ، وهي تؤخذ من المسلمين عيناً أو نقداً ، وتجبي من أهل المواشي من الغنم والابل والبقر، وتجبى ايضاً من الذهب والفضة ، ومن التجارات ، كما تؤخذ مما تخرجه الأرض من حبوب وثمار. إنظر: ابو يوسف: الخراج : ٧٦ – ٧٩ . ابن سلام : الأموال : ٤٣٧ وما بعدها . ابن آدم : الخراج : ١٣٥ . أما الاصناف التي تجبى منها ومقدارها وشروط جبايتها ، وكيفية توزيعها فانظر: ابو يوسف : الخراج : ٧٦ وما بعدها . ابن آدم : الخراج: ١٢٩ وما بعدها . ابن سلام : الأموال : ٤٣٧ وما بعدها . قدامة : الخراج : ٢٢٧ وما بعدها . الماوردي : الاحكام السلطانية : ١١٤ – ١٢٠ .

(٤٤) الدكتور عبدالعزيز الدوري : النظم الاسلامية : ١٩٦ .

(٤٥) القرآن الكريم : سورة التوبة : آية ٦٠ . انظر تفسيرها في المصادر السابقة .

(٤٦) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ٦٠

(٤٧) انظر: ابو يوسف: الخراج ٨٠ . ابن سلام : الأموال : ٤٠١

(٤٨) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ٤٧ . الدوري : النظم الاسلامية : ١٩٦

(٤٩) الطبري : ٦/ ١٨١ الجهشياري : ٤٧

٣ – الدواوين المسؤولة عن النفقات

أ- ديوان الجند

وهذا الديوان هو استمرار للديوان الذي انشئ على عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) لحفظ اسماء الجند واوصافهم، وانسابهم، ومقدار عطاء كل منهم وموعد استحقاقه [٥٠].

إلا ان هذا الديوان كان قد حدث فيه تطور في العصر الأموي وذلك لما اقتضته الظروف الجديدة للدولة العربية في هذا العصر نتيجة ازدياد عدد الجند، وزيادة النفقات، واتساع حركات التحرير العربية، فاصبح الشخص الذي يستلم العطاء يجب عليه ان يجهز نفسه بالاسلحة، ويذهب للقتال عندما يضرب عليه البعث ويدعى الى الخدمة، ولايعفى من ذلك شخص، فقد ذكر الطبري [٥١] «انه لم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا وعليه الغزو، فمنهم من يغزو، ومنهم من يخرج بدلاً، وكان لهشام ابن عبدالملك مولى يقال له يعقوب، فكان يأخذ عطاء هشام مائتي دينار، وديناراً يفضل بدينار، فيأخذها يعقوب ويغزو، وكانوا يصيرون انفسهم في أعوان الديوان، وفي بعض مايجوز لهم المقام به، ويوضع به الغزو عنهم»
أما البديل فقد كان يعطى أجراً وليس عطاءاً. [٥٢]

ب- ديوان النفقات :

ومهمته الاشراف على نفقات الدولة [٥٣] ويبدو انه كان يتصل في عمله ببيت المال فقد ذكر الجهشياري انه «كان يكتب على النفقات وبيوت الأموال والخزائن، الرقيق عبدالله بن عمرو بن الحارث» وذلك في عهد الخليفة سليمان بن عبدالملك (٩٦- ٩٩ هـ/ ٧١٤ - ٧١٧ م) [٥٤]

---

(٥٠) الدوري : النظم الاسلامية : ١٩٥
(٥١) تأريخ الرسل والملوك : ٧/ ٢٠٢
(٥٢) البلاذري : انساب الاشراف : جـ٤ ق١ : ٢٤
(٥٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ٣٥ . كانت الابواب الرئيسة لمصروفات الدولة في العصر الأموي هي : الانفاق على تسليح وتجهيز الجيش، وعلى تكاليف الادارة. ابو يوسف : الخراج : ١٨ . اليعقوبي : تأريخ : ٢/ ١٤٥ .
(٥٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ٤٩

جـ - ديوان الطراز:

كانت مهمة هذا الديوان الاشراف على المعامل التي تنسج الملابس الرسمية والأعلام وشارات الدولة. [٥٥]

ويذكره الجهشياري أول مرة في خلافة هشام بن عبدالملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٣- ٧٤٢ م) عند حديثه عن تعيين كاتب الديوان يقول «جنادة بن ابي خالد الذي يكتب له على الطراز، واسمه على الثياب الهاشمية». [٥٦]

وقد تم تعريب هذا الديوان في زمن الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥- ٨٦ هـ/ ٦٨٤- ٧٠٥ م) مما يدل على ان هذا الديوان كان قد نشأ في عهد هذا او قبل ذلك [٥٧]. فقد ذكرت المصادر ان الطراز ظل في الشام يكتب باللغة الرومية الى أن أبدله الخليفة عبدالملك بالطراز العربي وكتب عليه «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وكتب الى امراء الاقاليم بابطال الطرز الرومية. [٥٨] ولما وصلت الطرز العربية الى بلاد الروم استنكر الامبراطور البيزنطي ذلك وكتب الى الخليفة عبدالملك قائلاً «إن عمل القراطيس بمصر وسائر مايطرز هناك للروم، ولم يزل يطرز بطراز الروم، الى ان ابطلته، فإن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد اخطأت وإن كنت قد أصبت فقد أخطئوا، فاختر من هاتين الخلتين أيتها شئت وأحببت» [٥٩]

وبعث اليه الكتاب مع هدية يسترضيه فيها للرجوع الى الطراز البيزنطي [٦٠]، إلا ان الخليفة عبدالملك الذي كانت سياسته قائمة على صبغ ادارة الدولة بالصبغة القومية رد هدية الأمبراطور واخبر الرسول أن لا رد عنده [٦١]

---

(٥٥) ابن خلدون: المقدمة: ٢٦٦.
الدوري: النظم الاسلامية: ١٩٧

(٥٦) الوزراء والكتاب: ٦٠

(٥٧) البيهقي: المحاسن والمساوئ: ٢/ ٢٩٨، ٢٩٩. الدميري: الحيوان: ١/ ٧١، ٧٢

(٥٨) البيهقي: المحاسن والمساوئ: ٢/ ٢٩٨، ٢٩٩. الدميري: الحيوان: ١/ ٧١، ٧٢

(٥٩) البيهقي: المحاسن والمساوئ: ٢٩٨/٢.

(٦١) م.ن: ٢/ ٢٩٨. ابن خلدون: تاريخ: ١/ ٤٧١، ٤٧٢

وفي العصر الأموي «كانت الدور المعدة لنسج أثواب الخلفاء في قصورهم، وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز أو ناظره»[٦١]. وتذكر المصادر ان الخلفاء الأمويين زاد اهتمامهم بارتداء الملابس الفاخرة[٦٢].

تعريب الدواوين

كانت دواوين الدولة العربية في العصر الأموي على نوعين: الدواوين المركزية وهي التي أنشأها العرب، وهذه الدواوين استعملت اللغة العربية منذ انشاءها، ودواوين محلية هي دواوين الخراج وجدها العرب في الأمصار التي حُررت وهي استمرار للدواوين البيزنطية والساسانية، وقد أدى انشغال العرب بحركات التحرير الى بقاء اللغة المستعملة في هذه الدواوين هي اللغة المحلية السائدة قبل التحرير، فكانت اللغة الرومية هي المستعملة في ديوان الخراج في الشام، والرومية والقبطية في ديوان الخراج بمصر، واللغة الفهلوية في ديوان الخراج في العراق والمشرق[٦٣].

وبعد ان استطاع الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ/ ٦٨٥ - ٧٠٥ م) من إعادة وحدة الدولة العربية، وبعد ان استقرت الاوضاع فيها أراد هذا الخليفة القدير ان تستقل الادارة العربية عن اي نفوذ اجنبي فأقدم في سنة ٧٤ هـ/ ٦٩٣ م على تعريب النقود، فصارت العملة موحدة في جميع أقاليم الدولة العربية فحقق بذلك الاستقلال الاقتصادي للدولة العربية[٦٤].

ثم زاد اهتمامه في بناء مؤسسات الدولة العربية الاخرى واستكمال سيادتها فاقدم في سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠م على تعريب ديوان الخراج في الشام بعد أن هيأ كادر عربي قادر على القيام بهذه المهمة هو سليمان بن سعد الخشني - وكان يتقلد ديوان الرسائل - آنذاك[٦٥]

---

(٦٢) البلاذري: فتوح: ١٧١، مروج الذهب: ٣/ ١٨٤، ١٨٥.
اليعقوبي: تاريخ: ٢/ ٣٢٨. الأغاني: ٧/ ٨١.

(٦٣) البلاذري: فتوح البلدان: ٢٣٠، ٣٦٨.

(٦٤) البلاذري: فتوح البلدان: ٥٧٥.

(٦٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١٠؛ الطبري، تاريخ: ٢/ ١١٩٨ فما بعدها؛ ابن الاثير، الكامل؛ ٤/ ٥٤٢- ٥٤٤؛ وينظر: شعبان، الثورة العباسية، ص ١٢٣- ١٢٤.

وبين زادان فروخ في نقل الديوان ، فعزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية[71] ويورد الجهشياري رواية مشابهة لما جاء به البلاذري[72] .

وهكذا نرى بأن المؤرخين يعطونا أحياناً تفسيرات تأريخية ساذجة وغير واضحة للحوادث التي تقع على مسرح التأريخ العربي الاسلامي ، وان اسباب التعريب هو ان الخليفة عبدالملك بعد ان قضى على القوى المعارضة لحكمه ، وأعاد وحدة الدولة ، وتوفر له عامل الاستقرار انصرف الى بناء الدولة العربية فأقدم على تعريب النقود – كما ذكرنا – ثم رأى انه من الضروري ان تتحرر الدولة من اي نفوذ اجنبي ، ثم ان السياسة العربية الواضحة التي انتهجها الخلفاء الأمويون هي التي استوجبت مثل هذا التعريب .[73]

أما نتائج حركة التعريب فهي :

١ – كانت حركة التعريب أول عملية ترجمة منظمة أدت الى نقل الكثير من المصطلحات الفهلوية والرومية الى اللغة العربية ، وهذا يدل على المرونة وقابلية الاستيعاب الموجودة في اللغة العربية .

٢ – انتشار اللغة العربية بين الموالي مما أدى الى انتشار الثقافة العربية بينهم .

٣ – اصبحت اللغة العربية لغة الادارة والثقافة إضافة الى انها لغة السياسة والدين .

٤ – ظهور عدد من الكتاب العرب كان على رأسهم عبدالحميد بن يحيي الكاتب .[74]

(٧١) يقارن : سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

(٧٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤١٠ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٢٨٦ .

(٧٣) الدوري : النظم الاسلامية : ١٩٧ .

(٧٤) الدوري : النظم الاسلامية : ١٩٨ . د. حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية : ١٩٠ . الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٣٠١ . فتوح البلدان : ٣٦٨ انظر : ادب الكتاب : ١٩٢ الوزراء والكتاب : ٤٠

الشرطة

وجه خلفاء الدولة العربية منذ العصر الراشدي اهتمامهم لاستتباب الأمن وحفظ النظام في جميع اقاليم الدولة فأدخلوا نظام الشرطة (٧٦) الا انه من المرجح ان هذا الجهاز الاداري كان قد نظم وطور في عهد الخليفة معاوية بن ابي سفيان مثل بقية الاجهزة الادارية الاخرى التي تطورت تطوراً ملحوظاً في العصر الأموي من جراء تطور المجتمع العربي في هذا العصر.

وكان هذا الجهاز الاداري مسؤولاً عن تنفيذ أوامر الخليفة والامير، وتنفيذ احكام القضاة وتحقيق الأمن وحفظ النظام ومطاردة الجناة والمفسدين. (٧٧)

ونظراً لأهمية منصب صاحب الشرطة فقد وضع الخلفاء والامراء بعض الصفات التي يجب ان تتوفر في الشخص المرشح لهذا المنصب. وهي الكفاءة والمقدرة والحزم والامانة، يقول ابن قتيبة ان امير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي عندما أراد ان يعين صاحب الشرطة قال «دلوني على رجل للشرطة، فقيل أي الرجال تريد؟ فقال أريده دائم العبوس، طويل الجلوس، سمين الأمانة، اعجف الخيانة، لايحنق في الحق على جرة، يهون عليه سبال الاشراف في الشفاعة. فقيل له: عليك بعبدالرحمن بن عبيد التميمي. فأرسل اليه يستعمله، فقال له: لست اقبلها إلا ان تكفيني عيالك وولدك وحاشيتك قال: ياغلام ناد في الناس من طلب اليه منهم حاجه فقد برئت منه الذمة» (٧٨)

---

(٧٥) اطلق عليهم اسم الشرطة لأنهم وضعوا علامات خاصة (أشرطة) لكي يميزون بها عن بقية الناس. انظر: الجاحظ: البيان والتبين ١٤/٣. لسان العرب: ٧/٣٢٩-٣٣٣.

(٧٦) تاريخ اليعقوبي: ١٥٩/٢، ١٧٣، ٢١٣. البلاذري: فتوح البلدان ١٧٣. المسعودي: التنبيه والاشراف: ٢٩٣. القلقشندي: مآثر الأنافة: ٣٤١/٣.

(٧٧) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي: ٢٧٣. وكان صاحب الشرطة في العصر الأموي يتمتع بسلطات اخرى، فقد كان يحكم على الأفراد الذين يرتكبون جرائم تخل بالنظام وتعكر صفو المواطنين وامنهم وينفذ فيهم الاحكام بصورة آنية. كما كان يفرض عقوبات زاجرة على بعض الاشخاص المشتبه بهم قبل حدوث الجرائم وذلك للحيلولة دون وقوعها. انظر: عيون الاخبار: ١٦/١.

(٧٨) عيون الاخبار: ١٦/١. انظر ايضاً: انساب الاشراف: ج١١ ورقة ١٤١أ. ابن عبد ربه: العقد الفريد: ١٩/٥. انساب الاشراف ج١١ ورقة ١٤١أ. العقد الفريد: ١٩/٥. السيوطي: تاريخ الخلفاء: ٣١٩.

وجاء في رسالة بعثها الخليفة مروان الثاني الى أحد ولاته يوصيه بها بما يجب ان يكون عليه صاحب شرطته بقوله : «فول شرطتك وأمر عسكرك أوثق قوادك عندك، واظهرهم نصيحة لك، وانفذهم بصيرة في طاعتك، وأقواهم شكيمة في امرك، وأمضاهم صريمة، واصدقهم عفافاً، وأجرأهم غناءً، واكفأهم أمانة، واصحهم ضميراً، وأرضاهم في العامة ديناً، وأحمدهم عند الجماعة خلقاً... وأشدهم في دين الله وحقه صلابة... وليكن مجرباً ذا رأي وتجربة وحزم في المكيدة، له نباهة في الذكر وصيت في الولاية، معروف البيت مشهور الحسب...» .(٧٩)

ويبدو ان صاحب الشرطة في العصر الأموي كان يتمتع بنفوذ واسع فقد ذكرت المصادر ان الخليفة سليمان بن عبدالملك عندما ثقل عليه المرض كتب كتاباً وختمه، ولم يدر أحد ما كتب فيه، ثم قال لصاحب شرطه : «اجمع اليك اخوتي وعمومتي وجميع أهل بيتي، وعظماء أجناد الشام، واحملهم على البيعة لمن سميت في هذا الكتاب، فمن أبا منهم ان يبايع فاضرب عنقه... ففعل» .(٨٠)

ويظهر من المصادر التأريخية ان هناك عدة دوائر كانت مرتبطة بجهاز الشرطة، وكان على هذه الدوائر واجبات مختلفة ومتعددة تتعلق باستتباب الأمن وحفظ النظام، فقد كان هناك حرس خاص يقوم بحماية الخليفة والأمير والمحافظة على سلامته وتنفيذ أمره .(٨١)

كما ان كان هناك حرس خاص لحراسة المدن ليلاً يطلق عليهم اسم «العسس» .(٨٢) وهناك اشارات الى وظيفة «صاحب العذاب»(٨٣) كان على رأس دائرة مهمتها التحقيق

---

(٧٩) القلقشندي : صبح الأعشى : ١٠ /٢١٥ .

(٨٠) الدينوري : الاخبار الطوال : ٣٢٩ .

(٨١) عن حرس الخليفة انظر : تاريخ اليعقوبي : ٢/٢١٥، ٢٣٢، ٢٥٣، ٢٦٢، ٢٨٠. ٢٩١، ٢٩٩، ٣١٤، ٣٣٤، ٣٤٧، انساب الاشراف : ج٤ ق٢ ١٤٥ . الطبري : ٥/٣٣٠. مروج الذهب : ٣/١١٠. العيون والحدائق : ٣/١٣٥، ١٣٦ .

(٨٢) الجاحظ : المحاسن والاضداد : ٣٤، ٣٥. البخلاء : ٤٩ . البيان والتبين : ١/٩٥. الذهبي : تاريخ الاسلام : ٣/ ٣٥٣ .

(٨٣) البلاذري : انساب الأشراف : ج٧ ورقة ٣٦ب، ج١١ ورقة ٤١ب. التنوخي : نشوار المحاضرة : ١/١٣٦. الفرج بعد الشدة : ١/٣٩٨ .

مع المتهمين لأخذ اعترافاتهم قبل تقديمهم الى مجلس القضاء.[84] كما وردت اشارات الى وظيفة «صاحب الاستخراج»[85] أودع الى صاحبها أمر التحقيق مع كبار الموظفين في موضع خاص يسمى «دار الاستخراج».[86]

ومن الدوائر التي كانت مرتبطة بجهاز الشرطة دائرة «صاحب السجن» الذي كان مسؤولاً عن ادارة السجون، وقد نظمت هذه الدائرة في هذا العصر، فالخليفة معاوية بن ابي سفيان أجرى مؤونة المسجونين وكسوتهم من بيت المال[87] أما الخليفة عمر بن عبد العزيز فقد أوجد لها ديواناً يشرف عليها[88] وكان ينظر بنفسه في أمر السجون، واجرى لهم رزق وكسوة، وأمر بالاعتناء بالمرضى منهم، كما أمر ان لايقيد أحد منهم بقيد يمنعه من الصلاه،[89] كذلك أمر بالفصل بين من يسجن في دين، ومن يسجن في جريمة.[90]

---

(٨٤) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي: ٢٧٤.

(٨٥) انساب الاشراف: جـ٧ ورقة ٣٦ب. العسكري: الاوائل: ٢٢٧. نشوار المحاضرة: ١/١٣٦.

(٨٦) الجاحظ: البيان والتبين: ٢/٣٨، ٣٩.

ملاحظة: هامش ٧، ٨، ٩، ١٠ في الصفحة التالية

الفصل الثاني

النظام القضائي

- القضاء
- الحسبة
- نظر المظالم

أ. القضاء:

كان عمل القاضي «الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع»[١] والنظر في المسائل الشرعية كالزواج والطلاق والمواريث وشؤون اليتامى والأرامل والمعاملات في الاسواق[٢]. كان الخلفاء الأمويون هم الذين يعينون قضاة بلاد الشام[٣] أما في الامصار فإن الامراء هم الذين يعينون القضاة ويعزلونهم. ويرتبون ارزاقهم[٤]. إلا ان الخلفاء والامراء كانوا لايتدخلون في الاحكام التي كانت تصدر عن القضاة[٥].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة: ٢٢٠

(٢) انظر: وكيع: اخبار القضاة: ٣/ ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٥. ٢١٠، ٢١١، ٢١٢.
الدكتور صالح احمد العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة: ٢.

(٣) البلاذري: انساب الاشراف: ج١ ق٢: ٤٠، ٥/ ٣٥٦، وكيع ٣/ ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٧، ٢٦٤. ابن حيان البستي مشاهير علماء الامصار: ١١٢، ١١٥، ١١٦. المسعودي: التنبيه والاشراف: ٣١٢، ٣١٦، ٣٢٠. الطبري: ٥/ ٣٣٠، ٦/ ١٩٥ ان اول خليفة عين القضاة بصورة رسمية في الدولة العربية هو عمر بن الخطاب (رض) فقد ولى سلمان بن ربيعة الباهلي قاضياً في الكوفة: ابن سعد: ٦/ ٩٠. ابن قتيبة: عيون الاخبار: ١/ ١١ المعارف: ٤٣٣. البستي: مشاهير علماء الامصار: ١٠١. أما: قضاة الامصار الاخرى فانظر: وكيع: ١/ ٢٩٩. التنبيه والاشراف ٢٨٩.

(٤) ابن سعد: ٥/ ١١٧. بحشل: تاريخ واسط: ١٣٧. وكيع: ١/ ٤٠.
تاريخ الخطيب: ١٤/ ١٠٣

(٥) وكيع: ١/ ١٣٠

وبما ان وظيفة القاضي هي النظر في المعاملات والمسائل الشرعية من زواج وطلاق ومواريث ، فهذا يتطلب منه ان يكون عالماً بكتاب الله وسنة الرسول «وبتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه واختلفوا فيه ، يتبع الاجماع ويجتهد برأيه في الاختلاف» وان يكون عالماً بالقياس[16] . كما يتطلب منه اطلاع واسع على الشؤون الاجتماعية والاحوال المالية والاقتصادية في المصر، ومعرفة بالعادات والتقاليد السائدة بين السكان[17] . لهذا نجد ان معظم القضاة كانوا من الفقهاء ورواة الحديث[18] ، إلا ان كثير من هؤلاء كرهوا تولي هذا المنصب للشروط الثقيلة التي كانت يجب ان تتوفر في القاضي. ولما لهذا المنصب من الخطورة ، وخوف بعضهم من الوقوع في الخطأ ، وكان لاحاديث الرسول (ص) في التحذير من مهمة القضاء أثر كبير في ذلك ايضاً ، فعن الرسول (ص) انه قال : «القضاة ثلاثة فقاضيان في النار وقاضي في الجنة ، فاما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، وأما اللذان في النار فرجل عرف الحق فجار في الحكم ، ورجل قضى على جهل فهما في النار»[19] . وقال الرسول (ص) : «من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكين»[20] .

إن الرسول (ص) في هذين الحديثين[21] لم يمنع تولي القضاء ولكنه وصف مشقة تولي هذا المنصب ، وحذر فيهما من يتولى هذا المنصب الخطير، واوجب عليه ان يكون عادلاً دقيقاً في أحكامه ليحول دون وقوع الظلم على اصحاب الحق نتيجة الوقوع في الخطأ[22] ومما يؤيد هذا ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قال في عهده لابي موسى الأشعري ان «القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة »[23]

---

(١٦) الماوردي : الاحكام السلطانية : ٦٦

(١٧) الدكتور صالح احمد العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة : ٩٢

(١٨) انظر: اليعقوبي : تأريخ : ٢/ ١٧٧ ، ٢٩٢ . ابن سعد : التطبيقات : ٧/ ٤٥٦ ، ٤٦١ ، وكيع : ٣/ ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ .

وكان الخلفاء الامويون يدققون فيمن يختارونه لمنصب القضاء فالخليفة هشام بن عبد الملك كان يشاور ذوي الرأي فقد ذكر وكيع انه قال : «دلوني على قاضي ، فقالوا يحيىٰ ، فقال : ذلك أرفع من القضاء ، ذلك صاحب متين ، قالوا يزيد بن جابر، قال : ذلك رجل شغله امير المؤمنين مع ابيه ، قالوا : يزيد بن ابي مالك ، قال : اكتب له عهده» . اخبار القضاة : ١/ ٢٠٦ .

(١٩) وكيع : اخبار القضاة : ١/ ١٤ - ١٧ . الخصاف : شرح أدب القاضي : ورقة ٦ ب . ابن قدامة : المغنى : ٩/ ٣٥ .

(٢٠) اخبار القضاة : ١/ ٧. الخصاف: شرح أدب القاضي : ورقة ٥أ.

(٢١) لقد وردت احاديث كثيرة حذر فيها الرسول (ص) من مهمة القضاة ، راجع عنها : اخبار القضاة : ١/ ١٤ وما بعدها. المغنى : ٩/ ٣٥ وما بعدها. الخصاف: شرح أدب القاضي : ورقة ٦ب وما بعدها .

(٢٢) يقول بن قدامة : «وفيه خطر عظيم ووزر كبير لمن لم يؤد قضاء الحق فيه ولذلك كان السلف رحمة الله عليهم يمتنعون منه أشد الامتناع ويخشون على أنفسهم خطره» (المغنى : ٩/ ٣٥).

(٢٣) الجاحظ : البيان والتبيين : ٢/ ٤٩ . عيون الأخبار: ١/ ٦٦. الماوردي : الاحكام السلطانية : ٧١ .

إن المسلمين أجمعوا على مشروعية نصب القضاة والحكم بين الناس [٢٤] . باعتبار ان الرسول (ص) مارس القضاء واهتم به قضى بين «المتنازعين وحكم بين المتشاجرين» [٢٥] .

فقد جاءت في المصادر اخبار عن كثير ممن كان لا يرغب في تولي القضاء فقد روى ابن سعد ان أبا الدرداء عندما هناه الناس لما تولى القضاء زمن معاوية قال لهم : تهنئوني بالقضاء وقد جُعلت على رأس مهراة منزلها أبعد من عدن ، ابين لو يعلم الناس ما في القضاء لأخذوا رغبة عنه وكراهة له» [٢٦] . وروى وكيع ان نمير بن أوس كتب الى الخليفة هشام بن عبدالملك يستعفيه عن القضاء [٢٧] . وإن القاضي عبدالرحمن بن عمر الأوزاعي جلس مجلساً واحداً في القضاء ثم كتب الى الخليفة يزيد بن الوليد يطلب اعفاءه فأعفاه [٢٨] . وان إياس بن معاوية قال : «أرسل اليّ ابن هبيرة فاراد توليتي القضاء... فقلت : فيّ ثلاث لا أصلح معهن لولاية : أنا دميم ، وأنا عيّ ، وأنا سيئ الخلق ، قال : اما دميم فانى لا احاسن بك الناس ، وأما عيّ فانك تعبر عن نفسك ، وأما سيئ الخلق فالسوط يقومك ، وأمر لي بألفي درهم» [٢٩]

يتبين من كلام إياس التخوف من هذا المنصب وعدم الرغبة فيه .

ويذكر وكيع ايضاً ان امير العراق يوسف بن عمر الثقفي أراد ان يولى القاسم بن الوليد الهمداني القضاء فرفض [٣٠] . وعندما ولى امير العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري منصور بن المعتمر السلمي القضاء «فقعد للناس وتقدموا اليه ، فجعل يقول : لا احسن القضاء الى ان عزل» [٣١] .

---

(٢٤) ابن قدامة : المغنى : ٩/ ٣٤.
(٢٥) الماوردي : أدب القاضي : ١/ ١٣ . ابن الاخوة : معالم القربة : ١ .
(٢٦) الطبقات : ٧/ ٣٩٢. انظر: وكيع : اخبار القضاة : ٣/ ..
(٢٧) وكيع : اخبار القضاة : ١/ ٢٠١ .
(٢٨) م. ن : ٣/ ٢٠٧.
(٢٩) م. ن : ١/ ٣٥١ ، ٣٥٢.
(٣٠) اخبار القضاة : ١/ ٢٥ ، ٢٦ .
(٣١) المعارف : ٤٧٤.

وكان للقاضي من يعاونه في اثناء انعقاد مجلس القضاء، فهناك اشخاص يقومون على رأسه، كانت مهمتهم جلب المتهمين الى مجلس القضاء، والمحافظة على الهدوء والنظام في اثناء اجراء المحاكمات، ومن المرجح ان هؤلاء كانوا من أفراد الشرطة[32]. ثم ان بعض الفقهاء كانوا يجلسون مع القاضي في اثناء انعقاد مجلس القضاء لمشورتهم وأخذ رأيهم في بعض وقائع المحاكمات، أو انهم كانوا يحضرون «لاجل الشهادة اوليذكروا القاضي ماجرى على لسانه»[33]. أو لينوهوا القضاة اذا اخطأوا[34].

وقد كان للقاضي كاتب يكتب بين يديه، يدون اقوال الخصوم والشهود[35] واشترط فيه ان يكون «مسلماً ورعاً لان الكتابة من جنس القضاء فيشترط في الكاتب مايشترط في القاضي» وان يكون مجلسه قريباً من القاضي «حيث يراه كي لايخدع بالرشوة فيزيد في الفاظ الشهادة او ينقص»[37].

لقد عني القضاة بالشهود فقد كانوا يسألون ويتحرون عنهم بواسطة اشخاص كانوا يحظون بثقة القضاة.[38]

وكان من حق المدعي او المدعى عليه ان يطلب من القاضي التحري عن الشهود ومعرفة حسن سيرتهم بين الناس[39] كما كان يحق للمدعى عليه ان يطلب تأجيل محاكمته اذا شك في الشاهد[40] وكان من حق القاضي ان يرد شهادة بعض الشهود اذا شك فيها[41]. ورفض شهادة الاشخاص الذين لايرغب في شهادتهم[42].

---

(٣٢) وكيع : اخبار القضاة : ٣/ ٣٠٨. انظر: الخصاف : شرح ادب القاضي : ورقة ١٤أ.

(٣٣) الخصاف : شرح ادب القاضي : ورقة ٢٣أ. انظر: بحشل: تاريخ واسط : ٩٥. ابن الجوزي : صفة الصفوة : ٣/ ٥.

(٣٥) ن. م : ٣/ ٣٠٩.

(٣٦) الخصاف : شرح أدب القاضي : ورقة ١٤أ.

(٣٧) ن.م : ورقة ١٤أ.

(٣٨) وكيع : اخبار القضاة : ٣/ ٣٠٨.

(٣٩) الكامل في اللغة والأدب : ١/ ٢٦٥.

(٤٠) وكيع : اخبار القضاة : ٣/ ٣١١.

(٤١) ن. م : ٣/ ٣٠٧.

(٤٢) ن.م : ٣/ ٢٠٧.

ب. الحسبة :

ان نشوء المدن وازدهار الحياة الاقتصادية في الدولة العربية واهتمام الخلفاء والامراء في تنظيم الحياة الاقتصادية في هذه المدن(٤٣) ادى الى ظهور عدد كبير من الصناع واصحاب الحرف ورجال الأعمال في هذه المدن ونشاط الحياة الاقتصادية فيها.(٤٤) فلابد في هذه الحالة ان تقوم مشاكل من جراء المعاملات في السوق والصناعات والأعمال الأخرى التي تتعلق بحياة ابناء الشعب المعاشية، فلكي تمنع الدولة قيام الغش والحيل والتدليس والاحتكار من قبل بعض الباعة والصناع كان لابد لها ان تعالج المشكلة فأوجدت مؤسسات ادارية لمراقبتهم ومنعهم من القيام بالأعمال المضرة بمصلحة المستهلك.(٤٥)

لقد كان المحتسب على رأس هذه المؤسسة الادارية في المدن. وقد وجدت هذه الوظيفة في عصر صدر الاسلام(٤٦) واستمرت طيلة العصر الأموي.(٤٧) ان المعلومات التي وصلت الينا عن واجبات المحتسب في العصر الأموي تدل على انه كان يتولى مهمة مراقبة السوق(٤٨). إلا انه كانت قد ظهرت في وقت متأخر عن فترة دراستنا كتب تناولت الحسبة بصورة مفصلة فبحثت في شروط المحتسب وواجباته واعوانه.(٤٩) واغلب الظن ان ماجاء في هذه الكتب ليس فقط عن الفترة التي تم تأليف تلك الكتب فيها، اذ لايمكن القول بأن هذا التوسع في اعمال المحتسب قد ظهر فجأة، وانما حصل التوسع في

(٤٣) انظر: الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي: ١٤٤.

(٤٤) ن.م: ٢٨٢.

(٤٥) انظر: كوركيس عواد: «الحسبة في خزانة الكتب العربية» مجلة المجمع العلمي العربي م١٨ ٢٩٤٣ ص ٤١٧.

(٤٦) روي ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كان قد مارس بنفسه الرقابة على الاسواق. الغزالي. احياء علوم الدين: ٢/٥٥، الطبري؛ ٤/٢٢٤.
كما ان الخليفة علي بن ابي طالب (رض) راقب الاسواق وحث التجار على ان لايظلموا الناس. (وكيع: اخبار القضاة: ٢/١٩٦) ويذكر ابن سلام ان السائب بن يزيد كان عاملاً على سوق المدينة. الاموال: ٥٣٣

(٤٧) انظر؛ البلاذري: انساب الاشراف: ج٧ ورقة ٣٦ب. اخبار القضاة: ١/٣٥٢، ٣٥٣. تشمل: تاريخ واسط: ١١٤. ابن سعد: الطبقات: ج٥ ق١: ص ١٣٠. ج٧ ق٢ ص ٦٠.
ابن سعد: الطبقات: ج٥ ق١: ١٣٠.

(٤٨) بحشل: تاريخ واسط: ٩٣، ١١٤، اخبار القضاة: ١/٢٥٧.

(٤٩) راجع: الماوردي: الاحكام السلطانية: ٢٥٣ ومابعدها. الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة. ابن الاخوة: معالم القربة في احكام الحسبة. ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة.

اعماله بصورة تدريجية شأن المؤسسات الادارية الاخرى في لدولة العربية الاسلامية ، لاسيما ان هذه المؤسسة ظهرت منذ عصر صدر الاسلام - كما اسلفنا - والراجح ان واجبات المحتسب في هذه الفترة المتأخرة لاتختلف بصورة اساسية عن واجباته في فترة دراستنا

لقد اشارت هذه المصادر الى انه كان من واجبات المحتسب في السوق مراقبة الاوزان والمكاييل والمقاييس نظراً لتعددها في الاقاليم العربية الاسلامية وذلك للتأكد من صحتها .[٥٠] ومراقبة اصحاب الحرف .[٥١] والحيلولة دون وقوع الغش او التدليس في المبيعات .[٥٢]

واضافة الى الخدمات الاقتصادية التي كانت تقدمها هذه المؤسسة الادارية لسكان المدن ، يبدو انها تناولت اموراً اجتماعية كذلك ليظهر المجتمع العربي آنذاك بالمظهر اللائق . فقد ذكرت المصادر انه كان على المحتسب المحافظة على نظافة الأسواق والطرق ومنع كل مامن شأنه مضايقة المارة فيها .[٥٣] ومراقبة الطرق ومنع الناس من الجلوس فيها .[٥٤] والزام اصحاب المباني المتداعية بهدمها .[٥٥] والاهتمام بأمر المساجد بأن يأمر بنظافتها وحفظها .[٥٦] والأمر بالرأفة بالحيوان بأن لايحمل مالايطيق ، ومنع معلمي الصبيان من ضرب الاطفال ضرباً مبرحاً .[٥٧] اي ان واجبات هذه المؤسسة كانت اشبه بواجبات أمانة العاصمة في الوقت الحاضر لقد كان الفقهاء يرون أنه من الواجب ان تتوفر صفات خاصة في الشخص الذي يشغل هذه المؤسسة الادارية ، فقد اشترطوا ان يكون «مسلماً حراً بالغاً عدلاً»[٥٨] وان يكون «فقيهاً عارفاً باحكام الشريعة الاسلامية ليعلم مايأمر به وينهى عنه»[٥٩] و«ويعمل بما يعلم وان لايكون قوله مخالفاً لفعله»[٦٠] عارفاً بالموازين

---

(٥٠) الماوردي : الاحكام السلطانية : ٢٥٤ . الشيزري : ١٥ ، ١٩ . ابن الاخوة : معالم القربة : ٢١٩ .
(٥١) الماوردي : الاحكام السلطانية : ٢٥٣ .
(٥٢) الماوردي : الاحكام السلطانية : ٢٥٣ .
(٥٣) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة : ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٧ .
(٥٤) م . ن : ١٤ .
(٥٥) ابن الآخوة : معالم القربة في احكام الحسبة : ٧٩ ، ٩٩ ، الشيزري نهاية : ١٤ .
(٥٦) الشيزري : نهاية : ١٢٤ .
(٥٧) ابن خلدون : المقدمة : ١٩٦ .
(٥٨) ابن الاخوة : معالم القربة : ٧ . انظر : الماوردي : الاحكام السلطانية : ٢٤١ .
(٥٩) الشيزري : نهاية الرتبة : ٦ .
(٦٠) م . ن : ٦ .

والمكاييل والارطال والمثاقيل والدراهم وتحقيق كميتها وذلك لكي تجرى معاملات الناس بها دون غبن[٦١] وان يكون مواظباً على السنة النبوية .[٦٢]

نظر المظالم:

كان هذا المنصب من المناصب القضائية المهمة في الدولة العربية يتولى صاحبها النظر في قضايا الظلم التي يرتكبها كبار رجال الدولة بحق ابناء الشعب .[٦٣]

كما كان يلجأ اليه المتقاضون اذا اعتقدوا ان القاضي لم يحكم بينهم بالعدل[٦٤] كان الرسول (ﷺ) يسمع شكاوي الناس ويحكم بينهم[٦٥] اما في العصر الراشدي فلم نجد مايشير الى أن احد من الخلفاء الراشدين كان قد جلس للنظر في المظالم الا الخليفة علي ابن ابي طالب (رض) الا انه لم يفردوالسماع الظلامات يوماً معيناً ، بل كان ينظر في شكاوي من يأتيه من المتظلمين .[٦٦]

ويبدو ان نظر المظالم اصبح في العصر الأموي أحد المؤسسات الرسمية في الدولة فقد ذكر الماوردي ان الخليفة عبدالملك بن مروان خصص يوماً كان ينظر فيه في شكاوي المتظلمين .[٦٧] كما جلس الخليفة عمر بن عبدالعزيز للنظر في المظالم ، وبدأ بمظالم أقاربه فأعادها الى أهلها .[٦٨]

---

(٦١) م . ن : ١٥ . انظر: الماوردي : الاحكام السلطانية : ٢٥٤ .

(٦٢) ابن الاخوة : معالم القربة : ٨٠-٨٣ . والرطل البغدادي او العراق يساوي تسعون مثقالاً وهي مائة درهم وثمانية وعشرون درهماً واسباع درهم . المصباح المنير: مادة (الرطل) .

(٦٣) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية : ٣١١ .

(٦٤) م . ن : ٣١٠ .

(٦٥) الماوردي : الاحكام السلطانية : ٧٧ .

(٦٦) م . ن : ٧٨ .

(٦٧) الاحكام السلطانية : ٧٨ . الحنبلي : الاحكام السلطانية : ٧٥ .

(٦٨) م . ن : ٧٨ . الحنبلي : الاحكام السلطانية : ٧٥ . البيهقي المحاسن والمساوئ : ٢/٢٧١ ومابعدها .



الباب الثالث

حركات التحرير العربية

الفصل الأول

تنظيمات الجيش

الفصل الثاني

حركات التحرير

الفصل الأول

تنظيمات الجيش

تميزت الدولة العربية الاسلامية في العصر الأموي بوجود مؤسسة عسكرية متكاملة بتنظيماتها وقياداتها وأساليبها في ادارة القتال. وسنحاول في هذا الفصل أن نلقي نظرة على أهم هذه التنظيمات،[1] التي ترجع في جذورها الى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين. وسيكون موضوع اهتمامنا مركزاً على المباحث الآتية:

عناصر الجيش، نظام التجنيد في العصر الأموي، صفوف الجيش، ديوان الجند، العطاء والارزاق والغنائم، التعبئة وأساليب القتال، الأسلحة، القيادة البحرية

اولاً: - عناصر الجيش:

١ - العرب: -

اعتمد الأمويون على العرب بشكل كبير في حملاتهم العسكرية. وكان العرب يشكلون القوات العسكرية الرئيسة في الأمصار، وهم يتألفون عادة من العشائر التي جاءت من الجزيرة العربية في اثناء حروب التحرير في عصر الراشدين واستقرت في

---

(١) يُعد كتاب خالد جاسم الجنابي، **تنظيمات الجيش العربي الاسلامي في العصر الأموي** (بغداد، دار الحرية، ١٩٨٤) من أشمل المراجع عن هذا الموضوع.

العراق ، وبلاد الشام ، ومصر وبقية المناطق التي امتدت اليها حركات التحرير. وقد أدت ظروف التنظيم العسكري للعرب بعد استقرارهم في الامصار الجديدة الى أن تصبح العشيرة هي الوحدة العسكرية الاولى في الجيش ، وكان افرادها يقاتلون معاً في اثناء المعارك. وكانت الدولة في العصر الأموي ، ولأسباب تنظيمية وادارية ، تجمع عشائر متعددة متقاربة في النسب ضمن وحدة يكون لها شيخ يختاره الوالي أو الخليفة وعلى هذا الاساس قسمت الكوفة الى أرباع ، اي أربعة أقسام قبلية رئيسة ، وقسمت البصرة الى خمسة أخماس ، وكذلك خراسان. وكان الغرض من هذا التنظيم هو تذويب القبائل المناوئة للسلطة ، وتخفيف حدة العصبية القبلية ، لتمكين الدولة من فرض سلطتها وممارسة مسؤولياتها في تنظيم الجيش ، وترتيب القيادات ، والسيطرة على توزيع العطاء للمقاتلين.

وحرصت السلطة الأموية في الابقاء على الطابع العربي للامصار الاسلامية ، لاسيما في العراق ، ويمكن أن نعد بناء الحجاج بن يوسف الثقفي لمدينة واسط في حدود سنة ٨١ أو٨٢هـ / ٧٠٠ أو ٧٠١م ، خير مثال على ذلك ، فقد جعل منها الحجاج مركزاً لادارة العراق والمشرق الاسلامي كله ، لانها تتوسط المنطقة بين البصرة والكوفة ، وتشرف على ادارتها[٢] . كما أصبحت قاعدة للجيوش العربية التي ساهمت في الفتوح في جبهة المشرق ، وقد أسكنها المقاتلة العرب من جند الشام ، ومنع غير العرب من الاقامة فيها.[٣]

ولأجل تثبيت الفتوح في المشرق ، عمل الأمويون على اقامة قاعدة متقدمة . للقوات العربية الاسلامية في خراسان ، فنقلوا في سنة ٥١ هـ / ٦٧١ م خمسين الفاً من المقاتلة العرب مع أسرهم من الكوفة والبصرة ، واسكنوهم في خراسان. وبما أن الأخيرة كانت تتبع البصرة من الناحية الادارية ، فقد اتبع فيها ايضاً نظام الأخماس الذي كان متبعاً في البصرة. وقد بلغ عدد المقاتلين العرب في خراسان في حدود عام ٩٦ هـ / ٧١٤م من قبائل البصرة فقط نحو ثلاث واربعين الفاً. يضاف اليهم قوات عربية اخرى من جند الشام الذين كانوا يشكلون في خراسان وحدة قائمة بذاتها ، وينقسمون حسب تنظيماتهم الأصلية في بلاد الشام الى جند دمشق ، وحمص ، وفلسطين ، والاردن ، وقنسرين. كما استقر العرب أيضا في بلاد ماوراء النهر ، واتخذوا من مدينة سمرقند قاعدة مهمة للحركات

---

(٢) ينظر: صالح أحمد العلي، «منطقة واسط» ، **مجلة سومر**، م ٢٦ (بغداد ، ١٩٧٠) ص ٢٤٢.

(٣) أسلم بن سهل الرزاز الواسطي المعرف بـ بحشل ، **تاريخ واسط** ، تحقيق ، كوركيس عواد (بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٦٧) ، ص ٤٦ ؛ وينظر: عبد القادر المعاضيدي. **واسط في العصر الأموي** (بغداد ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٦) ، ص ٩٦- ٩٧ ؛ طه ، **العراق في عهد الحجاج** ، ص ١٥٧- ١٥٨.

العسكرية. كذلك اتخذوا من مدينة بلخ قاعدة اخرى لافتتاح بلاد ماوراء النهر. وقد كونت القبائل العربية من العراق، والشام، وخراسان، أهم مقاتلي هذه القواعد. أما في أرمينية، فكانت القوات الشامية التي تنتمي الى اجناد الشام من أهم القوى المتواجدة في المنطقة، حيث ضمن مدينة باب الأبواب، قاعدة البلاد الرئيسة، نحو اربعة وعشرين الفاً من مقاتلي أهل الشام، الذين سكنوا هذه المدينة حسب تجمعاتهم الرئيسة في بلادهم.(٤)

أما في بلاد الشام، فقد أطلق على تجمعات القوات العربية فيها اسم الأجناد، حيث قسمت هذه القوات الى خمسة أقسام، هي جند دمشق، وجند حمص، وجند الاردن، وجند فلسطين، وجند قنسرين. وكانت الغالبية العظمى من عناصر هذه الاجناد في بداية العصر الأموي تتألف من القبائل اليمنية التي عرفت بتأييدها الكبير للأمويين، ثم ضمت الى جانب أهل اليمن قبائل من قيس، لاسيما في خلافة عبد الملك ابن مروان، الذي توصل الى عقد الصلح مع زفر بن الحارث، زعيم هذه القبائل في الجزيرة الفراتية.(٥)

وتألفت القبائل العربية في مصر في بداية الأمر من القبائل اليمنية الجنوبية التي جاءت اليها في عصر الراشدين. وكان بناء الفسطاط سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م فاتحة لاستقرار هذه القبائل، بحيث أصبحت هذه المدينة، شأنها شأن الكوفة والبصرة، معسكراً كبيراً يضم المقاتلة من العرب الذين ينتمون الى مختلف القبائل العربية. وقد ازدادت هذه القوات في العصر الأموي، حيث بلغ عدد الجند المثبتين في الديوان ايام معاوية بن أبي سفيان، نحو سبعة وعشرين ألف رجل في الاسكندرية وحدها(٦). كما نقلت اعداد كبيرة من القبائل القيسية الى مصر، لاسيما في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، واستقرت في اماكن مختلفة من البلاد. ويمكن القول أن القبائل العربية كانت تفد على مصر إما في صورة جيوش مجندة يبعث بها الخليفة، أو أنها كانت تصاحب الولاة الأمويين، أو أنها كانت تفد مهاجرة طلباً للرزق. وهكذا شكلت هذه القبائل العربية عنصراً مهماً جداً ساعد على استكمال تحرير المغرب العربي، وبلاد الأندلس.(٧)

---

(٤) ينظر: الجنابي، **تنظيمات الجيش**، ص ٣١ – ٣٣.

(٥) ابن الأثير، **الكامل**: ٤ / ٣٤٠؛ دكسن، **الخلافة الأموية**، ص ١٥١ – ١٥٢.

(٦) ابن عبد الحكم، **فتوح مصر**، ص ١٩٢ ينظر: لبيد ابراهيم احمد، نظرة تاريخية الى بنية الجيش العربي في جبهة مصر والمغرب العربي، مجلة المؤرخون العرب، عدد ١٥ (بغداد ١٩٨٨) ص ٤٥.

(٧) الجنابي، **تنظيمات الجيش**، ص ٣٦ – ٣٧.

ولاقى العرب صعوبة كبيرة في الانتشار في شمال افريقيا. وكانت الحملات العربية الأولى تتألف من مختلف القبائل العربية، لاسيما من الحجاز واليمن، ولم تستطع هذه القبائل الاستقرار في المنطقة بسبب مقاومة السكان المحليين. لهذا فقد كان من الضروري ايجاد قاعدة حربية تضمن تواجد العرب الدائمي في المنطقة، وتحمي القوات العربية من أية تمردات قد يقوم بها هؤلاء السكان. وهكذا توصل القائد عقبة بن نافع الى أهمية بناء مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م، التي أصبحت بالاضافة الى وظيفتها كقاعدة عسكرية، تستخدم ايضاً مركزاً لنشر الدين الاسلامي بين القبائل المغربية المحلية. ولاتتوفر معلومات كثيرة عن كيفية تجمع القبائل العربية في مدينة القيروان، ولكن بما أن معظم هذه القبائل جاءت من مصر، فيمكن الافتراض أنهم تجمعوا وبنوا منازلهم، كما فعل العرب سابقاً في الفسطاط، فاختطت كل عشيرة حيّها الخاص حول الجامع، والاماكن المجاورة[8].

وقد استمر تدفق الحملات على شمال افريقيا في العهد الأموي لاستكمال تحريرها، حيث ضمت هذه الحملات عناصر عربية من مختلف القبائل، لاسيما من أجناد الشام. وكان آخر هذه الحملات تلك التي قادها كلثوم بن عياض القشيري للقضاء على تمرد السكان المحليين سنة ١٢٣ هـ/ ٧٤٠ م. وكانت تتألف من قبائل الشام وأجنادها، بالاضافة الى عناصر من مصر وبرقة وطرابلس. ولهذه الحملة أهمية كبيرة، لانها ستشكل طالعة عربية مهمة تدخل الأندلس، بعد فشلها في القضاء على التمرد في شمال افريقيا.

كانت القوات التي دخلت الأندلس وانجزت افتتاحها، واستقرت فيها تتألف من رجال القبائل العربية والمغربية (البربرية) التي رافقت كلا القائدين طارق بن زياد وموسى ابن نصير. وسمي هؤلاء بالبلديين، لأنهم أصبحوا يعدّون أنفسهم أهل البلد ومالكيها. وقد أطلق على العرب منهم، لاسيما اولئك الذين جاءوا مع موسى بن نصير، اسم طالعة موسى ابن نصير. وكان عدد الجميع نحو ثلاثين الف رجل، دخل اثنا عشر الفاً منهم مع طارق، وثمانية عشر الفاً مع موسى. ثم وفدت قوة عربية اخرى على الأندلس تتألف من عشرة آلاف رجل بقيادة بلج بن بشر القشيري، ويسمون بالطالعة البلجية، أو الشاميين، لأن معظمهم ينتمي الى القبائل العربية في بلاد الشام. وقد شعرت الخلافة الأموية بضرورة إبقاء هؤلاء الشاميين في الاندلس لحمايتها، فعملت على ايجاد جو مناسب لاستقرارهم في

---

(٨) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، **الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والأندلس** (بغداد، دار الرشيد، ١٩٨٢) ص ١٢١ - ١٢٢.

الأندلس . وقرر الوالي ابو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي أن يمنحهم اقطاعات من الأرض في مناطق معينة من البلاد تحت امرة رؤسائهم ، وتحرى ان يكون استقرار كل مجموعة في مكان يحمل بعض الشبه للجند الأصلي الذي كانت تنتمي اليه في بلاد الشام . وهكذا استقر الشاميون في المناطق الآتية :

جند دمشق في البيرة
جند حمص في اشبيلية
جند قنسرين في جيان
جند فلسطين وزع بين شذونة والجزيرة الخضراء
جند الأردن في رية

أما الجنود الذين رافقوا بلج بن بشر من مصر فوزعوا بين اكشونبة وباجة وتدمير.

وقد دعيت هذه المناطق بالكور المجندة، [٩] كما اطلق اسم الجندين على طالعتي موسى ابن نصير وبلج بن بشر. [١٠] وكانت مهمة الجندين هي المحافظة على البلاد والاستعداد للدفاع عنها في حالة الخطر، لاسيما الجند الشامي ، الذي كان استقراره في الكور المجندة يمثل نوعا من الاقطاع العسكري ، ليكون رجاله جاهزين للقتال وقت الحاجة. [١١]

ويلاحظ على تجمع القوات العربية والبربرية في الاندلس ، ان التنظيم القبلي كان هو السائد ، حيث استقرت كل قبيلة مع مايتبعها من عشائر في مناطق خاصة بها . وهذا يعود بالدرجة الاولى الى أن الجيوش التي دخلت الأندلس كانت تتألف بالأصل من مجموعات عديدة من القبائل العربية والمغربية التي انتظمت في معظم الاحيان تحت قيادة زعمائها . وهكذا أصبح في الأندلس اماكن خاصة بكل قبيلة تسمى باسمها ، مثل جزء البكريين ، وجزء اللخميين ، واقليم همدان ، واقليم بني أسد ، واقليم كنانة ، واقليم زناتة ، وجزء مصمودة ، واقليم لماية. [١٢]

---

(٩) محمد بن عبد الله الحميري ، **صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار**، نشرة وترجمة الى الفرنسية ليفي بروفنسال، (القاهرة – ليدن ١٩٣٨) ، ص ٢١ ، ٣٦ ، ١٠٠

(١٠) محمد عبد الله المعروف بابن الآبار ، **الحلة السيراء** ، تحقيق ، حسين مؤنس (القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣) : ١/ ٦٤.

(١١) لسان الدين محمد بن الخطيب ، **الاحاطة في اخبار غرناطة** ، تحقيق ، محمد عبد الله عنان (القاهرة ، ١٩٧٣) : ١/ ١٠٢ - ١٠٣.

(١٢) عبد الواحد ذنون طه ، « **تنظيمات الجيش في الدولة العربية الاسلامية في الأندلس في العصر الأموي** » ، **مجلة المورد** ، م ١٧ ، العدد ١ (بغداد ، ١٩٨٨) ، ص ٦.

٢ – الموالي :

ضم الجيش العربي في العصر الأموي الى جانب العرب عناصر اخرى غير عربية تنتمي الى اجناس مختلفة ، مثل الفرس ، والترك ، وغيرهم ، أطلق عليهم اسم الموالي . وكان المصدر الأولي لهؤلاء ، لاسيما في صدر الاسلام يأتي من استسلام اعداد كبيرة من الفرس والروم في حروب التحرير الاولى ، وقرارها الدخول في الاسلام . وقد منحهم العرب في أول الأمر نفس الحقوق التي يتمتع بها المقاتلة العرب من حيث العطاء والرزق ، وسمحوا لهم بالتحالف مع أية قبيلة شاءوا . ومن هؤلاء ، الأساورة الذين قاتلوا المسلمين في الاحواز ، ثم استسلموا شرط أن يفرض لهم في العطاء ويحتفظوا بتنظيماتهم ، وتبنى لهم خطط خاصة . وقد حالفوا بني تميم في البصرة ، وأصبحوا موالي لهم .(١٣) والتحق بهؤلاء ايضاً جماعات اخرى من السيابجة والزط الذين يعودون بأصلهم الى السند ، وكان الفرس قد سبوهم في معارك سابقة واسكنوهم في المناطق القريبة من البحرين على سواحل الخليج العربي ، ثم استخدموهم بعد ذلك في قواتهم .(١٤) ولم يقتصر الأمر على استخدام هؤلاء ، فقد جلب عبيد الله بن زياد نحو ألفين من أسرى الترك في بخارى ، واسكنهم البصرة ، واستخدمهم لحفظ الأمن والقضاء على بعض حركات التمرد .(١٥)

ازداد عدد الموالي زيادة كبيرة في العصر الأموي بسبب اتساع حركات التحرير وكثرة الرقيق بالأسر وكان الكثير من هؤلاء يُعتق من قبل الدولة أو من قبل اسيادهم ، فيصبحون احراراً لاتربطهم باسيادهم السابقين سوى رابطة الولاء ، وهؤلاء هم موالي العتاقة . وتستوجب هذه الرابطة أن يُقدّم المولى لسيده بعض الخدمات ، كأن يقاتل الى جانبه ، أو يذهب بدله في بعوث القتال . ولم يكن لهؤلاء نصيب في العطاء ، ولكنهم اذا اشتركوا مع أسيادهم في المعارك يأخذون نصيبهم من الغنائم فقط . ومع هذا فقد فُرض لبعضهم في العطاء ، الا أن عطاءهم كان أقل من عطاء المقاتلة العرب ، ذلك لأن العرب عماد الدولة ، ومادة الاسلام ، وحملة رسالته خارج الجزيرة العربية . على انه اتخذت اجراءآت عديدة لزيادة عطاء هؤلاء في خلال العصر الأموي .(١٦)

---

(١٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٦٦ ؛ وينظر : فاروق عمر فوزي « عناصر الجيش العربي الاسلامي » ، بحث ضمن كتاب الجيش والسلاح ، (بغداد ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٨٨) : ٣/ ١٣ .

(١٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٦٧ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٣٦٩ ؛ وينظر : الجنابي ، تنظيمات الجيش ، ص ٤٦ .

(١٦) فوزي ، عناصر الجيش العربي ، ص ١٤ .

أما مايذكر عن قلة اعتماد الأمويين على الموالي، فربما كان ذلك ينطبق على بداية الدولة، حين كان عددهم قليلاً، وكانت التقاليد العربية في أوجها. ويجب الأ يغيب عن البال أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أراد أن تكون الامة العربية أمة عسكرية مجاهدة لاتختلط بالاعاجم ولاتتأثر بهم، لذلك شيد لهم المعسكرات خارج المدن المحررة. ولكن العرب اتصلوا تدريجياً بالموالي وبغيرهم، وأفسحوا لهم المجال بصورة تدريجية، فتولى البعض منهم في العصر الأموي الوظائف الادارية، وبرز منهم قادة عسكريون متميزون، من امثال طارق بن زياد، ومغيث الرومي، اللذان كان لهما الفضل الكبير في نجاح العمليات العسكرية في الأندلس. وكان مقاتل بن حيان النبطي من القادة البارزين في الجبهة الشرقية، كما كان حيان النبطي من رجال الحجاج بن يوسف الاكفاء في مجال العمران بالعراق.[١٧]

ومع ذلك فإن تغلغل الموالي في صفوف الجيش باعداد كبيرة كانت له آثاره السيئة السلبية على الدولة العربية الاسلامية، لأن كثرتهم أدت الى أن يتفوقوا من حيث العدد في بعض المناطق على العرب، ونشأ من استقرارهم في الامصار، لاسيما في بلاد فارس، وخراسان، جماعات متذمرة، دخل بعضها الى الاسلام ابتغاء المزايا التي يمكن الحصول عليها منه، أي أنهم اتخذوه وسيلة لكي ينالوا ماكان للعرب من حقوق، وتستر بعضهم بالاسلام للعمل مع الحركات المناوئة للحكم العربي.[١٨] وقد أسلفنا الاشارة الى دور هؤلاء الموالي في حركة المختار الثقفي، وابن الأشعث، وعبد الله بن معاوية، وغيرها من الحركات المناوئة للدولة الأموية.

أما في بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا، فلم يشكل الموالي تياراً يهدد الدولة رغم كثرة عددهم، مما يدل على أن النزعات القومية والدينية والاجتماعية الفارسية كانت هي السبب في احداث مشكلة الموالي في المشرق.[١٩] وقد ضمت منطقة المغرب العربي اعداداً كبيرة من الموالي سواء ممن دخل الاسلام من أهل البلاد، أم الذين كانوا يرسلون مع الجيوش المتجهة الى هذه المنطقة. وقد دخل في ولاء بني أمية عدد كبير من أهل

---

(١٧) الدوري، **مقدمة في تاريخ صدر الاسلام**، ص ٧٣.
(١٨) فلهاوزن، **المرجع السابق**، وينظر: الجنابي، **تنظيمات الجيش**، ص ٥٢.
(١٩) الدوري، **مقدمة في تاريخ صدر الاسلام**، ص ٧٣.

المغرب ، كما دخلوا في ولاء قادتهم وعمالهم ، من امثال موسى بن نصير ، الذي كان له عدد لايحصى منهم [٢٠].

وازدادت في الأندلس اعداد الموالي زيادة كبيرة . وكان هؤلاء من اصول بيزنطية أو شمال افريقية ، وقد رافق قسم منهم العرب المستقرين الأوائل فسموا باسم الموالي البلديين. أما الذين رافقوا طالعة بلج بن بشر القشيري الشامية ، فسموا بالموالي الشاميين. [٢١] وبما ان الكثير من موالي المجموعة الثانية كانوا على اتصال وثيق بالاسرة الأموية ، فقد عُرفوا أيضاً باسم موالي بني أمية . [٢٢] وقد شكّل نحو خمسمئة رجل من هؤلاء جزءاً من جُندي دمشق وقنسرين ، واستقروا في منطقتي البيرة وجيان . وكان وضع الموالي الاجتماعي في الاندلس جيداً جداً ، فقد تملكوا الأراضي ، وصار لهم نفوذ كبير وهيبة قوية بين بقية العناصر الاخرى في الاندلس . كما خالطوا كبار القادة من الشاميين والبلديين ، فضلاً عن السكان المحليين ، وافراد الاسرة الحاكمة القوطية السابقة . ويرجع الى زعمائهم ، لاسيما ابي الحجاج يوسف بن بخت ، وأبي عثمان عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله بن خالد ، الفضل في تمكن عبد الرحمن بن معاوية من اقامة الامارة الأموية في الاندلس. [٢٣]

ثانياً : - نظام التجنيد في العصر الأموي :

أولى الأمويون اهتماماً كبيراً بعملية اعداد الجند وتهيئة المقاتلين . وقد ابتدأ هذا الاهتمام منذ وقت مبكر ، لاسيما في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، الذي اجتهد في اختيار الولاة الاكفاء لادارة الأمصار ، وكسب رجال القبائل العربية ، الذين كانوا يمثلون العمود الفقري للجيش . فاستمال قادتهم بشتى الوسائل ، واستخدم الأموال ، وبذل المناصب لاغرائهم وكسب تأييدهم . وهكذا استطاع أن يجند اعدادا كبيرة منهم في حملاته البرية

---

(٢٠) **الامامة والسياسة** : ٢/ ٥٦.

(٢١) ابو مروان حيان بن خلف بن حيان ، **المقتبس** ، تحقيق محمود علي مكي (بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٧٣)، ص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ ابن الأبار ، **الحلة السيراء** ، ١/ ٢٠١ .

(٢٢) مجهول المؤلف ، **أخبار مجموعة** ، نشر ، لافونيتي القنطرة (مدريد ، ١٨٦٧) ، ص ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٢ .

(٢٣) ينظر: طه ، **الفتح والاستقرار**، ص ٤١٦ فما بعدها.

والبحرية. وقد ارتبطت عملية تجنيد المقاتلين ونجاحها بمدى كفاءة الولاة وحزمهم في هذا الأمر. ويمكن اعتبار ولاية زياد بن أبي سفيان على البصرة سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م البداية الحقيقية للتشديد في عملية التجنيد واستنفار المقاتلين، ومعاقبة المتخلفين. حيث لم يدع أحداً من الجند يجروء على الاخلال بمكانه، أو الهرب من الجيش، لأن ذلك كان يعرضه لأشد العقوبات. وهكذا ألزم زياد الناس بالطاعة «وتقدم بالعقوبة وجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً»[٢٤]. ونتيجة لهذه السياسة الحازمة ازداد عدد المقاتلين في البصرة في عهد زياد من أربعين الفاً الى ثمانين ألفاً. كما أصبح عدد مقاتلي الكوفة ايضاً ستين الفاً.[٢٥] ولأجل السيطرة الكاملة على عملية تجنيد المقاتلين في العراق وتنظيم القبائل العربية، رأى زياد اعادة تنظيم هذه القبائل لضمان السيطرة عليها من الناحية العسكرية، فقسم قبائل البصرة الى أخماس، وقبائل الكوفة الى أرباع.[٢٦]

ونتيجة لاضطراب الامور بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية، لاقىٰ الولاة الامويون، لاسيما في العراق، صعوبات بالغة في تجنيد البعوث من أهل الكوفة والبصرة لقتال الخوارج الأزارقة. وكانت مسألة كثرة العصاة الفارين قد الجأت بشر بن مروان والي العراق لأن يتخذ اجراءآت قاسية بحقهم وبعد وفاته سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤م، ترك قسم كبير من العراقيين جيش المهلب بن أبي صُفرة، ورجعوا الى أمصارهم، خاصة أهل الكوفة.[٢٧] ولقد حاول خالد بن عبد الله، خليفة بشر، أن يتدارك الأمر فوجه كتاباً الى الجند يهددهم فيه بقوله: «... اقسم بالله لا أُثقف عاصياً بعد كتابي هذا الاقتلته ان شاء الله»[٢٨]. ولكنهم لم يكترثوا له ودخلوا الكوفة مخالفين[٢٩]، تاركين المهلب في الاحواز يواجه خطر الخوارج وحده، الأمر الذي دفعه الى الكتابة الى الخليفة عبد الملك بن مروان محذراً بقوله: «انه ليس عندي رجال اقاتل بهم فإما بعثت اليّ بالرجال وإما خليت بينهم وبين البصرة».[٣٠]

---

(٢٤) الطبري، **تاريخ**: ٢/ ٧٧.

(٢٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٤٤- ٣٤٥؛ وينظر: الجنابي، **تنظيمات الجيش**، ص ٦٥.

(٢٦) ينظر: الطبري، **تاريخ**: ١/ ٢٤٠٥، ٢/ ٤٣٨؛ صالح احمد العلي، **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري**، ٥٣، ١٢٠.

(٢٧) البلاذري، **انساب**، طبعة اهلورت: ١١/ ٢٧١، ٢٧٤؛ الطبري، **تاريخ**: ٢/ ٨٥٧.

(٢٨) **المصدر نفسه**؛ ٢/ ٨٥٨.

(٢٩) **المصدر نفسه**: ٢/ ٨٥٩.

(٣٠) المسعودي، **مروج الذهب**: ٣/ ١٣٣.

كان رد الخليفة عبد الملك بن مروان عملياً، فقد عين أحد كبار الرجال المعروفين باخلاصهم للدولة على ولاية العراق، ذلك هو الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي عُرف بشدته في ضبط الجند، لاسيما عندما كان على ساقة جيش الخليفة في حملته على مصعب بن الزبير، حيث كان لايمر على باب رجل من أهل الشام تخلف عن الخروج الا أحرق عليه داره.[٣١] وعندما وصل الحجاج الى الكوفة سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤م، خطب في أهلها خطبة مشهورة اكد فيها على مشكلة تجنيد البعوث، وفرار الجند، فهدد بالقتل كل من وُجد متخلفاً عن جيش المهلب بن أبي صُفرة بعد ثلاثة ايام، وذلك بقوله: «... وقد بلغني رفضكم المهلب واقبالكم الى مصركم عصاة مخالفين، واقسم بالله لاأجد أحداً بعد ثالثة ممن أخل بمركزه الاضربت عنقه»[٣٢]. وبالفعل نفذ الحجاج تهديده بقتل أحد المتخلفين، عمير بن ضابيء البرجمي، فخاف العصاة والتحقوا بجيش المهلب، وتزاحموا على عبور الفرات حتى غرق بعضهم، مما جعل الحجاج يأمر باقامة جسر آخر من السفن لاستيعاب الفارين الذين رجعوا والتحقوا على وجه السرعة طالبين الى أهاليهم أن يزودوهم بمتاعهم وزادهم فيما بعد. وقد عبر الشاعر عن لسان حال كل واحد منهم بقوله:

تخيّر فإما أن تزور ابن ضابيء عميراً واما أن تزور المهلبا[٣٣]

والواقع أن الحجاج كان محقاً في معاملته للجنود الفارين، لأن منح الدولة العطاء للمقاتلة يخولها قانوناً حق فرض البعث عليهم، اي تجنيدهم للمشاركة في الحملات أو البعوث العسكرية، والزامهم الاشتراك في القتال.[٣٤] ولكن الحجاج مع ذلك لم يشتط في استعمال العقوبات القاسية، صحيح أنه هدد بالقتل، وقتل فعلاً عمير بن ضابيء البرجمي في الكوفة، وشخصاً آخر يدعى شريك بن عمرو اليشكري في البصرة،[٣٥] الا أنه أخذ، لاسيما بعد انصياع الناس لأوامره، يتفقد الفارين، ويوجه الرجال، فكان يحبس الفارين نهاراً، ويفتح لهم الحبس ليلاً، ليتيح لهم مجال الخروج والانسلال الى

---

(٣١) ينظر: طه/ العراق في عهد الحجاج، ص ٣٦.

(٣٢) البلاذري، أنساب، طبعة أهلورت: ١١/ ٢٧١.

(٣٣) المصدر نفسه: ١١/ ٢٧٢، ٢٧٥، الطبري، تاريخ، ٢/ ٨٧٢.

(٣٤) ينظر: صالح احمد العلي، «العطاء في الحجاز، تطور تنظيمه في العهود الاسلامية الاولى»، مجلة المجمع العلمي العراقي، م ٢٠، (بغداد، ١٩٧٠)، ص ٧٥، ٧٦.

(٣٥) البلاذري، أنساب، طبعة أهلورت: ١١/ ٢٧٦؛ الطبري، تاريخ: ٢/ ٨٧٣.

ناحية المهلب، وكأنه لايعلم بهم، وهذا يدل على أن هدف الدولة وممثلها الوالي لم يكن القتل، انما دعم جيش المهلب، وتجنيد المقاتلة لرد الخطر المحدق بها.(٣٦)

ان هذه الاجراءآت التي اتخذها ولاة العراق من امثال زياد بن أبي سفيان، والحجاج ابن يوسف، يمكن عدّها البدايات الاولى للتجنيد الالزامي في الجيش العربي، لأن الظروف السياسية والعسكرية كانت تفرض اتخاذ مثل تلك الاجراءآت، حيث كانت الدولة مهددة بخطر الحركات الخارجية، فضلاً عن حاجتها الماسة الى المقاتلين في الجبهات الشرقية استكمالاً لحركات الفتوح والتحرير.(٣٧) وهكذا استطاع هؤلاء الولاة، لاسيما الحجاج بن يوسف، أن يجند الآلاف من الرجال لقتال الخوارج، ويقلل من حدة خطرهم، كما نجح في استعادة طاعة الجيش في المشرق، فخدم بذلك وحدة أقاليم الدولة، وضرب اعداءها، كما سنرى في الفصل القادم الخاص بحروب التحرير.

أما في بلاد الشام فقد كانت مسألة اعداد المقاتلين أكثر استقراراً من العراق، ذلك لأن نظام الأجناد الذي كان مطبقاً فيها. كان يضمن تقديم المقاتلة وقت الحاجة. فقد استقرت فرق من الجيش العربي الاسلامي في اماكن خاصة من بلاد الشام منذ تحريرها في عهد الراشدين. وسميت هذه الفرق بالاجناد، وهي تضم المحاربين المقيمين في كل اقليم، حيث يكفل خراج ذلك الاقليم أرزاق واعطيات الجند. وتتألف هذه الاجناد من خمسة اقسام رئيسة، وهي جند دمشق، وجند الاردن، وجند حمص، وجند فلسطين، وجند قنسرين(٣٨). وقد اعتمد الأمويون على هذه الاجناد اعتماداً كبيراً في تهيئة المقاتلين للحملات الفصلية المعروفة بالصوائف والشواتي في الجبهة الشمالية، كما اعتمدوا عليها ايضا في استخدامها في شتى انحاء الدولة، لاسيما في القضاء على الفتن الداخلية، والمشاركة في الفتوح وحروب التحرير. ولهذا نجد لهؤلاء الجند دوراً بارزاً في العراق، والمشرق وارمينية، وشمال افريقيا والأندلس. وتتميز الأندلس على وجه الخصوص انها احتضنت نظام الأجناد في ربوعها، كما في البلد الأم، نتيجة مجيء نحو عشرة آلاف مقاتل من مختلف جند الشام اليها، واستقرارهم فيها على غرار تجمعاتهم الأصلية.

---

(٣٦) ينظر: طه، **العراق في عهد الحجاج**، ص ٧١.

(٣٧) ينظر: خالد جاسم الجنابي، «نظام التجنيد»، بحث ضمن كتاب **الجيش والسلاح**، (بغداد، دار الحرية، ١٩٨٨): ٣/ ٧٧.

(٣٨) ينظر: صالح أحمد العلي: **امتداد العرب في صدر الاسلام**، (بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨١)، ص ٥٨، ٧٠- ٧١.

ولقد تطور التجنيد الالزامي في أواخر عهد الدولة العربية في العصر الأموي، فأصبح في عهد الخليفة هشام بن عبدالملك (١٠٥- ١٢٥هـ / ٧٢٤- ٧٤٣م) من ضمن التنظيمات العسكرية الأساسية للجيش الأموي، فلم يكن يُسمح لأحد بالتخلف عن الجهاد، واشترط على كل من يأخذ العطاء من أصحاب الديوان أن يخرج في الحملات العسكرية، أو يُخرج بديلاً عنه. ويظهر أن هذا الشرط كان سارياً على كل المسجلين بالديوان بما فيهم جميع أفراد الاسرة الأموية، حيث تشير احدى الروايات التي أوردها الطبري[٣٩]، الى أنه «لم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء الاعليه الغزو فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بدلاً». وقد شملت هذه القاعدة حتى الخليفة هشام، الذي كان أحد مواليه، ويدعى يعقوب، يخرج بدلاً عنه بعد أن يأخذ عطاءه. ومما يدل على الجدية في تطبيق هذا الشرط أن احداً لم يجروء على التخلف أو التهرب من الخروج للجهاد الا اذا تولى بعض الخدمات التي تعفيه من ذلك، مثل الاشتغال ببعض اعمال الديوان.[٤٠]

ثالثاً: - صنوف الجيش:

كانت الصنوف الأساسية التي يتألف منها الجيش العربي الاسلامي تتألف من الخيالة (الفرسان)، والرجالة (المشاة)، والرماة (النشابون). ثم اضيفت اليها صنوف اخرى اقتضتها طبيعة المعارك، مثل المنجنيقيين، والدبابين. كما اقتضت الضرورة ايضا ايجاد وحدات عسكرية اخرى كانت تقوم بتهيئة كل مستلزمات المعركة من ادوات الحصار، وشق الطرق، وبناء المعسكرات، واخلاء الجرحى، والتجسس على العدو. وسنشير فيما يأتي الى كل صنف من هذه الصنوف لنتعرف على دوره وواجباته في المعارك.

رابعاً: ديوان الجند
خامساً: العطاء والارزاق والغنائم
سادساً: التعبئة وأساليب القتال
سابعاً: الأسلحة

(٣٩) تاريخ الرسل والملوك: ٢/ ١٧٣١- ١٧٣٢.

(٤٠) المصدر نفسه: ٢/ ١٧٣٢، وينظر: الجنابي، تنظيمات الجيش، ص ٧٢.

ثامناً: القيادة
تاسعاً: البحرية والأسطول العربي

١ - الخيالة (الفرسان) :

اهتم العرب بالخيل اهتماماً كبيراً ، ويعود هذا الاهتمام الى عهود مبكرة سبقت الاسلام. وقد ازدادت الحاجة الى الخيل في الاسلام ، لاسيما بعد فرض الجهاد ، لضرورتها في ساحات القتال. لهذا اقتناها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشجع المسلمين على تربيتها تطبيقاً لقوله تعالى : «واعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم ...»(٤١) . وقال الرسول عنها ايضاً : «الخيل في نواصيها الخير الى يوم القيامة ، اتخذوا من نسلها وباهوا بصهيلها المشركين»(٤٢) ولهذا فقد حرص العرب على اقتنائها والاكثار من عددها من معركة الى أخرى ، فمن فرسين فقط كانا مع المسلمين في معركة بدر ، ازداد العدد الى عشر الآف في غزوة تبوك ، وتضاعف اربع مرات اخرى ، حتى قيل ان الخليفة عمر بن الخطاب كان يحمل الناس على أربعين ألف فرس.(٤٣)

لهذا ازدادت قوة الفرسان في عصر الراشدين ، حتى ان الخليفة عمر خصص قوات من الفرسان تبلغ أربعة الآف فارس في كل مصر من الأمصار الاسلامية مهيئة عند الضرورة لتكون عدة للطوارئ ، اذا ماتعرض ذلك المصر الى خطر مفاجئ. وقد تطورت فرق الفرسان بعد قيام الدولة الأموية ، وتوالي انتصارات العرب على جبهات القتال ، فكانت معظم القوة العربية الضاربة في العصر الأموي تتألف من الفرسان بالنظر لأهمية هذا الصنف في تقرير النتائج النهائية للمعارك. وكانت تقع على كتائب الفرسان واجبات عديدة لما تمتاز به من سرعة الحركة والمناورة ، وقوة الصدمة ، ومن أهم هذه الواجبات ، الهجوم ، والالتفاف ، والمطاردة ، والاستطلاع ، والحماية.(٤٤)

أما أسلحة كتائب الفرسان ، فكانت تتألف من الأسلحة الرئيسة المعروفة ، وهي السيف والرمح والقوس. وقد استخدم الفرسان هذه الأسلحة جميعاً ببراعة فائقة ،

---

(٤١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٠.

(٤٢) محمد بن عمر بن واقد الواقدي ، كتاب المغازي ، تحقيق ، مارسدن جونس ، (ط٣ ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٩٨٤) : ١٠١٩/٣-١٠٢٠.

(٤٣) محمود احمد محمد سليمان عواد ، **الجيش والقتال في صدر الأسلام** (الاردن-الزرقاء ، مكتبة المنار ، ١٩٨٧) ، ص٤١٦.

(٤٤) الجنابي ، **تنظيمات الجيش** ، ص ١١٧-١١٩.

وامتازوا على اعدائهم بذلك . كما زودوا خيولهم بالركاب من الحديد في بداية العصر الأموي ، ويذكر أن المهلب بن أبي صُفرة كان أول من اتخذ الركاب من الحديد ، وكانت الخيول تُدرَّع أيضاً بدروع من الجلد أو الحديد لحمايتها من أسلحة العدو.[٤٥]

٢ – الرجالة (المشاة) :

الرجالة هم الجند الذين يقاتلون وهم راجلون ، كانوا يؤلفون القسم الاعظم من القوات العربية ، ومهمتهم الأساسية في القتال هي الاصطدام المباشر مع العدو وتحطيم قوته الرئيسة ، والتقدم في صفوف متراصة ، وفي ثبات ، وفي هيئة تلقي الرعب في جنود العدو، مع التزام الصمت التام ، لأن الهدوء والصمت يساعدان على الضبط ودقة التنفيذ . وكانوا يخرجون عن هذا الصمت للتكبير في حالة مقتل قائد العدو، أو فرار اعدائهم ، بحيث يكون لهذا التكبير أثره في افزاع قلوب الاعداء ، وتحطيم روحهم المعنوية . ومن واجباتهم أيضاً التصدي لقوات الفرسان المعادية ، وابطال حركتهم ، وابعاد خطرهم عن طريق عقر خيولهم ، أو افزاعها وتنفيرها . كما يكلف الرّجالة أيضاً بواجب الحراسات ، او السيطرة على المناطق الحيوية مثل المضائق ، والوديان ، والدروب . وكان الرجالة يلبسون الدروع الواقية من ضربات العدو، ويضعون على رؤوسهم الخوذ لحمايتها .[٤٦]

٣ – الرماة (النشابون) :

الرماة هم الجند الذين يحملون الأقواس التي يرمون منها السهام ، ويّعد هذا الصنف من الصنوف الأساسية للقوات العربية . وقد برع العرب في استخدام هذا السلاح الى درجة كبيرة وفاقوا اعداءهم . وشهدت معارك التحرير الاولى في عصر الراشدين نماذج من هذه البراعة ، فقد كان لخالد بن الوليد فرقة من الرماة ، كان لها دوراً حاسماً في احراز النصر عند حصاره لأهل الانبار سنة ١٢ هـ /٦٣٣ م . فتشير احدى روايات الطبري ،[٤٧] الى ان خالداً « تقدم الى رماته فأوصاهم وقال اني أرى اقواماً لاعلم لهم بالحرب ، فارموا

---

(٤٥) المرجع نفسه ، ص ١١٩ ، ١٢١ .
(٤٦) المرجع نفسه ، ص ١٢١ – ١٢٣ .
(٤٧) تاريخ الرسل والملوك : ١/ ٢٠٦٠ .

عيونهم ولا توخوا غيرها ، فرموا رشقاً واحداً ثم تابعوا ففقىء الف عين يومئذ فسميت تلك الوقعة ذات العيون » .

وقد تطور هذا الصنف في القوات العربية الى درجة كبيرة في العصر الاموي حيث سما العرب به واشتهرت في العصر الأموي الى جانب الفرق العربية فرقة من رماة البصرة تدعى بالبخارية ، وقد أسلفنا ان عبيدالله بن زياد جاء بهم من بخارى وأسكنهم في إحدى محلات البصرة . وقد نقلهم الحجاج بعد بناء واسط الى هذه المدينة ، ومن المحتمل انه استخدمهم ضمن قواته من جند الشام .[48] وكان للرماة دوراً كبيراً في المعارك التي غالباً ماتبدأ بتراشق النبل لايقاع اكبر الخسائر في صفوف العدو . ولكن دور الرماة يبرز في الدفاع اكثر من الهجوم ، لأن الرامي يكون في حالة الوقوف اكثر دقة في الرمي والاصابة من الرامي المهاجم الذي قد تؤثر حركته على دقته في التصويب ، لذلك فإن وضعهم على المضائق وفوق اسوار المدن والقلاع يكون اكثر فائدة .[49]

٤ - المنجنيقيون والدبابون :

وهؤلاء هم الجند الذين يعملون على آلة المنجنيق لرمي جيوش الاعداء بالحجارة او المواد الحارقة ، والذين يرافقون الدبابات التي تستخدم في التقرب الى أسوار الاعداء لغرض هدمها ، أو احداث ثغرة فيها . وهم من صنوف الجيش الفعالة ، لما لهذه الأسلحة من تأثير على سير الحروب ، وارباك الجيوش ،لاسيما في حصار المدن . وكانت بعض المجانيق المستخدمة كبيرة جداً ، فقد كان لدى محمد بن القاسم الثقفي في حملته على السند ، منجنيق ضخم يقال له العروس ، يعمل عليه وقت الرمي خمسمئة رجل ، نصبه على مدينة الديبل (كراجي الحالية) ، فأصاب سارية المعبد الرئيس في المدينة ، الأمر الذي أدى الى تطيّر العدو من ذلك وجزعه .[50] وقد استخدمت المجانيق في اماكن اخرى وضمن حملات عديدة في العصر الاموي . ولاشك ان هذه المجانيق الكثيرة كانت تتطلب اعداداً كافية من الرماة والعمال الذين يقومون بتشغيلها ونصبها واصلاحها .

---

(٤٨) الجنابي ، تنظيمات الجيش ، ص ١٢٤ .

(٤٩) المرجع نفسه ، ص ١٢٤ .

(٥٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٢٤ .

أما الدبابون، فكان عملهم ينحصر في دفع الدبابة وهم محتمون في داخلها من حجارة الاعداء وسهامهم. وحينما يقتربون من اسوار العدو تبدأ مهمتهم الأساسية برمي المواد المشتعلة، ونقب الأسوار بالمعاول والفؤوس بهدف احداث ثغرة فيها. ويبدوان صنف الدبابين كان ثانوياً في العصر الأموي، لعدم استخدام هذا السلاح على نطاق واسع. ومع هذا فقد وردت اشارة الى استخدام الدبابة في الأندلس من قبل موسى بن نصير حينما حاول حصار مدينة ماردة، فقد أمر بعمل «دبابة فدب المسلمون تحتها الى برج من ابراجها...»[51].

٥- الفعلة:

تطلبت الحروب الكثيرة التي خاضها الجيش العربي الاسلامي وجود فئات متعددة من الرجال الذين لايدخلون ضمن الصنوف المقاتلة، لأن مهامهم كانت تتركز على الاعمال الادارية، والقيام بشق الطرق، وحفر الخنادق، واقامة الجسور، والقناطر، وحفر الآبار، وردم الخنادق، وغيرها من العمليات التي تتطلبها طبيعة المعارك المتنوعة والمتسعة في العصر الأموي. وقد استعان قادة الجيش بالعمال وأصحاب المهن والحرف من البنائين والنجارين والحدادين من أهالي المناطق المحررة، أو من أسرى الحرب، لاسيما من الفرس والروم الذين كانت لديهم خبرة في هذه الأعمال. فأفاد منها قادة الجيش العربي، وأضافوا اليها الكثير من الأساليب التي جاءتهم نتيجة الخبرة والممارسة المستمرة في الحروب[52].

ومن الأمثلة على استخدام الفعلة في الجيش، قيام الحجاج بن يوسف بتجنيد عدد من هؤلاء لتخريب القناطر والجسور في الطريق المؤدي الى البصرة لمنع قوات عبد الرحمن بن الأشعث من التقدم[53]. كما استخدم قتيبة بن مسلم الباهلي الفعلة في حصاره لمدينة بيكند فيما وراء النهر. وتصور احدى روايات الطبري[54]، خطة قتيبة في الاستفادة من هؤلاء فتشير الى أنه «وضع الفعلة في أصل المدينة فعلقوها بالخشب، وهو يريد اذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فتنهدم...». ولكنه لم يستطع ان ينفذ هذه الخطة الى غايتها، فقد سقط الحائط وهم يعلقونه، فقتل اربعين من الفعلة، ومع ذلك قاتل قتيبة

(٥١) اخبار مجموعة، ص ١٧.

(٥٢) الجنابي، تنظيمات الجيش، ص١٢٩.

(٥٣) البلاذري: انساب، طبعة اهلورت: ١١/ ٢٤.

(٥٤) تاريخ الرسل والملوك: ٢/ ١١٨٧- ١١٨٨.

اهل المدينة ، وظفر بها عنوة ويدل مقتل هذا العدد من الفعلة على ضخامة الاعداد التي انيط بها القيام بهذا الاجراء العسكري . واستخدم مروان بن محمد ، الذي كان والياً على ارمينية واذربيجان في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك ، الفعلة من الحدادين في تسهيل عملية اقتحام احدى قلاع أرض السرير في ارمينية . فقد أمرهم بصنع ألواح من الحديد يمكن أن تدق في حجارة السور ، وجاءوا بها الى خلف القلعة ، فجعلوا يدخلون تلك الاعمدة الحديدية بين حجارة السور ، واحداً بجانب الآخر ، ثم وضع على كل عمودين لوح من الخشب . واستخدم المقاتلون هذا السلم المتدرج في الصعود الى القلعة واقتحامها ، وأمر بعد ذلك الفعلة بهدم سور القلعة حتى سوي بالأرض[٥٥] .

٦- الخدمات (النقل والتموين والطبابة) :

ادى توالي انتصارات العرب ، واتساع رقعة الدولة في العصر الاموي الى توفر اعداد كبيرة من الأسرى والرقيق الذين كانوا يوزعون على المقاتلين بصفة غنائم ، للاستفادة منهم في القيام ببعض الاعمال الخدمية ، مثل اعداد الطعام ، وجلب الماء ، ونقل الامتعة ، ونصب الخيم ، واقامة المعسكرات وحراستها ، وتوفير المؤن والذخيرة والاشراف عليها ، ونقل الجرحى الى مواقع الاسعاف ، ودفن الشهداء ، وغير ذلك من الاعمال التي تتطلب وجود جماعات جاهزة من الرجال المعدين لهذا الغرض[٥٦] .

وقد نجحت القوات العربية في مجال النقل من استخدام القوافل التي تعتمد على الجمال والبغال في توصيل الذخيرة والمعدات الى مناطق القتال . وكانت الجمال هي الوسيلة المفضلة في المناطق الصحراوية ، بينما استخدمت البغال في المناطق الجبلية الباردة . وقد استخدمت دواب البريد في نقل الامدادات البشرية السريعة في بعض المعارك ، مثال ذلك ، ارسال الخليفة عبدالملك بن مروان للمقاتلين من اهل الشام الى الحجاج بن يوسف على دفعات صغيرة محمولة على دواب البريد في اثناء حركة ابن الأشعث[٥٧] .

---

(٥٥) ابن اعثم ، **الفتوح** : م ٤ ، ص ٢٩٢ .

(٥٦) الجنابي ، **تنظيمات الجيش** ، ص ١٣٠ .

(٥٧) الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ١٠٦٠ ؛ ابن الأثير ، **الكامل** : ٤/ ٤٦٥ .

وفي مجال خدمات التموين، كانت القوات العربية تتزود بالمؤن من المدن والقرى التي تمر بها، وكان بعض روساء القبائل، وكبار الأعيان يتبارون في اطعام الجند على نفقتهم الخاصة. وفي حالة ابتعاد القوات عن قواعدها الرئيسة، كان لزاماً عليها أن تتولى انشاء قواعد متقدمة لتجهيز الجيش والمقاتلين بما يحتاجونه من طعام وذخيرة. ويمكن اعتبار مدينة باب الأبواب في ارمينية مثالاً لمثل هذه القواعد المتقدمة، حيث بنى فيها مسلمة بن عبدالملك مخازن للطعام والذخيرة، وقد اشترط محمد بن مروان، الذي اعقبه على ولاية ارمينية، في معاهدات الصلح مع اهالي المدن المحررة، أن يتعهدوا بارسال كميات معلومة من الحبوب والطعام الى مخازن باب الأبواب[٥٨].

كذلك تطورت وسائل العلاج والخدمات الطبية واسعاف الجرحى الذين يصابون في الحروب في العصر الأموي. فبعد أن كانت النساء تقمن بهذه المهمة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، أصبحت معالجة الجرحى من واجبات جماعات متخصصة لهذا الغرض، وان كانت المعلومات المتوفرة عن هذه الجماعات قليلة، ولكنهم بكل تأكيد أخذوا المبادئ الأولية التي كانت معروفة عن الطب من قبائلهم وعرّافهم، كما تقيدوا بالوصايا التي جاء بها الدين الاسلامي عن التطهير والنظافة وغسل الجروح وكيها[٥٩]. وهذا يعني أن المسؤولين عن الجيش اهتموا بوجود وسائل للعلاج والاسعاف من خيم وأدوية وأطباء وممرضين. وتشير احدى الروايات الى استخدامهم للمحامل، أو النقالات لنقل الجرحى الى مواضع الاسعاف، ويذكر أن الحجاج بن يوسف كان أول من استحدث هذه المحامل وحمل فيها الجرحى[٦٠].

٧- القصاص والقراء:

وهؤلاء من جملة الصنوف الملحقة بالجيش لاثارة حماس المقاتلين وتذكيرهم بامجادهم، وحثهم على الصبر والقتال. وكان القراء يقرأون سورة الجهاد، وهي سورة

---

(٥٨) البلاذري: **فتوح البلدان**: ، ص٢١٠ ؛ الجنابي: **تنظيمات الجيش**، ص١٣٢.

(٥٩) راجي عباس التكريتي: ، **الاسناد الطبي في الجيوش العربية الاسلامية**، (بغداد، دار الحرية للطباعة والنشر، ١٩٨٤)، ص١٢٤.

(٦٠) ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيين**، تحقيق، حسن السندوبي (القاهرة، ١٩٤٧ - ١٩٤٨): ٢/ ٣١٥ ؛ ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، **كتاب الأوائل**، تحقيق، محمد السيد الوكيل، (طنجة، ١٩٦٦)، ص ٢٥٤ ؛ وينظر، طه، **العراق في عهد الحجاج**، ص١٥١.

الانفال، عملاً بالسنّة النبوية الشريفة. وقد توسعت ظاهرة استخدام القصاص والقراء في العصر الأموي، فكانوا ينتشرون بين صفوف الجند قبل بدء المعركة، ويلقون عليهم الشعر الحماسي، ويذكرونهم بفضل القتال والجهاد والاستشهاد في سبيل الله. ويحذرونهم في الوقت نفسه من نتائج الهزيمة، ومايمكن أن يتبعها من السبي، وهتك الحريم، وسفك الدماء، والخذلان. وكان الولاة يحرصون على تزويد الجيش بمجموعة من هؤلاء القصاص الذين أصبحوا في أواخر العصر الأموي يتميزون بالعلم والدين والفقة. من ذلك مثلاً ارسال حنظلة بن صفوان الكلبي والي افريقية، للقصاص والقراء ليساهموا في حث الناس على الجهاد في معركة الاصنام مع الخوارج سنة ١٢٤هـ / ٧٤١م. وبالفعل استطاع هؤلاء أن يستثيروا حماس المقاتلين، حتى أنهم إستبطأوا فراغ القراء من كلامهم تحمساً للقتال، فأرسل حنظلة الى القراء قائلاً: «تنحوا عن القوم وخلوا بينهم وبين عدوهم على اسم الله وعونه»[٦١].

٨- العيون والجواسيس :-

وكان هؤلاء فئة ضرورية جداً للتعرف على خطط ونوايا الاعداء واستطلاع أخبارهم، ويُعَدون من العناصر القتالية الفعالة، لانها تقاتل العدو داخل صفوفه من خلال كشف نواياه وخططه. وقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدون، العيون وعرفوا قيمتهم العسكرية، واستطاعوا وضع الخطط السوقية الصائبة بناء على معلوماتهم. وفي العصر الأموي كثرت الحاجة الى هؤلاء العيون والجواسيس لتعدد الجبهات القتالية وشمولها[٦٢]، فاستخدمهم موسى بن نصير في جبهات المغرب، كما استخدمهم قتيبة بن مسلم في جبهات المشرق، كذلك استفاد منهم الجراح بن عبدالله الحكمي في جبهة ارمينية. ونظراً لخطورة العيون والجواسيس، كان لابد من توفر شروط معينة ومواصفات خاصة لمن توكل اليه هذه المهمة. ومن هذه الشروط توفر الصدق، وكتمان السر، وأن يكون له المام وخبرة بجميع مناطق البلاد التي سيتوجه اليها، فضلاً عن معرفته بلغة أهلها.

---

(٦١) ابو اسحق ابراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق، المنجي الكعبي، (تونس، ١٩٦٨)، ص١٢٠؛ وينظر: الجنابي، تنظيمات الجيش، ص ١٣٣-١٣٥.

(٦٢) ينظر: فاروق عمر فوزي، «نظام الاستخبارات العسكرية». بحث ضمن كتاب الجيش والسلاح (بغداد، دار الحرية، ١٩٨٨): ٤/ ١٠٤.

كذلك يجب ان يكون صبورا على العقوبة والتعذيب اذا ماظفر به العدو، حتى لايستفاد منه في كشف أخبار قومه وخططهم الحربية[٦٣]

٩- حرس الخلفاء :-

اتخذ الخلفاء الامويون قوة عسكرية للقيام بمهات الحراسة الشخصية ، والسير في مواكبهم . ولم يكن هذا التقليد موجوداً في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين . ويُعَد معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ له حرساً خاصاً ، وتبعه بعد ذلك بقية الخلفاء . وكانت عناصر قوة الحرس تتألف في الغالب من الموالي الذين يدينون بالولاء المطلق للخلفاء ، ومن بعض رجال القبائل العربية المؤيدة والمساندة لهم ، فقد كان صاحب حرس معاوية رجل من الموالي يقال له المختار، وقيل رجل يدعى مالك ويكنى ابا المخارق مالك مولى حمير[٦٤] . واستعمل عبدالملك بن مروان على حرسه ابا عياش الكهاني ، وبعده ابا الزعيزعة مولاه[٦٥] . كما كان على حرس مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ، سقلاب مولاه[٦٦] .

رابعاً :- ديوان الجند :

يُعَد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من وضع ديوان الجند[٦٧] . وكان في عهده يعني السجل الذي يحوي اسماء المقاتلة وأهليهم ومقدار اعطياتهم وارزاقهم . وقد كتب فيه الناس على منازلهم على وفق اسس معينة ، يأتي في مقدمتها السبق والبلاء في الاسلام . وكان هذا الديوان الذي اسسه الخليفة عمر في حدود سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م ، هو الوحيد في المدينة المنورة . أما في الامصار، مثل الكوفة ، والبصرة ، ودمشق ، فقد انشأت فيها ايضاً دواوين للجند على غرار ديوان المدينة ، الى جانب دواوين

---

(٦٣) الجنابي ، تنظيمات الجيش ، ص١٣٦ – ١٣٨ .
(٦٤) الطبري ، تاريخ : ٢/ ٢٠٥ .
(٦٥) اليعقوبي ، تاريخ : ٢/ ٢٨٠ .
(٦٦) المصدر نفسه : ٢/ ٣٤٦– ٣٤٧ .
(٦٧) الطبري ، تاريخ : ١/٢٧٥٠– ٢٧٥١ .

الخراج المحلية الموروثة من العهود السابقة ، والتي عُربت في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان .

وقد تطور ديوان الجند في العصر الأموي بسبب توسع حركة الفتوح العربية وانتشار رقعة الدولة ، وأصبح مؤسسة كبيرة حظيت باهتمام الخلفاء والولاة . وكان من مهام هذا الديوان العناية بكل مايتعلق بالشؤون العسكرية ، مثل اعداد الجند ، واحصائهم ، واستدعائهم للبعوث والحملات العسكرية ، ومدى مايستحقه كل واحد منهم من العطاء والأرزاق . كذلك اهتم الديوان بتجهيز المقاتلين بالسلاح ، وتثبيت اسماء الملتحقين الجدد ، وحذف اسماء المتخلفين أو من استشهد في المعارك . وكانت أوصاف المقاتلين تدرج في الديوان ، وهي تشمل عمر المقاتل ، وقدّه ، ولونه ، والعلامات الفارقة في وجهه أو جسمه . وكان يُشترط فيمن يثبت اسمه في ديوان الجند أن يكون مسلماً وبالغاً . وأصبح المقاتلون المدونة اسماءهم في هذا الديوان ، هم الجند النظامي للدولة العربية الاسلامية ، المتفرغين للجهاد وقت الحاجة . وكان قادة الجيش يعتمدون على دفاتر الديوان لاختيار المقاتلين اذا ماأرادوا الاعداد للحملات والبعوث العسكرية[٦٨] .

وكان لكل مصر من الامصار الاسلامية ديوانه الخاص به ، ففي العراق كان هناك ديوان للجند في كل من الكوفة والبصرة ، وكذلك في الشام ، ومصر ، وخراسان ، والمدينة المنورة ، وافريقية ، وقد شهد عهد الخليفة عبدالملك بن مروان حركة تنظيم كبيرة في الدواوين ، وكان في مقدمة المهام التي كلف بها الحجاج بن يوسف في العراق ، هي اعادة تنظيم ديوان الجند ، فقد أمره أن يعرض الناس ويعيد تنظيم عطائهم حسب الكفاءة والمقدرة . فأقال الحجاج جميع العرفاء السابقين ، وهم الاشخاص المسؤولين عن تقسيم العطاء ، وجمع الجند عند النفير ، وجلب البراءآت بموافاة المقاتلين الى مراكز البعوث التي ينتمون اليها . وقد اختار من القبائل رجالاً جدداً رآهم لائقين للعمل عرفاء ومناكب مسؤولين معهم ، ليكونوا حلقة الوصل بين الناس والدولة . وكان من جملة الامور التي يجب ان تتوفر فيمن يختاره لهذه الوظيفة ، قراءة القرآن ، ومعرفة اللغة العربية ، والشعر ، والحساب ، والفرائض ، ومغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم[٦٩] .

---

(٦٨) الجنابي ، **تنظيمات الجيش** ، ص٨٣ - ٨٤ .

(٦٩) ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر ، **تهذيب تاريخ ابن عساكر** ، طبعة عبد القادر افندي بدران (دمشق ، مطبعة روضة الشام ، ١٣٢٩ - ١٣٣٢هـ) : ٧/ ١٤٩ ؛ وينظر : طه ، **العراق في عهد الحجاج** ، ص١٢٦ - ١٢٧ .

واستمر الخلفاء الامويون بالعناية بالديوان، لاسيما الخليفة هشام بن عبدالملك، الذي كانت دواوينه أصح دواوين بني أمية. وحسبما تشير احدى الروايات التي يذكرها الطبري [٧٠]، «لم يكن احد من بني مروان أشد حصراً في أمر أصحابه ودواوينه، ولا أشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام». وقد اشتهر عدد من كتّاب دواوين الجند في العصر الأموي، منهم عبدالملك بن مروان، الذي كان كاتب ديوان الجند في المدينة المنورة في خلافة معاوية، وعمرو بن سعيد بن العاص، الذي تولى ديوان الجند في خلافة معاوية وابنه يزيد، وميمون بن مهران، كاتب ديوان الجند في خلافة عمر بن عبد العزيز، واسامة بن زيد، كاتب ديوان الجند في خلافة يزيد بن عبدالملك، وعبدالملك بن محمد بن الحجاج، في خلافة الوليد بن يزيد، ومصعب بن الربيع الخثعمي، في خلافة مروان ابن محمد [٧١].

خامساً: – العطاء والأرزاق والغنائم:

كانت واردات الأراضي المفتوحة تسمى باموال الفيء، وهي الجزية والخراج تشكل المورد الأساس لعطاء الجند وأرزاقهم في عهد الراشدين. وقد قسم الخليفة عمر (رض) هذه الأموال، حسبما كان متبعاً في ايام الرسول (ص) وابي بكر (رض) الى خمسة أقسام، قسم يبقى بيد الدولة. لصرفه على اليتامى والمساكين وابن السبيل وقرابة الرسول. أما الاربعة أخماس الباقية من الفيء فتصرف على الجيش، حيث تشكل اعطيات الجند وأرزاقهم النصيب الأوفر منها [٧٢]. وقد سار الأمويون على هذه القواعد في تأمين اعطيات الجند من واردات الجزية والخراج، فإذا مازادت هذه الواردات حُملت الزيادة الى بيت المال لتوضع في المصالح العامة، واذا مانقصت استكملت اعطيات الجند من امصار اخرى.

---

(٧٠) تاريخ الرسل والملوك: ٢/ ١٧٣٢ – ١٧٣٣.

(٧١) الجنابي، **تنظيمات الجيش**، ص٨٤ – ٨٥.

(٧٢) ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، **الاحكام السلطانية والولايات الدينية** (بغداد، منشورات المكتبة العالمية، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٩) ص٢٠٠-٢٠١.

أما المقاييس التي وضعها الخليفة عمر (رض) في توزيع العطاء، كالسبق والبلاء والخدمة في الاسلام، فلم تعد تقرر فرض العطاء في العصر الأموي بسبب التطور الذي شمل جميع مرافق الدولة وأجهزتها. وأصبح الولاء للدولة، والخدمة في قواتها ومؤسساتها هو الذي يقرر مقدار العطاء الذي يستحقه الفرد، ولهذا تنافست القبائل العربية في اظهار الولاء لمعاوية بن أبي سفيان، مقابل المكافئات المادية، والحصول على المناصب[٧٣].

وكان الحد الأدنى لعطاء الجند في العصر الاموي يتراوح بين مئتين الى ثلاثمئة درهم في السنة. وتشير الروايات الى ان العطاء الذي كان يفرضه الحجاج بن يوسف الثقفي لغالبية الجند، هو ثلاثمئة درهم. ولكنه كان يطلب نظير ذلك أن تكون عدة الجندي كاملة. ويبدو أن هذا المبلغ لم يكن يفي بذلك، لهذا كان غالبية الجند تشكو من صعوبة التوفيق بين هذا العطاء وبين ماتطلبه الدولة من عدة وسلاح[٧٤].

أما الحد الاعلى للعطاء، ويدعى شرف العطاء، فكان في حدود الفي درهم في السنة، ويُعطى لمن أبدى بسالة في الحروب، أو من يقوم ببعض الاعمال الادارية، أو القيادة. وكان هذا العطاء يُعَد شرفاً عظيماً يستحق التسجيل، على الرغم من أن مقداره لم يكن بالدرجة التي تجعل من يأخذه غنياً، ولايتوفر لدينا دليل على قيام صاحبه باية واجبات أو تحمل مسؤوليات اضافية. ولايُعرف بالضبط عدد من كان يتمتع بمثل هذا الامتياز. وعلى اي حال، فإن الذين كانوا يأخذون الحد الأدنى من العطاء كانوا اكثر ممن يأخذون الحد الاعلى، كما أنه هناك مجال للترقية من صنف الى آخر[٧٥].

كذلك كانت هناك زيادات في العطاء تعطى في بعض المناسبات، مثل تولي خليفة جديد، فقد أمر كل من الخليفة عثمان بن عفان (رضى)، وعلي بن أبي طالب (رضى)، ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، بزيادة مبلغ مئة درهم في العطاء عند توليهم الحكم. الا أن هذه الزيادات كانت وقتية غير ثابتة ولم تكن دائمية في العطاء[٧٦]. وقد دعت الحاجة الماسة الى المقاتلين لحروب التحرير، وزيادة واردات الخراج الى زيادة العطاء في العصر الأموي، لاسيما في اثناء الحملات العسكرية. كما كانت تدفع في بعض

---

(٧٣) ينظر: دكسن، **المرجع السابق**، ص١٤٣؛ الجنابي، **تنظيمات الجيش**، ص٩٢.
(٧٤) البلاذري، **أنساب**، طبعة اهلورت، ص٢٧٣.
(٧٥) العلي، **تنظيمات البصرة**، ص١٥٣، ١٥٤، ١٥٥.
(٧٦) **المرجع نفسه**، ص١٥٦.

المناسبات مبالغ من المال للمقاتلين تسمى المعونة [٧٧] . فقد أعطى يزيد بن معاوية في سنة ٦٣هـ / ٦٨٢م معونة تقدر بمئة درهم لكل مقاتل انتدب من اهل الشام لقتال عبدالله بن الزبير، اضافة الى عطائه [٧٨] . ومن المرجح أن هذه المعاون لم تكن كبيرة ولامنتظمة ، وانما كانت تعطى عند الازمات والشدائد ، أو عندما يكون هناك وفر في الخزينة [٧٩] .

كان العطاء يُدفع سنوياً ، وكان يُعطى في المحرم عند بداية السنة الهجرية في عهد عمر ابن الخطاب (رض) ، واستمر هذا الأمر في بداية العصر الأموي ، فكان زياد بن أبي سفيان يخرج العطاء للمقاتلة اذا أهل هلال المحرم . ولكن دفع العطاء في وقته المحدد لم يكن أمراً ميسوراً لاعتماده على الخراج وموسم نضوج الغلات والاثمار، وفي هذه الحالة كان يؤخر عن موعده المقرر، أويدفع على شكل أقساط مما يؤثر في الاحوال الاقتصادية العامة . لذلك نجد بعض الخلفاء يؤكدون على دفع العطاء في موعده المحدد . وهم يتخذون من دفع العطاء في وقته المعين وسيلة لجلب رضا الناس [٨٠] ، الذين كانوا يصرون على استلام العطاء في موعده المحدد . وتشير احدى الروايات الى أن أهالي مدينة حمص اشترطوا على يزيد بن الوليد سنة ١٢٦هـ / ٧٤٣م ان لايدخلوا في طاعته الا بعد «أن يعطيهم العطاء من المحرم الى المحرم» [٨١] .

وفي مقابل العطاء كان على المقاتل أن يجهز نفسه بالأسلحة ، ويذهب الى الجهاد حينما يُضرب البعث عليه ، أي يستدعى للخدمة . وفي حالة عدم تلبية الدعوة ، يُمحى اسم الشخص من العطاء ، ولايُعفى من ذلك حتى لو كان من البيت الاموي . وقد أسلفنا الاشارة الى موقف هشام بن عبدالملك ، وارساله مولاه يعقوب بدلاً عنه ، بعد ان استلم عطاءه المقرر، وهو مئتي دينار. وكان بامكان الشخص التخلص من البعوث اذا عمل في الديوان ، أو في الوظائف التي تقتضي البقاء في المصر، أو اذا أرسل بديلاً عنه ، ولا يأخذ البديل عطاءً ، بل يُعطى أجراً ويبدو أن نسبة استخدام البدلاء ازدادت في اثناء القتال

---

(٧٧) الطبري ، تاريخ : ٢/ ٤٠٧ ، وينظر ايضاً : ٢/١٧٩٤ .
(٧٨) المصدر نفسه : ٢/ ٤٠٧ .
(٧٩) العلي ، تنظيمات البصرة ، ص١٥٧ .
(٨٠) الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٧٥٤ - ١٧٥٥ ، ١٨٣٤ .
(٨١) المصدر نفسه : ٢/ ١٨٣٦ ؛ وينظر: العلي ، تنظيمات البصرة ، ص١٥٨ ، ١٥٩ .

مع الخوارج، والحروب الأهلية، وكذلك في الحروب التي جرت في الاطراف البعيدة للدولة العربية الاسلامية[٨٢].

ولم تكن الدولة تجبر الناس على أن يكونوا من أهل العطاء، بل كل ما كانت تطلبه ممن يأخذ العطاء أن يسكن في المصر، وأن يلبي الدعوة اذا دعي للجهاد. ولهذا فإن العطاء كان يُفرض لأهل الحواضر فقط، دون غيرهم من الاعراب الذين كانوا لايحضرون محاضر المسلمين، ولايشهدون مشاهدهم. ويبدو أن حصر العطاء باهل الحضر لم يكن الا تأكيداً للنهج الذي سار عليه الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده، لتشجيع العرب على الهجرة الى الامصار، والعيش في حياة التمدن والتحضر، والمساهمة في بناء كيان الأمة، والنهي عن البداوة لما فيها من عادات جاهلية لايقرها الاسلام[٨٣].

وكانت الدولة توزع منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) مواداً عينية إضافة الى العطاء، واستمر هذا الأمر في العصر الاموي. وكانت الأرزاق توزع شهرياً على الناس، وتتألف غالباً من الحنطة، اضافة الى مواد اخرى مثل السمن والتمر. وقد أنشأ زياد بن أبي سفيان داراً للرزق في البصرة لخزن الحبوب وتوزيعها على الناس. وقد سبقت الاشارة الى اتخاذ مخازن كبيرة للحبوب في مدينة باب الأبواب في أرمينية في خلافة هشام ابن عبدالملك وذلك لتأمين الأرزاق للجند. ولم تنشأ في بقية مناطق الدولة أية مشاكل في توزيع الأرزاق، بسبب غنى الأقاليم الاسلامية بالمنتوجات الزراعية، لاسيما الحبوب، إضافة الى ماقد يحصل عليه المقاتلون من غنائم تمكنهم من شراء مايحتاجونه من مواد غذائية[٨٤].

وكانت هذه الغنائم التي يحصل عليها المقاتلون توزع على من اشترك فعلاً في المعركة، ولايشاركهم فيها أحد، ولهم أربعة أخماسها. أما الخمس الآخر، فكان يرسل الى بيت المال ليصرف حسب الآية الكريمة: «واعلموا ان ماغنمتم من شيء فإن لله خمسهُ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل...»[٨٥]. وتختلف هذه الغنائمُ عن الفيء الذي كانت موارده من الجزية والخراج، وما يؤخذ صلحاً من المدن التي تدخل

---

(٨٢) المرجع نفسه، ص١٥٩ – ١٦٢.

(٨٣) الجنابي، تنظيمات الجيش، ص١٠٣.

(٨٤) ينظر: العلي، تنظيمات البصرة، ص١٦٧ –١٦٩؛ الجنابي، تنظيمات الجيش، ص١٠٤ – ١٠٥.

(٨٥) سورة الانفال، الآية: ٤١.

في طاعة الجيش العربي الاسلامي. وكانت مبالغ هذه الغنائم تدر على المقاتلين ارباحاً طائلة، لاسيما تلك التي تم الحصول عليها في معارك التحرير الاولى في المشرق، وشمال افريقيا، والأندلس. وكان تقسيمها يتم على المقاتلين على أساس الأسهم، ويفضل الفارس على الراجل، لما يبذله من جهد وعناء، فيعطى الفارس سهمين، سهم له وسهم لفرسه، وهناك من يُقدّر له ثلاثة أسهم، سهمين له وسهم لفرسه، أما الراجل، فيعطى سهماً واحداً. ويُسوى في قسمة الغنائم بين جميع من اشترك في المعركة، سواء كانوا من المسجلين بالديوان الذين يأخذون العطاء، أم من المتطوعة غير المسجلين[٨٦].

سادساً :- التعبئة وأساليب القتال :

تطلق كلمة التعبئة من قبل المؤرخين واللغويين لتعني التهيئو والاستعداد للحرب، ووضع الخطط العسكرية، وتوزيع قطعات الجيش، والأسلحة المتوفرة بشكل يؤمن الاستفادة منها الى أقصى حد ممكن لاحراز النصر. ولقد تطورت نظم التعبئة عند العرب منذ ماقبل الاسلام تبعاً للظروف والعوامل التي رافقت تطور المؤسسة العسكرية العربية، وأهم هذه النظم مايأتي :-

١ - نظام الكر والفر:

وهو القتال الذي كان يمارسه العرب قبل الاسلام، وكذلك قتال البربر من أهل المغرب. وبموجبه كان العرب يقومون بالهجوم المباغت والانسحاب بسرعة، وتنفيذ أعمالهم القتالية، وهو يتوافق مع اعدادهم المحدودة وطبيعة الأرض التي يمارسون عليها عملياتهم. وكان من عادة العرب في هذا النوع من القتال اتخاذ قاعدة أمينة من الأثقال والحيوانات تكون خلف المقاتلين، ينطلقون منها في كرهم، ويلجأون اليها في فرهم، لادامة زخم القتال، ويشير ابن خلدون[٨٧]، الى هذه القاعدة باسم المجبوذة.

---

(٨٦) ينظر: الماوردي، المصدر السابق، ص٢٢٢؛ الجنابي، تنظيمات الجيش، ص١٠٥ - ١٠٩.

(٨٧) المقدمة، ص٢٧٣.

٢ ـ نظام الصفوف :

وقد ظهر هذا النظام بعد مجيئ الاسلام ، حيث وضع الرسول صلى الله عليه وسلم نظاماً للقتال يتلاءم مع قلة المسلمين العددية بالقياس الى أعدائهم ، وعلى ضوء الآية الكريمة : «ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص»[٨٨] . وفي هذا النظام ، الذي يسمى ايضاً بالزحف ، ترتب الصفوف ، وتسوى كما تسوى صفوف الصلاة ، «ويمشون بصفوفهم الى العدو قدماً فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد أو القصر المشيد لا يطمع في ازالته»[٨٩] . ويتوقف عدد الصفوف على عدد المقاتلين ، أو على رأي القائد وما تتطلبه ظروف المعركة . وعلى اي حال ، فإن رجال الصف الأول كانوا يتسلحون بالرماح الطويلة و يجثون على ركبهم ، ويحمون أنفسهم بالتروس من نبال العدو ورماحه . ويتمركز النبالون في الصف الثاني خلف المشاة حاملي الرماح ، ويرمون العدو المهاجم من فوق رؤوسهم . وهكذا تبقى الصفوف في مواضعها بسيطرة قائدها حتى يفقد هجوم العدو قوته وشدته ، وعند ذلك تتقدم الصفوف متعاقبة للزحف على العدو[٩٠] .

٣ ـ نظام الكراديس :

عَرف العرب هذا النظام ، الذي يتضمن تقسيم الجيش المحارب الى عدة كتل ، واستخدموه في معركة اليرموك ، فقد عبأ خالد بن الوليد جيشه على شكل كراديس ، كل كردوس من ألف جندي ، وجعل من هذه الكراديس فرقاً . وظل العرب يستخدمون نظام الصفوف والكراديس معاً في العصرين الراشدي والأموي ، الى أن استبدل الخليفة مروان ابن محمد نظام الصفوف بنظام الكراديس[٩١] . والواقع أن تحول العرب من نظام الصفوف الى نظام الكراديس تم بصورة تدريجية ، لأن العرب كانوا يضطرون الى قتال اعدائهم بمثل قتالهم ، الى أن استغنوا عن نظام الصفوف لملاءمة نظام الكراديس لطبيعة

---

(٨٨) سورة الصف ، الآية : ٤ .

(٨٩) ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص٢٧١ .

(٩٠) ينظر: الجنابي ، **تنظيمات الجيش** ، ص ١٦٦ .

(٩١) ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص ٢٧٣ .

الاعمال الحربية التي تطورت باتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية ، وضرورة تأمين سرعة الحركة والمناورة ، وتحقيق مبدأ الحماية من جميع الجهات . كما سهل نظام الكراديس تحقيق مبدأ السيطرة على المقاتلين ، وسهولة اتصال القائد بجنوده ومراقبتهم وتوجيههم[٩٢] .

٤ - **نظام الخميس :**

ويتضمن هذا النظام تقسيم القوات الى خمسة أقسام بغية تأمين الحماية لها من جميع الجهات ، وهذه الاقسام هي : المقدمة ، والميمنة ، والميسرة ، والقلب الذي يضم القسم الأكبر من القطعات ، ومكانه في الوسط بين الميمنة والميسرة ، وفيه مقر القائد العام للجيش ، وأخيراً الساقة ، وموقعها خلف الجيش ، وتضم قوات الحماية مع وحدات الشؤون الادارية . وقد استخدم العرب هذا النظام منذ سنة ١٤ هـ/ ٦٣٤ م في بداية انطلاق حروب التحرير، لأنهم وجدوا أن ترتيب جيوشهم في اثناء السير بالأرتال المتعاقبة لايتيح لهم السيطرة عليها وابلاغها التعليمات والأوامر، وانهم ان تركوها على شكل كتلة لايأمنون مباغتة العدو، لهذا عملوا على تقسيمها الى الاقسام التي أشرنا اليها اعلاه . وقد استخدم هذا النظام في حالات المسير طيلة العهود الاسلامية ، لأنه يقلل الخسائر الى أدنى حد ممكن . ويعد ابتداع هذه التشكيلة برهاناً على وعي قادة العرب الأوائل لضرورة التوافق بين الفكر السوقي والفكر التعبوي الميداني ، وطريقة استخدام القوى والوسائط باكبر فاعلية ممكنة .[٩٣]

الأساليب التعبوية في القتال : -

استخدم العرب اساليب تعبوية دلت على عبقرية وبداعة في فنون القتال ، كما امتازت القوات العربية الاسلامية بالخفة وسرعة الحركة التي أصبحت سمة مميزة لها ، ساعدتها على تحقيق مبدأ المفاجأة للاعداء . ومن أجل التعرف على الأساليب التعبوية التي استخدمها

---

(٩٢) ينظر: الجنابي ، تنظيمات الجيش، ص ١٦٩ .

(٩٣) بسام العسلي ، فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين (بيروت ، دار الفكر، ١٩٧٤) : ٢/ ٨٩؛ وينظر: فاروق عمر فوزي ، وخالد الجنابي ، «التعبئة واساليب القتال» ، بحث ضمن كتاب ، الجيش والسلاح (بغداد ، دار الحرية ، ١٩٨٨) : ٤/ ٢١٠- ٢١١ .

العرب في حروبهم يجب استعراض جميع صفحات المعركة، أو مراحلها، بدءً بالاستطلاع، ثم الهجوم، والدفاع، وأخيراً الانسحاب، أو المطاردة، مع الاشارة الى المبادئ التي طبقها العرب في كل مرحلة من هذه المراحل.

١ـ الاستطلاع أو الطلائع :

وتتألف هذه من قوة من الفرسان تتقدم التشكيلات الرئيسة للجيش لاستطلاع الأخبار. ولابد أن تتوفر في أفرادها الشجاعة والبأس والخبرة في الحروب، وتتكون عادة من الفرسان، ويبلغ عددها من ثلاثة الى عشرة اشخاص، وتسمى ايضا الكشافة، لكشفها خبر الاعداء. ويتولى قيادة هذه المجموعة قائد يُسمى مقدم الطليعة، أوصاحب الطليعة، ويجب أن يكون فارساً ثقة جسوراً، لأن عليه تتوقف قيادة الطليعة ومقدار مايمكن أن تقدمه من خدمات.

ونظراً لأهمية عمل الطلائع وخطورة موقفها، وجب أن تكون خيولها جيدة الظهر، سالمة الحوافر، سريعة العدو، ويفضل أن تكون من الاناث لأنها «أسرع طلباً وأنجى مهرباً وألين معطفاً وأبعد في اللحوق غاية وأصبر في معترك الأبطال اقداماً»(٩٤). وأبرز مثال على أهمية الخيول للطلائع، أن قتيبة بن مسلم الباهلي كان يشتري عند رجوعه من الحرب في كل سنة اثني عشر فرساً من جياد الخيل، واثني عشر هجيناً، ويخصص لها من يقوم برعايتها الى وقت الخروج للقتال، فتربط الخيل حتى تضمر وتخف لحومها، فيحمل عليها من يحمله من الطلائع، وكان يبعث في الطلائع الفرسان من الاشراف، ويبعث معهم رجالاً ممن يثق بهم من أهل البلاد على تلك الأفراس الهجينة(٩٥).

وكانت واجبات الطلائع تنحصر في كشف خبر العدو وتحركاته واستعداداته ولكن دون الاشتباك مع طلائعه أو أرصاده، وتحاشي اثارة الغبار في طريقهم لئلا ينكشف أمرهم من قبل أرصاد العدو. وينبغي وجود إشارات متفق عليها بين من يأتي بالخبر من الطلائع،

---

(٩٤) عبد الحميد الكاتب، **رسالة عبد الحميد الكاتب في نصيحة ولي العهد**، منشورة في كتاب **رسائل البلغاء**، نشر، محمد كرد علي (القاهرة، ١٩٥٤)، ص ١٩٦.

(٩٥) الطبري، **تاريخ**: ٢/ ١٢٨٠؛ وينظر: الجنابي، **تنظيمات الجيش**، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

وبين قائد المعسكر، يفهم منها مقاصده. وكان لبعض القادة النابهين من امثال قتيبة بن مسلم طرقاً خاصة لاختبار صدق طلائعه، ومدى التزامها بمهامها الخطيرة.[96]

٢- التعبئة في المسير أو التقدم:

اتبع القادة العرب مبدأ سلامة القوات في اثناء التحرك من مكان الى آخر معتمدين في ذلك على شجاعتهم، وصبرهم، وحذرهم، وخفة حركتهم. وكانوا يؤكدون على ضرورة عدم حمل الاثقال والمتاع الا ماخف حمله وعظمت فائدته، وعدم السير في الشتاء لانه يتطلب احمالاً واثقالاً اضافية، كالاغطية والفرش، مما يضيف عبئاً على المقاتلين. كما كانوا يؤمنون الحماية الضرورية للقطعات في اثناء سيرها، وذلك بارسال الطلائع لاستكشاف الطريق، والتحقق من عدم وجود كمائن أو ارصاد للعدو. واذا اعترض طريق القوات عقبة أو مضيق، كان قائد الجيش يشرف بنفسه على اجتياز القطعات لذلك المكان حتى لايتسابق الجند في العبور، مما قد يحدث بلبلة وأضطراباً في صفوف الجند.

ولما كانت القوات المتحركة معرضة دائماً للدخول في قتال مع الاعداء، وجب توفر شروط الحيطة والحذر، حتى لاتباغت بهجوم مفاجئ، ولهذا كان تشكيل المسير يتم على شكل رتل يتألف من المقدمة والمجنبتين (الميمنة والميسرة)، والساقة، وذلك لتأمين الحماية من جميع الجهات. وكانت القوات الرئيسة (القلب) والشؤون الادارية توضع وسط هذا التشكيل، بحيث تحيط بها قوات الحماية من كل الجهات، مع الاهتمام بأمر الساقة، وتخصيص قوة من الفرسان بكامل اسلحتهم ليكونوا على استعداد تام اذا ماظهر مايهدد الجيش من الوراء. ولما كان الجند يختلفون من حيث القابلية على السير والتحمل، كان قادة الجيش ينظرون الى أضعف الجند سيراً فيسيرون بسيره لتأمين الراحة في المسير، وليكون في مقدور الجميع الاستعداد للقتال عند الضرورة.[97]

٣- التعبئة في الهجوم:

اعتمد العرب على اسلوب الهجوم القائم على مبدأ التعرض في كل معاركهم واعمالهم القتالية، وهو يُعدّ الصفة المميزة لحروبهم. وقد برعوا في وضع الخطط الهجومية الخاصة

---

(٩٦) ينظر: الطبري، تاريخ: ٢/ ١٢٨٠- ١٢٨١.

(٩٧) المصدر نفسه: ٢/ ١٥٥٠؛ ابن الأثير، الكامل: ٥/ ١٦٩؛ وينظر: الجنابي، تنظيمات الجيش، ص ١٧٥- ١٧٧.

بهذا النوع من انواع التعرض الذي يهدف الى كسر شوكة العدو واجباره على اتخاذ موقف الدفاع . ويمكن القول ان استخدام العرب لمبدأ التعرض ساعدهم كثيراً على الاحتفاظ بالمبادأة التي لم يتخلوا عنها لأعدائهم ، وكانوا يضعونهم دائماً أمام مواقف جديدة تجبرهم على بعثرة قواتهم وترغمهم على خوض المعركة في المكان والاسلوب الذي يريدون . ولعل ابرز مثال على ذلك ماقام به القائد طارق بن زياد في معركة كورة شذونة اثناء فتح الأندلس من اختيار المكان الملائم لجيشه ، وجعل بحيرة لاخاندا حاجزاً بينه وبينهم ، فحمى مجنبته اليمنى بها ، كما حمىٰ مجنبته اليسرى بالجبال التي تطل على المحيط الاطلسي ، وترك الطريق بينه وبين الجنوب مفتوحاً للامدادات والتراجع اذا اضطرته الظروف لذلك . وهذا يدل على عقلية عسكرية متوقدة ، وخطة تعبوية تضع في حساباتها اختيار ساحة المعركة ، واجبار الخصم على القتال في الجبهة التي تلاءم خطة العرب التعبوية[٩٨] .

وبالاضافة الى سحب العدو الى المكان الملائم للقتال ومبادرته بالهجوم ، كان القادة العرب يتوخون بكل وسيلة الاستفادة من الظروف الطبيعية لتعزيز قوتهم ، مثل محاولتهم جعل الشمس والرياح في مواجهة العدو للتقليل من فعاليته القتالية . وقبل أن يبدأ القتال ، يأمر القادة بتشكيل الصفوف على أرض المعركة على شكل جبهة عريضة بمواجهة العدو ، تتخللها فرجات مناسبة لمرور الفرسان ، وأهل المبارزة ، ثم يقوم الخطباء ، كما أسلفنا ، باذكاء حماس الجند للقتال ، وترغيبهم بالجهاد ، ثم تبدأ المبارزات بين الطرفين ، والتي غالباً ماتنتهي بانتصار المقاتلين العرب ، لما يتمتعون به من ايمان عميق ، وروح معنوية عالية ، وشجاعة فائقة .

بعد ذلك تُعطىٰ اشارة البدء بالهجوم ، وغالباً ماتكون بالتكبير أو بهز اللواء مع التكبير . ويبدأ الالتحام مع العدو ، ويشترك الرجالة بسيوفهم ورماحهم ، ويقاتلون كأنهم رجل واحد ، فإذا ضعفت صفوف العدو ، وظهر عليها التراجع يشد عليها الرجالة ، وتبدأ المرحلة الأخيرة من المعركة ، وهي مايسمىٰ بالحملة ، أو الصولة لتحطيم آخر مقاومة للعدو ، ويصاحب الصولة التكبير بصوت عال لارهاب العدو . ويكون واجب الخيالة أو الفرسان حماية الاجنحة لمنع العدو من الالتفاف ، وكذلك الضغط على أجنحة العدو لتفكيك صفوفه . وقد استخدم العرب وسائل عديدة في انهاء المعركة لصالحهم ، مثل

---

(٩٨) ينظر : عبدالواحد ذنون طه ، **دراسات في التاريخ الأندلسي** (الموصل، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٧) ، ص ٢٣ - ٢٤ .

الألتفاف على قوات العدو وصفوفه الخلفية ، مما يعجل بالحاق الهزيمة به ، أو حرق خيامه ، وقطع خطوط امداداته ، مما يؤدي الى اضطراب قواته وانهزامها .

وكان للعرب اسلوب خاص في الهجوم الليلي الذي يسمى (البيات) ، يعتمد بالدرجة الاولى على الخفة ، وسرعة الحركة ، والمباغتة . وقد ورث العرب هذا النوع من القتال عن حياتهم القبلية في الجزيرة العربية ، وبرعوا فيه نتيجة لخوضهم للكثير من معارك التحرير. وكان المهاجمون يختارون الليالي المظلمة الشديدة الريح ، لاخفاء حركتهم وأصواتهم ، ويعتمدون على المقاتلين ذوي البأس والثبات الذين ينقسمون عادة الى قسمين ، فتدخل مجموعة منهم متسللة الى منطقة معسكر العدو، وتبقى الثانية خارجه ، ثم تقوم المجموعة الاولى بالتكبير والصياح المفاجئ لنشر الذعر في صفوف العدو الذي يسارع افراده الى اطراف المعسكر، فتتلقاهم المجموعة الثانية بالرمي عليهم بالنبل لمشاغلتهم ، في حين تقوم المجموعة الاولى بعملها داخل المعسكر لنشر الاضطراب فيه ، ويتحرك المهاجمون الى جميع الجهات حتى لايتمكن العدو من اكتشافهم ، ويتنادون بعلامات متفق عليها للتعرف على بعضهم البعض ، واذا ما أنجزوا واجبهم انسحبوا بسرعة قبل أن يستفيق العدو من المفاجأة ، فيعترضهم أو يلحق بهم.[99]

الصوائف والشواتي :

استخدم العرب ايضا أساليب تعبوية هجومية اخرى تطبيقاً لمبدأ التعرض الهجومي ، وهي التي تدعى بالصوائف والشواتي ، وتعني ارسال قوات عسكرية يتألف عدد افرادها بين ألف وخمسمئة الى ألفي رجل[100] وكان واجبها الرئيس هو الاغارة على مناطق العدو الحدودية والحيوية ، وتوجيه ضربات خاطفة وسريعة على قواته ، ثم الانسحاب والعودة. وقد تم ممارسة هذا النوع الهجومي بشكل فعال على الجبهة الشمالية مع الدولة البيزنطية. وتعد حملات الصوائف اكثر شيوعاً من الشواتي ، وتستمر نحو شهرين ابتداءً من العاشر من تموز من كل عام ، بينما يكون موعد الشاتية في آخر شباط ، الى ايام من آذار ، بحيث لاتتعدى مسيرتها اكثر من عشرين ليلة نظراً لبرودة الجو .

---

(٩٩) الجنابي ، تنظيمات الجيش ، ص ١٨٢ - ١٨٧ ؛ فوزي والجنابي ، **التعبئة واساليب القتال** : ٤/ ٢١٤ - ٢١٧ .

(١٠٠) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ١٦٩

لقد تميز طابع هذه الحملات بالحذر وارسال المجموعات الاستطلاعية المستمر لاكتشاف كمائن العدو، وكان جند الحملة يتميزون بالشجاعة والصبر واليقظة، ويتألفون بشكل عام من الفرسان. وكانو يحاذرون السير على شكل مجموعات متفرقة، مع ضرورة تأمين طريق العودة خوفاً من أي هجوم مباغت من قبل البيزنطيين. ويُعدّ اشغال هؤلاء الاعداء في عقر دارهم، واستنزاف قوتهم، وتدمير قدرتهم العسكرية، وارغامهم على اتباع الاسلوب الدفاعي، وانتزاع المبادأة منهم، من أهم أهداف هذه الحملات.

وانتظم ارسال الصوائف والشواتي في العصر الأموي، وشارك في قيادتها كبار القادة المتميزين، من أمثالبسربن أبي أرطاة، وأمراء من البيت الاموي، من أمثال يزيد بن معاوية في عهد والده، ومحمد بن مروان بن الحكم، ومسلمة بن عبدالملك، الذي تولى قيادة الكثير من هذه الحملات بنجاح فائق النظير.[١٠١]

٤ ـ اقتحام المدن والحصون :

استخدم العرب أساليب تعبوية جديدة في حصار المدن وتحريرها، اعتمدت بالدرجة الأولى على قوة الصبر والتحمل، والقدرة على ابتداع أساليب الحصار والاقتحام والامكانيات العالية. في حالة حصار احدى المدن كانوا يدرسون كل الطرق المؤدية اليها، ويحاولون السيطرة على مصادر المياه والتموين ومنع العدو من الاستفادة منها، أو الدخول والخروج من المدينة، الامر الذي يضعف معنويات العدو، ويمنعه من المقاومة. وكان اقتحام المدن يتم بمجموعات قتالية اقتحامية قادرة على الثبات، واجبار المدافعين على الهرب أو الاستسلام.

وهناك نماذج عديدة لاقتحام المدن في العصر الأموي، أبدى قادة الجيوش العربية فيها أمثلة رائعة من الكفاءة، وحسن التخطيط والتنفيذ، من ذلك مثلاً حصارمدينة بخارى من قبل قوات قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م، الذي كتب الى الحجاج بن يوسف يستشيره في أمرها بعد أن طال حصارها. فطلب منه أن يرسل له مخططاً للمدينة، فبعث اليه قتيبة بذلك، فأجابه أن يتقدم اليها من أماكن معينة خصصها له، وحذره من الجبال ومنعطفات الطرق.[١٠٢] وقد أسلفنا الاشارة الى ماقام به مروان بن

---

(١٠١) ينظر: الجنابي، **تنظيمات الجيش**، ص ١٩٢ ـ ١٩٥

(١٠٢) الطبري، **تاريخ** : ٢/ ١١٩٩.

البلاد أحد مراكز هذا المذهب، حيث يشير المؤرخ والجغرافي العربي المسعودي الى وجود الكثير من الأباضية في حضرموت في عصره(٥٤).

حجر بن عدي

ثانياً: المعارضة العلوية:

بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، خمدت المعارضة العلوية الى حد ما فيما تبقى من خلافة معاوية. وقد استمر الحسين بن علي في بيعته لمعاوية بعد وفاة أخيه الحسن. ولم يعكر فترة الهدوء هذه سوى معارضة بعض الشخصيات التي كانت في السابق مقربة من الامام علي (رض) في الكوفة، مثل حجر بن عدي الكندي، الذي تزعم أنصار العلويين المستائين من تصرفات الولاة الأمويين، وسوء ذكرهم لسيرة الامام علي بن أبي طالب. فكان حجر يقاطع الوالي المغيرة بن شعبة ويقف بوجهه، معلناً معارضته لهذه السياسة بالقول: «...ان من تذمون وتعيّرون لأحق بالفضل وان من تزكون وتطرون أولى بالذم...». وكان المغيرة يحذره قائلاً: «ياحجر ويحك اتق السلطان اتق غضبه وسطوته فإن غضبة السلطان احياناً مما يهلك امثالك كثيراً»(٥٥). لكن المغيرة كان يكف عنه ويصفح، بل ويرسل اليه الاموال. وقد تعرض المغيرة لانتقادات قومه بسبب هذه السياسة اللينة مع هؤلاء المعارضين، لكنه كان يبرر ذلك بدهاء، وأنه بعمله هذا انما يقتل حجراً وجماعته، لانهم سيعتادون على مثل هذا الموقف بعد المغيرة، ولايمكن للوالي الجديد تحمل ذلك. وقد شرح لهم سياسته ازاء هذا الأمر والتي تتلخص بقوله: «لاأحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى... ولكني قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بيني وبينهم الموت وسيذكرونني لو قد جربوا العمال بعدي»(٥٦).

وبالفعل صح ماتوقعه المغيرة بن شعبة، فإن الوالي الجديد زياد بن أبي سفيان، لم يتهاون مع حجر بن عدي وجماعته، وجاء مسرعاً من البصرة الى الكوفة بعد أن بلغه موقف هؤلاء من نائبه على الكوفة عمرو بن الحريث، وانهم يجتمعون ويتآمرون على الدولة،

---

(٥٤) المصدر نفسه: ٢٥٨/٣

(٥٥) الطبري، تاريخ: ١١٣/٢.

(٥٦) المصدر نفسه: ١١٤/٢

المعسكر بحيث يلزم كل منهم موضعه لتجنب بيات العدو ليلاً ، كما استخدموا طريقة البثوق واغمار الاراضي بالمياه ، حماية لهم من هجمات الاعداء. وقد استخدم الحجاج بن يوسف هذه الطريقة في معركة دير الجماجم ، فغمر الاراضي المحيطة بقواته خوفاً من تعرضهم لهجوم ابن الأشعث . كما استخدمها الأخير ايضاً في المعركة التالية التي جرت في مسكن لحماية قواته من جند الحجاج.(١٠٥)

٦- الكمائن والمسالح :-

وقبل الانتهاء من الكلام عن التعبئة ، لابد من الاشارة الى اثنين من الاساليب التعبوية المهمة التي مارستها القوات العربية ، وهي الكمائن ، ووضع المسالح . ويقصد بالكمين وضع قوة من الجند في موضع خفي عن رصد العدو، للانقضاض على قواته ، أو لاعاقة تقدمها او انسحابها ، عن طريق مفاجأته والحاق اكبر الخسائر به . ويمكن أن تكون الكمائن من الفرسان أو من المشاة . ويشترط في الاثنين الشجاعة ، والكتمان ، . والتخفي عن رصد العدو، ومباغتته في وقت راحته او غفلته ، وأن يتم ذلك في أحر ساعة من أيام الصيف ، وأبرد ساعة من أيام الشتاء.(١٠٦)

أما المسالح ، فهي مراكز عسكرية الغرض منها تأمين مفترقات الطرق ونقاط العبور، أومناطق الرعي ، اومداخل المدن المهمة ، أوفي أي مكان يحتمل ان يمر منه العدو. وهي اسلوب تعبوي دفاعي اتخذته القوات العربية الاسلامية بسبب سعة حدود الدولة ، وتعرضها لأخطار متعددة من مختلف الجهات التي تحيط بها . وقد انتشرت هذه المسالح بشكل خاص في اقليم خراسان بسبب عدم استكمال السيطرة على هذا الاقليم ، وكثرة التمردات التي كانت تحدث في مدنه ،مما يؤدي الى الأخلال بالأمن واضطرار القيادة العربية للقيام بواجب المراقبة وحفظ حياة المقاتلين في اثناء التقدم من المباغتة ، أو لعرقلة القوات المعادية ، أو لاعطاء الانذار عنها لتتخذ الاجراءآت الضرورية لمواجهتها .(١٠٧)

---

(١٠٥) ابن اعثم ، الفتوح ، م ٤ ، ص ١٠٠ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٠٩٩ ؛ الجنابي ، تنظيمات الجيش ،ص١٩٦-١٩٩.

(١٠٦) المرجع نفسه ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(١٠٧) المرجع نفسه ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

سابعاً: - الأسلحة:

استخدم العرب انواعاً عديدة من الأسلحة، وكان أبرزها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، السيف والرمح والقوس، اضافة الى الاسلحة الدفاعية مثل الدرع والترس والخوذة أو البيضة. ونتيجة للتوسع الكبير في حجم القوات العربية الاسلامية، واتساع جبهات القتال في عصر الراشدين والعصر الاموي، حصل تطور كبير في استخدام هذه الاسلحة، واضافة أسلحة جديدة اليها تتناسب والاعمال الحربية الكبيرة، فضلاً عن وقوع الكثير من الاسلحة بايدي المقاتلين العرب نتيجة انتصاراتهم المتتالية في العهد الأموي. وكان هذا السلاح يوزع على المقاتلين، ويُرسل الباقي الى قواعد الجيش الرئيسة في الامصار. ويمكن تقسيم أسلحة الجيش في العهد الأموي الى قسمين:

١ - الأسلحة الهجومية.
٢ - الأسلحة والتحصينات الدفاعية.

١ - الأسلحة الهجومية: -

وهذه ايضا تقسم بدورها الى قسمين هما:
الأسلحة الخفيفة والأسلحة الثقيلة:

ويُعدّ السيف من أهم الأسلحة الخفيفة التي تستخدم من قبل شخص واحد. وكان المقاتلون العرب يجيدون استخدامه بشكل بارع. وقد اشتهرت السيوف اليمانية منذ عصور ماقبل الاسلام. وكان حديد هذه السيوف يستورد من خارج الجزيرة العربية، لاسيما من الهند، ثم تُصنع في اليمن، وتزود بها القوات العربية، أما السيوف الهندية أو المهندة، فكانت أيضاً معروفة عند العرب بلينها وحدتها، والراجح أنها كانت تصنع في الهند وسيلان، ثم تصدر الى البصرة عن طريق الخليج العربي. وقد اشتهرت الشام ايضاً بصناعة السيوف، وظلت معاملها تمد الجيوش العربية بهذا السلاح في العصر الأموي[١٠٨].

(١٠٨) ينظر: العلي، تنظيمات البصرة، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

ويُعَد الرمح أيضاً من الأسحلة الخفيفة التي لاتقل أهمية عن السيف ، وكان من الاسلحة المعروفة عند العرب ، ويتسلح به الفرسان والرجالة ، ويُسمىٰ ايضاً بالقناة . وهو عبارة عن قناة من الخشب رُكب فيها سِنان من الحديد . وكانت منطقة الخليج العربي من أشهر الاماكن في صنع هذا النوع من السلاح ، لاسيما الرماح الخطية ، والردينية ، والسمهرية . (١٠٩)

واستخدم العرب ايضاً القوس والسهم ، وهو من الاسلحة القديمة التي نفوقوا فيها . وكان يتسلح به الرماة أو النشابة ، كما يتسلح به الخيالة ايضاً . وقد طوّر العرب هذا السلاح ، فظهر منه نوع يسمى (القوس العربية) ، التي تسمى ايضا بقوس الحسبان ، لأنها ترمي عدداً من السهام يتراوح بين أربعة الى خمسة أسهم . (١١٠)

أما الأسلحة الثقيلة ، فكان يتولى العمل بها واعدادها اكثر من رجل واحد ، وهي تمتاز بتأثيرها الفعال لما تسببه من أضرار في صفوف العدو ومنشآته .

ويأتي المنجنيق في مقدمة هذه الاسلحة الهجومية لما له من تأثير فعال في قلوب الاعداء ، لمداه البعيد في الرمي ، فهو يستعمل في رمي الحصون وتجمعات الجنود ، وتُرمىٰ به الحجارة والقذائف النارية . وقد استخدمته القوات العربية خلال العصر الأموي على نطاق واسع وبكفاءة عالية . وهو عبارة عن قاعدة من الخشب السميك يرتكز عليها عمود خشبي قوي ، تركب في اعلاه ذراع تتحرك الى الأعلى والأسفل ، وفي أحد طرفيها وعاء نصف كروي ، توضع فيه المقذوفات ، فإذا أُريد الرمي به سُحب العمود الى الأسفل بواسطة اللوالب او الأقواس ، ثم يُفلت فجأة ، ويصطدم بعارضة خشبية قوية امامه ، فيرمي ما بداخل الكفة الى مسافات بعيدة . وكانت احجامهم متباينة ، حسب الأهداف المراد رميها ، وقد أسلفنا الاشارة الى منجنيق (العروس) الذي استخدمه محمد ابن القاسم الثقفي ، وكان يعمل عليه نحو خمسمئة رجل . أما العرادة ، فهي اصغر حجماً من المنجنيق ، وتستخدم لرمي الحجارة على المعسكرات ، او على قوات العدو لاحداث خسائر كبيرة فيها . (١١١)

---

(١٠٩) المرجع نفسه ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

(١١٠) الجنابي ، **تنظيمات الجيش** ، ص ١٤٧ .

(١١١) ينظر: **المرجع نفسه** ، ص ١٤٨–١٤٩ ، ويقارن ايضاً : صلاح الدين العبيدي ، «أنواع الأسلحة العربية الأسلامية وأوصافها» ، بحث ضمن كتاب : **الجيش والسلاح** ، (بغداد ، دار الحرية ، ١٩٨٨) : ٤/١٤٢–١٤٦ .

أما الدبابة ، فهي سلاح خاص بحصار الحصون والقلاع ، وهي عبارة عن هيكل ضخم من الخشب السميك المغطى بقطع من الجلد او اللبود من الجوانب لحماية الجنود الذين يعملون تحته ، وكانت تتحرك على بكرات أو اسطوانات خشبية ، فتندفع الى الأمام حتى تلتصق بالأسوار ، فيقوم الجنود بنقب هذه الأسوار وتهديمها بالمعاول والفؤوس في محاولة لفتح ثغرة فيها . ولم تستخدم هذه الدبابات على نطاق واسع ، نظراً لسهولة تعرضها الى نيران العدو وأسلحته ، ولسرعة تقدم القوات العربية ، بحيث لايسمح لها الوقت بحمل مثل هذه الهياكل الكبيرة ، يضاف الى ذلك وعورة الأقاليم التي تمت فيها العمليات العسكرية ، لاسيما الشرقية منها ، مثل خراسان ، وأرمينية .[١١٢] ومع ذلك فقد وردت اشارة الى استخدامها في عملية فتح الأندلس من قبل موسى بن نصير في اثناء حصار مدينة ماردة سنة ٩٤ هـ / ٧١٣ م لمهاجمة ابراج المدينة . ولكن لم تنجح عملية هذه الدبابة في هدم اسوار المدينة ، واستطاع العدو ان يقضي على المهاجمين ويحطم الدبابة .[١١٣]

وهناك سلاح آخر يشبه الدبابة يُسمى برأس الكبش ، وهو عبارة عن عمود افقي من الخشب يُركب فيه رأس من الحديد يشبه رأس الكبش ، ويتدلى هذا العمود من سطح الدبابة من موضعين بسلاسل حديدية أو حبال قوية ويقوم الرجال المسؤولون عنه بدفع العمود باتجاه سور المدينة لتهشيم حجارته[١١٤] وقد استخدم المسلمون هذه «الكباش النطاحة» في احدى عملياتهم العسكرية في بلاد الهند في خلافة هشام بن عبدالملك ، على يد الجنيد بن عبدالرحمن المري والي ثغر السند .[١١٥]

واستخدم العرب ايضاً سلالم الحصار التي توضع على الأسوار ليتسلقها الجند ، ويعبروا الى داخل الحصون . وكانت هذه السلالم في العصر الأموي تصنع من الخشب ، بعد أن كانت تتألف من الحبال في العصر الراشدي . ويبدو أن بعضها كان كبيراً وضخماً

---

(١١٢) الجنابي ، **تنظيمات الجيش** ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(١١٣) **اخبار مجموعة** ، ص ١٧ ، وينظر : طه ، **تنظيمات الجيش في الدولة العربية الاسلامية في الاندلس في العصر الأموي** ، ص ٢٢ .

(١١٤) عبدالرحمن زكي ، **السلاح في الاسلام** (القاهرة ، ١٩٥١) ، ص ٤٨ - ٤٩ ، العبيدي ، **المرجع السابق** ، ص ١٤٧ .

(١١٥) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٤٢٩ .

بحيث أنها كانت تسير على العجل. (١١٦) وقد استخدم هذه السلالم محمد بن القاسم الثقفي في حصاره لمدينة الديبل في السند. (١١٧)

٢- الأسلحة والتحصينات الدفاعية :

كذلك تقسم هذه الأسلحة الى أسلحة دفاعية خفيفة، ووسائط دفاعية ثقيلة.

وتشمل الأسلحة الدفاعية الخفيفة تلك التي كان يحملها المقاتلون للوقاية من تعرضهم للاصابة بأسلحة العدو، وهي تتألف عادة من الترس، وهو صفحة مستديرة من الفولاذ تحمل باليد لتلقي ضربة السيف، (١١٨) والدرق، وهو نوع من الترس، ويتخذ من الجلود، (١١٩) والبيضة، اي الخوذة التي تصنع من الحديد عادة لحماية الرأس، (١٢٠) والمغفر، وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، ويلبس تحت القلنسوة، وقبل الخوذة، (١٢١) والدرع الذي هو ثوب ينسج من زرد الحديد، اي هو لبوس من حديد. (١٢٢)

أما الأسلحة الدفاعية الثقيلة أو التحصينات الدفاعية، فتشمل كل مايتخذ من تحصينات دفاعية حول اسوار المدن او المعسكرات لتأمين الحماية اللازمة لها ضد هجمات الاعداء، سواء كانت طبيعية، ام من عمل الانسان، مثل القلاع والمدن المسورة، والخنادق، والوحول، والرمال، والأنهار، والمستنقعات، والبحار. (١٢٣) ولم تتخذ القوات العربية في العصر الأموي من هذه الوسائط الدفاعية الا ماهو ضروري، لأن الاسلوب التعرضي الهجومي، هو الذي كان سائداً في غالبية المعارك. وتعد الجبهة الشمالية، لاسيما منطقة الثغور الشامية، وجبهة أرمينية من أهم المناطق التي استخدمت فيها التحصينات، نظراً لطبيعتها الجغرافية التي تطلبت اقامة الحصون او اعادة ترميمها.

---

(١١٦) الجنابي، **تنظيمات الجيش**، ص ١٥٣، العبيدي، **المرجع السابق**، ص ١٤٨.

(١١٧) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٢٥، ابن الأثير، **الكامل**: ٥٣٧/٤.

(١١٨) ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري المعروف بابن منظور، **لسان العرب المحيط**، اعداد يوسف خياط (بيروت، دار لسان العرب، ١٩٧٠)، مادة: (ترس)، زكي، **المرجع السابق**، ص١٦.

(١١٩) **لسان العرب**، مادة: (درق).

(١٢٠) **المصدر نفسه**، مادة: (بيض)، زكي، **المرجع السابق**، ص ٢٣.

(١٢١) **لسان العرب**، مادة: (غفر)، زكي، **المرجع السابق**، ص ٥٦.

(١٢٢) **لسان العرب**، مادة: (درع)، زكي، **المرجع السابق**، ص ٢٦-٢٧.

(١٢٣) ينظر: الجنابي، **تنظيمات الجيش**، ص ١٥٦.

وتأتي الخنادق في مقدمة التحصينات الدفاعية التي اتبعها الجيش العربي الاسلامي في العصر الأموي ، لأنها من الوسائل السريعة ، والتي لاتكلف جهوداً كبيرة سوى حفر اخدود يحيط بالمدن او المعسكرات ، او القوات المحاربة . ويعد المهلب بن ابي صفرة من ابرز القادة الذين اتخذوا الخنادق في اثناء محاربته للخوارج .[124] واستخدمت القوات العربية ايضاً السلك الشائك ، الذي يسمى ايضاً بالمثلثات ، كوسيلة من الوسائل الدفاعية ، وهو عبارة عن قطع حديدية صغيرة على هيئة مثلث يتألف من ثلاث شوكات ، واحدة قائمة ، وشوكتان ثابتتان في الأرض . وكان ينثر حول المعسكرات والمدن والمسالك والخنادق ليكون مانعاً لهجوم العدو ، حيث تتعلق شوكاته في حوافر الخيول ، وأرجل المقاتلين ، فتعرقل تقدمهم ، وهو أشبه مايعرف في الوقت الحاضر بالاسلاك الشائكة ، أو الألغام ، أو المعرقلات . وكان في القوات العربية رجال متخصصين بزرعه وفرشه حول الخنادق ، أو في الطرق التي يحتمل تقدم العدو منها ، تاركين ممرات خاصة لايعرفها سواهم ، ليقوموا منها بالهجوم المضاد ، اذا تطلبت الظروف ذلك .[125]

ثامناً : – القيادة : –

١ – اختيار القادة :

اهتمت الدولة العربية الاسلامية منذ عهد الرسول ﷺ باختيار القادة الذين يناط بهم مسؤولية ادارة العمليات العسكرية ، سواء لحماية أمن وحدود الدولة وتوسيع رقعتها الخارجية عن طريق نشر مبادئ الاسلام ، أم القضاء على الفتن والأخطار الداخلية التي كانت تقوم في بعض الأحيان وتهدد وحدة وسلامة الامة . وكانت هناك اسس ثابتة وقويمة يستند اليها الرسول (ص) والخلفاء الراشدون في اختيار القادة ، وهي تقوم على مبادئ الفروسية العربية التي ثبتت اصولها وقواعدها وتقاليدها عبر العصور فكان على القائد أن يتمتع بصفات عديدة ، منها الفكر الثاقب الجوال ، والشجاعة ، وعدم المبالاة بالموت ،

---

(١٢٤) الطبري ، تاريخ : ٢/٥٨٥ ، ٨٧٥ .

(١٢٥) الجنابي ، تنظيمات الجيش ، ص ١٥٨–١٥٩ ، العبيدي ، المرجع السابق ، ص ١٤٨–١٤٩ .

والاقدام، والبسالة، والصلابة في الرأي والحسم، وسرعة اتخاذ القرار، وتحديد الغاية، معتمداً على فراسة قوية وبديهة حاضرة.(١٢٦)

ولقد أدرك العرب ان لهذه الصفات أهمية كبرى في احراز النصر ونجاح المعارك التي يخوضونها، اذ مهما توفرت شروط النصر الاخرى من تدريب وتسليح، وتنظيم لجيش من الجيوش، فقد يضيع ذلك كله اذا لم يتوفر القائد الكفء، حتى ليقال ان جيشاً ضعيفاً عليه قائد قوي خير من جيش قوي يقوده قائد ضعيف(١٢٧) ولقد روعيت هذه الشروط جميعاً في اختيار القادة، فكانت النتيجة، تلك الانتصارات الرائعة التي حققها العرب والمسلمون على صعيد تحرير العراق وبلاد الشام ومصر في عهد الراشدين. وكان قادة هذه الفتوح مثالاً يحتذى به لمن جاء بعدهم في العصر الأموي، حيث شهد هذا العصر أيضاً عناصر قيادية على مستوى رفيع من الكفاءة والقابلية في ادارة المعارك، ولم تكن قابلياتهم وكفاءاتهم الا امتداداً طبيعياً للقيادات التي برزت في اثناء عهد الراشدين، فكانوا بحق تلامذة المثنى بن حارثة الشيباني، وخالد بن الوليد، وسعد بن ابي وقاص، وابي عبيدة ابن الجراح، وعمرو بن العاص.

وقد توخى الخلفاء الأمويون في قادتهم ذات الصفات التي كانت مطلوبة في عهد الراشدين، فكانوا يتحرون عمن له القابلية على تحمل المسؤولية، ويتصف بالحزم ورسوخ العقيدة والثقة بالنفس. فحينما سمع الخليفة عبدالملك بن مروان عن قيام والي البصرة خالد بن عبدالله بن أسيد بعزل المهلب بن ابي صفرة عن قتال الخوارج، وتعيين اخي الوالي عبدالعزيز بن عبدالله مكانه على حرب الخوارج، الذين هزموه هزيمة منكرة، كتب اليه معنفاً: «أما بعد فقد قدم رسولك في كتابك تعلمني فيه بعثتك اخاك على قتال الخوارج وبهزيمة من هزم وقتل، وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثني انه عامل لك على الاحواز، فقبح الله رأيك حين تبعث اخاك اعرابياً من أهل مكة على القتال وتدع المهلب الى جنبك يجبي الخراج وهو الميمون النقيبة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسي لها ابنها وابن ابنائها... فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل فيهم برأي حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه ان شاء الله والسلام عليك ورحمة الله»(١٢٨).

---

(١٢٦) ينظر: حازم ابراهيم العارف، الجيش العربي الاسلامي في التخطيط السوقي للرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين - نظرة عصرية - (الرياض، ١٤٠٥هـ)، ص ٧٣ فما بعدها.

(١٢٧) الجنابي، تنظيمات الجيش، ص ٢٠٧.

(١٢٨) الطبري، تاريخ: ٢/٨٢٥.

وهكذا كان يفعل معظم الخلفاء الامويين، حيث أن مهمة اختيار القادة والولاة لم تكن بالمهمة السهلة، لاسيما وأنهم كانوا يحرصون على توفر أفضل الصفات فيمن يتولى مثل هذه المناصب. وحينما أراد هشام بن عبدالملك أن يختار رجلاً لولاية خراسان سنة ١٢٠ هـ/٧٣٨م استشار أصحابه في ذلك، فذكروا له عدة أسماء رفضها جميعاً لأتصاف اصحابها ببعض الصفات التي لاتتلائم في نظره مع منصب القيادة والولاية، مثل الكذب، والعظمة، والتيه، وشرب الخمر، وانعدام العفة، والبخل، والعصبية، ثم اختار آخر الأمر نصر بن سيار لحزمه وتجربته وسداد رأيه وعفته. وحينما قيل للخليفة أن نصراً لاعشيرة له في خراسان، لم يعبأ بذلك، وقال: «أنا عشيرته»[١٢٩]

وكان مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، يتقن اختيار القادة الجيدين، لاسيما وأنه كان قائداً قديراً من الطراز الاول، فقد توفرت فيه عناصر القيادة في أبهى صورها، واتم معانيها، من حيث الشجاعة، والصبر على القتال، وقوة الاعصاب، والتخطيط العسكري المرن الذي يناسب جو كل معركة، فلا غرابة والأمر هكذا، أن ربح مروان بن محمد أربعين معركة خاضها في حياته، قبل ان يخسر معركة الزاب مع قوات الثورة العباسية.[١٣٠] وكان هذا الخليفة القائد يعرف مدى تأثير شخصية قائد الجيش في جنده، لذلك كان يشرف على اختيار القادة، فيأمر ولاته بتنحية غير الأكفاء منهم، مثال ذلك انه أرسل الى واليه على العراق، يزيد بن عمر بن هبيرة، يأمره بالتحرك الى خراسان لنجدة نصر بن سيار. فعبأ ابن هبيرة جيشاً وضع ابنه داود على قيادته، وعندما علم مروان بذلك، كتب الى ابن هبيرة ينكر عليه هذا العمل نظراً لحداثة سن القائد وقلة خبرته، وأمره بحل عقدة لوائه، وتعيين عامر بن ضبارة المري قائداً للجيش.[١٣١]

ولم يكتف الخلفاء في العصر الأموي بالتحري والتحقيق في اختيار القادة، بل كانوا يلاحقونهم بتعليماتهم ونصائحهم ووصاياهم التي تدل على تأصل قيم العروبة والعقيدة الاسلامية في نفوسهم. فقد كتب الخليفة عمر بن عبدالعزيز الى والي خراسان، الجراح ابن عبدالله الحكمي يقول: أنه بلغني ان رسول الله ﷺ كان اذا بعث جيشاً أو سرية قال: بسم الله وفي سبيل الله تقاتلون من كفر بالله، لاتغلوا ولاتغدروا ولاتمثلوا ولاتقتلوا

---

(١٢٩) المصدر نفسه: ٢/١٦٦٠-١٦٦٣.

(١٣٠) عمر، **الخليفة المقاتل مروان بن محمد**، ص ٩.

(١٣١) اليعقوبي، تاريخ: ٣٤١/٢، وينظر: القاضي سعدي ابو حبيب، **مروان بن محمد واسباب سقوط الدولة الاموية** (بيروت، دار لسان العرب، د.ت)، ص ٨٧.

امرأة ولا وليداً ، فإذا بعثت جيشاً أو سرية فرهم بذلك.[١٣٢] وكتب ايضاً الى قائده عبدالرحمن بن نعيم القشيري في خراسان يدعوه الى غرس قيم العقيدة الاسلامية السمحاء التي تدعو الى العدل والرحمة والانسانية في نفوس الجند.[١٣٣]

كما جاء في وصية الخليفة مروان بن محمد الى ابنه عبدالله تعليمات قيمة تدل على مدى تشبع القادة العرب بروح العقيدة ، وقيم الفروسية ، فقد كتب الى ابنه يقول :

«ول امر عسكرك أوثق قوادك عندك وامنه نصيحة وانفذهم بصيرة في طاعتك واقواهم شكيمة في امرك ، وأمضاهم صريمة وأصدقهم عفافاً ، وأجزاهم غناء ، واكفاهم أمانة ، وأصحاهم ضميراً وأرضاهم في العامة دينا ، واحمدهم عند الجماعة خلقاً ، واعطفهم على جماعتهم رأفة ، واحسنهم لهم مظهراً ، وأشدهم في دين الله وحقه صلابة ، ثم فوض اليه مقوياً له ، وأبسط من أمله ، مظهر عنه الرضى حامداً منه الابتلاء ، وليكن عالماً بمراكز الجنود بصيراً بتقدم المنازل ، مجرباً ذا رأي وتجربة وحزم في المكيدة ، له نباهة وصيت في الولاية ، معروف البيت مشهور الحسب»[١٣٤].

وقد برز في العصر الأموي قادة عديدون ، نبغوا في مختلف سوح القتال والجبهات التي كانت قائمة في ذلك العصر ، فمنهم من جاهد في الجبهة الشمالية ضد البيزنطيين ، من أمثال مسلمة بن عبدالملك ، ومنهم من تميز في الجهة الشرقية وفيما وراء النهر ، من أمثال قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي ، كما عمل في هذه الجبهة الشرقية أيضاً المهلب بن ابي صفرة ، وابنه يزيد بن المهلب. ومنهم من كان له الأثر الحميد في تحرير المغرب العربي والاندلس ، ونشر مبادئ الاسلام فيهما من امثال عقبة بن نافع الفهري ، وزهير بن قيس البلوي ، وحسان بن النعمان الغساني ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد وغيرهم.

---

(١٣٢) شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب النويري ، **نهاية الأرب في فنون الأدب** (القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٥) : ١٦٧/٦.

(١٣٣) الطبري : **تاريخ** : ١٣٥٧/٢ ، ١٣٧١ - ١٣٧٢.

(١٣٤) الكاتب ، رسالة عبدالحميد الكاتب في نصيحة ولي العهد ، ص ١٩٣ - ١٩٤ ؛ وينظر : الجنابي ، **تنظيمات الجيش** ، ص ٢٢٠.

٢- تسلسل الرتب القيادية :

كان تسلسل الرتب القيادية معروفاً عند العرب ، والغرض منه سهولة توزيع الواجبات على المقاتلين ، وتحقيق الانسجام والتعاون بين القوات ، ومن المرجح ان هذا التسلسل كان بالشكل الآتي : (١٣٥)

أمير الجيش : وهو يقود عشرة الآف جندي فأكثر.

أمير التعبئة : وهو يقود خمسة الآف جندي (الميمنة والميسرة).

أمير الكردوس : وهو يقود ألف جندي.

القائد : وهو يقود مئة جندي.

الخليفة : وهو يقود خمسين جندي.

العريف : وهو يقود عشرة جنود.

ويبدو أن أهمية العرفاء ازدادت في العصر الأموي ، ولم تعد تقتصر على قيادة عشرة جنود في القتال ، بل أصبحوا مسؤولين عن الأمن والنظام ومراقبة مثيري الفتن داخل قبائلهم . وكانوا حلقة الاتصال بين السلطة والقبائل في الأمصار، لاسيما فيما يتعلق بتثبيت اسماء الجند في الدواوين ، أو توزيع العطاء ، أو الاستدعاء للخدمة في الجيش. وقد إستحدث ايضاً منصب المنكب للاشراف على أعمال العرفاء. ان هذا التطور في مهمة العرفاء خلال العصر الأموي يدعو للاعتقاد بان وظيفة العريف أصبحت تختلف عن رتبة العريف الذي يقود عشرة جنود ، ويبدو ان الرتب العسكرية الاخرى ، مثل الخليفة ، والقائد ، وأمير التعبئة ، كانت وقتية ، وتمنح للمقاتلين في اثناء الاعداد للحملات العسكرية. (١٣٦)

٣- عقد الألوية :

يُعدّ عقد اللواء دليلاً على اعطاء صفة القيادة الرسمية لاختيار القائد للجيش ، وقد سنّ الرسول ﷺ هذه القاعدة في تعيين القادة . وظل اللواء رمزاً للقيادة وامارة الجيش في العصور اللاحقة ، ومنها العصر الأموي . لذلك كان الجند يلتفون حوله ويقاتلون عنه طالما

---

(١٣٥) الجنابي ، تنظيمات الجيش ، ص ٢٢٢.

(١٣٦) المرجع نفسه ، ص ٢٢٥.

كان مرفوعاً دلالة على احتفاظ الجيش بقوته. ويُعَد سقوط اللواء علامة على هزيمة الجيش، لهذا كان قادة الجيش لايسلمون اللواء أو الراية الا لمن عرف بالشجاعة والاستبسال. وهناك فرق بين اللواء والراية، فاللواء في العصر الأموي كان ابيض اللون، وهو رمز لامارة القيادة، ولكل الجيش. بينما كانت الراية أصغر حجماً من اللواء، وهي رمز للوحدات والفرق والقبائل المختلفة في الجيش، حيث اتخذت كل قبيلة لوناً خاصاً تتميز به. وكانت الرايات كثيرة ومتعددة في القوات العربية لتعدد القبائل المشتركة في هذه القوات،(١٣٧) وقد عرفت الحملة التي قادها موسى بن نصير الى الاندلس بكثرة راياتها، حتى سمي المسجد الذي أمر ببنائه في مدينة الجزيرة الخضراء بمسجد الرايات، لكثرة رايات القبائل التي اجتمعت في تلك البقعة التي أصبحت مسجداً، تخليداً لذكرى رايات الحملة.(١٣٨)

تاسعاً: - البحرية والاسطول العربي:

يرجع الفضل الكبير في انشاء الاسطول العربي الاسلامي الى معاوية بن أبي سفيان، فقد كان حريصاً منذ ولايته على الشام في عهد الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، رضي الله عنهما، ان يكون للعرب قوة بحرية للتصدي للاسطول البيزنطي في البحر المتوسط. وقد أستأذن معاوية من الخليفة عمر بن الخطاب في انشاء اسطول عربي للغزو في البحر، فلم يأذن له، واقترح عليه بدلاً من ذلك ان يعيد ترميم حصون المناطق الساحلية، ويرتب فيها المقاتلة، ويقيم عليها الحرس، ويتخذ لها المواقد لاشعال النار للتحذير من اي هجوم بيزنطي.(١٣٩) وقد امتثل معاوية لذلك، لكنه كان مقتنعاً بضرورة انشاء الاسطول. فلما تولى الخليفة عثمان بن عفان الخلافة، اعاد عليه الكرة في الطلب، فلم يوافقه أول الأمر، لكنه سمح له أخيراً بركوب البحر، شريطة ان

---

(١٣٧) ينظر: المرجع نفسه، ص ٢٢٦-٢٢٧؛ فاروق عمر فوزي، «الرايات والألوية وشعارات الحرب عند العرب في صدر الاسلام»، بحث ضمن كتاب: الجيش والسلاح (بغداد، دار الحرية، ١٩٨٨): ٤/١٨١-١٩٨.

(١٣٨) مجهول، فتح الاندلس، نشر، دون خواكين دي كونثاليث (الجزائر، ١٨٨٩)، ص ١٣، محمد بن عبدالوهاب الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، مخطوط المكتبة الوطنية في مدريد، رقم (٥٣٠٤)، ص ٩٩.

(١٣٩) البلاذري، فتوح، ص ١٣٤.

لايحمل فيه المسلمين ألا برضاهم ، وأن يأخذ معه زوجته . فركب معاوية من عكا وحمل امرأته فاخته بنت قرظة ، وحمل عبادة بن الصامت امرأته ام حرام بنت ملحان الأنصارية ، وذلك في حدود سنة ٢٨ هـ /٦٤٨م . وكان هدف الحملة جزيرة قبرس في البحر المتوسط . وقد تمكنت هذه الحملة من فرض الصلح على اهلها على مبلغ من المال يؤدونه كل عام ، واشترط عليهم ان يلتزموا الحياد في الصراع بين العرب والبيزنطيين ، وان يبلغوا المسلمين بسير عدوهم من البيزنطيين.(١٤٠)

وبطبيعة الحال ، كان معاوية يدرك أهمية وجود اسطول عربي للدولة ، لاسيما وان الاقاليم الجديدة كانت تحتوي على كثير من العناصر التي تخدم صناعة السفن ، مثل الاخشاب التي تتوفر من غابات الأرز والصنوبر والبلوط في جبال لبنان وسورية ، كذلك أخشاب السنط المصري الصالحة لعمل الصواري وضلوع جوانب السفن ، وخشب الجميز والأثل والدوم التي تصلح لصناعة المجاذيف التي اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور ،كذلك يمكن استغلال معدن الحديد المتوفر في مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمراسي والخطاطيف والفؤوس . يضاف الى ذلك توفر الأيدي العاملة الخبيرة في الشام ومصر ، لاسيما الاقباط الذين لعبوا دوراً كبيراً في صناعة الاسطول العربي الاسلامي في بلاد الشام ومصر والمغرب . كما كان للملاحين العرب من الأزد والغساسنة خبرة في ادارة العمليات البحرية ، الأمر الذي سهل عمليات انشاء وادارة الاسطول.(١٤١)

وكان للموقع الجغرافي لبلاد الشام ومصر أثراً كبيراً في قيام البحرية العربية الاسلامية. فبعد انجاز فتح وتحرير مصر على يد عمرو بن العاص ، وقف البلدان معاً لصد عمليات الغزو البيزنطي على سواحل مصر والشام ، وساهمت خبرات مصر وملاحيها مع خبرات الشام ومصادرها الأولية في انشاء بحرية عربية اسلامية مشتركة ، حولت خطط العرب الدفاعية الى هجومية في مرحلة مبكرة من تاريخهم الاسلامي(١٤٢) .

وقد نشطت دار صناعة السفن في بادئ الأمر بالاسكندرية ، ثم أنشأ مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر من قبل معاوية دار صناعة جزيرة الروضة سنة ٥٤هـ/ ٦٧٤م

---

(١٤٠) المصدر نفسه ، ص ١٥٧-١٥٨ .

(١٤١) السيد عبدالعزيز سالم واحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الاسلامية في حوض البحر الابيض المتوسط ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨١ ، ص ١٨ ، ٢٤ ، ٢٥ .

(١٤٢) المرجع نفسه ، ص٢٧-٢٨ .

على أثر قيام البيزنطيين بمهاجمة بلدة البرلس في سنة ٥٣هـ / ٦٧٣م[١٤٣] . وبعد تحرير شمال افريقيا ، أصبحت قوة العرب البحرية اكثر قدرة وصلابة ، لاسيما بعد أن تم انشاء دار لصناعة السفن في مدينة تونس التي أنشأها حسان بن النعمان الغساني لتكون قاعدة للاسطول العربي في شمال أفريقيا . وقد طلب حسان من الخليفة عبد الملك بن مروان أن يرسل له عمالاً اقباطاً من مصر ، ولبى الخليفة طلبه ، فوصلت الى تونس الف اسرة قبطية ، وبدأت بمهمة بناء الاسطول العربي في شمال افريقيا[١٤٤] . وقد أصبحت القوة البحرية العربية الجديدة قادرة على اجبار البيزنطيين لاخلاء مواقعهم الحصينة في الشمال الأفريقي .

ويعد حسان بن النعمان الغساني ، أحد ثلاث شخصيات غسانية من الأزد لعبت دوراً مهماً في قيام البحرية الاسلامية في العصر الأموي ، فقد اشتهر قبله جنادة بن أمية الأزدي ، فاتح جزيرتي رودس واقريطش (كريت)[١٤٥] ، وسفيان بن مجيب الأزدي ، فاتح طرابلس الشام التي كانت قد استعصت على المسلمين طويلاً[١٤٦] . ولاننسى ايضاً دور معاوية بن ابي سفيان ، الذي قاد بنفسه حملات على قبرس ، أشرنا الى احداها في بداية حديثنا عن الاسطول ، ثم رجع وتمكن من السيطرة عليها سنة ٣٣هـ/ ٦٥٤م[١٤٧] . كما عين معاوية ايضاً على البحر عبد الله بن قيس الفزاري ، فقام بحملات كثيرة لم يغرق فيها احد[١٤٨] .

ويمكن ملاحظة مدى القوة التي وصلت اليها البحرية العربية منذ فترة مبكرة جداً في عهد الراشدين ، حيث اشتركت القوات البحرية من مصر وبلاد الشام في معركة ضارية مع الاسطول البيزنطي ، تسمى بذات الصواري سنة ٣٤هـ/٦٥٦م . وقد كان مجموع سفن الاسطول العربي فيها نحو مئتي مركب ، بينما بلغ عدد سفن الاعداء أضعاف ذلك . وانتهت المعركة لصالح المسلمين ، الذين ربطوا سفنهم بعضها الى بعض ، وحولوا المعركة البحرية الى اقرب ماتكون الى المعارك البرية[١٤٩] .

---

(١٤٣) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص٣٨ .

(١٤٤) ابو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر : دي سلان ، الجزائر ، ١٨٥٧ ، ص٣٧-٣٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان : ٢/٦١- ٦٢ .

(١٤٥) البلاذري ، فتوح ، ص٢٣٠ .

(١٤٦) المصدر نفسه ، ص١٣٣ ؛ وينظر ايضا : سالم والعبادي ، المرجع السابق ، ص٢٦ .

(١٤٧) البلاذري ، فتوح ، ص١٥٧-١٥٨ .

(١٤٨) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، ص١٨٩ -١٩٠ ؛ الكندي ، كتاب الولاة ، ص١٣ ؛ الطبري ، تاريخ : ١/ ٢٨٦٧ .

(١٤٩) ينظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، ص١٩٠ -١٩١ ؛ الطبري . تاريخ : ١/ ٢٨٢٤ .

كذلك تشير المعارك البحرية التي تمت في عهد معاوية بن أبي سفيان لاحكام السيطرة على القسطنطينية في اثناء حصارها الأول بين عامي (٥٤-٦٠هـ/ ٦٧٣-٦٧٩م) الى تنامي قوة الاسطول العربي، الذي استطاع ان يستولي على الساحل الشرقي لاسيا الصغرى، كما استولى على جزيرة رودس، وجزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية بقيادة جنادة بن أمية. وقد اتخذ المسلمون هذه الجزيرة قاعدة متقدمة لامداد الجيش المحاصر للعاصمة البيزنطية بالميرة والسلاح والرجال، ولقطع الطريق على سفن البيزنطيين[١٥٠]. وقد أبدى الاسطول العربي بسالة نادرة في القتال، على الرغم من استخدام البيزنطيين لوسائل كيميائية لاطاقة للعرب في مكافحتها، عرفت بالنار الاغريقية أو اليونانية، التي كانت تتركب من نفط سريع الالتهاب مع نسب غير معروفة من الكبريت والقار[١٥١].

وقد برزت أهمية الاسطول العربي في الحصار الثاني لمدينة القسطنطينية الذي تم في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك، واستمر من سنة (٩٨- ٩٩هـ/٧١٦- ٧١٧م). فبالاضافة الى حملة برية قوية أرسلت لحصار المدينة، شارك الاسطول العربي في المعركة، فقد رابطت قطعة حول المدينة. وتشير الروايات البيزنطية الى ان قطع الاسطول العربي بلغت نحو ١٨٠٠ سفينة كبيرة[١٥٢]. وتمكن هذا الاسطول الضخم من اغلاق الممرات المؤدية الى البحر الاسود، لكن سوء الاحوال الجوية والنيران اليونانية دمرت الكثير من السفن العربية، مما أدى الى فشل الحصار، وانسحاب القوات الاسلامية[١٥٣]، كما سنشير الى ذلك في الفصل الآتي الخاص بحركات التحرير (الجبهة الشمالية).

---

(١٥٠) البلاذري، فتوح، ص٢٣٧؛ وينظر: سالم والعبادي، المرجع السابق، ص٣٢.

(١٥١) المرجع نفسه، ص٣٣.

(١٥٢) يقارن: المرجع نفسه، ص٣٥.

(١٥٣) الطبري، تاريخ: ١٣٤٦/٢؛ سالم والعبادي، المرجع السابق، ص٣٥.

الفصل الثاني

حركات التحرير

بذل الأمويون جهوداً قيمة في حركات التحرير والفتوح على كل الجبهات. وكانت محاولاتهم استكمالاً لما تم انجازه في عصر الخلفاء الراشدين، بعد أن توقفت هذه الحركات بسبب النزعات الداخلية التي حصلت في صفوف المسلمين. وفيما يأتي أهم الانجازات التي حققت في هذا العصر على كل جبهات الدولة العربية الاسلامية :

اولاً :- الجبهة الشمالية :

ركز العرب جهودهم على هذه الجبهة لشدة الخطر البيزنطي الذي كان يهدد الدولة العربية من الشمال، لأن البيزنطيين كانوا قريبين من مركز الخلافة في دمشق، لاسيما وان امبراطوريتهم كانت ماتزال قوية، وأن أرضها الأم (اسيا الصغرى) ماتزال سليمة لم يمس العرب منها الا بعض الثغور والدروب. وكان الحكام الروم المتعاقبين جادين في محاربة المسلمين بعدما لقوه منهم في بلاد الشام ومصر. وسهلت الفتن والاضطرابات الداخلية بين المسلمين المهمة على البيزنطيين، فاستفحل خطرهم، وكان لابد من توجيه كل طاقات الدولة العربية لمقاومتهم وصدهم.

وقد تركزت الجهود العسكرية العربية في هذه الجبهة في منطقة الثغور، اي في مناطق الحدود التي تتكون من سلسلة جبال شاهقة، منها جبل اللكام (أمانوس) الممتد على طول الثغور من البحر المتوسط حتى بحر قزوين. وكانت الثغور تتألف من جناحين، أحدهما من ناحية الشام، عُرف بثغور الشام، أو الثغور الشامية، والآخر من ناحية الجزيرة،



محمد بن مروان

عُرف بثغور الجزيرة[1]. وهي حصون عديدة في الجبال، أو مسالح للمراقبة، أو حتى مدن حصينة على ملتقى الطرق، مثل منبج، وانطاكية، وطرسوس، وآذنة، ومرعش، والمصيصة، وملطية[2]. وقد أسلفنا الأشارة في اثناء الحديث عن تنظيمات الجيش، انه كانت تخرج حملات سنوية منتظمة تدعى بالصوائف والشواتي، للاستيلاء على حصون العدو، وترتيب القوات المرابطة فيها. ولعل أهم الحصون التي استولى عليها العرب في عهد معاوية بن ابي سفيان، هو حصن ملطية[3].

لم يكتف العرب بمهاجمة الثغور، بل اغتنموا فرصة اضطراب الشؤون الداخلية للبيزنطيين للهجوم على عاصمتهم القسطنطينية. وقد أعد الخليفة معاوية بن أبي سفيان حملة ضخمة لهذا الغرض سنة ٤٩ أو ٥٠هـ/٦٦٩ أو ٦٧٠م بقيادة سفيان بن عوف، ثم أردفها بقوات اخرى قادها ابنه يزيد، الذي اصطحب ايضاً عدداً من ابناء الصحابة، منهم عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن الزبير، وأبي أيوب الأنصاري. وقد توغلت هذه الحملة في اسيا الصغرى، حتى وصلت الى القسطنطينية، وضربت حولها الحصار. ولكنها لم تستطع ان تفتح المدينة، فرجعت الى الشام[4]. وعلى الرغم من هذه النتيجة، نجح العرب في عهد معاوية في اشغال البيزنطيين بالدفاع عن أنفسهم، بدلاً من الهجوم على أراضي الدولة العربية الاسلامية.

وقد حقق العرب في عهد معاوية ايضا نجاحاً ملموساً في مجال البحر، حيث يرجع اليه الفضل في تأسيس البحرية العربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه. وكان معاوية أول من قاد الحملات في البحر، فابتدأ بجزيرة قبرس، وتمكن من السيطرة عليها سنة ٣٣هـ/٦٥٤[5]. وعين معاوية على البحر عبدالله بن قيس الحارثي الفزاري، فقام بخمسين حملة بين شاتية وصائفة، ولم يغرق فيها أحد[6]. كما خاضت القوات البحرية العربية المشتركة من مصر وبلاد الشام معركة ضارية ضد البيزنطيين تسمى بذات الصواري سنة ٣٤هـ/٦٥٦م، انزل فيها الاسطول العربي بمراكب البيزنطيين خسائر

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٨٧ ومابعدها.

(٢) ينظر: ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية: ٢/٣٧.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٨٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل: ٣/٤٥٨ - ٤٥٩.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٥٧ - ١٥٨.

(٦) الطبري، تاريخ: ١/٢٨٢٤.

فادحة جداً[٧]. وكانت هذه المعركة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومعاوية بن أبي سفيان. وبعد انتصار المسلمين على البيزنطيين فيها حداً فاصلاً في تاريخ البحر المتوسط، حيث ثبتت سيطرة المسلمين البحرية على هذا البحر منذ ذلك الوقت. وقام الأمويون في عهد معاوية ايضاً بتحصين السواحل المطلة على البحر المتوسط، فأسكنوا فيها الجند، الذين يدعون بالروابط والحفظة، كما أعدوا المراكب التي كانت تبنى من اخشاب غابات جبال لبنان[٨].

حاول البيزنطيون نتيجة لانشغال عبد الملك بن مروان بالمشاكل الداخلية التي رافقت بداية حكمه، استغلال الموقف بالهجوم على الحصون والثغور، لاسيما ملطية التي كان معاوية بن ابي سفيان قد استولى عليها، فهدموها وانزلوا بها قواتهم، كما قاموا بهجمات على مدن سواحل الشام بقصد تخريبها، مثل عسقلان، وقيسارية، وصور، وعكا[٩]. يضاف الى ذلك أنهم حرضوا الجراجمة، وهم اقوام جبليون يسكنون على حدود الشام في جبل اللكام، فتمردوا على الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي صالحهم، وصالح امبراطور البيزنطيين، ليشغله عن محاربته، الى ان ينتهي من مشاكله الداخلية، وكان ذلك سنة ٧٠هـ/٦٨٩[١٠].

وبعد انتهاء مشكلة ابن الزبير، تفرغ الخليفة عبد الملك للخطر البيزنطي، فنقض الهدنة معهم، وولى اخيه محمد بن مروان الجزيرة وأرمينية، فقاد الأخير حملة عسكرية الى ارمينية سنة ٧٣هـ/٦٩٢م، ودخلها بعد أن كان البيزنطيون قد عملوا على ضمها في اثناء انشغال المسلمين بحركة ابن الزبير[١١]. كما استمرت حملات الصوائف والشواتي التي كانت قد توقفت منذ وفاة معاوية بن ابي سفيان، وكان عبد الملك يرسل ابناءه واخوته مع هذه الحملات، التي هدفت الى الاستيلاء على حصون جديدة، واستعادة ماسيطر عليه العدو. ولعل أهم مااستولى عليه العرب في عهد عبدالملك بن مروان هو حصن المصيصة

---

(٧) ابن عبد الحكم، **فتوح مصر**، ص١٨٩-١٩٠؛ الكندي، **الولاة والقضاة**، ص١٣؛ الطبري: **تاريخ**: ١/ ٢٨٦١ ومابعدها، ابن الاثير، **الكامل**: ٣/ ١١٧ - ١١٨.

(٨) **البلاذري**، **فتوح البلدان**، ص١٤٨، ١٦٧.

(٩) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص١٤٨-١٤٩.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص١٦٤.

(١١) **المصدر نفسه**، ص٢٠٧؛ وينظر: ابن الأثير، **الكامل**: ٤/١

الواقع على شاطئ نهر جيحان بين انطاكية وحدود البيزنطيين. وقد اسكن فيه الجند، وجعله منطقة حدودية بدلاً من انطاكية (١٢).

ولم يكن هدف هذا النشاط الحربي، كما يبدو، التمهيد لفتح القسطنطينية، كما حدث في عهد معاوية، وانما كان يهدف الى اضعاف البيزنطيين، وتخفيف وطأتهم على أرمينية، ومناطق الثغور، لاسيما وان الدولة العربية في تلك الحقبة لم تستطع ان تفعل اكثر من ذلك نتيجة انشغالها بالمشاكل الداخلية التي عانت منها كثيراً (١٣). وحينما تفرغ خلفاء عبد الملك للنشاط الحربي اتجه نظرهم الى اعادة الضغط العسكري على جبهة البيزنطيين، ومحاولة الاستيلاء على القسطنطينية للمرة الثانية. وكان العرب في هذه الفترة قد عرفوا سر تكوين النار الاغريقية التي سببت حرق اسطولهم في ايام معاوية وابنه يزيد. كما أعادوا السيطرة على جزيرة قبرس، وهاجموا جزيرة قوصرة، التي تعرف اليوم باسم بنطلارية، فاستولوا عليها (١٤)، وضمت الى ولاية افريقية سنة ٧٨هـ/٧٠٧م، وأصبحت قاعدة مهمة من قواعد الاسطول العربي. كما هاجموا ايضاً جزيرة صقلية، وخربوا موانئها التي كانت تستخدم قواعداً للاسطول البيزنطي، لاسيما مدينة سرقوسة (١٥).

وقد شجع العرب على التفكير في مشروع فتح القسطنطينية للمرة الثانية، حدوث اضطراب كبير في الدولة البيزنطية نتيجة لتعاقب الأباطرة، والثورات الكثيرة، وطمع اعدائها من الجيران. ويبدو أن البيزنطيين اطلعوا على نيات العرب في مهاجمة عاصمتهم، فأرسلوا وفداً زمن الامبراطور فيلبقوس (philippicus) للصلح، والاطلاع على استعدادات العرب، وذلك في آخر حكم الوليد الاول ابن عبد الملك سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م، ولكن الوليد رفض الصلح، كما رفضه ايضا الخليفة سليمان الذي اعقبه في الحكم (١٦).

واستمرت تجهيزات المسلمين للحملة على القسطنطينية، واستعد لها الخليفة سليمان استعداداً كبيراً، وتعاونت معه أقاليم الدولة، لاسيما مصر، والشام، وافريقية في مد

---

(١٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص١٦٩.

(١٣) يقارن: ماجد، **المرجع السابق**، ٢/١٧٦ - ١٧٧.

(١٤) ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، نشر: دي سلان (الجزائر، ١٨٥٧) ص٤٥؛ وينظر: السيد عبد العزيز سالم واحمد مختار العبادي، **تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس** (بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٩)، ص٣٥.

(١٥) **الامامة والسياسة**: ٢/٥٨؛ شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان** (بيروت، دار صادر، ١٩٧٧)، ٣/٢١٤.

(١٦) ينظر ماجد، **المرجع السابق**: ٢/٢٤٥.

الاسطول العربي بما يحتاجه من مراكب حربية . واتخذ الخليفة سليمان من مرج دابق في الغرب من حلب ، قاعدة عسكرية ، ومركزاً لادارة العمليات الخاصة بالحملة . وكان يشرف بنفسه على العمل ، كما جمع أدوات القتال من كل صنف للصيف والشتاء ، مثل أدوات الحصار كالمنجنيق ، والنفط وغير ذلك . وأقام في دابق معاهداً الله ألاّ ينصرف حتى يدخل الجيش العربي الى القسطنطينية (١٧) .

اتجهت الحملة التي بلغ عدد جنودها اكثر من مئة وعشرين الف رجل الى القسطنطينية سنة ٩٨هـ/٧١٦م بقيادة مسلمة بن عبد الملك ، الذي أمره الخليفة سليمان أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره . وأرسل كتيبة استطلاعية عبر اسيا الصغرى ، فتوغلت حتى وصلت عمورية ، التي أظهر حاكمها ليو أو ليون المرعشي التعاون مع العرب ، واستعداده للتقدم معهم نحو القسطنطينية . ويبدو أنه أظهر ذلك ليستفيد منهم ، وليبعد الخطر عن عمورية ، وليحقق مآربه في السيطرة على الحكم ، وخلع الامبراطور الشرعي . استطاع ليون أن يدخل القسطنطينية ، وأن يتولى عرش الامبراطورية البيزنطية باسم ليون الثالث (١٨) . واستغل الذعر الذي ساد العاصمة من جراء تقدم القوات العربية ، ووعد الناس بتخليصهم من العرب ، واعاد تقوية الأسوار ، وحاول قطع خطوط التموين عن جيش المسلمين ، الذين وصلوا الى المدينة وحاصروها ، ونصبوا عليها المجانيق . كما دخلت السفن العربية مياه البسفور ، وساعدت الجيش البري في احكام الحصار على المدينة ، ومنع التموينات البيزنطية القادمة للمدينة .

وعلى الرغم من استعداد العرب وتجهيزهم بالمواد التموينية ، لكن طول أمد الحصار ، وهجوم الشتاء ، وسوء الاحوال الجوية ، لم يساعدهم على الاستمرار . وقد اضطر القائد مسلمة ان يأمر الناس بالزراعة وانشاء الحقول والبيوت الخشبية ، ومع ذلك قلّتْ الأقوات ، يضاف الى ذلك استخدام البيزنطيين للنار الاغريقية التي دمرت قطعاً كثيرة من الاسطول العربي ، كما شتتت العواصف القوية ماتبقى منه (٢٠) كذلك لم تستطع النجدات التي قدمت من البر والبحر في تدعيم موقف الجيش ، واقتحام المدينة . واستمر الحصار طيلة

---

(١٧) الطبري . تاريخ : ٢/١٣١٦ .

(١٨) المصدر نفسه : ٢/١٣١٦ ؛ وينظر : ماجد ، **المرجع السابق** : ٢/٢٤٧ – ٢٤٨ .

(١٩) الطبري ، تاريخ : ٢/١٣١٥ ، ١٣١٧ ؛ ابن الاثير ، **الكامل** : ٥/٢٧ – ٢٨ .

(٢٠) الطبري ، تاريخ : ٢/١٣٤٦ ؛ ابن الاثير ، **الكامل** : ٥/٤٣ .

عهد الخليفة سليمان حتى وفاته سنة ٩٩هـ /٧١٧م. وقد ارتأى الخليفة الجديد، عمر بن عبد العزيز ايقاف الحصار، وسحب القوات العربية لخشيته من المخاطر التي قد تتعرض لها في تلك الجبهة النائية. وهكذا أصدر أوامره الى مسلمة بن عبد الملك بالانسحاب والعودة الى الشام، بعد أن وجه اليه تموينات كثيرة وامدادات تساعده على الانسحاب الآمن[٢١].

لم تحقق هذه الحملة هدفها في السيطرة على عاصمة البيزنطيين، ولكنها مع ذلك أثبتت لهم مدى قوة العرب وتصميمهم على مناهضة اعدائهم، وجعلتهم يتخلون عن مشاريعهم في استعادة ماسيطر عليه العرب من الآراضي التي سبق وأن خضعت لهم قبل الاسلام. وتعد هذه الحملة آخر الحملات العربية التي وجهت الى القسطنطينية، التي ظلت عاصمة للبيزنطيين الى أن تم افتتاحها في عهد السلطان العثماني محمد الثاني سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م.

ثانياً :- الجبهة الشرقية :

لم تشكل المناطق الشرقية خطراً على الدولة العربية الاسلامية، لاسيما وان الامبراطورية الساسانية كانت قد انتهت ككيان سياسي بعد القضاء على الاسرة الحاكمة منذ عصر الراشدين. فلم يكن في الجناح الشرقي مايخيف الامويين، حتى لو انبعثت المقاومة من جديد بسبب البعد المكاني المتسع الذي يفصل بين هذا الجناح وبين قلب الدولة الأموية، ولأن اطاراً دفاعياً طبيعياً كان يقوم في بادية الشام والعراق، فضلاً عن وجود المصرين العربيين في العراق، اي الكوفة والبصرة[٢٢].

ولكن ماأن تخلصت الدولة العربية الاسلامية من مشاكلها الداخلية، لاسيما مشكلة ابن الزبير، حتى تفرغت لهذه الجبهة الشرقية. وكان لجهود الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق، اثراً كبيراً على الانتصارات التي حققت في المشرق، خاصة في أواسط

---

(٢١) الطبري، تاريخ: ١٣٤٦/٢.

(٢٢) يقارن: شكري فيصل، حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول (بيروت، ١٩٨٠)، ص١٩٠-١٩١.

آسيا[٢٣] . وقد امتدت حركات التحرير حتى شملت مناطق بعيدة في هذا الاتجاه وصلت الى حدود الصين. ويحسن بنا قبل الخوض في ماهية هذه الحركات وأهميتها ، أن نحدد الموقع الجغرافي للمناطق التي نطلق عليها اسم المشرق ، أو الجبهة الشرقية .

تبدأ هذه الجهات ببلاد ايران الحالية ، وخراسان التي تقع شرقيها . وكانت حدود خراسان تتصل من جهة الشرق بمملكة طخارستان ، ومن الجنوب الشرقي بسجستان وكرمان ، التي تفصلها عن بلاد الهند . ومن امهات مدن خراسان مرو، وهي مركزها ، ونيسابور ، وهراة ، وغيرها من المدن التي هي دون نهر جَيْحُون[٢٤] . وامتدت الفتوح ايضاً الى البلاد التي تقع خلف هذا النهر، وتسمى في مصادرنا العربية ببلاد ماوراء النهر، ونهر جيحون هذا ينبع من جبال هندكوش وهضبة بامير، ويصب في بحيرة آرال ، أو خوارزم كما كانت تسمى قديماً . ويمكن تحديد بلاد ماوراء النهر بصورة تقريبية ، حيث يقع نهر جيحون الى جنوبها ، وبلاد خوارزم الى غربها ، ويجاورها من جهة الشرق بلاد الصين. أما في الشمال فكانت تمتد الى النهر المعروف باسم سَيْحُون ، الذي يصب ايضا في بحيرة آرال ، وهو في حدود بلاد الترك[٢٥] . وقد عبر المسلمون هذا النهر ايضاً ، فواجهوا بذلك المناطق الأصيلة للقبائل التركية .

أما المنطقة التي تقع بين النهرين (سَيْحُون وجَيْحُون) ، فكانت مستقراً لخليط من الشعوب الآسيوية ، لاسيما الفرس والترك ، ومجموعة اخرى من العناصر التي تسمى في المصادر العربية بالهياطلة . وربما كان هؤلاء من الاتراك أو من الفرس[٢٦] . ولكن يحتمل ان يكون أصلهم من الهونيين (المغول) الذين جاءوا الى بلاد ماوراء النهر، واختلطوا باهلها ، واستطاعوا أن يحكموها في حدود القرن الخامس الميلادي ، حتى أصبحت هذه البلاد تعرف ايضا باسم هَيْطَل ، إضافة الى اسم بلاد ماوراء النهر[٢٧] .

---

(٢٣) H.Gibb, **The Arab Conquests in Central Asia** (London, 1923), pp.29,54.

وينظر ايضاً : عبد الواحد ذنون طه ، «الحجاج بن يوسف الثقفي واثره في حركة الفتوح الاسلامية» ، **مجلة الرسالة الاسلامية** ، العدد ٨٢-٨٣ (بغداد ، ١٩٧٥) ، ص٧٩-٩٤ .

(٢٤) ياقوت ، **معجم البلدان** : ٢/٣٥٠ ؛ وللمزيد من التفصيلات عن مناطق خراسان وجغرافيتها السياسية ، يراجع : محمد عبد الحي شعبان ، **الثورة العباسية** ، ترجمة ، عبد المجيد حسيب القيسي (ابو ظبي ، دار الدراسات الخليجية ، د.ت) ، ص٣٧ -٥٤ .

(٢٥) ياقوت ، **معجم البلدان** : ٣/٢٩٤ .

(٢٦) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص٣٩٤ .

(٢٧) ينظر: ياقوت ، **معجم البلدان** : ٥/ ٤٢٢ ؛ ويقارن : شعبان ، **الثورة العباسية** ، ص٤١-٤٤ ؛ ماجد ، **المرجع السابق** : ٢/٢٠٩ .

وكانت بلاد ماوراء النهر تضم عدة ممالك ، من أهمها طخارستان التي تقع في اعلى ضفتي نهر جيحون ، وهي ولاية واسعة تشتمل على عدة بلاد ، وتنقسم الى طخارستان العليا والسفلى . ومن مدنها الكبيرة بَلْخ ، وطالقان[٢٨] . ومن الممالك الاخرى في بلاد ماوراء النهر مملكة الصغد او السغد ، وهي تمتد من نهر جيحون الى نهر سيحون ، وقيل انها كانت تتألف من قسمين : صغد سَمَرْقند ، وهي قصبة الصغد ، وصغد بخارى ، وهي من أشهر مدن الصغد . كما ضمت هذه المملكة ايضاً مدناً اخرى مثل مدينة كَش ، وبيكند .[٢٩] وهناك مملكة اخرى ، كانت تقع في اسفل النهر ، أوفي دلتاه ، تعرف بمملكة خوارزم .[٣٠] أما اشهر ممالك نهر سيحون ، فهي مملكة فرغانة التي تقع في أعالي نهر سيحون وعلى ضفتيه ، ومن أهم ولاياتها خُجَندة .[٣١] ومملكة أشْرُوَسنة التي تقع شرقي فرغانة بين سيحون وسمر قند ،[٣٢] ثم مملكة الشاش التي تقع وراء نهر سيحون الى الشمال من أشْرُوَسنة .[٣٣]

كذلك امتدت فتوح العرب المسلمين الى الهند ، فدخلتها من جنوبي بلاد فارس ، مارة بكرمان وسجستان ، حيث توغلت في بلاد السِّند ، التي تقع الى الشرق من ايران على ساحل المحيط الهندي ، وبلاد القيقان ، التي تعد أيضاً من بلاد السند مما يلي خراسان .[٣٤] ومن أشهر مدن السند ميناء الدَّيبُل أو الديبلان ، على ساحل بحر الهند .[٣٥] وينتمي سكان هذه المنطقة الى العنصر الآري ، وان كانت غالبية سكانها من عناصر تسمى الهندية ، كما وُجدت في القيقان عناصر تركية كثيرة .[٣٦] أما أشهر مدن سجستان فهي قصبتها مدينة زرنج ، التي تقع في بلاد افغانستان الحالية .[٣٧]

---

(٢٨) ياقوت ، **معجم البلدان** : ٤/ ٢٣ .

(٢٩) الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ١٨٦ ؛ ياقوت ، **معجم البلدان** : ٣/ ٤٠٩ ، ٤/ ٤٦٢ ، ١ / ٥٣٣ .

(٣٠) **المصدر نفسه** : ٢/ ٣٩٥ فما بعدها .

(٣١) **المصدر نفسه** : ٤/ ٢٥٣ .

(٣٢) **المصدر نفسه** : ١/ ١٩٧ .

(٣٣) **المصدر نفسه** : ٣/ ٣٠٨ .

(٣٤) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٤٢١ ؛ ياقوت ، **معجم البلدان** : ٣/ ٢٦٧ .

(٣٥) ابو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري ، **معجم ما استعجم** ، تحقيق ، مصطفى السقا ، (القاهرة ، ١٩٤٥-١٩٤٧) : ٢/ ٥٦٩ ؛ ياقوت ، **معجم البلدان** : ٢/ ٤٩٥ .

(٣٦) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٤٢١ ؛ وبقارن : ماجد ، المرجع السابق : ٢/ ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٣٧) ينظر : ياقوت ، **معجم البلدان** : ٣/ ١٣٨ ، ١٩٠ .

١ - الجهود العسكرية الاولى في المشرق :

تمت المحاولات الاولى لافتتاح بلاد ايران وخراسان في عهد الراشدين ، وكانت معارك القادسية وجلولاء ونهاوند قد حددت مصير الامبراطورية الساسانية ، وفتحت ابواب المشرق امام المسلمين. واجتاحت الجيوش العربية الاسلامية مقاطعات الأحواز ، والجبال ، وفارس ، واذربيجان ، وطبرستان ، وجيلان ، وامتدت الحملات العربية للسيطرة على خراسان في عهد الوالي عبدالله بن عامر الذي عينه الخليفة عثمان بن عفان (رض) على البصرة سنة ٢٩ هـ / ٦٤٩ . [٣٨] وقد استمر هذا الوالي في جهوده لاستكمال افتتاح خراسان حتى قيام الحكم الأموي سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م ، حيث أصبحت ولايته تشمل اضافة الى البصرة ، كلاً من خراسان وسجستان. فعمل ابن عامر على استعادة النفوذ العربي في هذه المناطق ، [٣٩] بعد أن تزعزع هذا النفوذ نتيجة للحرب الأهلية التي سبقت قيام الدولة الاموية .

وقد نالت حركات التحرير في المشرق دفعاً كبيراً بتعيين زياد بن أبي سفيان على البصرة عام ٤٥ هـ / ٦٦٥ م ، فبادر هذا بارسال حملة جديدة الى خراسان بقيادة الحكم بن عمرو الغفاري ، هدفها اعادة السيطرة على الامارات الهيطلية في طخارستان. وحققت هذه الحملة نجاحاً لاباس به ، ثم عادت الى مرو. [٤٠] ولكن زياد بن أبي سفيان أدرك أن الحملات المتفرقة لايمكن أن تحقق الفتح المنظم لهذه البلاد ، فسارع الى وضع خطة ثابتة تضمن استقرار العرب في البلاد المفتوحة ، وذلك بان جعل مدينة مَرْو قاعدة عسكرية للعرب في خراسان ، كما نقل الى هذه البلاد خمسين ألف مقاتل مع أسرهم ، من الكوفة والبصرة ، ليكونوا مادة الفتح ، ويستقروا في خراسان. [٤١] واستطاع الوالي الربيع بن زياد الحارثي ، الذي قاد بنفسه حملة الخمسين الف مقاتل سنة ٥١ هـ / ٦٧١ م ، أن يتقدم رأساً ويدخل مدينة بلخ صلحاً ، ومن ثم يتوجه الى القضاء على بقايا مقاومة الامارات الهيطلية ، ويفتتح قُهستان عنوة. [٤٢]

---

(٣٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٩٤ .
(٣٩) المصدر نفسه ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .
(٤٠) اليعقوبي ، تاريخ : ٢ / ٢٢٢ ، الطبري ، تاريخ : ٢ / ٨٤ - ٨٥
(٤١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٠٠ ، الطبري ، تاريخ : ٢ / ٨١ .
(٤٢) المصدر نفسه : ٢ / ١٥٦ .

لقد كانت خطة استقرار القبائل العربية في خراسان التي نفذها زياد بن أبي سفيان خطوة هامة دون شك في سبيل تثبيت اقدام العرب في المناطق الشرقية . وقد ادرك الخليفة معاوية بن أبي سفيان فائدة هذه الخطة ، فأراد ضمان استمرار تنفيذها بعد وفاة زياد سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ ، وذلك بتعيين عبيدالله بن زياد والياً على خراسان ، وفصل هذه الولاية عن ولاية البصرة .[٤٣] وما أن وصل ابن زياد الى خراسان حتى استعد للقيام بحملة عسكرية على بلاد الصغد ، فقطع النهر وافتتح بيكند ، وقاتل أهل بخارى ، فطالبت ملكتهم خاتون بعقد الصلح ، وتعهدت بدفع مبلغ كبير من المال الى المسلمين.[٤٤] ويبدو ان حملة عبيدالله بن زياد هذه الى بخارى لم تقتصر على تحقيق النجاح المادي العسكري حسب ، بل حققت مكسباً آخر، هو تجنيد قسم من أهالي بخارى أنفسهم في الجيش العربي الاسلامي . فيذكر كل من البلاذري ، والطبري ،[٤٥] أن عبيدالله بن زياد جلب معه حين رجع الى البصرة نحو الفين من رماة النشاب من أهالي بخارى . ولاريب فإن هذه الخطوة تدل على أن امر العرب في هذه الجبهة قد آل الى شيء من الاستقرار والتركز، وبدأ السكان المحليون لهذه المناطق يتفهمون طبيعة أهداف المسلمين الانسانية ، ويختلطون بهم ، بل وينضمون الى صفوفهم أيضاً .

وقد توقفت الحركات العسكرية قليلا بعد نقل عبيدالله بن زياد الى البصرة ، ولكن تعيين سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان عام ٥٦ هـ / ٦٧٥ م أعاد النشاط الى الجبهة الشرقية ، لاسيما وأنه كان مصحوباً بقادة اكفاء من امثال المهلب بن أبي صفرة . فقطع النهر وقاتل الصغد وحصرهم في مدينة سمرقند حتى اضطرهم على الصلح ودفع الرهائن .[٤٦] وقد حاولت خاتون ملكة بخارى أن تنكث بالعهد الذي قطعته للمسلمين في حملة عبيدالله بن زياد ، لكنها خشيت قوة جيش سعيد بن عثمان ، فأعادت الصلح ، وساعدت المسلمين في حصارهم لمدينة سمرقند .[٤٧]

وفي عهد سلم بن زياد بن ابي سفيان الذي عينه الخليفة يزيد بن معاوية على خراسان عام ٦١ هـ / ٦٨١ م ، اتبع العرب اسلوبا آخر في تثبيت الفتوح التي كانوا يقومون بها . ففي الحملة التي قام بها سلم على سمرقند ، قرر البقاء فيها حتى داهمه الشتاء ، على العكس من

---

(٤٣) يقارن : المصدر نفسه : ٢/ ١٦٦ - ١٦٨ ؛ شعبان ، الثورة العباسية ، ص ٧٩ .
(٤٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٠١ ؛ وينظر : الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٦٩ .
(٤٥) فتوح البلدان ، ص ٤٠١ ؛ تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ١٧٠ .
(٤٦) المصدر نفسه : ٢/ ١٧٩ .
(٤٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٠١ .

الولاة الذين سبقوه ، والذين كانوا يعودون بجيوشهم الى مرو في فصل الشتاء . إن عودة المسلمين هذه كانت تسمح لامراء المناطق في بلاد ماوراء النهر بتجميع قواتهم ، وتعطيهم الفرصة للاجتماع والتشاور وتنظيم المقاومة . ولكن خطة سلم بن زياد الجديدة فوتت على الاعداء هذه الفرصة ، ولو أنها في الوقت نفسه أثارت حفيظة القبائل العربية المقاتلة التي لم تتعود البقاء في برد الشتاء في مناطق القتال . لكن سلم استطاع أن يتغلب على هذه المقاومة بفضل حنكة قائدة المهلب بن ابي صفرة ، وبفضل الغنائم الوفيرة التي حصل عليها المقاتلون ، والتي شجعتهم على البقاء والتقدم .(٤٨)

لم يستطع العرب أن يحتفظوا بثمرة النجاح الذي احرزوه في المشرق في عهد زياد بن أبي سفيان ، وابنه عبيدالله ، وسعيد بن عثمان ، وسلم بن زياد ، وذلك بسبب الخلافات القبلية التي نشأت في خراسان اثر الفتن الداخلية والحرب الأهلية التي أعقبت وفاة الخليفة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م . فقد اغتنم امراء بلاد ماوراء النهر هذه الفرصة لينقلبوا على العرب ، بل قام بعضهم بالاغارة على المناطق التي تتواجد فيها القوات العربية ، حتى بلغوا قرب نيسابور ،(٤٩) وامتنع آخرون عن دفع المبالغ المالية التي اصطلحوا على دفعها للعرب في الفترات السابقة . ولو أن العرب واصلوا حملاتهم في المشرق وضغطهم على بلاد ماوراء النهر في هذه المرحلة لما احتاجوا الا لعشر التكاليف والخسائر التي بذلوها فيما بعد لاعادة تحرير هذه المناطق .(٥٠) وهكذا فإن التفرقة والخلاف بين العرب أنفسهم في خراسان ، وفي بقية انحاء الدولة العربية الاسلامية ، أدت الى ضياع الجهود القيمة التي بذلت من قبل الولاة الامويين في سبيل استكمال حركات التحرير والفتوح في الجبهة الشرقية .

ولم يقتصر تأثير هذه الحالة على خراسان وحدها ، بل شمل مناطق اخرى أبعد ، مثل سجستان التي حقق فيها العرب ايضا انتصارات أولية في عهدي معاوية بن أبي سفيان ، ويزيد بن معاوية .(٥١)

---

(٤٨) الطبري ، تاريخ : ٢/ ٣٩٤ ؛ وينظر : البلاذري ، **فتوح البلدان**، ص ٤٠٣ ؛ اليعقوبي **تاريخ** : ٢/ ٢٥٢ ؛ شعبان ، **الثورة العباسية** ، ٨٦ .

(٤٩) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٥٠) Gibb., **OP. Cit.**, pp. 22-23
ويقارن : شعبان ، **الثورة العباسية** ، ص ٩٧ ؛ فيصل ، **المرجع السابق** ، ص ٢١٤ .

(٥١) ينظر : البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٤٢١ - ٤٢٣ .

٢ – الانجازات العسكرية في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي :–

بعد القضاء على حركة ابن الزبير وتوطيد السلطة الاموية في عهد الخليفة عبدالملك ابن مروان ، نشطت حركات التحرير والفتوح العربية في المشرق مرة ثانية . وكان لتولي الحجاج بن يوسف الثقفي لولاية العراق اثراً كبيراً على ذلك . فقد عُين الحجاج واليا على العراق سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤ م ، ثم أُضيفت اليه ولاية خراسان والمشرق عام ٧٨ هـ / ٦٩٧ م . وهكذا أصبحت موارد العراق وخراسان وسجستان تحت تصرفه ، فعبأها جميعاً لدعم حركات التحرير ، مستعيناً بالقبائل العربية في العراق والشام . كما دعم قادته العسكريين وجهزهم بكل مايحتاجون اليه من رجال واسلحة واموال . ففتح قتيبة بن مسلم الباهلي بلاد ماوراء النهر حتى وصل الى حدود الصين ، وعمل محمد بن القاسم الثقفي على فتح بلاد الهند والسند . وهكذا استطاع الحجاج بحزمه وشدته وتحمله مسؤولية الفتح أن يحمل رايات الاسلام الى حدود الصين والهند .

كانت اوضاع المشرق حينما تولى الحجاج تتطلب توطيد السلطة العربية الاسلامية فيها ، لاسيما بعدما انشغل العرب حقبة من الزمن بسبب الخلافات الداخلية . ولهذا لاقت المحاولات الاولى لاعادة السيطرة على بعض هذه المناطق صعوبات بالغة . من ذلك مثلاً ماحدث لاحدى الحملات التي أرسلت الى سجستان بقيادة عبيدالله بن أبي بكرة ، الذي عينه الحجاج عام ٧٨ هـ / ٦٩٧ م عاملاً على سجستان وامره ان يحارب ملكها الذي يسمى زنبيل أو رتبيل . ولكن عبيدالله بن أبي بكرة توغل في بلاد العدو توغلا كبيراً ، فاستطاع الأعداء ان يقطعوا عليه وعلى جيشه طريق العودة ، مما اضطره الى طلب الصلح ودفع مبلغ كبير من المال لزنبيل . ولم يرض جند الكوفة بذلك ، فقاتلوا الى ان استشهد معظهم ، ورجع الباقون وهلكوا جوعاً وعطشاً في طريق العودة .[٥٢] وقد أرسل الحجاج جيشاً آخر من أهل الكوفة والبصرة وأسند قيادته الى عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث الكندي ، ولكن تمرد قائد هذا الجيش أدى ، كما أسلفنا ، الى رجوعه وعدم تحقق الغاية من ارساله الى سجستان مما زاد في تفاقم ضياع نفوذ السلطة العربية في هذه البلاد .[٥٣] فأصبح اللصوص وقطاع الطرق يعبثون بالسفن والقوافل الاسلامية ، ويتمتعون بحماية داهر ملك الديبل ، احدى مدن السند ، والذي أظهر استخفافاً واضحاً

---

(٥٢) ينظر: الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٠٣٦ – ١٠٣٨ .

(٥٣) ينظر: المصدر نفسه : ٢/ ١٠٤٥ فما بعدها .

بسلطة الدولة الاموية.[54] مما اضطر الحجاج بن يوسف الى ارسال حملة اخرى بقيادة محمد بن القاسم الثقفي. وقد اهتم الحجاج بهذه الحملة اهتماماً كبيراً، وحاول ان يضمن لها النجاح، فلم يغادر صغيرة أو كبيرة من شأنها الا أشرف عليها، وأمر بتوفيرها لها.[55]

وفي هذه الحملة بالذات يتضح لنا مدى التنظيم الذي كان يراعيه الحجاج في ارسال الحملات العسكرية. فقسم هذه الحملة الى قسمين: برية، وبحرية، وحرص ان تصل الحملتان في وقت واحد الى الديبل. وكان قائد الحملة البرية، كما اسلفنا محمد بن القاسم اما الحملة البحرية، فكانت تتألف من سفن فيها رجال وسلاح اضافة الى التجهيزات الكثيرة الاخرى التي كان من المتوقع ان تحتاج اليها حملة كبيرة كهذه. وبالفعل وصلت الحملتان في وقت واحد الى غايتها، فاستفاد محمد بن القاسم من هذا التنظيم الدقيق الذي ساعد على نجاح تلك الحملة.[56]

ومن مظاهر التنظيم في هذه الحركات ايضا، حرص الحجاج على الاتصالات المستمرة مع الجيوش المتقدمة في المشرق، وذلك بقصد التعرف على الصعوبات والعقبات التي قد تصادف تلك الحملات، ليعمل على حلها والتغلب عليها. فكانت الرسائل بين الحجاج وقائده محمد بن القاسم تصل في كل ثلاثة ايام. وفي هذه الرسائل كان محمد بن القاسم يستطلع رأي الحجاج فيما يجب أن يفعله ازاء بعض الامور المهمة في الحملة.[57] وكانت توجيهات الحجاج بناءه وفعالة في سير العمليات العسكرية، وكثيراً ما كان رأيه يصيب في الامور التي يكتبها الى قادته، فتنجح ملاحظاته في تخليص المسلمين من مخاطر كثيرة وتساعدهم على تحرير مدن ومناطق استعصى عليهم الدخول اليها.[58]

لقد سارت حملة محمد بن القاسم الثقفي التي كانت تتألف من ستة الآف مقاتل من جند أهل الشام، وعدد آخر من غيرهم من القبائل العربية الى مكران سنة ٨٩ هـ/٧٠٧-٧٠٨م، ثم حاصرت ثغر الديبل ودخلته عنوة، وبنى فيه محمد بن القاسم مسجدا. وقبل ان

---

(٥٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٣؛ الطبري، تاريخ: ٣/ ١٢٧٦.

(٥٥) ينظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٤.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٤٢٤؛ وينظر: ابن الأثير، الكامل: ٤/ ٥٣٧.

(٥٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٤.

(٥٨) م. ن. ص ٤٢٥؛ الطبري، تاريخ: ٢/ ١١٩٩، ١٢٠١، ١٢٠٣.

يغادر هذه المدينة عمل ابن القاسم على استقرار نحو أربعة آلاف من جند المسلمين فيها، تثبيتاً للوجود العربي الاسلامي. ثم سار منها صاعداً نحو شمال السند، وحتى بلغ نهر السند الذي كان يسمى بنهر مهران. وكان لايمر بمدينة الا ودخلها صلحاً أو عنوة. وقد التقى محمد بن القاسم شمال هذا النهر بداهر ملك الديبل، الذي كان يقاتل هو وجنوده على ظهور الفيلة. ولكن العرب استطاعوا أن يتغلبوا عليهم، وان يقتلوا ملكهم داهر، وبذلك سيطر محمد بن القاسم على بلاد السند.

ولم يزل هذا القائد يدخل مدن السند الواحدة تلو الاخرى حتى عبر نهر بياس، أحد روافد السند، ووصل الى مدينة الملتان، اكبر مدن السند، فحاصرها حتى نفدت أقوات المسلمين، لكنهم صبروا حتى دخلوها عنوة، وغنموا منها غنائم كثيرة.[٥٩] ويذكر أن حركات محمد بن القاسم امتدت حتى شملت مدناً ومناطق مهمة في شمال السند، مثل قندهار وكشمير. وتعد هذه الانتصارات من اعظم الانجازات العربية الاسلامية في هذه البلاد، فلم يتجاوز أحد من الفاتحين الاماكن التي وصل اليها ابن القاسم الى ايام الغزنويين.[٦٠]

وفي الوقت الذي كان فيه محمد بن القاسم يقوم بحركاته في جبهة السند والهند، كان هناك قادة آخرون يقومون ببذل جهود جبارة لتثبيت السلطة العربية في بلاد ماوراء النهر. فقد عادت الحملات تُسيَّر الى هذه البلاد بعد ان استقرت الامور في الدولة الاموية. ولكن هذه الحركات لم تنشط بشكل جدّي الا بعد تولي الحجاج بن يوسف لخراسان مع العراق عام ٧٨ هـ / ٦٩٧ م. فولى المهلب بن ابي صفرة على خراسان، الذي توجه الى ماوراء النهر، فدخل خجندة، أهم ولايات مملكة فرغانة، وحاصر كش في بلاد الصغد التي أدت اليه الأتاوة[٦١] وبعد وفاة المهلب بن ابي صفرة، أعقبه ابنه يزيد على ولاية خراسان، وكانت عملياته العسكرية محدودة، وكذلك عمليات اخيه المفضل بن المهلب، الذي ولاه الحجاج بعد عزل يزيد.

---

(٥٩) البلاذري، فتوح ص ٤٢٤ – ٤٢٧ ؛ اليعقوبي، تاريخ : ٢/ ٢٨٩ ؛ ابن الاثير، الكامل : ٤/ ٥٣٦– ٥٣٩.

(٦٠) يقارن ماجد، المرجع السابق : ٢/ ٢٣٧ ؛ سالم، المرجع السابق : ص ٣٤٥.

(٦١) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٠٧ ؛ الطبري، **تاريخ** : ٢/ ١٠٤٠.

والواقع ان سياسة فتح بلاد ماوراء النهر لم تنتظم الا بعد أن ولى الحجاج بن يوسف قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م . وكان عهد قتيبة في خراسان من ابرز العهود في العصر الاموي ، نظراً لما تميز به من انجازات عسكرية وادارية . فقد اتخذ أيضاً مدينة مرو قاعدة له ، ومنها انطلق في فتوحه في بلاد ماوراء النهر. وسار قتيبة ايضاً على سياسة استخدام سكان البلاد الأصليين في جيشه . ففي حملته الاولى سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م سار الى بلخ ، فتلقاه دهاقينها وكبار رجالها ، وعبروا معه نهر جيحون ، حيث هاجم بعض الامارات ، لاسيما مملكة صغانيان ، وشومان ، وغيرها ، فاستسلم له ملوكها واظهروا الطاعة . ثم رجع قتيبة الى مرو بعد ان خَلّف أخاه صالحاً على بلاد ماوراء النهر، ليستمر في تثبيت السلطة العربية في تلك المنطقة .(٦٢)

وقد صالح قتيبة نيزك الهيطلي أمير باذغيس في طخارستان ، التي تقع الى الشرق من خراسان ، شريطة أن يتعهد بمساعدة المسلمين في عملياتهم العسكرية . وقد تعهد قتيبة مقابل ذلك بعدم الدخول الى مدينة باذغيس .(٦٣) وفعلاً ساعد نيزك المسلمين في حملاتهم على منطقة بخارى في السنوات ٨٧ – ٩٠ هـ / ٧٠٦ – ٧٠٨ م . وقد أبتدأت هذه الحملات بالتوجه الى بيكند ، وهي اقرب مدن بخارى الى النهر، ويقال لها مدينة التجار ، لانها كانت مركز التجارة الصينية . واستنجد أهل هذه المدينة بالصغد ، الذين جاءوا وقطعوا الطريق على قتيبة ، حتى ان مراسلاته انقطعت مع الحجاج لمدة شهرين . ولكن استبسال المسلمين وصبرهم ساعدهم على التغلب على الاعداء ، فدخلوا مدينة بيكند ،(٦٤) وحصلوا على غنائم لاتحصى ، ساعدتهم على التزود بالسلاح والخيل ، فأصبحوا في قوة كبيرة ساعدتهم على الانتصار في الحملات اللاحقة التي تكللت بافتتاح مدينة بخارى ذاتها سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م . ويبدو أن نيزك الهيطلي خشي من انتصارات المسلمين المتكررة ، فدبر فتنة في طخارستان ، فسار قتيبة الى ملوك هذه المنطقة وصالحهم ، ثم تتبع نيزك وقضى عليه .(٦٥)

---

(٦٢) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٤٠٩ ؛ الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ١١٨٠ ؛ وينظر ايضاً : Gibb, Op. Cit., PP. 31 – 32

(٦٣) الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ١١٨٤ ؛ ابن الاثير، **الكامل** : ٤/ ٥٢٧ .

(٦٤) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٤١٠ ؛ الطبري ، **تاريخ** . ٢/ ١١٨٦ – ١١٨٩ ؛ ابن الاثير، **الكامل** : ٤/ ٥٢٨ .

(٦٥) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٤١٠ ؛ الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ١١٩٨ فما بعدها ؛ ابن الاثير، **الكامل** ؛ ٤/ ٥٤٢– ٥٤٤ ؛ وينظر: شعبان ، **الثورة العباسية** ، ص ١٢٣ – ١٢٤ .

وفي سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م سار قتيبة على رأس حملة متوجهة الى سجستان بناء على أوامر الحجاج بن يوسف، (٦٦) وذلك بعد فشل حملة عبدالرحمن بن الأشعث الكندي في تحقيق نتائج ايجابية ازاء زنبيل ملك سجستان بسبب تمرد ابن الأشعث وقيامه على الدولة. ويبدو ان هناك سببا اخر لحملة قتيبة دفعه الى الاسراع بالزحف الى سجستان ، وهو رغبته في القضاء على احتمال وصول اي عدو من الامارات الهيطلية الجنوبية الى الشمال ، مما قد يشجع هؤلاء على الخروج على الدولة العربية. (٦٧) ومهما يكن من أمر فقد شعر زنبيل بخطورة الموقف وخشي من قدوم قتيبة ، لاسيما وأن المسلمين زرعوا الارض التي نزلوا فيها حتى ييأس العدو من انصرافهم ، فأرسل زنبيل الى قتيبة يطلب الصلح ، فرضي قتيبة ، وانصرف الى مرو بعد أن عين أحد اتباعه نائباً عنه في سجستان. (٦٨)

ركز قتيبة اهتمامه على بلاد ماوراء النهر في السنوات التالية حتى نهاية ولايته على خرسان عام ٩٦ هـ /٧١٥ ، فوصلت حملاته الى فرغانة. كما امتد نشاطه حتى دلتا نهر جيحون عند خوارزم التي دخلها سنة ٩٣ هـ / ٧١٢ م بناء على دعوة ملكها الذي أقصي عن الحكم من قبل اخيه ، فاعاده قتيبة الى السلطة ، وترك في المدينة حامية عربية. وفي طريق عودته دخل مدينة سمرقند عنوة ، وفرض على اهلها الصلح ، الذي تضمن دفع مبلغ كبير من المال للمسلمين ، وان يخرج المقاتلة من أهل المدينة ، وان يبني فيها مسجدا تقام فيه الصلاة. وقد تم الصلح على هذا الاساس ، فدخلها قتيبة وانتخب أربعة الآف من العرب ، فأسكنهم فيها ليكونوا حامية للدفاع عنها. ثم جمع الاصنام الموجودة في المدينة واحرقها جميعا. وكان أهلها يقولون ان من استخف بهذه الاصناف يهلك ، فلما حرقها قتيبة بيده ، اعتنق جماعة كبيرة من اهلها الاسلام. (٦٩)

٣ - مرحلة مابعد الحجاج :-

تأثرت عمليات قتيبة العسكرية بموت الحجاج بن يوسف عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م ، لكنه واصل الجهاد في العام التالي بعد أن شجعه الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فدخل كاشغر التي كانت تعد من ممتلكات الصين. ويُذكر انه عندما اقترب قتيبة من الصين

---

(٦٦) اليعقوبي : **تاريخ** : ٢/ ٢٨٦ .

(٦٧) يقارن : شعبان ، **الثورة العباسية** ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٦٨) اليعقوبي ، **تاريخ** : ٢/ ٢٨٦ ؛ البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٣٩١- ٣٩٢ ، الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ١٢٣٥ .

(٦٩) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٤١٠- ٤١١ ؛ الطبري ، **تاريخ** : ٢/ ١٢٣٦- ١٢٤٠ ، ١٢٤١ فما بعدها ؛ ابن الاثير ، **الكامل** : ٤/ ٥٧٠ - ٥٧٥ .

أرسل اليه ملكها الهدايا ، وطلب ان يبعث اليه بوفد من قبله يُعرِّفه بالمسلمين. وقد أرسل قتيبة الوفد المطلوب ، وأمرهم أن يعلموا ملك الصين أن قتيبة قد أقسم أن لاينصرف عن بلادهم حتى يطأها ، ويختم ملوكهم ، ويجبي خراجهم . وقد نجح الوفد في مهمته ، وأرسل معهم ملك الصين الهدايا الى قتيبة . (٧٠) ويبدو ان الظروف لم تكن ملائمة حتى يستكمل قتيبة تقدمه في الصين بسبب وفاة الخليفة الوليد بن عبدالملك . ومع ذلك فقد كان لجهوده الموفقة في حمل رايات الاسلام الى هذه المناطق البعيدة اعظم الاثر في انتشار مراكز جديدة للثقافة العربية الاسلامية في وسط آسيا . كما قوّت ومكنت العلاقات والاتصالات بين العرب والصين. (٧١)

لقد وضعت خلافة سليمان بن عبدالملك (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٧ م) حداً فاصلاً للعمليات العسكرية في جبهة ماوراء النهر، لأن قتيبة كان يخشىٰ من سليمان لانه أجاب هو والحجاج الخليفة الوليد في محاولة نزع سليمان عن ولاية العهد . ومع أن سليمان أقر قتيبة في ولايته على خراسان ، ولكن الأخير شعر أن هذا اجراء مؤقت وان الخليفة الجديد لابد وأن ينتقم منه . (٧٢) ولهذا أعلن قتيبة التمرد على الخليفة على أمل ان يؤيده رجاله وانصاره في خراسان. لكن جيشه انقلب عليه ، واعلنت القبائل العربية ولاءها للخليفة سليمان بن عبدالملك ، وانتهت حياة قتيبة بن مسلم نتيجة هذا التمرد الفاشل :

كان مقتل قتيبة خسارة كبيرة للمسلمين ، لانه يعد من اعظم قادة حركات التحرير والفتوح العربية الاسلامية . وليس أدل على عظم قدرتهمن ان العمليات العسكرية لم تمتد في هذه الجبهة الشرقية اكثر مما امتدت اليه في عهده . والحق ان ماقام به قتيبة يعد عملاً فريداً في تاريخ العرب العسكري ، ففضلاً عن براعته العسكرية التي قادته الى تلك الانتصارات المتلاحقة في جبهة المشرق ، تميز هذا القائد ببراعة سياسية وادارية مكنّته من أن يستثمر الخلافات الموجودة بين امراء وملوك ماوراء النهر، وان ينتفع من هذه العداوة الطبيعية بين هؤلاء ، ليستولي على ممالكهم الواحدة تلو الاخرى . كما انه لم يكن يخلع ملوك البلاد التي يفتتحها ، بل كان يبقي الكثير منهم لينفذ ارادته الكاملة عليهم . يضاف الى ذلك انه اعتمد ايضاً على معاونة السكان المحليين وتقرب اليهم ، بل واستخدمهم في جيشه ، وفي حرسه الخاص ، مما كان له اثر واضح في نجاحه في تحقيق معظم انتصاراته في

---

(٧٠) الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٢٧٧ - ١٢٧٩ ؛ ابن الاثير، الكامل : ٥/ ٥ - ٧.

(٧١) يقارن : سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

(٧٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤١٢ ؛ الطبري ، تاريخ : ٢/ ١٢٨٦ .

المشرق. ويجب أن لاننسى ايضاً الدعم الذي كان يلقاه قتيبة من الحجاج بن يوسف. وكان عرب خراسان يشعرون بهذا الدعم، فلا يجدون سبيلاً الى مخالفته أو الانشقاق عليه.

اختلفت سياسة الدولة الاموية بشأن الاستمرار في القيام بالعمليات العسكرية بعد وفاة الخليفة الوليد الاول ابن عبد الملك، لاسيما في عهدي الخليفة سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز. فقد امتنع يزيد بن المهلب الذي عُين والياً على العراق وخراسان، عن القيام بحملات في بلاد ماوراء النهر. وفي هذا اشارة الى السياسة الجديدة التي بدأها سليمان، والتي اعلنها من بعده عمر بن عبد العزيز صراحة، وتنص على وجوب الانسحاب الكامل من كل بلاد ماوراء النهر. وربما كان السبب في هذه السياسة برأي الخليفة عمر، ان العرب يجب أن يعملوا على تثبيت اقدامهم في المناطق التي وصلوا اليها سابقاً قبل القيام بأي تحرك عسكري جديد[٧٣]. ويدل على هذا ايضاً مخالفة يزيد بن المهلب لخطة قتيبة بن مُسلم في التوغل في اواسط اسيا، وتوجه اهتمامه الى مناطق اخرى تقع في الطريق بين العراق وخراسان، وهي جرجان وطبرستان، حيث كانت هذه المناطق تهدد مؤخرة الجيش العربي في خراسان، وتقطع مواصلاته مع العراق[٧٤]. وقد أصاب يزيد بعض النجاح في هذه السياسة[٧٥]. الا أنها لايمكن ان تقارن بما حققه قتيبة في اواسط اسيا من انتصارات مثلت ذروة العمليات العسكرية في الجبهة الشرقية في العصر الاموي.

---

(٧٣) يقارن: شعبان، **الثورة العباسية**، ص١٤٣ - ١٤٤.

(٧٤) الطبري، **تاريخ**: ٢/ ١٣٢٧.

(٧٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص٣٣١ - ٣٣٣.

ثالثاً : الجبهة الغربية : -

- تحرير المغرب العربي :

استخدم المؤرخون والجغرافيون العرب مصطلح المغرب لوصف معظم المناطق التي تمتد من حدود مصر الغربية حتى شواطئ المحيط الأطلسي.[٧٦] وهو بهذا مرادف لمصطلح شمال افريقيا، باستثناء مصر، حيث يضم المناطق التي تقع اليوم ضمن ليبيا وتونس والجزائر والمغرب. ولقد عمل الامويون على تحرير هذه المناطق منذ عهد الخليفة الأول معاوية بن أبي سفيان، وكانت محاولاتهم هذه استكمالاً للمحاولات السابقة التي جرت ايام الخلفاء الراشدين. واذا مابحثنا عن العوامل التي دفعت العرب الى هذه الفتوح، لانجد خطاً فاصلا بينها وبين فتوح المشرق. ذلك لان رسالة العرب واحدة تكمن في نشر مبادئ الاسلام بين الشعوب المجاورة، وتحريرها من السلطة الاجنبية، وهي نابعة من حقيقة شعورهم بمسؤوليتهم ازاء هذه الشعوب، لأنهم حملة رسالة سماوية مقدسة. ومع ذلك تبقى للمغرب خصوصية معينة حفزت الأمويين على مد نشاطهم العسكري اليه. فلقد انجز العرب تحرير مصر في عهد الراشدين، وكان لابد من الحفاظ على ماحققوه في مصر، ولم يكن ذلك ليتم دون القضاء على كل خطر محتمل يهدد سلامة الوجود العربي فيها. وكان الخطر يكمن في قوة البيزنطيين البحرية وفي وجود قواعدهم الحصينة في المغرب، وهذا بطبيعة الحال، يهدد الوجود العربي في مصر، فكان لابد من اتخاذ اجراءآت حاسمة تدفع الخطر عن مصر، وتحافظ على ماحققه العرب من انجازات في بلاد الشام ومصر.

أ- المحاولات الاولى لتحرير المغرب : -

ابتدأت المحاولات الأولى لتحرير المغرب في عهد الراشدين، فبعد انجاز تحرير مصر، حاول القائد عمرو بن العاص ان يقود حملة الى منطقة ليبيا الحالية. وقد تكللت حملته هذه بالنجاح واستطاع ان يعقد الصلح مع السكان الاصليين، ويضطرهم لدفع

---

(٧٦) ينظر : محمد بن علي بن حوقل، **صورة الأرض**، (بيروت، دار مكتبة الحياة، ٩٧٩)، ص ٦٤- ٦٥؛ ابو عبدالله محمد الشافعي المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، نشر: دي غوية (ليدن، ٩٦)، ص ٢٦؛ ابو العباس احمد بن محمد بن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب**، نشر: كولان وليفي بروفنسال (ليدن، ١٩٤٨: ١/ ٥.

الجزية.[٧٧] كما أرسل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه حملة اخرى الى المغرب بقيادة عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، كان هدفها على مايبدو القضاء على قوة البيزنطيين الرئيسة في منطقة افريقية (تونس الحالية). وقد انتصرت هذه الحملة فعلاً على الحاكم البيزنطي جرجير Gregary في سبيطلة التي تقع الى الجنوب الغربي من مدينة القيروان الحالية. ولكن البيزنطيين فاوضوا ابن ابي سرح ، ودفعوا له مبلغاً كبيراً من المال مقابل مغادرة العرب للبلاد ، وقد وافق على ذلك ورجع الى مصر عام ٢٨ هـ / ٦٤٨ م.[٧٨]

يتضح مما تقدم ان حملة عمرو بن العاص الى ليبيا لم تكن اكثر من حملة صغيرة قصد منها جس النبض والاستطلاع ، ولم يرافقها اي استقرار للعرب في المناطق التي دخلوا اليها. كذلك كانت حملة ابن ابي سرح لاتعدو أن تكون غارة طويلة لم تحقق نتائج حاسمة على المدى البعيد ، لاسيما وأن البيزنطيين كانوا يملكون قواعد مهمة اخرى على الساحل مثل قرطاج وغيرها ، وان التقدم نحو هذه القواعد كان يتطلب قوة بحرية واسطول عربي فعال ، الامر الذي لم يكن في حوزة العرب آنذاك.

ومما زاد في تجميد الوضع العسكري في جبهة المغرب ، حدوث الحرب الأهلية الاولى وقيام الفتنة بعد استشهاد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، مما شغل العرب عن القيام بأية حملات الى المنطقة لمدة ثلاثة عشر عاماً. ولكن بعد انتهاء الفتنة واستلام معاوية بن ابي سفيان امور الخلافة سنة ٤١ هـ / ٦٦١م ، ابتدأ العرب موجة جديدة من حروب التحرير في المغرب. فخرجت عدة حملات من مصر ، كان أهمها الحملة التي قادها معاوية بن حديج السكوني. وعلى الرغم من انتصار هذه الحملة في عدة مواقع على البيزنطيين[٧٩]. لكنها ايضا رجعت الى مصر ، ولم يحاول قائدها الاستفادة من انتصاراته العسكرية. ويحتمل ان العرب لم يفكروا بشكل جدي حتى ذلك الوقت في الاستقرار في شمال افريقيا. بل كان همهم الرئيس موجها الى تأمين سلامة حدود مصر الغربية.

---

(٧٧) ابن عبدالحكم ، **فتوح مصر واخبارها** ، ٧ - ٧ ؛ البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٢٢٥ - ٢٢٧ ؛ الطبري ، **تاريخ**: / ٢٦٤٥ ؛ ابن عذاري ، **البيان المغرب** : ١ / ٨.

(٧٨) ابن عبدالحكم ، **فتوح مصر واخبارها** ، ص ١٨٣ ؛ البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ؛ ابن عذاري ، **البيان المغرب** : ١ / ١٠ - ١٤

(٧٩) ابن عبد الحكم ، **فتوح مصر واخبارها** ، ١٩٣ ؛ البكري ، المغرب ص ٣٢ ، ٥٨ ؛ ابن عذاري ، **البيان المغرب** : ١ / ١٦.

ب- المحاولات الجادة لتحرير المغرب وتثبيت الوجود العربي فيه :-

يمكن أن نَعدّ تعيين عقبة بن نافع الفهري سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م على ولاية افريقية بداية لمحاولات الأمويين الجادة في مجال تحرير المغرب. فلقد اتبع هذا القائد الذي تمرس في شؤون المنطقة، وشارك في الكثير من الحملات السابقة، سياسة ناجحة في دفع حركات التحرير في هذا الاتجاه. وكانت سياسته تقوم على التعاون مع سكان البلاد المحليين من القبائل المغربية (البربر)؛ ومن ثم مشاركتهم في تحرير بقية المناطق من النفوذ البيزنطي. وكان عقبة بن نافع يدرك نتيجة لخبرته الطويلة في المنطقة أهمية الحاجة الى استقرار العرب في المغرب ليضمنوا عدم تمرد السكان المحليين في حالة انسحابهم. وكذلك فإن انشاء قاعدة عسكرية تضم الحامية العربية، سوف يضمن سلامة القوات العربية، فضلاً عن استخدام هذه القاعدة مركزاً تنطلق منه جيوش التحرير الى المناطق غير المفتوحة، ولنشر الدين الاسلامى بين السكان المحليين.

ولهذه الاسباب كلها قاد عقبة حملة الى جنوبي تونس الحالية سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م، ثم ابتدأ بتأسيس مدينة القيروان. ومن العوامل التي اكد عليها العرب في اختيار موقع المدينة، بعدها عن البحر لضمان سلامتها من اي هجوم مفاجئ قد يقوم به البيزنطيون عليها، كذلك تحروا أن يكون موقعها في منطقة خصبة معشبة لترعى ابلهم فيها.[٨٠] وكان تخطيط المدينة بسيطاً يتضمن المسجد الجامع، ودار الامارة، وحولها منازل القبائل العربية التي شكلت قوة الجيش الرئيسة المرافقة لعقبة. وقد استغرقت عملية البناء نحو خمس سنوات، حيث تم بناءها في سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٥م.[٨١]

وقد سار ابو المهاجر دينار، الوالي الذي خَلَفَ عقبة على افريقية على سياسة التقرب من السكان المحليين بعد أن أظهر لهم قوة العرب. فاستطاع ان يقوم بحملة على غرب الجزائر الحالية، التقى فيها بالزعيم البربري كسيلة بن لَمزم، ونجح في كسبه الى جانب

---

(٨٠) ينظر: البكري، **المغرب**، ص ٢٤؛ ابو بكر عبدالله بن محمد المالكي، **رياض النفوس**، تحقيق، حسين مؤنس (القاهرة، ١٩٥١): ١/ ٦- ٧، ٢١؛ ياقوت، **معجم البلدان**: ٤/ ٤٢٠- ٤٢١؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**: ١/ ١٩- ٢٠

(٨١) الطبري: **تاريخ**: ٢/ ٩٣- ٩٤؛ المالكي، **المصدر السابق**: / ٧؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**: ١/ ٢٠- ٢١.

العرب ، حيث اعتنق الاسلام ، ورافق ابي المهاجر دينار في عودته الى القيروان .[٨٢]
ويبدو أن ابا المهاجر وفر لكسيلة واتباعه شروطا جيدة للصلح ، وعاملهم على قدم المساواة مع العرب ، لأنه كان ينوي انشاء جيش من السكان المحليين يساعد العرب في عملياتهم العسكرية لتحرير المغرب . ولكن عزل ابي دينار المفاجئ سنة ٦٢ هـ / ٦٨١ م ، واعادة تعيين عقبة بن نافع عطل هذه السياسة قليلاً ، لأن عقبة ابتدأ يشك في نوايا السكان المحليين ، لاسيما كسيلة ، فأساء معاملتهم ، مما أثار حفيظة هؤلاء ، ودفعهم للتمرد على العرب والقضاء على الانجازات التي حققها عقبة نفسه . وقد اندفع عقبة في سياسته لتحرير المغرب ، فسار في حملة عسكرية ضخمة حتى وصل الى ساحل المحيط الأطلسي . ولكن خطته هذه لم تنجح ، لانها لم تكن مصحوبة بالتحرير المنظم أو الاستقرار المستمر . وقد استطاع السكان المحليون بقيادة كسيلة أن يقضوا على عقبة ، ونخبة من جيشه في اثناء عودته في جبال الاوراس .[٨٣] وكان من نتيجة استشهاد عقبة ورجاله ان اضطر العرب لترك ولاية افريقية ، وأن يخلو مدينة القيروان ذاتها ، ويتجهوا الى مصر في عام ٦٥ هـ / ٦٨٤ .[٨٤] وقد سيطر كسيلة واتباعه من السكان المحليين على القيروان ، بينما أحكم البيزنطيون سيطرتهم على السواحل .

وعلى الرغم من انشغال الخلافة الاموية بحركة ابن الزبير ، فقد أدرك الخليفة عبدالملك بن مروان اهمية استكمال تحرير المغرب ، وضرورة استعادة القيروان ، فعين زهير ابن قيس البلوي والياً جديداً على افريقية . وقد استطاع زهير أن يستعيد مدينة القيروان من كسيلة ، كما استولى على عدة حصون بيزنطية ايضا .[٨٥] وعلى الرغم من انتصار زهير ، لكنه لم يهاجم الحصون البيزنطية على الساحل بسبب افتقاره الى الاسطول ، فرجع الى برقة

---

(٨٢) المالكي ، **المصدر السابق** : ١/ ٢١ ، ٢٥ – ٢٦ ؛ ابن عذاري ، **البيان المغرب** : ١/ ٢٨ – ٢٩ ؛ عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر** (بيروت ، ١٩٥٦ – ١٩٦١) : ٦/ ٢٩٧

(٨٣) ابن عبد الحكم ، **فتوح مصر** ، ص ١٩٨ – ٢٠٠ ؛ البكري ، **المغرب** ، ص ٧٤ ، ١٠٨ – ١٠٩ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ؛ ابن عذاري ؛ **البيان المغرب** : ١/ ٢٤ – ٢٩ .

(٨٤) ابن الاثير ، **الكامل** : ٤/ ١٠٨ ؛ ابن عذاري ، **البيان المغرب** : ١/ ٣١ ؛ ابن خلدون ، **العبر**: ٤/ ٤٠٠.

(٨٥) المالكي ، **المصدر السابق** : ١/ ٣٠ ؛ الرقيق القيرواني ، **تاريخ افريقية والمغرب** ، ص ٥٠ ؛ ابن عذاري ، **البيان المغرب** : ١/ ٣١ – ٣٢ ؛ عبيدالله بن صالح « نص جديد عن فتح العرب للمغرب » ، تحقيق ، ليفي بروفنسال ، **مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد** ، **العدد ٢** ، **١٩٥٤** ، ص **٢٢١** .

بشكل مفاجئ بعد ازدياد خطر البيزنطيين عليها ، لكن هؤلاء تمكنوا من التغلب عليه مما أدى الى استشهاده مع مجموعة من جنده بالقرب من هذه المدينة .[86]

وبعد استشهاد زهير تبين للخليفة عبد الملك بن مروان أهمية الخطر البيزنطي ودوره في اعاقة استكمال تحرير المغرب ، فقد كان البيزنطيون يتركزون في مواقع حصينة على الساحل مثل قرطاج ، وصطفورة ، وبنزرت . لهذا فقد أولى الخليفة عنايته لمقاومة هذا الخطر ، بتجهيز جيش عربي كبير من نحو أربعين الف رجل معظمهم من جند الشام ، فأمر بقيادته الى حسان بن النعمان الغساني[87] وقد سار هذا الجيش الى مصر حيث التحقت به امدادات اخرى ، ثم دخل حسان القيروان ، ومنها توجه الى قرطاج قاعدة البيزنطيين ، فهاجمها وحررها ، وكذلك هاجم مدناً اخرى ، مثل بنزرت ، وصطفورة . وكان من نتيجة جهود حسان بن النعمان أن تضاءل الخطر البيزنطي في شمال افريقيا . ولكن من جهة اخرى ، ظل خطر بعض السكان المحليين الذين تعاون بعضهم مع البيزنطيين ، لاسيا قبيلة جراوة البربرية . وقد قاومت زعيمة هذه القبيلة ، وتدعى الكاهنة حساناً وهزمته مما أدى الى انسحابه الى طرابلس .[88] وبعد انتصار الكاهنة على حسان ، أشاعت الدمار والخراب في المغرب ، لاسيا في الأرياف حتى لايبقى للعرب رغبة في العودة . لكن هذه السياسة بالذات جلبت النقمة على الكاهنة من قبل السكان المحليين الذين طالبوا العرب بالرجوع الى البلاد ، وأبدوا استعدادهم لمساعدتهم في حربهم المقبلة مع الكاهنة . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى وصلت امدادات جديدة الى حسان مما هيأ الظروف لتجريد حملة اخرى على الكاهنة والانتصار عليها .[89]

وهكذا اسفرت جهود حسان بن النعمان عن انهاء مقاومة الكاهنة ، وكذلك عن تقليص الخطر البيزنطي ، ولكن كان لابد من حماية هذه الانجازات . ولهذا فقد قرر حسان

---

(٨٦) ابن عبدالحكم ، **فتوح مصر**، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ؛ عبيدالله بن صالح ، **نص جديد**، ص ٢٢ ؛ ابن خلدون ، **العبر**: ٤/ ٤٠٠ .

(٨٧) **ابن الاثير، الكامل** : ٤/ ٣٦٩ ؛ **ويقارن** : **ابن عبد الحكم ، فتوح مصر**، ص ٢٠٠ - ٢٠٣ ؛ عبيد الله بن صالح ، **نص جديد**، ص ٢٢١ ؛ ابن عذاري ، **البيان المغرب** : ١/ ٣٤ .

(٨٨) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر، ص ٢٠٠ ، البكري ، **المغرب** ، ص ٧ - ٨ ؛ ابن عذاري ، **البيان المغرب** : ١/ ٣٥- ٣٦ ؛ ابن خلدون ، **العبر**: ٤/ ٤٠ ، ٦/ ٢١٨ .

(٨٩) ابن عبد الحكم ، **فتوح مصر**، ص ٢٠ ؛ الرقيق القيرواني ، **تاريخ افريقية والمغرب** ، ص ٦١ - ٦٢ ؛ ابن عذاري ، **البيان المغرب** : ١/ ٣٧ - ٣٨ ؛ محمد بن ابي القاسم المعروف بابن ابي دينار، **المؤنس في اخبار افريقية وتونس** ، تحقيق ، محمد شمام ، (تونس ، ٩٦٧) ، ص ٣٥ .

ان يكسب السكان المحليين، ويزيد من الاختلاط بهم، ودمجهم مع العرب، وذلك بمعاملتهم معاملة حسنة. كما وجه اهتمامه الى نشر الاسلام فيما بينهم بواسطة الوفود والدعاة الذين أرسلوا الى مختلف القبائل المغربية، فدخل الكثير منهم الى الاسلام، وتم تجنيد اثني عشر الف جندي من السكان المحليين في الجيش العربي الاسلامي. ولقد فُرض لهؤلاء في العطاء، كما منحوا ايضا نصيباً مساوياً لما سيأخذه المقاتلة العرب من الغنائم في العمليات العسكرية اللاحقة.(٩٠) وهكذا ضمن العرب ولاء السكان المحليين، ومساعدتهم في استكمال تحرير بقية اجزاء المغرب من النفوذ البيزنطي.

أما بالنسبة لاجراءآت حسان لصد خطر البيزنطيين، فقرر أن ينشىء مدينة تونس لتكون قاعدة للاسطول العربي في شمال افريقيا. وقد استعان بالأيدي العاملة من مصر لانشاء صناعة عربية للسفن تكون نواة للاسطول العربي في المغرب. واستطاعت هذه القوة البحرية الجديدة ان تجبر البيزنطيين على اخلاء معظم مواقعهم الحصينة في الشمال الافريقي.(٩١)

ج- تعيين موسى بن نصير على افريقية واستكمال تحرير المغرب :-

عين موسى بن نصير خلفاً لحسان بن النعمان على ولاية افريقية سنة ٨٥هـ/٧٠٤م، فسار على سياسة سلفه التي تقوم على التعاون مع السكان المحليين من جهة، والاهتمام بالخطر البيزنطي من جهة ثانية. فوضع حراسة قوية على السواحل ودور بناء السفن من اجل منع اية سفينة بيزنطية من الرسو على الشواطئ المحررة(٩٢). كما وجه عنايته الى القوة البحرية العربية الجديدة التي أصبح لها شأناً كبيراً في هذه الفترة بحيث استطاع العرب أن يرسلوا حملة بحرية ناجحة الى جزيرة صقلية(٩٣).

---

(٩٠) ينظر : ابن عبد الحكم، **فتوح مصر**، ص٢٠١؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**: ٨٣/١؛ عبد الله بن صالح، **نص جديد**، ص ٢٢٣؛ ابن ابي دينار، **المؤنس**، ص ٣٥.

(٩١) البكري، **المغرب**، ص ٣٧-٣٨؛ الرقيق، **تاريخ افريقية والمغرب**، ٦٥-٦٦؛ المالكي، **رياض النفوس**: ٣٧/١؛ ياقوت، **معجم البلدان**: ٦١/٢-٦٢.

(٩٢) ينظر: عبدالملك بن حبيب «استفتاح الاندلس»، تحقيق، محمود علي مكي، **مجلة معهد الدراسات الاسلامية** بمدريد، العدد ٥، ١٩٥٧، ص ٢٢١.

(٩٣) ابن عذاري، **البيان المغرب**: ٤٢/١؛ ابن ابي دينار، **المؤنس**، ص ٣٥-٣٦.

وفي مجال التحرير، سار موسى بن نصير لاستكمال ما ابتدأ به الولاة السابقون، فتوغل في منطقة الجزائر الحالية، ووصل الى المناطق الداخلية للمغرب. كما حرر مدناً عديدة أهمها طنجة التي تقع على الطرف الغربي من المضيق الذي يفصل بين قارتي اوربا وافريقيا، والذي أُطلق عليه فيما بعد اسم مضيق جبل طارق. وقد قاومت مدينة سبتة التي تقع على الطرف الشرقي من المضيق، والتي كانت ماتزال بيد البيزنطيين، لكن موسى تمكن من عقد الصلح مع حاكمها المدعو جوليان، فظل هذا في منصبه مقابل اعترافه بالحكم العربي[٩٤]. كما أقر العرب ايضا زعماء قبائل السكان المحليين في الرئاسة بعد اعتناقهم الاسلام، مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد كافٍ من المقاتلين للانضمام الى الجيش العربي الاسلامي. وبهذا نجح موسى بن نصير في تعزيز عمليات التحرير في المغرب. وقبل ان يعود، وضع حامية من جنده بقيادة طارق بن زياد، الذي عينه عاملاً على مدينة طنجة في حدود سنة ٩٠هـ/٧٠٨م[٩٥] ثم غادر موسى الى القيروان بعد أن انجز تحرير معظم اجزاء المغرب العربي من ليبيا الى المحيط الأطلسي.

٢- فتح الأندلس:

أطلق العرب على الاجزاء التي افتتحوها من شبه الجزيرة الآيبيرية (اسبانيا والبرتغال في الوقت الحاضر) اسم الاندلس. ويُعدّ توجه العرب الى هذه المنطقة نتيجة طبيعية من نتائج استكمال تحرير المغرب العربي، وهو ايضا ثمرة السياسة الحكيمة التي اتبعها العرب مع السكان المحليين في شمال افريقيا، وذلك بالتقرب اليهم، واشاعة المساواة معهم، ومن ثم التعاون سوية في سبيل استكمال تحرير المغرب. وبعد ان تمت هذه الخطوة، أصبح الجو مهيئاً بينهما لعمل مشترك في خدمة الدولة العربية الاسلامية، وذلك بالعبور الى قارة اوربا، وافتتاح الاندلس، وتخليصها من حكم القوط الغربيين.

كان نظام حكم القوط الغربيين ملكياً قائماً على الاستبداد، ويساعد الملك في الحكم مجالس كنيسة طليطلة، والتي كانت بمثابة جمعيات وطنية لمملكة القوط الغربيين. وكان النظام الاجتماعي في هذه الدولة قائماً على الطبقات. ويأتي على رأس هذه الطبقات ،

---

(٩٤) ينظر: ابن خلدون ، **العبر**: ٦/٤٣٧-٤٣٨.

(٩٥) ينظر : ابن حبيب، **استفتاح الاندلس** ، ص ٢٢٢ ؛ ابن عبدالحكم، **فتوح مصر**، ص ٢٠٤-٢٠٥؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**: ١/٤٢؛ عبيدالله بن صالح، **نص جديد** ص ٢٢٤.

طبقة النبلاء ورجال الدين وكبار ملاك الأراضي، ثم طبقة العامة، واخيراً طبقة العبيد التي تأتي في نهاية السلم الاجتماعي. ولقد ادت الظروف الاقتصادية السيئة التي كان يعيش في ظلها العبيد والكثير من افراد الطبقة العامة الى تفكك المجتمع وانهياره. يضاف الى ذلك حالة العصيان والمؤامرات المستمرة التي كان يقوم بها النبلاء من اجل الوصول الى العرش، أو الانسلاخ عن المملكة والحصول على الاستقلال، انهكت البلاد وأوصلتها الى حالة يرثى لها من التردي والضعف. ولقد حدث قبيل الفتح العربي للاندلس بسنة واحدة تقريباً أقوى وأقسى تنافس على السلطة في البلاد ادى الى زيادة حالة الضعف والتفكك، وسهل للعرب امر القضاء على دولة القوط الغربيين[٩٦].

لقد كانت القوات التي وُضع طارق بن زياد على رأسها في طنجة تتمتع بحماس لانظير له في استمرار عمليات الجهاد. ونظراً لطبيعة المنطقة الجغرافية، المتواجدين فيها، لم يكن امامهم سوى التوجه بانظارهم الى شبه الجزيرة الآيبيرية، لاسيما وأن مناطق الجنوب كانت صحراوية لاتشجع على التوغل فيها. يضاف الى ذلك ان هؤلاء الجنود من القبائل المغربية كانوا على اتصال دائم مع السواحل الاسبانية لقربها، وكانوا ايضا على علم تام ومعرفة اكيدة بمدى خصب شبه الجزيرة وغناها، وعن خطورة مشاكلها الاجتماعية والسياسية، وضعف دولة القوط الغربيين بصورة عامة. ولقد شجعت هذه العوامل المسلمين على التفكير بفتح الاندلس وضمها الى حظيرة المناطق التي تم تحريرها في المغرب العربي.

ابتدأت فكرة الفتح بالتشاور بين قائد حامية طنجة طارق بن زياد، والحاكم البيزنطي السابق في سبتة، جوليان، الذي ابتدأ بالميل الى المسلمين والتعاون معهم بعد أن شعر بتنامي قوتهم وقدرتهم. فجرت بينه وبين طارق اتصالات عديدة بشأن الموقف في الأندلس، احيط بها علماً على الاغلب القائد العام موسى بن نصير في القيروان، على الرغم من أن بعض المصادر ترجح عدم معرفة موسى بخطط طارق، اول الأمر، وان الاخير عبر دون علمه أو موافقته[٩٧]. ومن جهة اخرى، تؤكد بقية المصادر اطلاع موسى على

---

(٩٦) ينظر: طه، **الفتح والاستقرار**، ص ٧٥-٩١.

(٩٧) ابن عبد الحكم، **فتوح مصر**، ص ٢٠٥-٢٠٧؛ الرقيق القيرواني، **تاريخ افريقية والمغرب**، ص٧٤؛ محمد بن ابي نصير الحميدي، **جذوة المقتبس** (القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦)، ص ٢٤٨.

الأمر، ومراسلاته بشأنه مع السلطة المركزية في دمشق، التي اعطت الضوء الأخضر للعملية، شريطة اختبار المنطقة بالسرايا[٩٨].

وعلى اي حال، فإن المتفق عليه ان طارقاً هو الذي ابتدأ المراحل الاولى للفتح، وذلك بسبب موقعه السوقي (الاستراتيجي) على المضيق الذي يفصل بين قارة افريقيا واوربا. وقد تم ذلك في رمضان في سنة ٩١هـ/ آب- ايلول ٧١٠م، وذلك بارسال حملة استطلاعية بقيادة ابو زرعة طريف بن مالك المعافري الذي عبر المضيق مع اربعمئة راجل ومئة فارس على متن أربعة مراكب هيئت من قبل جوليان، ونزلت على الشاطئ الاسباني في منتصف المضيق، في مكان أطلق عليه اسم قائد الحملة طريف Tarifa. وقد تكللت جهود هذه الحملة بالنجاح، مما شجع طارق على المضي في خطة الفتح.

أ- حملة طارق بن زياد:-

وفي السنة التالية ، رجب ٩٢هـ/ نيسان ٧١١م، قاد طارق بن زياد بنفسه حملة الى الأندلس، تألفت من مجموعات من العرب والقبائل المغربية ، يقدر عددهم باثني عشر الف رجل[٩٩]. وقد نزلت الحملة على صخرة تسمى جبل كالبي Mons Calpe، التي اتخذت اسم طارق منذ ذلك اليوم، فأصبحت تسمى بجبل طارق Gibraltar، وكان هدف طارق الأول، السيطرة على الجانب الاسباني من المضيق، من اجل حماية مواصلاته مع المغرب.

---

(٩٨) ينظر: ابو بكر محمد بن عمر بن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس**، نشره وترجمه الى الأسبانية، خوليان رايبيرا (مدريد، ١٩٢٦)، ص ٨؛ **اخبار مجموعة**، ص ٥-٦؛ **فتح الاندلس**، ص ٢، ٤-٥؛ عبدالملك بن الكردبوس، «**الاكتفاء في** اخبار الخلفاء، تاريخ الاندلس»، تحقيق ، احمد مختار العبادي ، **صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد**، العدد ١٣، ١٩٦٥-١٩٦٦، ص ٤٥-٤٦؛ ابن الأثير، **الكامل**: ٥٦١/٤؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**: ٢/ ٥-٦.

(٩٩) الرقيق القيرواني، **تاريخ افريقية والمغرب**، ص ٩؛ ابن الكردبوس، **تاريخ الاندلس**، ص ٤٦؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**: ٩/٢.

وقد تحقق ذلك بالفعل، حينما قامت كتيبة عربية بقيادة عبدالملك بن عامر المعافري، بالاستيلاء على المناطق المجاورة للجبل، والمضيق، والجزيرة الخضراء Algeciras، فأصبحت خطوط مواصلات الحملة مؤمنة على الجانب الافريقي[١٠٠].

وبعد شهرين ونصف تقريباً من نزول طارق، وقعت المعركة الفاصلة بينه وبين لذريق Roderic، آخر ملوك القوط الغربيين. وكان هذا الأخير قد زحف الى الجنوب، بعد سماعه بنزول المسلمين، مصطحباً معه جيشاً يتراوح عدده بين اربعين الى مئة الف رجل[١٠١] وتقابل الجيشان في كورة شذونة جنوب غرب اسبانيا، فدارت بينهما معركة حاسمة استمرت ثمانية ايام، كان نتيجتها ان انهزم القوط، وتكبدوا خسائر فادحة. لكن مصير لذريق لم يكن معروفاً، فتذكر بعض المصادر انه قتل، بينما تكتفي المصادر الاخرى بالقول انه اختفى، ولايُعرف ماحل به، فربما غرق في نهر أو مستنقع[١٠٢].

وبعد القضاء على قوة القوط الرئيسة، كان هدف طارق المباشر أن يلاحق فلولهم المنهزمة، وأن ينهي مقاومتهم، فسار الى مدينة استجة Ecija التي تجمع فيها قسم من الجيش القوطي. وفي طريقه الى هذه المدينة افتتح طارق مورور Moron de la Frontera ثم عسكر قرب استجة وحاصرها، وتمكن من دخولها، وغنم رجاله في هذه المعركة عددا كبيرا من الخيول التي كانوا بحاجة اليها، أما بقية فلول القوط، فقد انهزمت الى الجبال، وبقية المدن الحصينة الاخرى[١٠٣]. وقد عمل طارق بنصيحة جوليان، الذي رافق الحملة مع بعض رجاله الذين عملوا ادلاء للمسلمين، فزحف الى طليطلة Toledo، لمنع القوط

---

(١٠٠) ينظر: ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الاندلس**، ص ٩-٨؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**: ٩/٢، ٢٥٦؛ ويقارن: E.Saavedra, **Estudio sobre la invasion de los arabes en Espana**, (Madrid, 1892), p.65

(١٠١) ابن حبيب، **استفتاح الاندلس** ص ٢٢٢؛ **اخبار مجموعة**، ص ٧.

(١٠٢) The chronicle of 754, p. 147(no.34)

وقد نشرت هذه الحولية باللغة اللاتينية ملحقاً لكتاب **اخبار مجموعة** (مدريد، ١٨٦٧). وينظر: ابن عبد الحكم، **فتوح مصر**، ص ٢٠٧؛ ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الاندلس**، ص٧؛ فتح الاندلس، ص ٤٧؛ **اخبار مجموعة**، ص ٩-١٠؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**: ٢/٧-٩.

(١٠٣) **اخبار مجموعة**، ص ٩-١٠؛ ابن الاثير، **الكامل**: ٥٦٣/٤؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**: ٢/٨-٩؛ احمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب**، تحقيق، احسان عباس (بيروت، دار صادر، ١٩٦٨): ١/ ٢٦٠-٢٦١.

من محاولة توحيد صفوفهم، كما أرسل كتيبة مؤلفة من سبعمائة فارس الى قرطبة Cordoba، بقيادة مغيث الرومي [١٠٤]

اتبع طارق الطريق الروماني القديم الى طليطلة، والذي يمر بمدينة جيان Jaen، فعبر نهر الوادي الكبير Guadalquivir، وتقدم الى الشمال. وعندما وصل الى طليطلة، وجدها خالية، الا من بعض اليهود، وان قائد حاميتها قد انسحب الى مدينة اخرى خلف الجبال. فسار طارق لملاحقته، واتخذ طريق مدينة وادي الحجارة Guadalajara، حتى وصل الى مدينة تسميها المصادر العربية بمدينة المائدة. [١٠٥] وهذه المدينة هي في الاغلب مدينة قلعة هنارس Alcal de Hanares التي تقع شمال شرقي مدريد الحالية. وبعد افتتاح هذه المدينة، غنم طارق تحفاً ثمينة جداً، كان الهاربون قد نقلوها من طليطلة، ثم رجع طارق الى طليطلة وذلك في سنة ٩٣ هـ / ٧١٢ م، وقضى فيها فصل الشتاء. [١٠٦]

ب- حملة موسى بن نصير: -

وبعد هذا النجاح الباهر الذي حققه طارق بن زياد في الاندلس، قرر موسى بن نصير أن يلحق به بجيش آخر، حتى يستكمل مابدأ به طارق. وتشير بعض الروايات الى ان طارقاً كان قد كتب الى موسى بن نصير بعد انتصاره على لذريق، يعلمه بالنصر، وربما سأله ايضاً القدوم بامدادات جديدة. [١٠٧] وعلى أي حال، وصل موسى الى الاندلس في رمضان سنة ٩٣ هـ / حزيران- تموز ٧١٢ م. وقد عسكرت حملته لعدة أيام في الجزيرة الخضراء، ثم واصلت السير غرباً، لاستكمال افتتاح الاجزاء التي لم يصل اليها طارق. وكانت اولى المدن الاسبانية التي حاصرتها الحملة، ثم دخلتها عنوة هي مدينة قرمونة Carmona. ثم تلتها قلعة رعواق Alcala de Guadaira، ثم مدينة اشبيلية Sevilla التي قاومت لعدة أشهر، لكنها اخيراً افتتحت عنوة، وفرت حاميتها الى باجة Beja في

---

(١٠٤) **اخبار مجموعة**، ١٣- ١٤؛ **فتح الاندلس**، ص ٨؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**: ٢/ ٩- ١٠؛ **المقري**، **نفح الطيب**: / ٢٦١- ٢٦٣؛ Saavedra,Op. Cit., p 85.

(١٠٥) براجع: ابن الخطيب، **الاحاطة**: / ١٠؛ المقري، **نفح الطيب**: ١/ ٢٧٥.

(١٠٦) ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس**، ص ٩؛ **اخبار مجموعة**، ص ١٤؛ **فتح الاندلس**، ص ٩؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**: ٢/ ١٢؛ المقري، نفح الطيب: ١/ ٢٦٤- ٢٦٥.

(١٠٧) ينظر: **الامامة والسياسة**: ٢/ ٦١؛ ويقارن: حسين مؤنس، **فجر الأندلس**، (القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٩)، ص ٨٩.

جنوب البرتغال الحالية. وقد لاحق موسى فلول المنهزمين غرباً الى لبلة Niebla ، واكشونبة (Faro) Ocsonoba ، وباجة ، واستطاع ان ينتصر عليهم ، ويفتتح مدنهم جميعاً.[108]

وبعد ذلك قرر موسى التوجه الى مدينة ماردة Merida القوية التي كانت تتمتع باسوار عالية حصينة. وفي الطريق افتتح لقنت Fuente de Cantos ، ثم ضرب الحصار على ماردة لعدة أشهر. وقد دارت معارك بين جيش موسى بن نصير وحامية المدينة. ولكن سكان المدينة اضطروا اخيرا الى طلب الصلح ، واستسلمت المدينة في شوال سنة ٩٤ هـ/ تموز ٧١٣ م. وقد رافق هذا الاستسلام عقد معاهدة بين الطرفين وقد ضمنت هذه المعاهدة للمسلمين الاستيلاء على ممتلكات جميع الذين قتلوا من المدافعين عن المدينة، وكذلك اموال القوط الهاربين الى منطقة جليقية Galicia في الشمال الغربي من اسبانيا. يضاف الى ذلك الاستيلاء على اموال الكنائس وذخائرها في المدينة. اما بالنسبة للسكان ، فقد ضمنت لهم المعاهدة الامان ، وعدم التعرض بالاذى لمن يقرر البقاء في المدينة ، او ينوي المغادرة الى أي مكان آخر.[109]

وقبل الاسترسال في عمليات موسى العسكرية ، يحسن بنا التطرق الى دور ابنائه في الفتح ، لاسيما عبدالعزيز بن موسى. فبعد سقوط اشبيلية ، أرسل موسى ابنيه عبدالعزيز وعبدالاعلي الى جنوب ، وجنوب شرق شبه الجزيرة الآيبيرية ، فاستطاع عبدالاعلى ان يفتتح كلاً من مالقة Malaga ، والبيرة Elvira ، وربما كان ذلك بمساعدة أخيه عبدالعزيز. ثم توجه الاخير الى المنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد ، حيث التقىٰ قرب أوريولة Orihuela بالدوق تدمير Theodemir حاكم المقاطعة. وقد قاوم هذا الأخير الفتح العربي ، لكنه توصل اخيراً الى عقد معاهدة مع عبدالعزيز بن موسى في رجب سنة ٩٤ هـ/ ٧١٣ م، حصل بموجبها على شروط مناسبة جداً للصلح. فقد استمر حاكماً على سبع مدن في المنطقة ، مع احتفاظه بالادارة الداخلية لهذه المدن ، والحرية في ممارسة

---

(١٠٨) الغساني ، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٩٩– ١٠٠ (رواية محمد بن مزين) ؛ فتح الاندلس، ص ١٣.

(١٠٩) La Cronica del Moro Rasis(Memoria sobre la autenticidad la Cronica denominada del Moro Rasis). Memorias de la Real Academia de la Historia , VIII, (Madrid, 1852), p. 78;
اخبار مجموعة ، ص ١٨٦٦ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب : ٢/ ١٤– ١٥ ؛ المقري ، نفح الطيب : ١/ ٢٧٠- ٢٧١ ؛ ويقارن ، مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٩٣ .

الشعائر الدينية لاتباعه ، مقابل دفع مبالغ نقدية وعينية معينة للمسلمين، وخضوعهم لنفوذهم الساسي. (110)

وبعد اقرار الامور في المنطقة ، عاد عبدالعزيز بن موسى الى اشبيلية التي تمردت فيها بعض العناصر القوطية القادمة من مدينتي لبلة وباجة ، فقضى على التمرد ، واعاد السيطرة على المدينة ، ثم سار الى لبلة وباجة لتقوية الحاميات العربية فيها . وقد أسندت قيادة حامية باجة الى قائد عربي مشهور هو عبدالجبار بن أبي سلمة الزهري ، الذي كان يتولى قيادة ميسرة جيش موسى بن نصير . (111) وبعد ذلك عاد عبدالعزيز الى اشبيلية ، ومن ثم الى ماردة ، حيث تولى القيادة العامة لكل الأراضي المفتوحة في هذه المنطقة ، وذلك بعد مغادرة والده الى الشمال للالتقاء بطارق بن زياد ، واستكمال فتح المناطق الشمالية . ومن الجدير بالذكر ان عبدالعزيز ربما ابتدأ من هنا حملته لفتح وسط البرتغال ، فدخل عدة مدن ، وعقد معاهدات صلح مع بابرة Evora ، وأشبونة Lisbon ، وقلمرية Caimbra ، وشنترين Santarem . (112)

أما موسى بن نصير، فقد توجه لملاقاة طارق بن زياد بعد سقوط مدينة ماردة بشهر واحد. وقد خرج طارق لاستقباله عند مدينة طلبيرة Talavera ، غربي طليطلة ، ثم مضى موسى وطارق الى طليطلة ، حيث قضيا فصل الشتاء هناك ، وارسلا مبعوثين الى دمشق ، وهما مغيث الرومي وعلي بن رباح اللخمي ، لاعلام الخليفة الوليد بن عبدالملك بنتيجة العمليات العسكرية في الاندلس. (113)

---

(١١٠) احمد بن يحيي الضبي ، بغية الملتمس ، نشر، فرانسكو كوديرا (مدريد ١٨٨٤) ، ص ٢٥٩ ؛ احمد بن عمر العذري ، نصوص عن الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الاثار، تحقيق ، عبدالعزيز الاهواني (مدريد ١٩٦٥)، ص ٤ – ٥ ؛ الحميري ، صفة جزيرة الاندلس، ص ٦٢ – ٦٣ ، ١٥١ – ١٥٢ . La Cronica del Moro Rasis pp.7?

(١١١) المقري ، نفح الطيب : ٣/ ٦٤ .

(١١٢) cf. Saavedra, Op. Cit., p. 127; J.D Garcia Domingues, (Invasao e conquista de Lusitania por Muca Ben Nocair e seu filho Abdalaciz), Congreso de Estadios Arabes elslamicos. Actas, held. Cordoba, 1964, pp. 224–225;

وينظر أيضاً : الغساني ، رحلة الوزير، ص ١٠٠

(١١٣) ابن عبدالحكم ، فتوح مصر، ص ٢ ؛ الامامة والسياسة : ٢/ ٦٢ .

ج- عمليات طارق وموسى المشتركة :-

وفي بداية ربيع عام ٩٤ هـ / ٧١٤ تحركت القوات المشتركة لموسى بن نصير وطارق بن زياد نحو الشمال الشرقي ، لانجاز فتح كل شبه الجزيرة الآيبيرية . فافتتحت مدينة سرقسطة Zaragoza والمناطق المجاورة لها ، ووقع العديد من المدن الاسبانية الاخرى في ايدي العرب ، مثل طركونة Tarragona ، وبرشلونة Barcelona ، ولاردة Lerida ، ووشقة Huesca .وقد ذكر بعض المؤرخين العرب ، إن موسى بن نصير عبر جبال البرت Pyrenese وتوغل داخل فرنسا، وانه أراد أن يكمل زحفه عبر اوربا حتى يصل الى القسطنطينية عن طريق الغرب .(١١٤) ولكن لم يرد ذكر لمثل هذه الفتوح في الحوليات المسيحية المعاصرة ، الأمر الذي لايشجع على الأخذ بمثل هذه الروايات المبالغة في تصوير عمليات موسى بن نصير العسكرية .

وبعد نجاح المسلمين في انجاز افتتاح المناطق الواقعة في الشمال الشرقي ، قرر موسى أن يتوغل في مناطق قشتالة القديمة Castilla la Vieja . ومن المحتمل انه قسم جيشه الى قسمين ، أسندت قيادة الأول الى طارق بن زياد ، أما الثاني ، فظل تحت امرة موسى نفسه .(١١٥) وقد مضى طارق بمحاذاة الجهة الشمالية لوادي نهر الابرة Ebro ، فهاجم منطقة الباسك Basque ، ثم سار الى أماية Amaya ، واسترقة Astorga ، وليون Leon .(١١٦) أما موسى ، فسار ببقية الجيش الى الجنوب من وادي الابرة ، فافتتح حصن باروس Villabaruz ، ثم تقدم الى لك Lugo . ومن هنا أرسل عدة حملات صغيرة الى المناطق المجاورة حتى صخرة بلاي Pena de Pelayo ، وخيخون Gijon على المحيط الاطلسي .(١١٧) وفي اثناء هذه الحملات ، كان موسى وطارق يقومان بوضع حاميات من القوات العربية الاسلامية في المناطق المحررة .

---

(١١٤) ابن حبيب ، **استفتاح الاندلس** ، ص ٢٢٧ ؛ الحميري ، **صفة الاندلس** ، ص ٢٧ ؛ ابن خلدون ، **العبر**: ٤/ ٢٥٥ ؛ المقري ، **نفح الطيب** : ١/٢٧٣- ٢٧٤ ، ٢٧٧ .

(١١٥) Saavedra, **Op. Cit.**, pp. 114-115;
مؤنس ، **فجر الأندلس** ، ص ١٠٤

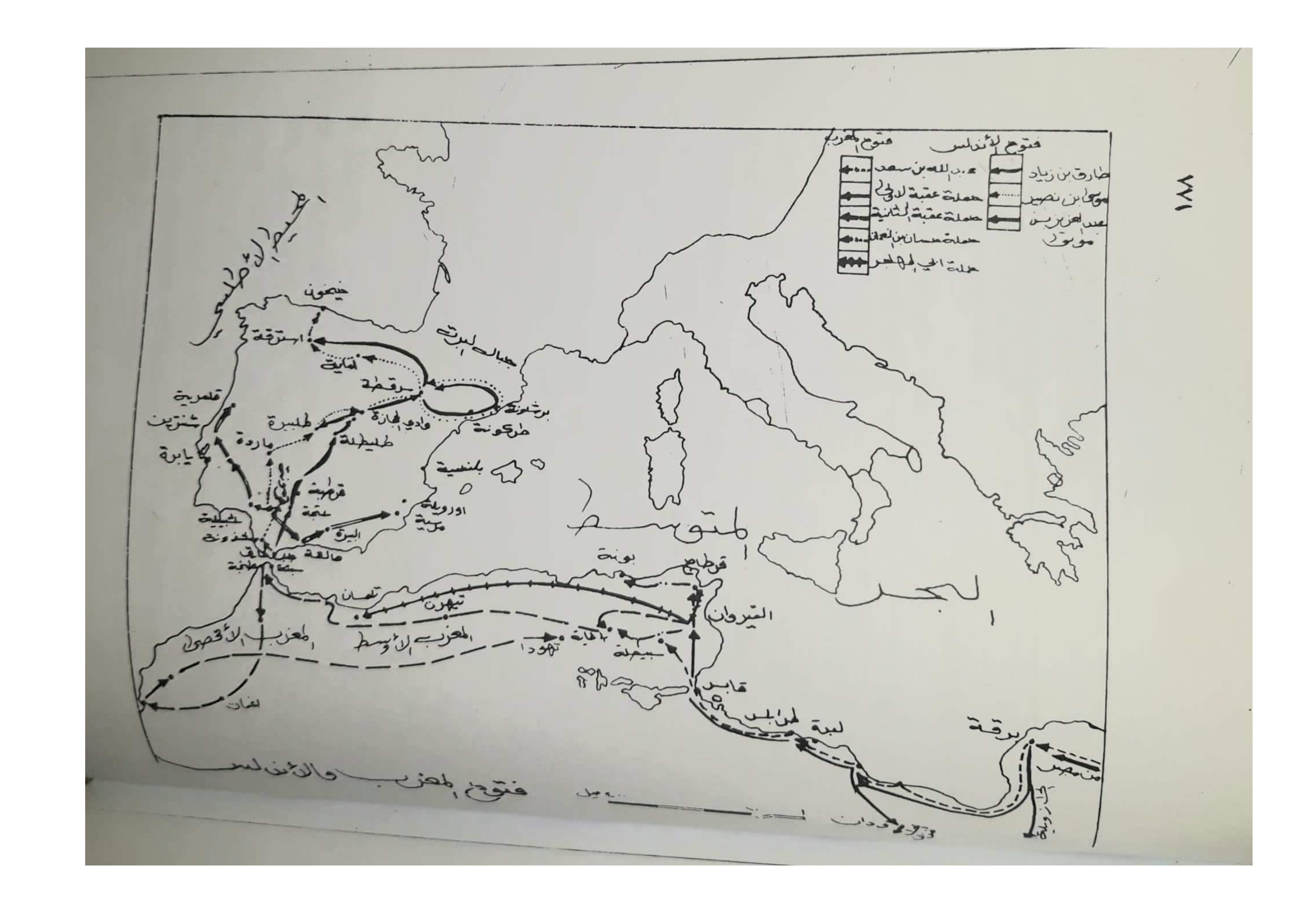
(١١٦) ابن القوطية ، **تاريخ افتتاح الاندلس** ، ص ٩ ؛ **اخبار مجموعة** ، ص ١٥ ؛ ابن الاثير ، **الكامل** : ٤/ ٥٦٤ ؛ المقري ، **نفح الطيب** : ١/ ٢٦٥ .

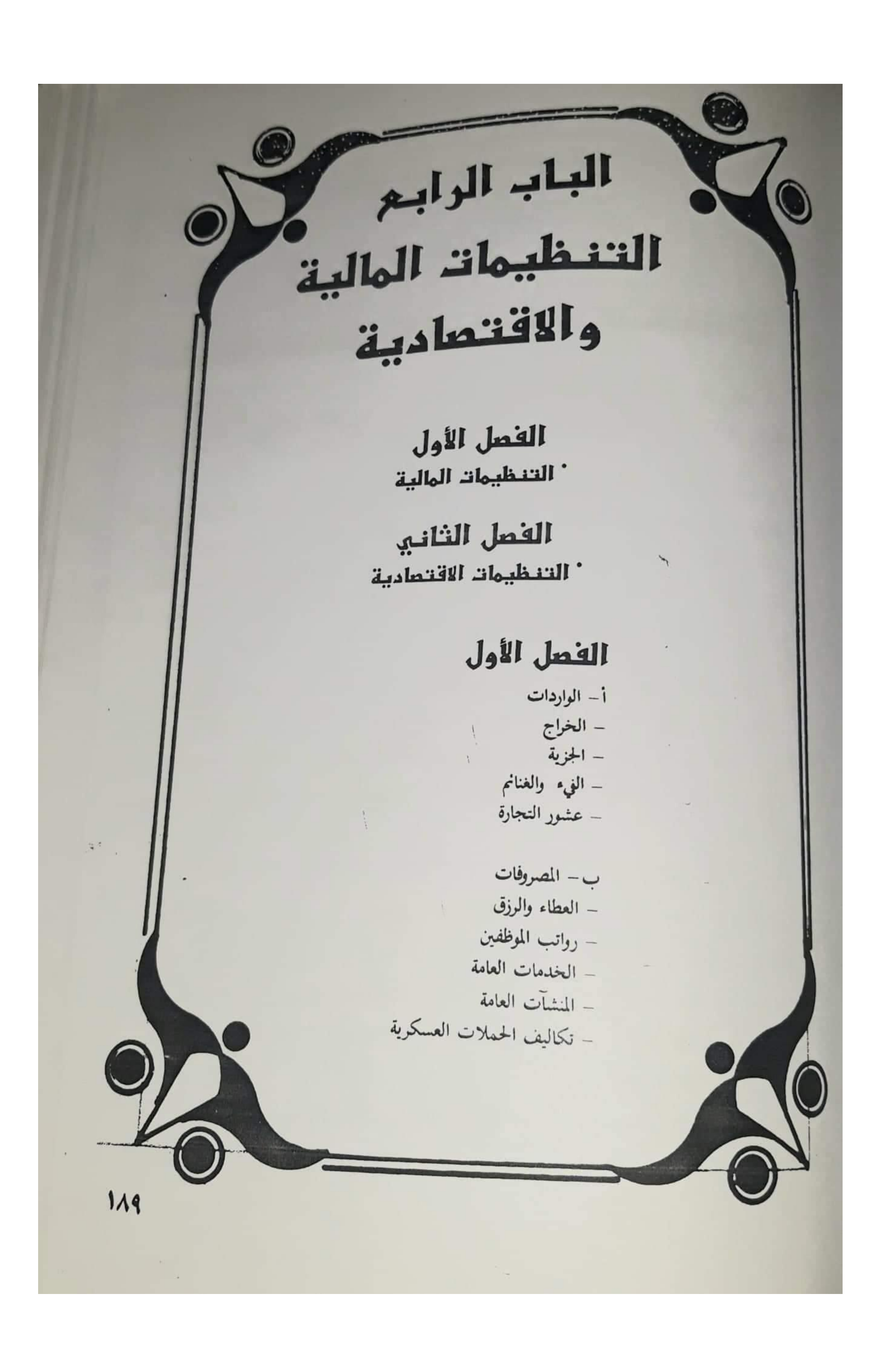
(١١٧) ابن الاثير ، **الكامل** : ٤/ ٥٦٦ ؛ المقري ، **نفح الطيب** : ١/ ٢٧٦ ؛ ويقارن : مؤنس ، **فجر الاندلس** ، ص ١٠٥ ؛ Saavedra, **Op. Cit.**, p. 117

ويحتمل ان تكون عمليات موسى العسكرية قد غطت مناطق اخرى اضافة الى ماذكر اعلاه ، فهناك على سبيل المثال ست مدن تحمل اسم موسى بن نصير في القسم الشمالي من البرتغال . لهذا فإن نشاط موسى لابد ان يكون قد امتد الى هذا المكان ، وانه ربما التقى بابنه عبدالعزيز في شمال البرتغال .(١١٨) ولكن لاتتوفر لدينا أدلة مكتوبة تدعم مثل هذا الاستنتاج . وعلى اي حال ، فقد تمكن موسىٰ وطارق من تحرير معظم جليقية Galicia والاشتوريش Asturias ، وتعقب الفلول الأخيرة لجيش القوط الغربيين ، واضطروها للفرار حتى جبال كانتبريا Cantabrian mountains . وبعد هزيمة هذه البقايا ، اعتقد القائدان انهما قد أنهيا المقاومة القوطية ، وانه لاحاجة لهما لتتبع الاعداد الضئيلة الباقية من المنهزمين ، لاسيما ، وان الخليفة الوليد بن عبدالملك أرسل في استدعائهما الى دمشق ، فرجعا بعد أن عهد موسىٰ الى ابنه عبدالعزيز بادارة الأندلس ، والتي الحقت من الناحية الادارية بولاية افريقية .

---

(١١٨) Garcia Domingues, OP. Cit., pp. 228-229.


فتوح المغرب والأندلس
فتوح الأندلس
طارق بن زياد
موسى بن نصير
عبد العزيز بن موسى
فتوح المغرب
عبد الله بن سعد
حملة عقبة الأولى
حملة عقبة الثانية
حملة حسان بن النعمان
البحر المتوسط
المحيط الأطلسي
جبال البرت
استرقة
برقة
طرابلس
قابس
القيروان
قرطاجنة
بونة
تلمسان
تيهرت
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
طليطلة
سرقسطة
برشلونة
طركونة
بلنسية
قرطبة
ماردة
يابرة
شنترين
قلمرية
طلبيرة
وادي الحجارة
مالقة
اورويلة
مرسية
البيرة
سبتة
طنجة
جبل طارق
شذونة
اشبيلية
خيخون
لبدة
من مصر



الباب الرابع
التنظيمات المالية والاقتصادية

الفصل الأول
• التنظيمات المالية

الفصل الثاني
• التنظيمات الاقتصادية

الفصل الأول

أ- الواردات
- الخراج
- الجزية
- الفيء والغنائم
- عشور التجارة

ب- المصروفات
- العطاء والرزق
- رواتب الموظفين
- الخدمات العامة
- المنشآت العامة
- تكاليف الحملات العسكرية

اعداد

د. سرمد الجبوري

الاستاذ: صديق الجنابي

الفصل الأول

الخراج

وهي ضريبة فرضتها الدولة العربية على الأرض التي حررها الجيش العربي، وكانت تفرض عادة على وحدة المساحة من الأراضي المزروعة والقابلة للزراعة[1].

بعد ان تم تحرير العراق، والشام، ومصر واجه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وضعاً جديداً، هو موقفه تجاه الأراضي المحررة. هل يقسمها على المقاتلة العرب باعتبارها فيئاً ام يجعلها ملكاً للأمة، تبقى بيد اصحابها يزرعونها ويؤدون عنها الخراج يكون أجرة لها يؤدى كل عام[2]. فقد كتب القادة العرب في العراق والشام ومصر يعلموه ان المقاتلة هناك سألوهم ان يقسموا الأرض بينهم كغنائم[3].

وبعد ان استشار الخليفة عمر (رض) كبار الصحابة[4]، قرر ان تقسم الغنائم بين المقاتلة، وان تبقى الأرض بيد اصحابها مقابل وضع الخراج عليها، وبهذا تكون فيئاً للمسلمين[5]. ثم كتب الى قواده يأمرهم بقسمة الأموال والسلاح على المقاتلة، وترك الأرض لتكون ملكاً عاماً للأمة[6] وبعد ان تم مسح السواد في العراق[7] وضع الخليفة

---

(١) الدكتور محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية: ١٢٦.

(٢) انظر ابو يعلى: الأحكام السلطانية: ١٨٨.

(٣) انظر: ابو يوسف: الخراج: ٢٤، ١٤٠. فتوح البلدان: ٣٢٥ ومابعدها ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ٨٢.

(٤) انظر تفاصيل ذلك في: ابو يوسف: الخراج: ٢٣-٢٨، ٣٥، ٦٨، ٦٩، ١٤٠، ١٤١.

(٥) ابو يوسف: الخراج: ٢٥

(٦) ابو يوسف: الخراج: ٢٤. فتوح البلدان: ٣٢٥. ابن سلام: الأموال: ٨٣

(٧) انظر: ابن آدم: الخراج: ٩/١. اليعقوبي: تاريخ ١٥٢/٢. ابو يوسف: الخراج: ٤٤. ان سلام: الأموال: ٤١، ٦٩.

عمر (رض) ضريبة الخراج ، وكان مقدار الضريبة يختلف باختلاف أنواع المحاصيل ، وهي تتراوح بين درهمين واثني عشر درهماً في السنة [٨].

اما مقدار الخراج في الجزيرة الفراتية فقد جعله الخليفة عمر (رض) مساوياً لخراج السواد [٩]. وفي مصر فرض عمرو بن العاص على كل من يملك أرض ثلاثة أرادب حنطة ، وقسطي خل ، وقسطي عسل ودينارين [١٠]. وكانت جباية الخراج هناك بالتعديل ، فإذا عمرت القرية وازداد عدد سكانها زيد عليهم وان خربت وقل عدد سكانها انقص عنهم [١١].

أما في الشام فقد وضع على كل جريب أرض جريب من الحنطة [١٢].

وعندما جاء الخلفاء الأمويون جمعوا الخراج بموجب النظام الذي وضعه الخليفة عمر ابن الخطاب (رض) وقد أشار الماوردي الى ذلك فقال : « ان الحجاج كتب الى عبد الملك ابن مروان يستأذنه في أخذ الفضل من أموال السواد فمنعه من ذلك وكتب اليه : لاتكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً» [١٣] إلا ان اقبال العرب المسلمين على شراء الأراضي الخراجية من اصحابها الذميين. واقطاع الخلفاء الأمويين بعض الاشخاص أراضي في العراق ، وانتشار الاسلام بين المزارعين والفلاحين وهجرتهم الى المدن أدى الى تحول هذه الأراضي من خراجية الى عشرية ، ومن ثم تقلص أرض الخراج في العراق ونقصان وارد الدولة لأن مايجبى من ضريبة الخراج هو عماد خزينة الدولة آنذاك ، فلما شعر عمال الخراج بذلك كتبوا الى الحجاج بن يوسف الثقفي امير العراق بأن «الخراج قد إنكسر وان أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار [١٤]».

---

(٨) انظر تفاصيل ذلك في : ابو يوسف : الخراج : ٣٦ ، ٨٥. ابن سلام : الأموال : ٦٨ ، ٦٩. فتوح البلدان : ٣٣٠ ، ٣٣١.

(٩) الدكتور عبدالعزيز الدوري : النظم الاسلامية : ١٢٧-١٢٨.

(١٠) م. ن : ١٣٣.

(١١) م. ن : ١٣٢.

(١٢) م. ن : ١٣٠.

(١٣) الأحكام السلطانية : ١٤٩.

(١٤) البلاذري : انساب الأشراف : ٣٣٦-٣٣٧ (طبعة اهلورت). الطبري : تاريخ ٣٨١/٦.

وبما ان الدولة العربية كانت بحاجة الى الأموال وذلك للاستمرار في حركات التحرير العربية في جبهة واسعة ، والانفاق على الخدمات المختلفة ، فقد حاول الحجاج معالجة العجز المالي في الخزينة ، حيث أمر ان ترجع الأراضي العشرية التي كانت بالأصل خراجية الى الخراج ، وإعادة من هاجر من المزارعين والفلاحين من قراهم الى المدن[١٥] . وكان هدفه من ذلك هو إعمار الأرض وزراعتها وبالتالي زيادة موارد الدولة[١٦] .

وقد استمر هذا الوضع حتى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١ هـ ٧١٧-٧١٩ م) الذي وضع حلاً يحفظ حقوق بيت المال ويراعي مبادئ الاسلام، حيث أكد على أن أرض الخراج هي ملكاً مشتركاً للأمة ، وان الخراج هو ايجاراً للارض ، فعلى المسلم حين يشتري أرض الخراج ان يدفع خراجها كأيجار للأرض ، وفي حالة اسلام الذمي يعفى من الجزية ولكن أرضه تبقى خراجية[١٧] . وأصدر في سنة ١٠٠هـ/٧١٨م أمراً يمنع بموجبه بيع الأراضي الخراجية اعتباراً من هذه السنة[١٨] .

اما في المشرق الاسلامي فإن حكامهم ، ومنذ ان تم فتحه من قبل الجيش العربي ، كانوا قد عقدوا اتفاقيات مع الدولة العربية تعهدوا بموجبها دفع ضريبة واحدة نقداً[١٩] . وكان الدهاقون هم المسؤولين عن جباية هذه الضريبة[٢٠] وقد أدى انتشار الاسلام هناك الى تقليل وارد هذه الضريبة مما أدى بالدهاقين أن يأخذوا الجزية من المسلمين الجدد[٢١] وكان هدفهم من ذلك هو الابقاء على مصالحهم المادية ، والحيلولة دون انتشار الاسلام في المشرق لأن ذلك يعني نهايتهم هناك، كما ان عنصريتهم الفارسية المجوسية كانت قد دفعتهم لبث روح التذمر في صفوف السكان هناك من اجل القضاء على الدولة العربية.

---

(١٥) فتوح البلدان: ٤٥٢.

(١٦) عن اهتمام الحجاج بالزراعة في العراق انظر: الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي ص ١٧١.

(١٧) الدكتور عبدالعزيز الدوري: النظم الاسلامية: ١٤٧.

(١٨) ابن عساكر: تاريخ دمشق: ١٨٢/١ ومابعدها.

(١٩) الدكتور عبدالعزيز الدوري: النظم الاسلامية: ١٥٠.

(٢٠) م. ن : ١٥٠.

(٢١) الطبري: تاريخ: ٥٥٩/٦.

ولما علم الخليفة عمر بن عبدالعزيز بهذه الاجراءات أمر عامله على خراسان الجراح بن عبدالله الحكمي بعدم أخذ الجزية من المسلم هناك[٢٢]. ولكن يظهر ان الاجراءات التي اتخذها الخليفة عمر بن عبدالعزيز في المشرق لم تعالج الناحية المالية هناك. وذلك لأن الدهاقين استمروا على سياستهم السابقة لوجود ضريبة واحدة كانت تفرض على رؤوس السكان لا على مساحة الأرض[٢٣].

وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥ هـ /٧٢٤-٧٤٣م) جرت محاولة جديدة لمعالجة مشكلة الضرائب في المشرق، اذ أمر عامله على خراسان أشرس ابن عبدالله السلمي باعفاء المسلمين من الجزية، إلا ان الدهاقين هناك كانوا قد تذمروا من هذا الاجراء لأنه كان يتعارض مع مصالحهم وإمتيازاتهم، وكتبوا الى أشرس «ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا(يعني مسلمون)»[٢٤]. فأمرهم أشرس بأخذ الخراج «ممن كنتم تأخذونه» فأعادوا الجزية على من أسلم[٢٥]. وهكذا كان دور الدهاقين واضحا في عرقلة الاصلاحات التي قامت بها الدولة العربية في المشرق[٢٧].

وقد حاول عامل خراسان نصر بن سيار الليثي (١٢١-١٣١هـ /٧٣٨-٧٤٨م). حل مشكلة الضرائب في المشرق، وقد تصرف على ضوء السياسة التي اتبعها الخليفة عمر بن عبدالعزيز في العراق والمشرق، فقرر اعفاء المسلم من الجزية ولم يجد صعوبة في ذلك إذ وجد ان ثلاثين الفاً من المسلمين الجدد يدفعونها، وثمانين الفاً من المشركين المتنفذين رفعت عنهم الجزية، بأمر من الدهاقين، فأعاد عليهم نصر الجزية[٢٧]، ثم قسم أراضي المشرق الى مناطق، وفرض على كل منطقة كمية ثابتة تجبى على الأرض مهما كان دين صاحبها[٢٨].

---

(٢٢) الطبري: تاريخ : ٥٥٩/٦.

(٢٣) الدكتور عبدالعزيز الدوري: النظم الاسلامية: ١٥٣.

(٢٤) الطبري: ٥٥/٧. الدكتور عبدالعزيز الدوري: النظم الاسلامية: ١٥٣.

(٢٥) الطبري: ٥٥/٧.

(٢٦) الدكتور عبدالعزيز الدوري: النظم الاسلامية: ١٥٣.

(٢٧) الطبري: تاريخ: ١٧٣/٧.

(٢٨) م. ن : ١٧٣/٧.

وكان في هذا الاجراء ضربة للدهاقين افقدتهم جل امتيازاتهم[29].

أما الأرض التي يمتلكها المسلم فقد فرضت الدولة العربية عليها ضريبة هي العشر، وهي عشر المزروع والثمار التي تسقى سيحاً او بالمطر، أما الأرض التي تسقى بغرب أو دالية ففيها نصف العشر[30].

لم ترد في المصادر قائمة شاملة تبين مقدار الخراج في الدولة العربية في العصر الأموي، الا انه ورد مايشير الى مقادير الخراج لبعض الاقاليم في هذا العصر، فقد بلغ خراج العراق في عهد الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/ ٦٧٩-٦٨٣م) (١٣٥) مليون درهم، أما في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٧-٧١٩م) فقد بلغ خراج العراق اكثر من (١٢٠) مليون درهم[31]. أما خراج مصر فقد بلغ في عهد الخليفة هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٤-٧٤٣م) أربعة ملايين دينار[32]. أما خراج الشام فقد بلغ في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ /٦٨٤-٧٠٥م) ١,٧٣٠,٠٠٠ دينار[33].

الجزية

ضريبة كانت تؤخذ من أهل الذمة مقابل حماية الدولة العربية لهم وضمان سلامتهم وامانهم، وقد فرضت على الرأس، يؤخذ منهم ذلك في كل سنة[34] وقد فرضت الجزية على الذكور العقلاء منهم، واعفي منها الصبيان، والنساء، والمرضى المزمنون، والمجانين، والعميان، والشيوخ، والرهبان[35].

---

(٢٩) الدكتور عبدالعزيز الدوري: النظم الاسلامية: ١٥٤.

(٣٠) انظر تفاصيل ذلك في: ابو يوسف: الخراج: ٥١-٥٤. فتوح البلدان: ٥٤٧ ومابعدها. الماوردي: الاحكام السلطانية: ١١٢-١١٤

(٣١) الماوردي: الاحكام السلطانية: ١٧٥.

(٣٢) المقريزي: خطط: ٩٩/١

(٣٣) د. ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية في الدولة الاسلامية: ٢٧٥.

(٣٤) انظر: الماوردي: الأحكام السلطانية: ١٤٢.

(٣٥) ابو يوسف: الخراج: ١٢٢، ١٢٣. ابن سلام: الأموال: ٣٧.

أما مقدارها فقد فرض الخليفة عمر بن الخطاب (رض) جزية متدرجة تتناسب والوضع المالي للفرد، فكانت على الأغنياء أربعة دنانير (٤٨ درهم)، وعلى المتوسطين ديناران (٢٤ درهم) وعلى من دون ذلك بشرط ان يكونوا ذوي حرفة دينار واحداً (١٢ درهم) سنوياً[٣٦].

وكتب الخليفة عمر (رض) الى عماله في الأمصار بان «لايوضع عليهم اكثر من ذلك، ومن عجز منهم خفف عنه»[٣٧]. ولا: «يحل تكليفهم مالايقدرون عليه، ولاتعذيبهم على أدائها ولاحبسهم ولاضربهم»[٣٨].

أما موعد دفع الجزية فقد كان في آخر السنة[٣٩]. وكانت تجبى من قبل العامل او المحتسب، وكان يشترط بعامل الجزية ان يكون ثقة خيراً أميناً، وان يكون له أعوان من أهل الذمة لكي يساعدوه في جمع هذه الضريبة[٤٠].

الفيئ والغنائم

الفيئ: هو المال الذي ناله المسلمون بدون قتال (اي ما صولحوا عليه) وكان الفيئ يشكل أهم موارد الدولة العربية المالية في العصر الأموي[٤١] فان المقاطعات والمدن التي تم فتحها من قبل الجيش العربي بدون قتال او مقاومة كانت تعامل معاملة خاصة، فقد فرضت عليها الدولة العربية مقدار معين من المال اتفق عليه الطرفان، ولابد انه كان يتناسب مع ظروف فتح الأقليم او المدينة والأحوال المحيطة بها[٤٢]. وقد تحدثت المصادر عن مقدار مافرض على بعض الأقاليم والمدن التي فتحت صلحاً سوف نذكر البعض منها،

---

(٣٦) ابو يوسف: الخراج: ٢٥، ٤٢، ٤٩، ٥٠. ابن آدم: الخراج: ٩/١ فتوح البلدان: ٣٣٣.

(٣٧) ابن آدم: الخراج: ٩/١.

(٣٨) ابو يوسف: الخراج: ١٢٥. ابن سلام: الأموال: ٤٣. ابن آدم: الخراج: ٥١/٢، ٥٤/٣ ومابعدها.

(٣٩) ابو يعلى: الاحكام السلطانية: ١٤٤.

(٤٠) ابو يوسف: الخراج: ١٢٣.

(٤١) الدكتور محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية: ١٢٣.

(٤٢) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي: ٣٢٦.

فقد تقرر على رامهرمز ثمانمائة الف درهم(٤٣) . وعلى سجستان الفي الف درهم. وألفي وصيف(٤٤) . وعلى مرو الفي الف ومائتي الف درهم(٤٥) ، ومرو الروز ستون الف درهم(٤٦) وبلغ اربعمائة الف درهم(٤٧) . وكان صلح أفريقية (تونس) الفي الف وخمسمائة الف دينار(٤٨) . وفي سنة ٩٣هـ/٧١١م صالح قتيبة بن مسلم الباهلي ملك خوارزم على عشرة آلاف رأس وعين ومتاع(٤٩) . وفي هذه السنة صالح قتيبة أهل سمرقند على مليونين ومئتي الف درهم في كل عام(٥٠) . وفي سنة ٩٧هـ/٧١٥م صالح يزيد بن المهلب بن ابي صفرة أهل البحيرة على مئة الف درهم في السنة. كما صالح أهل طبرستان على سبع مئة الف درهم(٥٢) .

وهناك عدد من المدن والأقاليم تم الصلح معها إلا ان المصادر لاتحدثنا عن مقدار المبالغ التي صولح عليها أهلها(٥٣).

أما الغنيمة فهي ماوصل الى المسلمين من أموال عن طريق القتال(٥٤) . وكانت تقسم خمسة أقسام متساوية، خمس يكون وارد لخزينة الدولة العربية، أما الاربعة أخماس الباقية فيقوم قادة الجيش بتوزيعه على المقاتلة بالتساوي بعد انتهاء المعارك عادة وذلك عملاً بالآية الكريمة: «واعلموا ان ماغنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى

---

(٤٣) فتوح البلدان: ٤٦٦.

(٤٤) ن. م : ٤٨٦.

(٤٥) الطبري: تاريخ :٣٠٣/٤.

(٤٦)ن. م : ٣١١/٤

(٤٧) ن. م : ٤/ ٣١٣.

(٤٨) فتوح البلدان: ٢٦٨.

(٤٩) تاريخ خليفة بن خياط: ٣٠٩/١. الطبري: تاريخ : ٤٧٠/٦.

(٥٠) فتوح البلدان : ٥١٨. تاريخ خليفة بن خياط : ٣٠٩/١.الطبري: ٤٧٥/٦.

(٥١) تاريخ خليفة بن خياط: ٣١٩/١. انظر : الطبري: تاريخ : ٥٣٨/٦.

(٥٢) فتوح البلدان: ٤١١، ٤١٢. الطبري: تاريخ : ٥٣٦/٦.

(٥٣) انظر: الدكتور عبدالقادر المعاضيدي؛ واسط في العصر الأموي: ٣٢٩.

(٥٤) الدكتور محمد ضياء الدين الريس: المصدر السابق: ١٢٣.

واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير[٥٥].

وكان هناك اشخاص يشرفون على جمع هذه الغنائم وقسمتها، فقد ذكر الطبري ان قتيبة بن مسلم الباهلي عندما فتح بيكند ولى عبدالله بن والان العدوي، واياس ابن بيهس على جمع الغنائم وقسمتها[٥٦]. وان يزيد بن المهلب بن ابي صفرة عندما فتح البحيرة ولى ادريس بن حنظلة العمي على جمع الغنائم وقسمتها[٥٧].

لقد كانت غنائم بعض المعارك التي خاضها الجيش العربي في المشرق، وشمال افريقيا والاندلس كثيرة جداً ففي سنة ٦١هـ/٦٨٠م بلغ سهم الفارس الفين واربعمائة درهم والراجل ألفاً ومائتين في أحد المعارك التي خاضها المهلب بن ابي صفرة مع الترك في المشرق[٥٨]، وعندما فتح المفضل بن المهلب باذغيس سنة ٨٥هـ/٧٠٤م أصاب كل مقاتل ثمان مئة درهم[٥٩]. وعندما فتح قتيبة بن مسلم الباهلي بيكند سنة ٨٧هـ/٧٠٥م «صار في أيدي المسلمين من بيكند شيء لم يصيبوا مثله بخراسان... وقوي المسلمون، فاشتروا السلاح والخيل، وجلبت اليهم الدواب وتنافسوا في حسن الهيئة والعدة وغالوا في السلاح»[٦٠].

وأرسل محمد بن القاسم الثقفي الى امير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي مئة وعشرين مليون درهم من الغنائم التي حصل عليها من فتوح السند[٦١] وفي معارك التحرير في شمال افريقيا والأندلس حصل المقاتلون العرب على غنائم كبيرة ايضاً[٦٢].

---

(٥٥) سورة الأنفال: آية ٤١.

(٥٦) تاريخ الرسل والملوك: ٦/٤٣١-٤٣٣.

(٥٧) ن. م: ٦/٥٣٨.

(٥٨) اليعقوبي: تاريخ: ٢/٣٠٠.

(٥٩) الطبري: تاريخ: ٦/٣٩٧.

(٦٠) ن. م: ٦/٤٣١، ٤٣٢.

(٦١) فتوح البلدان: ٥٣٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٤/٥٣٦.

(٦٢) انظر على سبيل المثال: الامامة والسياسة: ٢/٦٣، ٦٤، ٦٧، ٧٧ ابن عذاري: البيان المغرب: ١/٤٠، ٤٣، ٤٤، ٢/١٨.

عشور التجارة

وهي ضريبة كانت مفروضة على الأموال التجارية الصادرة والواردة الى الدولة العربية[٦٣] وأول من وضعها الخليفة عمر بن الخطاب (رض)[٦٤] وقد قدّر الخليفة هذه الضريبة فأمر أن يؤخذ من تجارة المسلمين (٢,٥) بالمئة، ومن أهل الذمة (٥) بالمئة، ومن الأجانب (١٠) بالمئة[٦٥] «من كل مامر على العاشر وكان للتجارة، وبلغ قيمة ذلك مئتي درهم فصاعداً... وإن كانت قيمة ذلك أقل من مئتي درهم لم يؤخذ منه شئ»[٦٦]

وقد كانت هذه الضريبة تؤخذ على التجارة مرة واحدة في السنة مهما تكرر مرورها[٦٧]. أما التجارة في الداخل فلم تفرض عليها ضريبة.[٦٨]

وكان الموظف المسؤول عن جباية هذه الضريبة يطلق عليها اسم (العاشر)، وقداشترط فيه ان يكون من أهل التقوى، ولايتعدى على التجار أو يأخذ منهم اكثر مما يجب.[٦٩]

وكانت مراصد المكوس منتشرة في كل انحاء الدولة العربية في البر والبحر والنهر[٧٠] وقد أشارت المصادر الى أن مآصر دجلة في العصر الأموي كان بواسط.[٧١]

ليست لدينا اية اشارة عن مقدار ماتجبيه الدولة العربية في العصر الأموي من هذه الضريبة، الا انه لابد ان هذا المصدر كان يكون نسبة لابأس بها من واردات بيت المال آنذاك وذلك لنشاط الحركة التجارية.[٧٢]

---

(٦٣) الدكتور محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية: ١٣٨

(٦٤) ابو يوسف: الخراج: ١٣٥. ابن سلام: الأموال: ٦٨

(٦٥) ن: م: ٦٨. ابن آدم: الخراج: ١/ ١١، ٤/ ١٢٩.

(٦٦) ن. م: ١٣٢، ١٣٣. ن. م: ١/ ١١

(٦٧) ن. م: ١٣٢، ١٣٣، ابن سلام: الأموال: ٥٣٥

(٦٨) الماوردي: الأحكام السلطانية: ١٩٨

(٦٩) ابو يوسف: الخراج: ٣٢

(٧٠) انظر: ميخائيل عواد: المآصر في بلاد الروم والمسلمين ص ٧ وما بعدها.

(٧١) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي: ٣٣٣

(٧٢) ن. م: ٣٣٤

المصروفات

العطاء والرزق :

لقد كانت الأموال التي تحصل عليها الدولة العربية في عهد الرسول (ص) وعهد الخليفة ابو بكر الصديق (رض) قليلة نسبياً ، فكان اذا ورد مال الى المدينة يفرق بين مستحقيه.[٧٣] أما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) فقد كثرت أموال الدولة العربية من جراء حركات التحرير التي تمت آنذاك في العراق والشام ، وشمال افريقيا ، حيث صارت بأيدي العرب مقاطعات واسعة وغنية فرض عليها الخراج فأصبحت تعطي دخلاً سنوياً كبيراً وثابتاً ، كان مصدراً مهماً لبيت المال آنذاك.[٧٤]

هذا وقد كثر عدد المقاتلة العرب في زمن الخليفة عمر (رض) فأصبح من الضروري ضبط اسمائهم ، وانسابهم ، وأوصافهم ، مما أدى الى انشاء الديوان سنة ٢٠ هـ/ ٦٤٠ م ومن ثم فرض العطاء.[٧٥]

وبعد ان استشار الخليفة كبار الصحابة في تدوين الديوان[٧٦] عيّن لجنة مؤلفة من ثلاثة كانوا من كتاب قريش ، ولهم معرفة بأنساب العرب وهم عقيل بن ابي طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم وقال لهم : « اكتبوا الناس على منازلهم »[٧٧]. فوضع الخليفة نظاماً لتوزيع العطاء في المدينة بأن جعل عطاء الناس يختلف حسب اسبقيتهم في الاسلام ، والخدمة للدولة العربية ، والحاجة.[٧٨]

أما عطاء مقاتلة العراق والشام فيذكر الطبري ان الخليفة عمر (رض) فرض : «لمن ولي الأيام قبل القادسية كل هؤلاء ثلاثة آلاف ، ثم فرض لأهل القادسية

---

(٧٣) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية : ٨٣

(٧٤) ابو يوسف : الخراج : ٢٤ ، ٤٢– ٤٤ . ابن سلام : الأموال : ٢٢٤ .

(٧٥) ابن سعد : جـ ٣ ق١ : ٢١٣– فتوح البلدان : ٣٠٥ . اليعقوبي : تاريخ : ٢/ ١٥٣ . الطبري : تاريخ : ١١٢/٤

(٧٦) انظر تفاصيل ذلك في : فتوح البلدان : ٥٤٩ .

(٧٧) فتوح البلدان : ٥٤٩ . اليعقوبي : تاريخ : ٢/ ١٥٣

(٧٨) عن تنظيم الخليفة عمر للعطاء في المدينة انظر : ابو يوسف : الخراج ٤٢ وما بعدها ابن سلام : الأموال : ٢٢٤ وما بعدها . فتوح البلدان : ٥٥٠ وما بعدها .

وأهل الشام الفين الفين ، وفرض لأهل البلاء البارع منهم الفين وخمس مئة الفين وخمس مئة... وفرض لمن بعد القادسية واليرموك الفاً الفاً، ثم فرض للروادف المثنى خمسمائة خمسمائة، ثم للروادف الثليث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة.... وفرض للروادف الربيع على مائتين وخمسين، وفرض لمن بعدهم وهم أهل هجر العباد على مائتين[٧٩] كما فرض للنساء ايضاً مابين الألف درهم الى مائتي درهم[٨٠]، ثم ساوى بينهن بعد ذلك[٨١]. وفرض لكل مولود مائة درهم أو عشرة دنانير[٨٢]. كما فرض للصبيان مائة درهم ايضاً[٨٣].

ولابد ان تنظيمات الخليفة عمر (رض) كانت قد تعرضت لتغييرات عديدة احدثت فيها في العصر الأموي، وذلك لتلافي المشاكل التي ظهرت فيما بعد، وبفضل التطور الذي حصل في أجهزة ومؤسسات الدولة العربية آنذاك، إلا انه ليست لدينا اية اشارة عن هذه التغييرات أو تاريخ حدوثها[٨٤] لقد كان الحد الأعلى للعطاء في العصر الراشدي ألفان وخمسمائة درهم ويدعى شرف العطاء[٨٥]. وقد أنقص الخليفة معاوية بن ابي سفيان هذا المقدار وجعله ألفي درهم[٨٦].

أما الحد الأدنى من العطاء في العصر الأموي فقد كان يتراوح مابين مائتين الى ثلاثمائة درهم سنوياً، والراجح ان هذا المقدار من العطاء ماكان يأخذه أغلبية المقاتلة آنذاك[٨٧]. ونجد مايشير الى ان بعض المقاتلة كان عطاءهم اربعمائة درهم[٨٨]. وخمسمائة درهم[٨٩]، وسبعمائة درهم[٩٠]، وكان بين المقاتلة من يأخذ عطاء مقداره الف وستمائة درهم، والف وثمانمائة درهم[٩١].

---

(٧٩) تاريخ الرسل والملوك : ٣/ ٦١٤
(٨٠) ابن سلام : الأموال : ٣٤٤
(٨١) الطبري : تاريخ : ٣/ ٦١٥
(٨٢) ابو يوسف : الخراج : ٤٦. ابن سلام : الأموال : ٣٤٢. فتوح البلدان. ٥٦٢.
(٨٣) الطبري : تاريخ : ٣/٦١٤.
(٨٤) الدكتور عبد القادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٣٤٥، ٣٤٦
(٨٥) ابن سعد : ٥/ ٢٥٥، ٦/ ١٥١.
(٨٦) الطبري : ٥/ ٢٤٢. الأغاني : ٤/ ٩٤. ١٦/ ١٦٥
(٨٧) البلاذري : انساب الاشراف : ٢٧٣ (طبعة اهلورت). الطبري : تاريخ : ٥/ ٢٢٣. اخبار الدولة العباسية : ٣٧٦
(٨٨) انساب الأشراف : ٥/ ٣٥٤
(٨٩) الطبري : تاريخ : ٥/ ٢٢٣
(٩٠) انساب الأشراف : ٥/ ٣٥٤
(٩١) الأغاني : ٢٣/ ٤٦٠، ٤٦١

ولعل السبب في وجود هذه المقادير المختلفة من العطاء هو مايبديه بعض المقاتلة من بسالة في اثناء المعارك، فقد كان الخلفاء والامراء يزيدون عطاء المقاتلين الذين يبدون شجاعة في اثناء معارك التحرير العربية (٩٢)، أو مايجهزون أنفسهم من سلاح وخيل فقد كان الفارس يأخذ عطاءاً اكبر مما يأخذه الراجل (٩٣).

لقد كان العطاء يدفع سنوياً في شهر محرم أي في بداية السنة الهجرية، وهذا ماجرى عليه دفع العطاء في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) (٩٤).

أما في العصر الأموي فقد كان العطاء يدفع في هذا الشهر ايضاً (٩٥). وهناك إشارات الى ان العطاء في هذا العصر لم يدفع في وقته المحدد، وربما كان لجباية الجزية والخراج دخل في ذلك لان هاتين الضريبتين كانتا تشكلان المورد الرئيسي لبيت المال آنذاك (٩٦).

وكان الخلفاء والامراء قد اشترطوا على أهل العطاء ان يجهزوا أنفسهم بالاسلحة ومتطلبات القتال الاخرى فقد ذكر ابن سعد ان الخليفة عمر بن عبدالعزيز حين أخرج العطاء وجه كتاباً الى ولاته جاء فيه: «لايقبل من رجل لمعئة دينار إلا فرس عربي ودرع وسيف ورمح ونبل» (٩٧). واذا لم يذهب صاحب العطاء الى القتال يمحىٰ اسمه من ديوان الجند (٩٨). ولايعفى من ذلك حتى الخلفاء فقد ذكر الطبري «أنه لم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا وعليه الغزو، فمنهم من يغزو، ومنهم من يخرج بدلاً، وكان لهشام بن عبدالملك مولى يقال له يعقوب، فكان يأخذ عطاء هشام مائتي دينار، ودينار يفضل بدينار، فيأخذها يعقوب ويغزو، وكانوا يصيرون انفسهم في أعوان الديوان، وفي بعض مايجوز لهم المقام به. ويوضع به الغزو عنهم» (٩٩).

أما البديل فكان يعطي أجراً وليس عطاءاً (١٠٠)

---

(٩٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار: ٢/ ٢١١. الطبري: تاريخ: ٦/ ٣١٠

(٩٣) ابن سعد: ٥/ ٢٥٨. انساب الأشراف: ٢٧٣ (طبعة اهلورت)

(٩٤) انظر: الطبري: تاريخ: ٤/ ٤٢، ٤٣

(٩٥) انظر: الطبري: ٧/ ٢١٨، ٢٦٢، ٢٦٣

(٩٦) الدكتور صالح احمد العلي: التنظيمات: ١٣٧

(٩٧) الطبقات: ٥/ ٢٥٨. انظر: انساب الاشراف: ٢٧٣ (طبعة اهلورت). الطبري: ٣/ ٦١٥، ٦/ ٣٢٨، ٤٣٢.

(٩٨) الأغاني: ١١/ ١٩٣

(٩٩) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٢٠٢

(١٠٠) انساب الأشراف: ج١ ق١: ٢٤

أما توزيع العطاء فقد كان يتم من قبل العرفاء والنقباء ، وكان المقاتلة يستلمونه من قبل هؤلاء في دورهم[(١٠١)]

واضافة الى العطاء قرر الخليفة عمر بن الخطاب (رض) لكل شخص جريبين من الحنطة شهرياً[(١٠٢)] وقدر هذا المقدار من الرزق بالنسبة لحاجة الفرد اليومية ، فقد روي البلاذري : ان الخليفة عمر (رض) : «أمر بجريب من طعام فعجن ، ثم خبز ثم ثرد بزيت ، ثم دعا بثلاثين رجلاً فأكلوا منه غداءهم ، حتى أصدرهم ، ثم فعل بالعشي مثل ذلك ، فقال يكفي الرجل جريبان كل شهر؛ فكان يرزق الناس الرجل والمرأة والمملوك جريبين كل شهر»[(١٠٣)]

وكان يوزع الى جانب الحنطة والشعير ، الزيت ، والخل ، والعسل.[(١٠٤)]
وقد اهتم الخلفاء والامراء الأمويون بتنظيم الارزاق وتوزيعها في بداية كل شهر[(١٠٥)]

وقد كانت هذه الارزاق تخزن عادة في دار خاصة بها كان يطلق عليها (دار الرزق) . أو «مدينة الرزق» لسعتها .[(١٠٦)]

رواتب الموظفين

كانت الدولة العربية في العصر الاموي تضم عدد ضخم من الموظفين ، وكان هؤلاء الموظفون يتقاضون رواتب معينة ، كانت تختلف عادة باختلاف الوظيفة والعمل . كما كانت تشكل جزءاً مهما من مصروفات بيت المال .

لاريب ان رواتب أمراء الامصار كانت أعلى من رواتب بقية الموظفين الآخرين كما كان يجرى لهم مخصصات اضافية الى جانب رواتبهم ، فقد كان راتب امير البصرة زياد

---

(١٠١) الطبري : تاريخ : ٤/ ٤٩

(١٠٢) فتوح البلدان : ٥٦٤ . الطبري : تاريخ : ٣/ ٦١٥
(١٠٣) فتوح البلدان : ٥٦٤ . انظر : الطبري : ٣/ ٦١٥
(١٠٤) فتوح البلدان : ٢٥٢ ، ٥٦٤
(١٠٥) ابو يوسف : الخراج : ٣١ . ابن سلام : الأموال : ٥١٨ . انساب الأشراف : ٤/ ٢٨٨ . الطبري : ٧/ ٢٦٩

(١٠٦) الطبري : ٥/ ٢٢٢ ، ٦/ ٦٧

بن ابيه (٤٥– ٥٣ هـ/ ٦٦٥ – ٦٧٢ م) خمسة وعشرين الف درهم سنوياً[١٠٧]، أما مخصصاته فقد كانت مائة الف درهم[١٠٨] وكان راتب امير العراق يزيد بن هبيرة الفزاري (٢٨ – ١٣٢ هـ/ ٧٤٥ – ٧٤٩ م) ستمائة الف درهم سنوياً[١٠٩]. وكانت مخصصات امير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٥–٩٥ هـ، ٦٩٤ –٧١٣ م) خمسمائة الف درهم سنوياً[١١٠].

وكان راتب عمال الأقاليم في المشرق في عهد زياد بن ابيه الف درهم[١١١]. وفي عهد الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ/ ٦٨٥ – ٧٠٥ م) كان راتب صاحب الشرطة مائة الف درهم سنوياً[١١٢].

وكان راتب قاضي الفسطاط في عهد معاوية بن ابي سفيان (٤١ – ٦٠ هـ/ ٦٦١– ٦٨٠ م ثلاثمائة دينار[١١٣]. وراتب قاضي الكوفة ابو ليلى مائة وخمسون درهم وقبل مائتي درهم[١١٤]. وراتب قاضي البصرة إياس بن معاوية كان مائة درهم[١١٥]. وراتب قاضي الفسطاط في عهد مروان الثاني (١٢٧ – ١٣٢ هـ/ ٧٤٤ – ٧٥٠ م) كان مائتان واربعون دينار[١١٦]

أما اصحاب الدواوين فقد كان راتبهم ثلاثمائة درهم شهرياً.[١١٧] وكان راتب كتاب الدواوين ثلاثين درهم شهريا.[١١٨]

أما المحتسب فقد كان يأخذ أجراً على عمله إلا اننا لانعلم مقدار هذا الأجر[١١٩]

---

(١٠٧) اليعقوبي : تاريخ : ٢/ ٢٣٤

(١٠٨) المبرد : الكامل : ٢٣١

(١٠٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٥/ ٣٦٤

(١١٠) انساب الأشراف : ٥/ ٣٣٠، ٣٣١

(١١١) اليعقوبي : تاريخ : ٢/ ٢٣٤

(١١٢) انساب الاشراف : ٥/ ١٧٧

(١١٣) الكندي : القضاة والولاة : ٣١٧

(١١٤) وكيع : اخبار القضاة : ٣/ ١٨٠

(١١٥) وكيع : أخبار القضاة : ١/ ٣٤٢

(١١٦) الكندي : القضاة والولاة : ٣٥٤

(١١٧) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ١٢٦

(١١٨) ن. م : ١١٣

(١١٩) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٣٥٤

لقد اهتمت الدولة العربية في العصر الأموي بالخدمات العامة، كان الهدف منها تقديم المساعدة وتوفير الراحة لابناء الشعب، فالخليفة الوليد بن عبدالملك (٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م) أمر بتقديم الطعام في المساجد في شهر رمضان المبارك(١٢٠). كما أمر ببناء دار ضيافة. ومستشفى للمرضى، وتخصيص خادم للمرضى المزمنين، والمجذمين، والعميان، واجرى عليهم الارزاق(١٢١).

أما الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١هـ /٧١٧-٧٢٠ م) فقد أمر ببناء الخانات خدمة للمسافرين(١٢٢)، ولما حدثت مجاعة في عهده أمر بمساعدة الناس من بيت المال(١٢٣). وخصص لمن يعلم الفقه وقراءة القرآن الكريم في المساجد مائة دينار سنويا(١٢٤).

كما اهتمت الدولة بنظافة المدن، فأمير العراق زياد بن ابيه عين جماعة كانوا مسؤولين عن تنظيف الشوارع في البصرة(١٢٥). وكان امير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي مهتماً بنظافة واسط(١٢٦).

---

(١٢٠) اليعقوبي: تاريخ : ٢٩١/٢.

(١٢١) م. ن : ٢٩٠/٢.

(١٢٢) الطبري: تاريخ: ٥٩٧/٦.

(١٢٣) انساب الأشراف: ١١٢/٥.

(١٢٤) ابن كثير: البداية والنهاية: ٢٠٧/٩.

(١٢٥) حضارة العراق: ٣٩٦/٥.

(١٢٦) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي: ١١١.

نفقات المنشآت العامة

كانت الدولة العربية هي المسؤولة عن بناء المدن وتحصيناتها واسوارها، وبناء المنشآت العامة، فكان يتم بناء دور الامارة، والمساجد الجامعة، والاسواق، والدواوين، ودور الرزق، والسجون، والقناطر والجسور وحفر الانهار وكريها، واقامة السدود وسد البثوق من بيت المال. وقد جاء في المصادر اشارات الى مقدار ما انفقته الدولة العربية في العصر الاموي من أموال بهذا الخصوص، فالحجاج بن يوسف الثقفي عندما أنشأ مدينة واسط سنة ٨١هـ/٧٠٠م انفق على بنائها ثلاثة واربعين الف الف درهم (١٢٧). وعندما انبثقت البثوق في العراق في عهده انفق على سدها ثلاثة ملايين درهم (١٢٨).

ولما حفر امير العراق خالد بن عبدالله القسري نهر المبارك بواسط بلغت كلفته اثني عشر مليون درهم (١٢٩).

وفي عهد امير العراق عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز تم حفر النهر المعروف بنهر بن عمر بالبصرة، وقد كانت كلفته ثلاثمائة الف درهم (١٣٠).

النفقات العسكرية

كان على الدولة العربية الانفاق من بيت المال على الجيوش العربية البرية والبحرية التي كانت توجهها في حركات التحرير، ومع ان المصادر لاتشير الى تكاليف جميع الحملات العسكرية، الا انه مما لاشك فيه ان الخلفاء والامراء الأمويين كانوا قد انفقوا اموالاً طائلة على نقل هذه الجيوش وتجهيزها والتي كانت تقاتل في جبهة واسعة تمتد من جبال البرنس غرباً حتى الصين شرقاً (١٣١).

---

(١٢٧) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي: ٣٥٧.

(١٢٨) فتوح البلدان: ٣٦٠.

(١٢٩) المبرد: الكامل: ١٢٨٢/٣.

(١٣٠) فتوح البلدان: ٤٥٥.

(١٣١) انظر فصل حركات التحرير العربية في هذا الكتاب.

والجدير بالذكر هنا انه لدينا معلومات عن تكاليف حملتين يمكن ان تعطي فكرة تقريبية عن تكاليف الحملات الأخرى في هذا العصر. فعندما وجه امير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي قائده عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي في سنة ٨٠هـ/٦٩٩م لقتال ملك الترك، رتبيل انفق على تلك الحملة الفي الف درهم(١٣٢) وعندما وجه الحجاج قائده محمد بن القاسم في سنة ٨٩هـ/٧٠٧م لفتح السند انفق ستين الف الف درهم(١٣٣).

النقود

كان العرب في عصر ماقبل الاسلام يتعاملون بالدنانير البيزنطية والدراهم الساسانية، وذلك لان معظم الوطن العربي كان تحت سيطرة هاتين الدولتين(١٣٤) وعندما انشأ العرب دولتهم ابقى الرسول (ص) والخليفة ابو بكر الصديق (رض) التعامل بهذه النقود(١٣٥).

ولما جاء الخليفة عمر بن الخطاب (رض) امر بضرب دراهم جديدة كتب على بعضها عبارة «الحمد لله» وعلى بعضها عبارة «محمد رسول الله» او «لاإله الا الله وحده» كما كتب عليها اسم «عمر» وبهذا بدأت الخطوات الاولى لتعريب النقود(١٣٦). وقد حدد الخليفة عمر (رض) مقدار الدرهم الشرعي وهو سبعة اعشار المثقال، ويساوي ستة دوانق(١٣٧). ويظهر ان الخليفة عمر قام بعمله هذا عندما رأى تعدد الدراهم التي يتعامل بها الناس في زمنه، فأراد ان يكون هناك درهم متعارف عليه تدفع بموجبه الزكاة، والضرائب الاخرى كما يدفع بموجبه العطاء ويقلل من التعامل بالدرهم الساساني(١٣٨).

---

(١٣٢) الطبري: تاريخ: ٣٢٩/٦.

(٣٣) فتوح البلدان: ٥٣٨.

(١٣٤) فتوح البلدان: ٥٧١، ٥٧٢. الماوردي: الاحكام السلطانية: ١٥٤.

(١٣٥) م. ن: ٥٧٢. المقريزي: النقود: ٣٠

(١٣٦) المقريزي: النقود: ٣١، ٣٢.

(١٣٧) الماوردي: الاحكام السلطانية: ١٥٤.

(١٣٨) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي: ٣٦٧.

وفي عهد الخليفة عثمان (رضي) ضربت دراهم نقشت عليها عبارة «الله أكبر»[139].

ولما تولى معاوية بن ابي سفيان الخلافة سك دراهم ودنانير كانت عليها صورته متقلداً سيفاً[140] الا انها لم تصل الينا وربما يعزى ذلك الى صهر هذه القطع في اثناء تعريب النقود في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان.

وظل العرب يتعاملون بالنقود الاجنبية جنباً الى جنب مع النقود العربية الاسلامية حتى عهد الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) الذي تشير المصادر الى انه اول من ضرب النقود على الطراز العربي الاسلامي ثم أمر بسحب النقود القديمة التي كان يجري التعامل بها، ومنع الناس من التعامل بها[141].

ومع ان المؤرخين يختلفون في تحديدهم للسنة التي بدأ فيها الخليفة عبدالملك بضرب النقود على الطراز العربي الاسلامي، إلا انه يبدو ان تعريب النقود بدأ في سنة ٧٧هـ/٦٩٦م. مما يؤيد ذلك ان التنقيبات الأثرية اظهرت ان الخليفة عبدالملك كان قد ضرب في هذه السنة نوعين من الدنانير، الأول اخر ماضرب على الطراز البيزنطي، والثاني هو أول ما ضرب على الطراز العربي الاسلامي[142]. كما انه لم يعثر لحد الان على دينار ضرب على الطراز العربي الاسلامي قبل هذه السنة[143].

وكان الدينار العربي الجديد يحمل كتابات على النحو التالي: كان يتوسط الوجه العبارة التالية «لاإله إلا الله وحده لاشريك له» وكان يدور على الحافة «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله» أما الظهر فقد كان يتوسطه: «الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد» وكان يدور على الحافة: «بسم الله ضرب هذا الدينار سنة سبع وسبعين»[144].

---

(١٣٩) حسان على حلاق: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي : ٢٤.

(١٤٠) المقريزي: النقود : ٣٣.

(١٤١) فتوح البلدان : ٥٧٢.

(١٤٢) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي: ٣٧٠.

(١٤٣) م. ن : ٣٧٠.

(١٤٤) عبدالرحمن فهمي: فجر السكة الاسلامية : ٢٩١.

وبعد ان ضرب الخليفة عبدالملك الدينار بدمشق على الطراز العربي الاسلامي بعث بالسكة الى أمير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي وأمره ان يضرب الدراهم في العراق والمشرق الاسلامي على الطراز العربي الاسلامي ايضاً وعلى وزن خمسة عشر قيراطاً من قيراط الدنانير(١٤٥).

هذا وقد اختلف المؤرخون في السنة التي ضرب بها الحجاج الدراهم في العراق على الطراز العربي الاسلامي، الا انه من المرجح ان تعريب الدراهم في العراق كان في سنة ٨٣هـ/٧٠٢م(١٤٦).

وقد جمع الحجاج جميع الدراهم التي كان يتعامل فيها الناس في العراق، وأمر بصهرها ثم إعادة ضربها من جديد(١٤٧).

لقد كان امراء العراق شديدي الحرص على الاحتفاظ بسلامة النقود وجودتها. فقد كانت النقود التي ضربت في العراق من الأنواع الجيدة، وقد اشار البلاذري الى ذلك بقوله: «فلما ولي عمر بن هبيرة العراق ليزيد بن عبدالملك خلص الفضة أبلغ من تخليص من قبله، وجوّد الدراهم، فاشتد في العيار، ثم ولي خالد بن عبدالله القسري العراق لهشام ابن عبدالملك، فاشتد في النقود اكثر من شدة ابن هبيرة، حتى أحكم أمرها أبلغ من احكامه ثم ولي يوسف بن عمر بعده فأفرط في الشدة على الطباعين واصحاب العيار، وقطع الأيدي وضرب الأبشار، فكانت الهبيرية، والخالدية، واليوسفية، أجود نقود بني أمية. ولم يكن المنصور يقبل في الخراج من نقود بني امية غيرها»(١٤٨).

ولتسهيل التعامل التجاري بالنقود ضربت قطع نقدية تمثل اجزاء الدينار واخرى تمثل اجزاء ومضاعفات الدرهم.

أما أهم اسباب تعريب النقود فهي:

---

(١٤٥) فتوح البلدان: ٥٧٢. المقريزي: النقود: ٣٤. والقيراط اربع حبات، وكل دانق قيراطان ونصف القيراط. المقريزي: النقود: ٣٤.

(١٤٦) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي: ٣٧٣، ٣٣٤.

(١٤٧) م. ن: ٣٧٢، ٣٧٣.

(١٤٨) فتوح البلدان: ٥٧٥، ٥٧٦. انظر الماوردي: الاحكام السلطانية: ١٥٤.

١- بعد ان اعاد الخليفة عبدالملك بن مروان وحدة الدولة العربية، وتوفر له عامل الاستقرار، أراد بناء الدولة فرأى ان ضرب عملة عربية اسلامية هي ضرورة لازمة للبناء الاقتصادي والسياسي القومي للدولة العربية (١٤٩).

٢- أراد الخليفة عبدالملك صبغ الدولة بصبغة عربية نتيجة لسياسة رسمها بدقة ومهارة وقام بتنفيذها في جميع الميادين الادارية والاقتصادية لذا كان تعريب النقود جزءاً من سياسة الخليفة التي استهدفت تعريب مؤسسات الدولة العربية المختلفة.

٣- ان النقود العربية بما تحمله من عبارات تتضمن اسم الخليفة أو الامير والمركز الذي سكت فيه تعبر عن سيادة الدولة العربية وتحررها من اي نفوذ اجنبي، ولا مجال للتحرر الاقتصادي مادامت نقود الدولة العربية تدور في فلك السياسة الاقتصادية البيزنطية او الفارسية، لذا اتجه الخليفة عبدالملك الى الاستقلال الاقتصادي عن طريق التعريب.

٤- ان القضاء على الدولة الفارسية على يد العرب، وان التوتر العسكري وتأزم الأوضاع مع الدولة البيزنطية أدى الى نقص النقود المتداولة بين السكان لانقطاع مصادرها، فأصبحت كمية النقود لاتتناسب ولاتتكافأ مع النمو الاقتصادي الذي شهدته الدولة العربية في تلك المرحلة، لذا أصبح من الضروري سك نقود عربية لكي تحقق اشباع الطلب على النقد وتغطي حاجة المعاملات الجارية في الأسواق من قبل المتعاملين في قطاع التبادل التجاري (١٥٠).

٥- كان من نتائج شيوع الزيوف في الدراهم الفارسية ، هبوط قيمة هذه الدراهم، وارتفاع اسعار السلع ، وزوال الثقة المالية ، ومن أهمها الغبن الذي يقع على الدولة في استيفاء حقوقها من الضرائب ، فأراد الخليفة ان يضمن سلامة النقود في محاولات الزيف والغش فأمر بتعريبها (١٥١).

---

(١٤٩) عبدالرحمن: صبغ السكة: ٣٠، ٣١، ٣٤، ١٠٢، ١٠٣.

(١٥٠) عن أسباب تعريب النقود انظر: حسان علي حلاق: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي: ص ٤٢ ومابعدها. عبدالرحمن فهمي: النقود العربية: ٤٤ السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الدولة العربية: ٣٩٢، ٣٩٣.

(١٥١) انظر: الماوردي: الاحكام السلطانية: ١٥٤.

الفصل الثاني

التنظيمات الاقتصادية

الثروة الزراعية

إن دراسة الاحوال الزراعية في العالم الاسلامي ابان العصر الاموي صعبة ومتشابكة لان الامويين ورثوا دولة واسعة الارجاء على اثر الفتوحات الناجحة التي تمت منذ خلافة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) باتجاه المشرق الاسلامي وقبل ذلك في بلاد الشام. ولم يقف الامويون عند الحدود التي وصلت اليها الدولة العربية، انما عملوا على توسيعها شرقاً وغرباً حتى وصلت حدودها الى اواسط اسيا والهند والسند في الشرق والى المغرب العربي والاندلس غرباً بما في ذلك جزر البحر المتوسط. من هنا تأتي صعوبة البحث في الجوانب الاقتصادية لاسيما الزراعية ولعدة اسباب منها:

١- التنوع الواضح في الجغرافية الطبيعية لافي العالم الاسلامي بصورة عامة انما في كل جزء منه الى حد كبير، فهناك في الجزيرة العربية مثلا سهول وجبال وصحاري ووديان وحرات، وفي العراق هناك الاراضي المجاورة للانهار من جهة والبراري من الجهة الثانية، وهناك مناطق واسعة من الاهوار (البطائح)، وفي الجزيرة الفراتية وبلاد الشام هناك جبال وسهول ساحلية مطلة على البحر، وفي مصر والمغرب العربي هناك الجبال والصحارىٰ والسهول، وفي الاجزاء المطلة على الخليج العربي والبحر الاحمر هناك السهول الساحلية والجبال والصحارىٰ وغير ذلك.

لقد ادىٰ هذا التنوع في التضاريس الطبيعية الى تنوع في المجالات الزراعية بين اراضي خصبة الى اراضي جرداء الى اراضي جبلية، وبين اراض تتوفر فيها مياه الانهار الى اخرىٰ تعتمد الامطار وثالثة تعتمد مياه العيون والابار.

٢ – وقد رافق هذه الظروف الطبيعية المتباينة انماط متباينة من المناخ ، بين حرارة متطرفة الى برودة شديدة الى اعتدال . ومن مناطق تنعم بامطار غزيرة الى اخرىٰ تتوفر فيها كميات اقل وثالثة تتصف بعدم وفرة الامطار. وحبى اللّه تعالىٰ بعض اجزاء هذا العالم بانهار كثيرة ومهمة للري والزراعة والتجارة على حد سواء ، بينما عانىٰ اهالي الصحاري في الجزيرة العربية والمغرب العربي من ندرة مياه الامطار، فاصبحت اراضيهم جرداء إلا من بعض النباتات البرية ، لكن اللّه انعم على بعض هذه المناطق الجرداء بنعمة الابار والعيون التي استثمرها العقل البشري العربي في العصور الاسلامية في مجال الزراعة .

٣ – والاكثر اهمية ان هذا التنوع التضاريسي في الارض والمناخ والمياه قد ادىٰ الى تنوع في النظرة الادارية والمالية لمسؤولي الدولة العربية بدءاً برسول اللّه (ص) ومروراً بالخلفاء الراشدين (رض) واولي الأمر بضمنهم الولاة والاداريون ازاء الاراضي التي فتحت واصبحت ضمن حدود الدولة العربية الاسلامية .

اذ ليس واقعياً ان تكون معالجة الخلفاء والمسؤولين الاداريين للاراضي التي نعمت بوفرة المياه وخصوبة التربة ادارياً ومالياً بمثل الطريقة التي عولجت فيها الاراضي التي اعتمدت الابار والعيون. لذلك يمكن القول أن السياسة المالية العربية ابان الخلافة الراشدة والأموية كانت سياسة واقعية ومتطورة الى درجة كبيرة . اذ وقفت اراء رسول اللّه (ص) وممارساته العملية المالية ازاء اراضي خيبر وفدك والطائف سنة حسنة ومتطورة .

قال اهل خيبر للرسول (ص) : «ان لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً فاقرنا، فاقرهم رسول اللّه (ص) وعاملهم على الشطر من الثمر والحب» [١] ، فكان عبداللّه بن رواحة يأتيهم في كل عام فيخرجها عليهم ثم يضمنهم الشطر» . [٢] وعندما صالح رسول اللّه (ص) اهالي فدك صالحهم على نصف ارضهم ونخلهم فلما اجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بعث من أقام لهم حظهم من النخل والارض فاداه اليهم نصف ارضهم ونخلهم . [٣] وان عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان صالح اهل زويلة وبرقة على أن يؤخذ العشر ونصف العشر من ارض المسلمين ومن اهل الصلح صلحهم . [٤]

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٦ .
(٢) م . ن . ص ٣٧ .
(٣) م . ن . ص ١٦٨ .
(٤) م . ن . ص ٢٢٦ .

ويذكر ابو يوسف ان الخليفة عمر (رض) قد فرض على الكروم عشرة دراهم وعلى الرطب خمسة وعلى كل ارض يبلغها ماء عملت ام لم تعمل درهماً ومختوماً ، وعلى السماء من النخل العشر، وعلى ماسقي بالدلو نصف العشر، وما كان من نخل عملت ارضه فليس عليها شيء».[٥]

وفي حديث الخليفة مع كل من حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف اللذين ارسلهما لمسح السواد، اذ قال لهما بعد ان انتهيا من عملهما في مسح الاراضي: «لعلكما حملتما الارض مالا تطيق... وكان عثمان عاملاً على شط الفرات ، وحذيفة على ماوراء دجلة من جوخى وما سقت فقال عثمان حملت الارض امراً هي له مطيقة ولو شئت لاضعفت ارضي ، وقال حذيفة : وضعت عليها امراً هي له محتملة وما فيها كثير من فضل . فقال الخليفة عندئذ مقولة تشير الى سياسته كخليفة للمسلمين والتي تؤكد على اشاعة العدل والخير والرخاء بين الناس عموماً «انظر لاتكون حملتها ارض مالا تطيق اما لئن بقيت لارامل اهل العراق لادعهن لايحتجن الى احد بعدي».[٦]

لقد اتبع الخلفاء الراشدون الاجراءات العملية التي طبقها الرسول الكريم او التي اوعز بها ووجه صحابته في تطبيقها ، وفي الوقت ذاته فانهم اضافوا الى ذلك اضافات جديدة املتها عليهم الظروف التي رافقت حركات التحرير والفتوح .وما الرواية التي اوردها المؤلفون بشأن مادار في مؤتمر الجابية وما أتخذ بشأن التعامل مع السواد بعد فتحه إلا حالة بين هذه الحالات الجديدة التي همت بالخلفاء الراشدين الى سن اجراءات اقتصادية في غاية الاهمية. فعندما قدم الخليفة الجابية أراد أن يقسم الارض التي تم فتحها في بلاد الشام بين المسلمين لاسيما تلك التي فتحت عنوة ، لكنه استشار الصحابي الجليل معاذ بين جبل فكان موقفه غير ذلك اذ قال : «والله لان قسمتها ليكونن ما انكره ويصير الشيء الكثير في ايدي القوم ثم يصيرون فيبقىٰ ذلك لواحد ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون الاسلام سدا فلا يجدون شيئاً فانظر امراً يسع اولهم وآخرهم» ، فيقول البلاذري ان الخليفة وافق على اقتراح معاذ بن جبل.[٧]

---

(٥) ابو يوسف : الخراج ص ٣٧ .

(٦) ن . م .

(٧) البلاذري : فتوح ص ١٥٦ .

وفي عهد هذا الخليفة العادل وردت رواية مشابهة تقريباً تتعلق بموقفه من الاراضي المحررة في السواد (العراق)، فذكر ابو يوسف ان الخليفة استشار عدداً من الصحابة بعد ان تمت عملية تحرير السواد فكان رأي عامتهم تقسيم تلك الاراضي، وكان بلال بن رباح من أشد هؤلاء في ميله الى التقسيم وكذلك كان رأي عبدالرحمن بن عوف. اما رأي كل من عثمان وعلي وطلحة (رض) فكان موافقاً لرأي الخليفة ومفاده ان تترك الاراضي المفتوحة على حالها دون تقسيم. ويبدو ان الجماعة التي وقفت الى جانب التقسيم ومن بينهم بلال قد الحوا على الخليفة بتنفيذ مقترحهم فما كان من الخليفة إلا ان يقول: «اللهم اكفني بلالا واصحابه». واستمرت المناقشات مع المؤيدين للتقسيم اياماً الى ان قال لهم الخليفة: «قد وجدت صحة في تركه وان لا اقسمه لقول الله تعالىٰ (للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من اللّٰه ورضوانا) الى ان وصل الى الآية الكريمة (والذين جاءوا من بعدهم) عندئذٍ اشار الى اولئك النفر قائلاً فكيف اقسمه لكم وادع من يأتي بغير قسم». وبذلك حصل على اجماعهم على ترك الاراضي والاكتفاء بجمع الخراج واقرارها في ايدي اهاليها.(٨)

لذلك صارت سياسة ابقاء الأراضي الزراعية بايدي اهاليها على أن يدفعوا مقابل ذلك خراجاً

ولم يحدث ان اتبع الرسول الكريم او الخليفتين الاول والثاني سياسة واسعة في تجزئة الاراضي واقطاعها، فالرسول (ص) اقطع الزبير بن العوام ركض فرسه من موات النقيع.(٩)

وفي رواية اخرىٰ ان تميماً الداري سأل رسول اللّٰه (ص) أن يقطعه قريات في بلاد الشام والموضع الذي فيه قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب (ص) ففعل رسول اللّٰه (ص).(١٠) وذكر ايضاً ان الرسول (ص) اقطع الزبير ارضاً فيها نخل من اموال بني النضير كانت تسمىٰ الحرف.(١١) كما انه (ص) اقطع وتألف على الاسلام اقواماً اذ اقطع لاناس من مزينة او جهينة ارضاً لكنهم اهملوها ولم يعمروها فجاء قوم غيرهم فعمروها فخاصمهم المزينيون او الجهنيون الى الخليفة عمر (رض) فقال لهم لو كانت الارض منه

---

(٨) ابو يوسف: الخراج ص ٣٥.

(٩) الماوردي: الاحكام ص ١٩٠.

(١٠) ابن سلام: الاموال ص ٢٧٤ – ٢٧٥، الماوردي: الاحكام ص ١٩٠.

(١١) ابو يوسف: الخراج ص ٦١، ابن سلام: الاموال ص ٢٧٣.

او من الخليفة ابي بكر لردها اليهم لكنها قطيعة اقطعها الرسول (ص)[١٢] كذلك ذكر ان الرسول (ص) عندما قدم المدينة اقطع كل من ابي بكر وعمر (رض) واقطع (ص) بلالا بن الحارث المزني مابين البحر والصخر.[١٣]

كان اجراء الرسول (ص) اجراءاً اقتصادياً عملياً اذ رأى (ص) أن «الصلاح فيما فعل من ذلك اذا كان فيه تألف على الاسلام وعمارة الارض».[١٤]

ولعله من الصواب القول ان الخليفتين (رض) قد اقطعا بعض الاقطاعات لكنهما لم يتخذا ذلك سنة عامة تشمل جميع الاراضي انما يفهم من الروايات ان الاراضي التي اقطعها الرسول (ص) والخليفتين من بعده كانت اراضي موات او اراضي جلا عنها اهلها فلم يبق بها ساكن ولا بها عامر.[١٥] وانه (رض) اقطع جماعة اليمامي الخضرمة واقطعه الخليفة عمر (رض) الرياء.[١٦]

وهناك مجموعة من الروايات التي تذهب الى ان الخليفة عثمان بن عفان (رض) يُعَد أول من أقطع الاراضي واول من أجرها او باعها. فيقول يحيىٰ بن آدم ان: «رسول الله (ص) لم يقطع الارضين وكذلك ابو بكر وعمر وان أول من اقطعها وباعها عثمان».[١٧] ومع مافي هذه الرواية من تناقض كما سبق ذكره من روايات حول ان الرسول (ص) والخليفتين بعده قد اقطعوا عدداً من الافراد الاراضي وان الخليفة عثمان (رض) لم يكن، بهذا، اول خليفة قام بهذا الاجراء إلا أنه من الجائز القول ان سياسة قطع الاراضي او بيعها أو تأجيرها صارت اكثر شيوعاً فشملت سياسة الاراضي الموات والمزروعة على حد سواء.

فالارض التي اقطعها الخليفة عثمان (رض) لعثمان بن ابي العاص بالبصرة المعروفة «بشط عثمان» كانت يومئذ سباخاً واجاماً فاحياها عثمان ابن ابي العاص واستثمرها.[١٨] كما انه اقطع النهرين وقرية هرمز وغيرها وهي من الاراضي التي لم يبق لها مالك.[١٩]

---

(١٢) ابو يوسف: الخراج ص ٦١

(١٣) ن. م. ص ٦٢

(١٤) ن. م. ص ٦٢

(١٥) ابن سلام: الاموال ص ٢٧٦.

(١٦) البلاذري: فتوح ص ١٠٣.

(١٧) يحيىٰ بن آدم: الخراج ص ٧٥.

(١٨) ابو عبيد: الاموال ص ٢٨٤

(١٩) ن: م.

وفي هذه السياسة عدة توجهات ايجابية اقتضتها ظروف العصر لاسيما عندما اخذت موجة الفتوحات الاسلامية تخف وحينها صارت نسبة الاراضي التي تركها اهلها او التي لم يبق لها مالك ، او الاراضي الموات كثيرة جدا ، كان لابد من اتباع سياسة جديدة تؤدي الى بيعها او اقطاعها او تأجيرها وهي سياسة ضرورية جدا مقارنة بالتحولات الحضارية والمالية والاقتصادية التي واجهتها الدولة العربية الاسلامية ابان فترة الخليفتين عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب (رض) ومن بين اهم هذه التحولات الحضارية نشوء المدن والامصار واستقرار العديد من افراد القبائل العربية بها ، وما رافق هذا التحول من تحول اجتماعي واقتصادي ، اذ جذبت هذه المراكز الحضرية الفلاحين من القرى المجاورة اما هرباً من نفوذ الدهاقين واما لمزاولة المهن والاعمال الكثيرة التي هيئتها البنية السكانية الجديدة لهذه الامصار فازدادت الاراضي التي تركها اهلها واتسعت مساحات الاراضي الموات او غير العامرة.

من هنا يمكننا تفسير ظاهرة التوسع الواضح في الاقطاعات التي وزعها الامويون لاسباب عدة اهمها سياسية اذ وجدوا فيها اسلوباً مهماً لتكثيف عدد من المؤيدين والموالين لسياستهم ، كذلك علينا ان لانقلل من اهمية الاسباب الاقتصادية العامة والخاصة التي تهدف الى احياء الاراضي الموات والمهملة وبذلك اخذت تدر عليهم وعلى اقتصاد الدولة موارد في غاية الاهمية.

وهناك عدد غير قليل من الادلة التاريخية التي تؤكد هذه السياسة في توزيع الاقطاعات منذ زمن الخليفة معاوية بن ابي سيفيان فصاعداً. فاعتماداً على اليعقوبي فقد قام معاوية بالسيطرة على اراضي الصوافي (وهي الاراضي التي ليس بها مالك او وريث) فاستصفى اراضي كسرى وعائلته واراضي الملوك والاباطرة في بلاد الشام واراضي الكوفة والبصرة والجزيرة واليمن ، كما انه ضم الصوافي في مكة والمدينة.[٢٠]

ومما يجدر ذكره ان ابا يوسف قدر خراج ما استصفاه الخليفة عمر (رض) من اراضي كسرى وعائلته بسبعة ملايين درهم.[٢١] كذلك يشير البلاذري ان عبدالملك بن مروان ضم عدة اراضي من البطائح (الاهوار) خاصة تلك التي تم اصلاحها من قبل مصعب بن الزبير ثم أقطعها لمالك بن مسمع وهو من سادة البصرة ، وبعد ذلك لعلي بن عبدالله بن العباس.[٢٢]

---

(٢٠) اليعقوبي : تاريخ جـ ٢ ص ٢٠٧ ، ٢٢٢.

(٢١) ابو يوسف : الخراج ص ٥٧.

(٢٢) البلاذري : انساب الاشراف جـ ٤ ق ٢ ص ٥٧ – ٥٨ ، جـ ٥ ص ٢٨١.

واقطع بعض الخلفاء الامويين اقاليم وقرى باكملها لبعض الاشخاص لهدف زرعها او احيائها او اعمارها مثلما اقطع الخليفة معاوية قرية الثمرانية في الغوطة لثمران بن يزيد المذحجي.(٢٣) واقطع يزيد بن معاوية اقليم بيت الابار لسعيد بن مالك بن بحدل الكلبي.(٢٤) واقطع عبدالملك القعقاع ضيعة قرب مدينة حلب، واقطع هذا الخليفة الناس قطائع في عسقلان وعين الوردة.(٢٥) كما اقطع الوليد بن يزيد احد الاشخاص ضياعاً واسعة بالثنية.(٢٦)

صحيح ان سياسة التوسع في اقطاع الاراضي او تملكها من قبل الخلفاء الامويين وافراد اسرتهم والاشخاص المقطعين قد ادت بمرور الزمن الى تنامي الملكية الفردية وبالتالي تكوين طبقة ملاكين عربية كبيرة، غير انها من جانب آخر ادت الى نهضة زراعية متميزة، اذ اورد اليعقوبي مثلاً ان واردات معاوية بلغت ١,٨٨٠,٠٠٠ دينار.(٢٧) وبلغ خراج بلادالشام ايام خلافة عبدالملك بن مروان نسبة عالية ايضاً، فكان خراج دمشق اربعمائة الف دينار وخراج فلسطين ثلثمائة وخمسون الف، والاردن مائة وثمانون الفاً وحمص وقنسرين سبعمائة الف او ثمانمائة الف.(٢٨)

علاوة على ذلك فإن السياسة المالية- الاقتصادية الجديدة التي إتبعها الخلفاء الامويين كانت متأثرة بطبيعة المرحلة السياسية والاقتصادية، اذ دانت للدولة الاموية اجزاء واسعة من المشرق (حدود الصين، اواسط اسيا الصغرى والسند والهند) وفتحت في ايامهم اجزاء واسعة من المغرب العربي (جبال البرتات- البرنس- غرباً والى بلاد البجة (السودان) جنوباً). وعبرت قواتهم البحر المتوسط لتنتقل عمليات الامويين العسكرية الى اوربا، ففتحت الاندلس وتوغلت القوات العربية شمالاً. وتكللت جميع العمليات بنجاحات عسكرية باهرة، ولولا مالحق الغافقي من خسائر في معركة بلاط الشهداء لكانت حدود الدولة الاموية قد وصلت الى مناطق كثيرة في اوربا.

وقدجلبت هذه الانتصارات العسكرية متغيرات اقتصادية اهمها ظهور انماط انتاجية لم تكن شائعة في الفترات السابقة ونقصد بها التوسع في الانتاج الزراعي مما يدخل في

---

(٢٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٠٤.

(٢٤) ابن عساكر: تهذيب جـ ١ ص ٧١.

(٢٥) البلاذري: فتوح ص ١٤٦، ١٤٨.

(٢٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ٣ ص ١٨٦، ٢٠٩

(٢٧) اليعقوبي: تاريخ جـ ٢ ص ٢٣٣.

(٢٨) ابن حوقل: صورة الارض ص ١٦٢، البلاذري: فتوح ص ١٦٣.

اطار الصادرات التجارية الى المناطق المختلفة ، والتوسع في المجال التجاري والصناعي ، وظهور الاهتمام الكبير في تسهيل ، عمليات البيع والشراء عن طريق التبادل النقدي بدلاً من المقايضة . والاكثر اهمية التوسع في نفقات الدولة السياسية والعمرانية .

إن كل هذه العوامل وغيرها جعلت من سياسة الامويين الزراعية ازاء الاراضي تواجه بعض التحديات ومن اهمها بل من الناحية الدينية – الفقهية في اخطرها شيوع ظاهرة انتقال الاراضي الخراجية الى عشرية ، وظهور الملكيات الفردية الواسعة واتساع املاك الخلفاء وعوائلهم والافراد الاخرين .

فمن الملاحظ ان هذه الظاهرة صارت ظاهرة عامة في المجتمع العربي الاسلامي فانشغل ممن يعرف كيفية استثمار اموالهم استمثاراً مربحاً بامتلاك الاراضي او تعميرها او استثمارها علماً بإنه كان امتلاكهم اياها اما عن طريق الشراء او الاقطاع .

وهناك مساحات واسعة من الاراضي في الفرات قد اسلم اهلها عليها عند دخول العرب المسلمين اثناء التحرير ، واراضي اخرىٰ خرجت من ايدي اهلها الى جمع من المسلمين اما عن طريق الهبات او الاقطاع او غير ذلك من الاسباب فتحولت من اراضي خراجية الى عشرية[29] وهي ظاهرة لم تكن موجودة قبل هذه الفترة على اساس ان الاراضي الخراجية تبقىٰ كذلك وان امتلكها مسلم ، فقد جاء رجل الى الخليفة عمر (رض) قائلاً له «اني قد اسلمت فارفع عن ارضي الخراج ، قال : ان ارضك اخذت عنوة» .[30]

إن هذه الظاهرة الجديدة قد جلبت نتائج سياسية واقتصادية خطيرة كان من ابرزها موقف الحجاج الثقفي ، والي العراق ، من شيوع تحويل الاراضي الخراجية الى عشرية ، وما وجد فيها من مشكلة تؤدي الى سلبيات اقتصادية بالنسبة الى خزينة الدولة فقرر اعادة فرض ضريبة الخراج على الاراضي المحولة مهما كان مالكها مسلماً ام غير ذلك ،[31] معتمداً في اجرائه هذا على اساس ان هذه الاراضي هي ملك للدولة وان الخراج عليها هو بمثابة ايجار ولايحق اسقاطه . وبذلك حدَّ من عملية تحويل الاراضي الخراجية الى عشرية ، وطبق هذا الاجراء على اراضي الفرات .[32]

---

(٢٩) البلاذري : فتوح ص ٣٦١ .

(٣٠) م . ن . ص ٢٦٨ .

(٣١) م . ن . ص ٣٦١ .

(٣٢) م . ن . ص ٣٦١ .

اما الظاهرة الاخرى الجديدة فهي شيوع الالجاء، والمراد بالالجاء لغوياً ان يكتب الشخص ارضه باسم أمير يتمتع بقوة سياسية وادارية بمعنى أن يلجأ ارضه اليه بهدف حمايتها. وقد انتفع الخلفاء والامراء والمتنفذين من هذه العملية كثيراً، اذ أن هذا سيتولى بكل مايتعلق من النواحي المالية للارض التي الجأت اليه حتى يصبح وكأنه مالكها الحقيقي وهو الذي يقوم بدفع ضريبة الخراج عوضاً عن مالكها الاصلي مثلما حدث في اراضي بقرية بمراغة في اذربيجان التي ألجأ اهلها الاراضي القرى الى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم فاتحها وكتبوها باسمه وصاروا مزارعين عليها[٣٣]. وكذلك ماذكره البلاذري ايضاً بالنسبة لأراضي من طساسيج متصلة في قرى البطائح التي الجأت الى مسلمة بن عبدالملك وتألف الاكرة والمزارعين فيها وعمر اراضيها والجأ الناس الى تلك الاراضي التي اقطعت له ايام ولاية الحجاج الثقفي على العراق، يقول البلاذري «والجأ الناس اليها- اراضي مسلمة في البطائح- ضياعاً كثيرة للتعزز به»[٣٤]. وكما هو الحال في اراضي مدينة بالس الواقعة بين حلب والرقة فان اراضيها والقرى المنسوبة اليها كان أعذاء عشرية فلما توجه اليهم مسلمة بن عبدالملك قاصداً الروم جاءه اهلها واهالي بويلس وقاصرين وعابدين وصفين وهي قرى تابعة الى بالس وطلبوا منه ان يحفر لهم نهراً لسقي اراضي قراهم وان يجعلوا له ثلث انتاج غلاتهم بعد أن يدفعوا عشر المفروض عليهم وبقي الأمر كذلك الى ان مات مسلمة فتحولت بالس وقراها لورثته[٣٥].

وواقع هذه الظاهرة انها قد أدت الى تضاؤل امكانيات الفلاحين والملاكين الصغار بالجاء اراضيهم حماية من الضرائب الى الملكيات الكبيرة فساعد على تنامي هذه الملكيات وبالتالي الى تحويل الاراضي الخراجية الى عشرية.

والايغار هي الظاهرة الاخرى التي ظهرت ابان العصر الاموي، وهي من الظواهر الاقتصادية التي نتجت عن سوء تصرف جباة الخراج. فالايغار لغة أن بوغر الملك الارض لرجل فتصبح له دون ان يدفع عنها الخراج، اوان يؤدي الخراج الى السلطان. فقد اقطع عبدالملك بن مروان عم القعقاع واسمه العباس بن جزء بن الحارث قطائع اوغرها له الى اليمن فاوغرت بعده وكانت اكثر هذه القطاع عبارة عن اراضي موات[٣٦]. وقد ادى هذا الصنف من الاقطاعات الى ان يخرج الكثير من الاراضي الزراعية الجيدة من دائرة الاراضي

---

(٣٣) البلاذري: فتوح ص ٣٢٥؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٥ ص ٩٣.

(٣٤) البلاذري: فتوح ص ٢٩٢.

(٣٥) م. ن : ص ٥٢؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٨.

(٣٦) البلاذري: فتوح ص ١٥٢.

الخراجية لتصبح اراضي عشرية او اراضي الصوافي. في الوقت الذي ادت الى توسيع ملكيات اصحاب الجاه والنفوذ.

لقد حاول الخليفة عمر بن عبدالعزيز ان يوقف عمليات بيع الاراضي او ايغارها فاصدر امراً عاماً منع فيه بيع الاراضي الخراجية وذلك حماية لبيت مال المسلمين وللحد من تنامي الملكيات الفردية الكبيرة[٣٧] . ويبدو انه نجح الى درجة كبيرة في ايقاف تيار الملكيات الفردية الواسعة غير ان الحالة سرعان ماعادت لتتفشى بشكل اوسع ويظهر هذا بوضوح خلال الملاحظات التي ابداها يزيد بن الوليد سنة ١٢٦هـ/ ٧٤٢م اذ قال « ايها الناس ان لكم عليّ الا اضع حجراً على حجرٍ ولا لبنة على لبنة ولااكري نهراً»[٣٨] . بمعنى انه هدف الى تطمين اولئك المتذمرين من توسع الملكيات الفردية واقتناء الاراضي بصورة كبيرة من قبل الخلفاء الامويين وامرائهم لاسيما اثناء فترة خلافة هشام بن عبدالملك. فقد اشتهر كل من مسلمة بن عبدالملك وهشام بتملك الضياع الكثيرة والاراضي الواسعة فكانت له ارض بفرس وقرى وضياع في شمال سوريا مثل الاسكندرونة وعين السلور وبحيرتها، في الوقت الذي احيا فيه هشام اراضي واسعة من الرصافة وحفر نهري الهني والمري ليوصل مياه الري لسقي تلك الاراضي[٣٩] .

كذلك لجأ الامويون الى مظهراً اخر حمل ابعاداً ونتائج اقتصادية كبيرة الا وهو اقطاع الاراضي. وقد ساهم الخلفاء والامراء بتوزيع الاراضي الزراعية والضياع العامرة على شكل اقطاعات. والاقطاع كما اورده قدامة بن جعفر يعني « ان يدفع الائمة الى من يرون ان يدفعوا اليه شيئاً مما ذكرنا- اي الاراضي- فيملك المدفوع ذلك اليه رقبته بحق الاقطاع ويجبى عليه العشر»[٤٠] . فأقطع الخلفاء الامويون منذ زمن معاوية بن ابي سفيان في بلاد الشام والعراق والجزيرة الفراتية واليمن والمشرق الى الولاة والقادة والعمال.

وللمقاتلة نصيب في اقتناء الاراضي الزراعية ، حيث تذكر الروايات أن الامويين بادروا الى توزيعها عليهم بهدف توطينهم وتشجيعهم على الاستقرار، اذ يورد الطبري ان الحجاج الثقفي كتب الى عبد الرحمن بن الاشعث اثناء مسيرته لقتال رتبيل ملك الترك «اما بعد فمر

---

(٣٧) الدوري: العرب والارض ص ٥.

(٣٨) الطبري: تاريخ جـ ٧ ص ٢٦٢.

(٣٩) البلاذري: فتوح ص ١٥٣.

(٤٠) قدامة بن جعفر: نبذة من الخراج ص ١٢٤.

من معك من المسلمين فليحرثوا ويقيموا فانها ديارهم حتى يفتحها الله عليهم[٤١]. كما اقطع الوليد بن عبدالملك المقاتلة الذين كانوا معسكرين في انطاكية ارض سلوقية الواقعة على الساحل وشجعهم على تعميرها وزرعها.[٤٢] وكذا فعل الامويون في انطاكية وطرسوس ومرقية وبانياس[٤٣]. اما الخليفة عبدالملك فقد اقطع قوماً من المرابطة اراضي بعسقلان، وحينما تم فتح الطرطوس ومرقبة وبلبيناس وجلا عنها اهلها اقطع اراضي فيها للمقاتلة[٤٤]. كذلك الحال عندما ترك اهالي بالس وقاصرين وعابدين وبوبلس وصفين قراهم اقطع ابو عبيدة تلك الاراضي الى جماعة من المقاتلة.[٤٥]

وادخل الامويون مظهراً رابعاً من مظاهر التطور الاقتصادي في مجال الزراعة إلا وهو القبالة او التقبل الذي يعدّ بمثابة الكفالة او الضمان. وتوضيح القبالة ان يجعل المرء لنفسه وكيلا (قبلا) يحصل باسمه الخراج ويأخذه لنفسه لقاء أجر محدود يدفع له. وفي الغالب يكون هذا القبيل او الكفيل من اصحاب النفوذ السياسي والاداري لهذا السبب عدّ بعض الصحابة والفقهاء هذا الاسلوب بانه حرام وكرهوه. فقد ذكر أن ابن عباس قال: القبالات حرام الاموال[٤٦]. وذكر ان ابن عمر قال: إن القبالات ربا[٤٧].

واعتماداً على عدد من الاستشهادات فان عدداً من الخلفاء الامويين قد مارس هذا الاسلوب الاقتصادي، اذ اورد الجهشياري: ان ابا المثنى مروخ كان يتقبل لهشام بن عبدالملك اراضيه وكان هشام يستفيد بذلك تعجيل الحصول على الاموال بينما يكسب ابو المثنى (المتقبل) الفرق بين مايدفعه الى هشام وبين مايحصله فعلاً من القبالة[٤٨].

---

(٤١) الطبري: تاريخ جـ ٨ ص ٨٠.

(٤٢) البلاذري: فتوح ص ١٥٣.

(٤٣) م. ن: ص ١٤٨، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤.

(٤٤) م. ن: ص ١٣٩، ١٥٠.

(٤٥) م. ن: ص ١٣٨، ١٥٦.

(٤٦) ابو عبيد: الاموال ص ٧٠.

(٤٧) م. ن:

(٤٨) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٦١.

انجازات الامويين في مجال الزراعة

ومع ما في تلك المظاهر الجديدة التي استحدثت ايام الخلافة الأموية من نتائج سلبية ادت بمرور الزمن الى ان تتحول الكثير من الاراضي الخراجية الى اراضي عشرية وكذلك تنامي الممتلكات الزراعية والاراضي الزراعية لبعض الافراد على حساب الملاكين الصغار فانها- اي هذه المظاهر- تؤكد بوضوح على مدى اهتمام الامويين، خلفاء وامراء، المتزايد بالشؤون الزراعية وفي تنمية الموارد القائمة على هذا النمط من الانتاج. وفي التاريخ ادلة عديدة تبين بجلاء هذا التوجه والاهتمام بالزراعة وشؤون الارض.

لقد شجع الخلفاء الامويون على توسيع رقعة الاراضي الزراعية المنتجة في اجزاء مختلفة من العالم الاسلامي، وتمثل هذا التشجيع باوجه متعددة اهمها:

١ - العناية بحفر الانهار:

ففي غوطة دمشق مثلا حفر يزيد بن معاوية قناة عرفت باسم نهر يزيد محاولة منه في اصلاح عملية الري في هذه المنطقة الزراعية المشهورة من بلاد الشام.

ويشير ابن عساكر الى ان الضياع التي كانت في المنطقة التي يجري فيها هذا النهر قد هجرت ولم يبق لها وارث ايام معاوية فاخذها هذا الخليفة، ولما تولى الامر يزيد وجد ان هذه الاراضي الواسعة تنقصها المياه فحفر عندئذ النهر بسعة ستة اشبار(٤٩).

وذكر ابن عساكر ايضا ان مياه نهر بردى في بلاد الشام قد قلت زمن خلافة سليمان الى درجة كبيرة بحيث ادت الى ان يشتكي الناس من خطورة الموقف الامر الذي دفع الخليفة الى ان يبعث الى مولاه عبيدة بن اسلم ليكري ماء العين ، ويبدو أن مشكلة شحة المياه ظلت قائمة بعد عملية اكراء العين فامر هشام القاسم بن زياد الى ان «يحيز لهم الاناهر فحازها»(٥٠).

(٤٩) ابن عساكر : تهذيب جـ١ ص ٢٤٤-٢٤٥.
(٥٠) م. ن : جـ١ ص ٢٤٥-٢٤٦.

اما البلاذري فقد اورد لنا ان الخليفة عبدالملك ولى ابنه سعيد ولاية الموصل، والى سعيد هذا يرجع الفضل في حفر نهر سعيد في الموصل، وقيل أن موضع هذا النهر كان عبارة عن غيضة تسكنها السباع فلما أقطع الوليد بن عبدالملك هذه الغيضة له قام بحفر النهر فادى الى اعمار الاراضي فيها (٥١).

وعندما توجه مسلمة بن عبدالملك غازياً ضد الروم عسكر بمدينة بالس فشكى اهلها واهالي قرى بوبلس وعابدين وقاصرين وصفين وهي قرى محيطة بمدينة بالس من شحة المياه فامر مسلمة بحفر نهر متفرع من الفرات لري تلك الاراضي فدر هذا المشروع على الاهالي الخير الوفير باحياء اراضي تلك القرى فجعلوا لمسلمة ثلث غلاتهم بعد عشر السلطان.

وفي عهد الوليد بن عبدالملك عندما ولى سليمان جند فلسطين احدث هذا الوالي مدينة الرملة ومصرها وبنى فيها قصره ودارالصباغيين وحفر للاهالي قناة تعرف بنهر بردة كما حفر لهم اباراً وقد استثمرت مياه هذه المشاريع لري الاراضي (٥٢).

ويعقب البلاذري ان خلفاء بني امية كانوا ينفقون على ابار الرملة وعلى قناتها بعد سليمان بن عبدالملك.

وكان الخليفة عمر بن عبدالعزيز مهتماً بشكل واضح بتحسين وسائل ري الاراضي وكان دؤوباً على تشجيع الولاة على شق الانهار والترع وعلى تحسين اوضاع الفلاحين وعلى الغاء الضرائب التي كانت تعيق تنمية وتطوير الاراضي الزراعية، ومن بين هؤلاء الولاة عدي بن ارطاة والي البصرة اذ كتب الى الخليفة بشأن حفر نهر لاهالي البصرة فاذن له فحفر نهرين وقد خرج اهالي البصرة الى ذلك الموضع الذي تمت فيه عملية الحفر ليراقبوا العملية (٥٣).

كما عرف الخليفة هشام بن عبدالملك باهتماماته الواسعة في تملك الاراضي وتنظيم وسائل الري فيها فحفر نهري الهني والمري بالقرب من (الرقة) و(الرافقة) وقد ساعدت هذه المشاريع على تنمية الاراضي الواقعة على هذين النهرين لتصبح ضياعاً، وكان يأخذان مياههما من نهر الفرات ويسقيان البساتين بحيث ان الشاعر الصنوبري وصفهما قائلا:

---

(٥١) البلاذري : فتوح ص ٣٢٨.

(٥٢) البلاذري: فتوح ص ١٤٨.

(٥٣) م. ن : ص ٣٦٣.

بـــين المني الى المـــر ي الى بساتين النقار[٥٤]

ونظراً لكثرة الاراضي العائدة الى هشام فقد عين وكيلاً له ينظر في انتاجاتها ومانعتاجه. ولم يقتصر أمر العناية في الاراضي الزراعية والاهتمام بتطوير مشاريع سقي الاراضي وحفر القنوات والانهار على خلفاء بني امية فقط انما تعدى ذلك الى الولاة والعمال. وقد حظيت اراضي العراق في البصرة والكوفة وواسط والبطائح بعناية كبيرة. فالى زياد بن ابي سفيان، الذي كان والياً على الديوان ايام ولاية عبدالله بن عامر، يرجع الفضل في حفر نهر الأبله. كذلك يرجع الفضل في حفر نهر معقل المشهور في البصرة الى معقل بن يسار خلال ولاية زياد على البصرة اثناء خلافة معاوية، كما حفر مولى لزياد نهراً اسمه نهر دبيس.

ويذكر البلاذري ان حفر نهر بشار في البصرة ينسب الى بشار بن مسلم الباهلي أخ قتيبة بن مسلم، وكان بشار قد اهدى الحجاج الثقفي فرساً فسبق عليه فاقطعه سبعمائة جريب من الأرض (او اربعمائة جريب) ولاجل استثمار هذه الارض حفر بشار نهراً حمل اسمه[٥٥].

وهناك انهار اخرى حفرت اثناء ولاية زياد منها نهر ذراع ونهر حبيب ونهر ابي بكرة ونهر مكحول ونهر البراء. وشمل زياد اهل بيته في تملك الاراضي وتطوير احوالها الزراعية، فيذكر ان نهر النبات في البصرة ينسب الى نبات زياد اذ أقطع كل ابنة ستين جريباً من الارض وحفر لهن هذا النهر ليسقي تلك الاراضي[٥٦].

وينسب نهر المرغاب الى بشير بن عبيد بن ابي بكرة وكان يجري في قطيعة اقطعها يزيد بن عبدالملك الى مرغاب هذا وبلغت مساحتها ثمانية الالآف جريب[٥٧]. وينسب نهرزيد الى يزيد بن المهلب الذي حفره لارواء قطيعته كما حفر عمر بن هبيرة نهر ملهليان لارواء قطيعة اقطعها له يزيد بن عبدالملك[٥٨]. وحفر الحجاج الثقفي نهر العين في منطقة واسط. كذلك حفر نهر النيل و الزابي فاصبحت هذه الانهار عصب الحياة للاراضي الواقعة على جانبيها[٥٩]. وحفر والي الموصل الحر بن يوسف نهر المكشوف بغية توفير مياه الري للاراضي

---

(٥٤) البلاذري: فتوح ص ١٨٤؛ ياقوت الحموي: معجم جـ٥ ص ٤١٩.

(٥٥) البلاذري: فتوح ص ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٥.

(٥٦) م. ن: ص ٣٥٦، ٣٥٧.

(٥٧) م. ن: ص ٣٥٨.

(٥٨) م. ن: ص ٣٥٩.

(٥٩) م. ن: ص ٢٨٨، ٣٦٠، ٣٦٢.

هناك وقد بدأ العمل بحفره سنة ١٠٧هـ وانفق في حفره ثمانية ملايين درهم ثم اكمل حفره ايام الوليد بن تليد عام ١٢١هـ [٦٠].

٢- استصلاح الاراضي:

كانت عناية الخلفاء الامويين وامرائهم وولاتهم بتحسين مشاريع الري مدفوعة بدافع اقتصادي الى درجة كبيرة وادى هذا بمرور الزمن الى احياء الكثير من الاراضي الموات والاراضي التي هجرها اهلها وتلك التي غطتها المياه فلم تعد صالحة للزراعة، وبذلك فقد ساعدت عمليات حفر الانهار والترع الى اعادة الحياة لهذه الاراضي مما جلب الخير الوفير.

ان عملية استصلاح الاراضي لاغراض الزراعة لم تكن عملية مقصورة على الخلفاء الامويين وحدهم انما كانت عملية واسعة تمتد جذورها الى زمن الرسول الكريم (ص) والخلفاء الراشدين. فيقول رسول لله (ص) مانصه (من احيا ارضاً مواتاً فهي له) و (من أعمر ارضاً ليست لأحد فهو أحق بها) [٦١].

وسار الخلفاء الراشدون على النهج نفسه، فورد عن الخليفة عمر (رض) قوله «من احيا ارضاً ميتة فهي له، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين». اذ ان العادة كانت جارية بان اشخاصاً كانوا يحتجرون من الارض مالايعمرونه [٦٢]. وقال يحيي بن آدم ان رجلاً جاء الخليفة علي بن ابي طالب (رض) فقال له: «اتيت ارضاً قد خربت وعجز عنها اهلها فكريت انهاراً وزرعتها قال: كن هنيئاً وانت مصلح غير مفسد، معمر غير مخرب» [٦٣].

وقد اتسع نطاق احياء الاراضي واصلاحها للزراعة ايام الأمويين، وصار الخلفاء هم المسؤولون عن منح الاذن للاشخاص الذين يرومون احياء الاراضي. ولمقولة الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز اهمية كبيرة في هذا المجال، ويعدّ امتداداً واضحاً لنظرية الرسول (ص) والخلفاء الراشدين في احياء الاراضي اذ قال: «من غلب الماء على شيء فهو له».

---

(٦٠) الازدي: تاريخ الموصل ص ٥٦، ١٦٤.

(٦١) ابو يوسف: الخراج ص ٦١، ٦٤، ٦٥، ١٠١.

(٦٢) م. ن: ص ٦٥

(٦٣) ابو عبيد: الاموال ص ٨٥.

(٦٤) م. ن: ص ٢٨٤

فمعالجة اي فرد في ازالة المياه عن ارض مغمورة بالمياه واصلاحها بعد ان كانت كذلك اما عن طريق النزح او عن طريق التسهيل حتى ينضب عنها الماء فتكون بذلك المستصلحة لمن يحييها، فحكم هذه الارض حسبما رأى الخلفية عمر بن عبدالعزيز ان تكون لمن فعل ذلك ونزح المياه عنها.

لقد كانت هناك عمليات استصلاح متعددة في الكثير من المناطق، ارتقى بعضها الى مصاف المشاريع الضخمة لاسيما مشروع اعادة استصلاح البطائح، في حين قد نفذت مشاريع اقل اهمية من ذلك. فتذكر الرواية ان الوليد بن عبدالملك اقطع سعيد بن عبدالملك نهره الذي كان يأخذ مياهه من نهر الفرات، وكان في الاصل غيضة فيها سباع فاعطاها اياها فعمرها واستصلحها فصارت تعرف باسمه وصار النهر يعرف باسم «نهر سعيد»[٦٥].

اما البطائح (الاهوار) فانها منطقة واسعة تقع بين واسط والكوفة شمالاً والبصرة جنوباً تكونت اما في سنة ست او سبع هجرية على اثر زيادة المياه في نهر الفرات زيادة عظيمة ادت الى غرق هذه الاراضي بسبب اهمال كسرى فارس ابرويز في سد البثوق والسيطرة على الفياضانات، ويذكر البلاذري ان زيادة الفرات ادت الى غرق عدة طساسيج وبساتين واتسعت مساحة اراضي البطائح ايام الخلفاء الراشدين فعندما تولى الامويون الامر قام بعض خلفائهم وامرائهم باستخراج واستصلاح مساحات واسعة من اراضيها. مما يذكر ان الخليفة معاوية بن ابي سفيان ولىٰ عبدالله بن دراج مولاه مسؤولية خراج العراق فاستصلح عبدالله للخليفة الاراضي من البطائح قدرت قيمّة غلة هذه الاراضي المستصلحة بخمسة ملايين درهماً. فقد قام اولا بقطع القصب الذي كان غالباً على البطائح ثم سيطر على المياه ببناء المسنيات[٦٦]. لكن يبدو ان عملية عبدالله بن دراج هذه لم تكن محكمة الى درجة كبيرة كما انها لم تكن واسعة ، اذ يذكر البلاذري ان السدود والبثوق قد تفجرت مرة اخرى خلال خلافة عبدالملك بن مروان حينما كان الحجاج الثقفي والياً على العراق في حين ان هناك رأياً آخر يقول ان هذا الوالي قد اهمل السيطرة على البثوق لاسباب سياسية- اقتصادية لجلب الضرر على الدهاقين لانه اتهمهم بموالاة حركة عبدالرحمن بن الاشعث، ومع ذلك فان هناك من الروايات التاريخية ما يؤكد ان الحجاج الثقفي بعد ان صمم على اتخاذ مدينة واسط مدينة له ولجنده بدلاً من البصرة والكوفة انجز

---

(٦٥) م. ن : ؛ ياقوت : معجم البلدان جـ٥ ص ٣٢١.

(٦٦) البلاذري : فتوح ص ٢٩٠-٢٩١.

عدة مشاريع تهدف الى احياء الاراضي في منطقة البطائح. فإنه عندما نزل واسط حفر نهري النيل والزابي واحيا الاراضي الواقعة عليها.

لقد استمر الحجاج في عملية استصلاح الاراضي ومتابعتها حيث ولى حسان النبطي هذه المهمة (وهو مولى لبني ضبه) والى حسان هذا ينسب الحوض المعروف بالبصرة «حوض حسان» كما تنسب اليه المنارة الموجودة في البطائح التي تسهل عملية الملاحة، وقد نجح في استخراج مساحات غير قليلة من اراضي البطائح للحجاج ايام خلافة الوليد وهشام ابني عبدالملك بن مروان.

وتضيف الينا الروايات انه كان بكسكر في البطائح قبل حدوث الفياضانات نهر يقال له « نهر الجنب» فلما تبطحت البطائح (اي عندما ظهرت البطائح وطغت المياه على الاراضي) تحول ذلك النهر الى آجام وسمي آجام البريد، والاجمة منطقة غير صالحة للزراعة تكسوها غابة من القصب والشجر. لذلك عندما قام الامويون بمشروع استصلاح اراضي البطائح تحولت هذه الآجام الى اراضي صالحة للزراعة وظهرت فيها «الجامدة» وهي قرية كبيرة جامعة من اعمال مدينة واسط بينها وبين البصرة مسافة[67].

وهناك رواية اخرى تفيد بان السدود عندماانكسرتايام ولاية الحجاج كتب بأمرها الى الخليفة الوليد بن عبدالملك واخبره ان تكاليف سد هذه البثوق تبلغ ثلاثة الآف الف درهم (مايعادل ثلاثة ملايين درهم) فاستكثرها الوليد لكن مسلمة بن عبدالملك وعد أن ينفق على سد هذه البثوق في البطائح شريطة ان يقطعه الخليفة الاراضي المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد ان ينفق عليها المبلغ المذكور على ان يتولى الحجاج عملية الانفاق ، فوافق الخليفة الوليد وبذلك تم لمسلمة استصلاح اراضي واسعة من طساسيج متصلة ، كما عمل على حفر نهر « السيبين» وتألف الأكرة والمزارعين فعمرت بذلك تلك الاراضي.

ان هذه الاعمال المهمة في استصلاح الاراضي قد شجعت دون شك الاهالي على القيام بواجباتهم في هذا الاتجاه حيث اتسعت رقعة الاراضي المستصلحة، مما حدى ببعضهم الى الجاء ملك الاراضي المستصلحة ضياعاً كثيرة للتعزز بمسلمة فازدادت، لهذا السبب، مساحة الاراضي الصالحة للزراعة[68] في البطائح.

---

(٦٧) م. ن : ص ٢٨٨ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ ٢ ص ٩٥.

(٦٨) البلاذري: فتوح ص ٢٩٢.

وفيما عدا هذا المشروع الكبير لاستصلاح اراضي منطقة البطائح الواسعة فان هنالك اشارات تاريخية عديدة تؤكد ما اتخذه الخلفاء الامويون وعمالهم من اجراءات واعمال تهدف الى اصلاح الاراضي، فقد ورد أن معاوية بن ابي سفيان قد اشترى ارضاً في وادي القرى من اليهود ولم تكن انذاك ارضاً معمورة فاحياها فتحولت الى ارض منتجة(٦٩). وقام والي معاوية زياد باقطاع الناس القطائع في منطقة اطلق عليها«زيادان» وكان يقول للرجل الذي يقطع ارضاً «اني لاانفذ إلا عمرتم» ولذلك فانه كان يهمل الشخص المقطع مدة سنتين فان عمرها فهي له وإلا فانها تؤخذ منه.

كما اتت اعمال الأمويين بثمارها في مناطق اخرى، فقد تم استصلاح الاراضي الواقعة في منطقة رصافة الشام مما ازدهرت معه الزراعة في واحات منطقة تدمر(٧٠).

٣- اعمال اخرى

اهتم الامويون، خلفاء وعمال، بشؤون الفلاحين ومتطلباتهم واعتنوا باحوالهم. فمما يذكر ان الحجاج الثقفي كان دائما يتعقب احوال الفلاحين واحوال الزراعة، فقد كان يكتب الى الخليفة عبدالملك كتباً عن احوال الامطار والزراعة(٧١). والتفت الى الفلاحين فأقرضهم قروضاً وصلت قيمتها الى مليون درهم تشجيعاً لهم للعمل بنشاط اكبر من اجل تحسين الزراعة وتطويرها.

ان موقف الخليفة الورع عمر بن عبدالعزيز بالنسبة الى وضع الارض التي تم احياؤها واضح ودالٌ على مدى اهتمامه بالشؤون الزراعية. اذ كان هذا الخليفة يتابع امور الارض واحوالها خلال مايذكره في كتبه التي اعتاد على توجيهها الى عماله في مختلف ارجاء الدولة، فقد ورد أن الراوي حكم بن رزين (اورزق بن الحكم) فقد قرأ في كتاب للخليفة موجه الى ابيه يقول فيه «ان من أحيا ارضاً ميتة ببنيانَ اوحدث مالم يكن من احوال قوم ابتاعوها من احوالهم، او احيوا بعضاً وتركوا بعضاً فاجر القوم احياءهم الذي احيوا ببنيان او حرث(٧٢).

---

(٦٩) م. ن: ص ٢٤٨.

(٧٠) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص ١٥٣، جـ ٥ ص ٤١٩.

(٧١) ن. م.

(٧٢) ابو عبيد: الاموال ص٢٩١.

وذكر ابو يوسف ان عامل الخليفة عمر بن العزيز، عدي بن ارطاة ، كتب اليه كتاباً جاء فيه «اما بعد فان اناساً قبلنا لايؤدون ماعليهم من الخراج حتى يمسهم شيء من العذاب» فردعليه الخليفة العادل جواباً أكد فيه على سياسته العادلة وعدم الحاق الحيف والاذى والظلم بالفلاحين اذ قال فيه :

«اما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك اياي في عذاب البشركأني جنة لك من عذاب الله وكأن رضاي ينجيك من سخط الله . اذا اتاك كتابي هذا فمن اعطاك ماقبله عفوا والا فاحلفه ، فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم احب اليّ من أن القاه بعذابهم والسلام» [٧٣] .

والطبري يضع بين ايدينا كتابه الذي وجهه الى عامله على الكوفة قائلا فيه «لاتحمل خرابا على عامر ، ولاعامر على خراب ، انظر الخراب فخذ فيه ماأطاق واصلحه حتى يعمر ولايؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لاهل الارض» [٧٤] .

وقد اسقط الخليفة عمر بن عبد العزيز عدة ضرائب كانت مفروضة على الفلاحين كالخراج عدا وزن سبعة واجور البيوت والنوروز والمهرجان .

اصناف الاراضي خلال الدولة الأموية

دأب المؤرخون على تصنيف الاراضي الزراعية في الدولة العربية الاسلامية الى عدة اصناف ، فمنهم من صنفها على اساس ملكيتها واخرون اعتمد انتاجها وطبيعتها الجغرافية والاقتصادية . وعلى الرغم من هذا التنوع في التصنيف فإن الجذور التاريخية لهذه الاصناف تمتد الى بدايات الدولة العربية الاسلامية زمن الرسول الكريم (ص) وظهرت بشكل متميز ابان عصر الفتوحات الاسلامية . فما يذكر أن الأحكام الشرعية بخصوص ارض الحجاز ومكة والمدينة وارض اليمن وارض العرب التي افتتحها الرسول (ص) لايزاد عليها ولا ينقص

---

(٧٣) ابو يوسف : الخراج ص١١٩ .

(٧٤) الطبري : تاريخ حـ ٨ ص١٣٥ .

لان حكم الرسول (ص) قد جرى عليها ، لذلك لايحل للفقهاء أن يحولوا هذا الحكم الى حكم آخر.

يقول أبو يوسف ان الرسول (ص) قد افتتح فتوحاً من أرض العرب ، فلم يضع عليها إلا العشر، ولم يفرض عليها الخراج ، ويعقب على ذلك بقوله «وكذلك قرر اصحابنا في تلك الارضين فلم يفرض الخراج على مكة والحرم وبذلك صارت احوال البحرين والطائف. وقد وقف الرسول (ص) من الاراضي الموات موقفاً واضحاً اذ طبق عليها مبدأ صار فيا بعد زمن الخلفاء الراشدين وما بعد ذلك المبدأ الشرعي بخصوص اراضي الموات اذ قال (ص) : من أحيا ارضاً ليست لاحد فهو أحق بها.(٧٥)

وعندما استجابت الدولة العربية الاسلامية للتحديات السياسية التي فرضتها عليها الدول المجاورة التي كانت تفرض سيطرتها السياسية على ارض العرب ونجحت الجيوش العربية في فتوحاتها من استعادة هذه الاراضي ، ثم ماتم من فتح وتحرير اراضي شاسعة من اراضي الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية واجه الخلفاء الراشدون متغيرات اقتصادية بالنسبة الى الاراضي الزراعية لم تكن جديدة تماماً عما واجهه الرسول (ص) لكنه متغير شمل اراضي واسعة ومتنوعة في وسائل زرعها وانتاجها ومشاربها فصنفت هذه الأراضي تبعاً لنوعية تملكها الى :

١ – الاراضي الموات.
٢ – الاراضي الخراجية.
٣ – الاراضي العشرية.
٤ – اراضي الصوافي.
٥ – الاراضي الموقوفة.
٦ – الاراضي المقطوعة.

اما اصنافها تبعاً لانتاجها ووسائل ريها فهي :
١ – اراضي الموات
٢ – الاراضي العشرية
٣ – الاراضي الخراجية
٤ – اراضي الصوافي

---

(٧٥) ابويوسف: الخراج ص٥٨–٥٩ ، ٦٤.

١ - الاراضي الخراب (الموات):

وهي اراضي عاملها الرسول الكريم (ص) كما ورد في اعلاه معاملة اقتصادية متجه بعيدة المدى، فالفرد الذي يحيي ارضاً خراباً تكون له دون غيره، وفي حديث للرسول (ص) حول هذا الصنف من الاراضي اذ يقول (ص) «عادي الارض لله وللرسول ثم لكم من بعد فمن أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين».(٧٦)

فالاراضي الخراب اذن هي التي لم يجر عليها ملك لاحد ولم يوجد بها أثر عمارة وهي حسبما عرفها ابو يوسف الارض التي لم يكن فيها أثر بناء ولا زرع ولم تكن فيئاً لأهل القرية ولامرحاً ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى ذويهم واغنامهم وهي ليست مملوكة لاحد وليست في يد أحد ولهذا فمن أحياها او أحيا جزءً منها فهي له.(٧٧)

وعملية استصلاح هذه الاراضي تكون في اعمارها وشق العيون أو حفر الابار او غرس الاشجار بها او بناء العمارة فيها أو حرثها. فجلب المياه الى هذه الارض يعدّ احياءاً وتجفيف المستنقعات والاهوار واصلاح اراضيها يعدّ احياءاً ايضاً.(٧٨)

وقد فصل الماوردي في مسألة احياء الاراضي واستخراج المياه واحكامه وفقاً لاراء ائمة المذاهب الفقهية.(٧٩)

لقد دأبت الدولة العربية الاسلامية منذ عهد الرسول (ص) على قطع اراضي الموات (الخراب) هذه الى عدد من الافراد (الصحابة) (رض) وغيرهم، كما سار الخلفاء الراشدون على هذا النهج، وذلك بهدف استصلاح الاراضي واحيائها خلال مدة محدودة، وزيادة الانتاج الزراعي، وكسب الولاء والتأييد للدولة الفتية.

لقد اتبع الامويون هذه السياسة الادارية والمالية بشكل واسع النطاق، فكانوا يقطعون الاراضي الموات الى الناس، رجالاً ونساءً على شكل هبات وهدايا او اقطاعات شخصية لاغراض اجتماعية وسياسية، فاقطع الخليفة معاوية بعض بني اخوته مثلاً جزيرة سبخة تقع بين النهرين في البصرة، وقد ارسل زياد بن ابي سفيان الماء فيها فتبطحت (اي غطتها المياه) مما دفع مقطعها الى ان يبيعها.(٨٠) واقطع يزيد بن معاوية سعيد بن مالك

---

(٧٦) ابويوسف: الخراج ص٦٥.

(٧٧) م. ن. ص٧٣؛ ابن قدامة جـ ٥ ص٥١١.

(٧٨) ابويوسف: الخراج ص٩٥.

(٧٩) الماوردي: الاحكام السلطانية ص١٩٥.

(٨٠) البلاذري: فتوح ص ٣٥٥.

ابن بحدل الكلبي اقليم بيت الابار وهي قرية يضاف اليها كورة من غوطة دمشق فيها عدة قرى.[٨١] واقطع عبدالملك بن مروان قرية بغوطة دمشق تدعىٰ (زملكا) لحفص بن عمر الازدي، وذكر ان هذه الاراضي كانت اراضي صوافي، فاستصلحها مالكها.

وهناك ادلة اخرىٰ تؤكد ان الامويين توسعوا في منح الاقطاعات لغرض اصلاحها واحيائها وهي سياسة تبين بجلاء الاتجاه الاقتصادي المنتج وليس هناك اوضح مما جلبته عملية استصلاح اراضي البطائح في العراق من واردات.

٢ – اراضي الصوافي

ولعل الصوافي لغة ترجع الى كلمة اصطفى بمعنىٰ اختار او انها من كلمة استصفىٰ اي تملك. والتعبير تاريخياً ينسب الى تلك الاراضي التي تم فتحها من قبل المسلمين والتي كانت تحت سيطرة الفرس والبيزنطيين او من ممتلكات نبلاء هذه الدول وامرائهم. بمعنىٰ انها الاراضي التي اصبحت دون مالك بعد أن تم فتحها عنوة وبذلك تكون وفقاً لحكمها من املاك الدولة العربية وبيت مالها.

واولى الاشارات الى اراضي الصوافي جاءتنا منذ عهد الرسول (ص) حين استصفىٰ أرض بني النضير وجعلها حبساً لنوائبه كما ذكر ذلك البلاذري في فتوحه.

ويعّد ابو يوسف أن القطائع في ارض العراق هي كل ما كان لكسرىٰ ومرازبته واهل بيته» مما لم يكن في يد أحد. وقد اعتمد ابو يوسف علىٰ افراد من اهل المدينة قالوا له انهم وجدوا في الديوان ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) اصفىٰ اموال كسرىٰ وآل كسرىٰ وكل من فرّ عن ارضه وقتل بالمعركة وهو بمنزلة المال الذي لم يكن لاحد ولا في يد وارث. وان الخليفة عمر (رض) قد اصفىٰ من اراضي السواد عشرة اصناف هي: اراضي كانت لمن قتل في الحرب، واراضي كانت لمن هرب في المعركة، وكل ارض كانت لكسرىٰ، وكل ارض كانت لاحد من اهله، وكل غيض ماء، واراضي البريد، والآجام واراضي بيوت النار وسكك البريد، والاحياء (الطواحين وما يتبعها من اراضي) وكل صافية أصفاها كسرىٰ ومن جاء معه.[٨٢]

---

(٨١) ابن عساكر: تهذيب جـ ٦ ص ٧١.

(٨٢) ابو يوسف: الخراج ص ٥٧.

واعتماداً على قول يحيى بن آدم وابي عبيد أن ارض الخراج قد تلحق ايضاً بالصوافي لاسيما اذا تركها اهلها فان شاء الامام اخذها وان شاء تركها، كذلك بالنسبة الى ارض الخراج التي توفي عنها صاحبها ولم يترك وريثاً فإنها تعود ملكيتها لبيت المال.(٨٣)

اذن فاراضي الصوافي قد تكون ضمن اراضي الموات خاصة تلك التي غمرتها المياه او اراضي الآجام، لكنها بصورة عامة اراضي كانت منتجة، لذلك فقد قدرت غلتها في عهد الخليفة عمر (رض) باربعة (وقيل سبعة) ملايين درهماً، وهي صوافي الاثمار فقط.(٨٤)

ويبدو ان بعض اراضي الصوافي التي تدخل ضمن اراضي الموات كانت ضمن مسؤولية الخليفة في أن يقطعها من يشاء كي تستثمر لاسيما بعض الاراضي في السواد وتلك التي جلا عنها اهلها ولم يبق لها ساكن وليس بها عامر. وبذلك يمكن تبرير ما اقطعه الخليفة عثمان (رض) من ارض السواد او بالاحرى الارض التي تعرف بشط عثمان اذ ان ارض البصرة انذاك كانت سباخاً وآجاماً فاقطع الخليفة عثمان بن ابي العاص الثقفي بعضاً منها فاستخرجها واحياها. واراضي السباخ هي اراضي موات كما ان اراضي الغياض والآجام هي اراض موات ايضاً.

والواقع ان الخليفة عثمان (رض) لم يكن الخليفة الراشدي الوحيد الذي نظر عمليا الى هذه المسألة، فقد ذكر ان اناساً سألوا الخليفة عمر (رض) ارضاً من ارض (اندركيسان) كي يتخذونها مربطاً لخيلهم فاعطاهم الخليفة جزءاً منها فزرعوها، فلما فعلوا ذلك انتزعها منهم واغرمهم غرامة لما زرعوا فيها.(٨٥)

اما بالنسبة الى اهمية اراضي الصوافي في الدولة الأموية فإن المؤرخين العرب يذكرون ان الخلفاء الامويين اولوا اهتماماً ملحوظاً لهذا الصنف من الاراضي فاقطعوا الموات منها حتى تحولت الى اراضي منتجة كما هو الحال في اقطاع الوليد بن عبدالملك سعيداً غيضة ذات سباع فحفر لها نهر سعيد فعمرها فتحولت الى ارض منتجة. كما اقطع الخليفة عبدالملك بين مروان، العباس بن ضرر بن الحارث قطائع في اليمن او غرها له فاوغرت لورثته من بعده وكان اكثر هذه الاراضي مواتاً فاحياها.(٨٦)

---

(٨٣) م. ن. ص ٥٧ – ٥٨؛ الطبري: تاريخ جـ ٤ ص ٣١، يحيي بن آدم: الخراج

(٨٤) ابو يوسف: الخراج ص ٥٧؛ ابو عبيد: الاموال ص ٢٨٣. ص ٩٥

(٨٥) ابو عبيد: م. ن. ص ٢٨٣ – ٢٨٤.

(٨٦) البلاذري: فتوح ص ١٥٢.

وقد اثارت اهمية اراضي الصوافي اهتمام معاوية بن ابي سفيان قبل أن يتولى الخلافة حينما كان والياً على بلاد الشام ، فيذكر بن عساكر انه كتب الى الخليفة عثمان (رض) كتاباً شارحاً فيه صفات المزارع الصافية واهميتها وعدّدها له ثم سأله ان يقطعه هذه الصوافي وعلق على تلك الارض واصفاً اياها «انها ليست في قرىٰ اهل الذمة ولا من الخراج ، فاقطعه الخليفة تلك الاراضي». (٨٧) ويذكر ايضا انه عندما كان والياً على بلاد الشام قصد سواحل بلاد الشام التي سيطر عليها الروم ففتحها ووزع اراضي الصوافي وفعل الشيء نفسه في اراضي بلبناس ومرقية. (٨٨)

ولعله من الصحيح القول ان معاوية يعّد أول من اهتم بامر الصوافي وتوسع في اقطاع اراضيها حتى ان الناس سألوه ان يقطعهم من اراضي الصوافي ففعل وانه أمر بمسح عام لجميع هذه الاراضي في بلادالشام ثم وزع فيها القطائع على اهل بيته وخاصته لانه استصفىٰ الضياع والاراضي التي كانت عائدة الى اباطرة الروم وحولها لنفسه.

والخليفة عبدالملك بن مروان هو الآخر الذي توسع في اقطاع الصوافي حيث اقطع تلك التي لم تقطع ايام خلافة معاوية. كما اضطر عندما نفذت اراضي الصوافي أن يقطع اشراف الناس من اراضي الخراج التي لم يبق لها مالك وعادت ملكيتها الى بيت المال. (٨٩)

والخليفة عمر بن عبدالعزيز هو الخليفة الاموي الوحيد الذي شّذ عن هذه السياسة، سياسة توزيع اراضي الصوافي؛ وطبق سياسة اكثر اعتدالاً وهي سياسة استغلال الصوافي عن طريق «المزارعة» وعدم اقطاعها فقال في احدىٰ مكاتباته الى عماله «انظروا ماقبلكم من ارض الصافية فاعطوها بالمزارعة بالنصف ، ومالم تزرع فاعطوها بالثلث ، فإن لم تزرع فاعطوها لتبلغ العشر، فان لم يزرعها أحد فامنحها فإن لم تزرع فانفق عليها من بيت مال المسلمين ولا تبتز قبلك ارضاً». (٩٠)

---

(٨٧) ابن عساكر: تهذيب جـ ١ ص ١٨٣.

(٨٨) البلاذري: فتوح ص ١٣٣.

(٨٩) ابن عساكر: تهذيب جـ١ ص ١٨٣.

(٩٠) يحيىٰ بن آدم: الخراج ص٥٩.

(٩١) ابو يوسف: الخراج ص ٦٠، ٦٣، ٦٩.

(٩٢) ابن عساكر: تهذيب جـ ١ ص ١٨٣.

ومن هذا نستدل على أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز أراد الانفاق الجزئي على هذه الاراضي مقابل الحفاظ على المردود الكلي لها ، وأن تساهله في مقادير خراجها سيمكنه من ابعاث روح استثمارها وبالتالي الحفاظ على احد روافد بيت المال المهمة.

٣- الاراضي العشرية

لقد جاءت هذه التسمية من مقدار الضريبة التي فرضت عليها . ويعرف ابو يوسف ارض العشر انها الارض التي اسلم عليها اهلها ، وان القوم من اهل الحرب ان اسلموا على انفسهم وارضهم فان دماءهم حرام وما اسلموا عليه من اموالهم فلهم وكذلك اراضيهم تكون ارضاً عشر. وان اي ارض افتتحها الامام عنوة وقسمها بين فاتحيها فهي ارض عشرية ، كاراضي المدينة اذ اسلم اهلها مع الرسول الكريم (ص) واراضي الطائف واليمن والبحران واراضي اهل البادية اذا اسلموا على مياههم وبلادهم فارضهم تكون ارض عشر.(٩١)

فالاوضاع السابقة للاراضي العشرية كانت محددة بالاماكن التي نوه عنها ابو يوسف وتشمل اراضي اليمن والمدينة والبحرين والطائف والعراق واراضي عبدة الاوثان من العرب .

اما بخصوص الاراضي العشرية في بلاد الشام فهي اما ان تكون اراضي الصوافي او اراضي الموات اذا اقطعها الخليفة لاحد المسلمين او الارض الخارجية التي اقطعها الخليفة لمسلم وصيرها اراضي عشرية . فالخليفة عبد الملك بن مروان اقطع مثلا ارضاً هي في الاصل ارض خراجية لم يكن لها وريث فالحقت اولا باراضي الصوافي ثم تحولت الى ارض عشرية .(٩٢)

والعشر يكون على الزرع دون المساحة ، ويقترن عادة بمقدار الانتاج الزراعي وحالة السني مع الأخذ بنظر الاعتبار الجهود المبذولة في الاستثمار ومقدار النفقات المصروفة التي تتطلبها طريقة الارواء والانتاج .(٥)

---

(٥) انظر فضلاً جيداً عن الاراضي العشرية واحكامها في كتاب «الخراج احكامه ومقاديره» للدكتور حمدان عبدالمجيد الكبيسي . (دار الحكمة ، بغداد ١٩٩١) .

(٩١) ابو يوسف : الخراج ص ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٩ .

(٩٢) ابن عساكر : تهذيب جـ١ ص ١٨٣ .

وفي القرآن الكريم ايات عدة تشير الى وجوب دفع عشور الزرع والثمار (سورة البقرة ، الآية ٢٦٧ ، سورة الانعام ، الآية ١٤١) كما جاءت في الاحاديث القدسية اشارات واضحة تحث على القيام بهذا الواجب.

٤ – الاراضي الخراجية

فالاراضي العشرية السابقة هي التي يدفع عنها صاحبها العشر اما الخراجية فهي الأراضي التي خضعت لضريبة الخراج اذ يقول تعالىٰ في كتابه العزيز (ام تسألهم خراجا فخراج ربك خير) (المؤمنون ، آية ٧٢)

فاراضي الخراج تختلف عن اراضي العشر في الملك والحكم. وهي الاراضي التي صولح عليها المشركون وهي على نوعين:

- الاراضي التي هجرها اهلها وصارت للمسلمين دون قتال فتصبح وقفاً على مصالح المسلمين ويضرب عليها الخراج.
- والنوع الثاني هي الاراضي التي بقي عليها اهلها وصولحوا على اقرارها في ايديهم على ان يدفعوا عليها الخراج [٩٣]

فاذا ما طبقت هذه القاعدة على الاراضي التي تم فتحها في المشرق تكون ارض البصرة وخراسان والسواد وتلك الاراضي التي افتتحت عنوة ارض خراج ، واي ارض من اراضي الاعاجم صالح اهلها عليها وصاروا ذمة فهي ارض خراج. وهو ماحدث خلال الخلافة الراشدة وظل مطبقاً في العهد الاموي. اذ يذكر أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز سئل مرة عن المسلم (اوالعربي) الذي تكون في يده ارض خراجية فيطلب منه العشر فقال الخراج على الارض، والعشر على الحب. [٩٤]

لقد واجهت الدولة الاموية تطورين مهمين يتعلقان بالاراضي الخراجية والاراضي العشرية بصورة خاصة وبالشؤون المالية للدولة بصورة عامة: اولهما كان من نتائج موقعة الجماجم التي وقعت بين الحجاج الثقفي وعبدالرحمن بن الاشعث سنة ٨٢ هـ / ٧٠١م. اذا حرق الناس ديوان الخراج في العراق ، وهو الديوان الذي كان يتولى تنظيم شؤون الخراج والاراضي الخراجية والنظر في مشاكل الارض . وكان ديواناً معروفاً منذ عهد

---

(٩٣) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٤٧ .

(٩٤) ابو عبيد : الاموال ص ٨٨ .

الخلفاء الراشدين . ومن المحتمل جداً انه كان يحتوي على جرد بالاراضي الخراجية ومقادير غلتها وانتاجاتها والمتغيرات التي طرأت عليها بتحول بعضها الى اراضي عشرية او باهمال وعدم الاعتناء بالبعض الآخر. ولذلك ، ولاهمية هذا الحدث ، يقول ابو يوسف «فذهب ذلك الاصل ودرس ولم يعرف» .[95] وقد بين البلاذري أمراً آخر مهماً هو ان حرق الديوان قد دفع الناس الى ان يستولوا على مايليهم من اراضي الصوافي او اراضي الدولة .[96]

إن هذه العملية التخريبية قد ادت الى ضياع اثار الكثير من الاراضي التي كانت ضمن الاراضي الخراجية .

اما التطور الثاني فهو الذي نتج عن السياسة التي اتبعها الخلفاء الامويون انفسهم منذ عهدالخليفة معاوية فصاعداً ، عدا فترة الخليفة عمر بن عبدالعزيز ، وهو اقطاع الاراضي الخراجية الى افراد من بيت الخليفة وخاصته والى اشخاص آخرين لدوافع سياسية واجتماعية .

وعلى هذا فإن تحول مساحات واسعة من هذه الأراضي التي تعدّ ملكاً للدولة وضريبتها ، ضريبة الخراج المفروضة عليها ، بمثابة ايجار لايمكن اسقاطه وفقاً لما عرضه ابو يوسف : ان كل ارض من اراضي الاعاجم صالح عليها اهلها وصاروا ذمة فهي اراضي خراجية ، وكما قال الماوردي ان الخراج هو جزية تؤخذ من الناس ما أقاموا مع شركهم وتسقط عنهم بالاسلام فان بيعت الى احد من غير المسلمين ظلت على وضعها السابق وان بيعت الى مسلم سقط عنها الخراج .[97]

ولهذا السبب فإن ما طبقه الحجاج الثقفي من اجراء باعادة فرض ضريبة الخراج على الاراضي الخراجية مهما كان نوع مالكها اكان مسلماً ام غير مسلم يعدّ اجراءاً اقتصادياً عملياً . ويورد البلاذري نموذجاً واقعياً عن اراضي الفرات اذ يقول أن اهلها اسلموا عليها عندما دخلها الاسلام لذلك خرجت اراضيهم من ايدي اصحابها الى قوم مسلمين فتحولت الى ارض عشرية فعمل الحجاج على ردها الى اصلها .[98]

---

(٩٥) ابو يوسف : الخراج ص ٥٧ .

(٩٦) البلاذري : فتوح ص ٢٧٢ .

(٩٧) ابو يوسف : الخراج ص ٦٩ ؛ الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٩٨) البلاذري : فتوح ص ٣٣ .

ويبدو أن سياسة الحجاج العملية هذه قد أدت بالخلفاء الامويين وعمالهم الذين جاءوا بعد فترته ان يلتفتوا الى هذه المشكلة فطبقها الخليفة عمر بن عبدالعزيز عندما ردّ هذه الاراضي الى الصدقة ، وردها والي العراق عمر بن هبيرة الى الخراج ثم اعاد بعضها الخليفة هشام بن عبدالملك الى الصدقة .

وقد عمل الخليفة عمر بن عبدالعزيز على تنظيم ضريبة الارض فرجع في تصوره بالنسبة الى الاراضي الخراجية الى ماكان مطبقاً خلال فترة الخلفاء الراشدين باعتبارانها ملك للدولة وان على مالكها ان يدفع مقابل تملكه اياها ايجاراً مقابل استثماره لها دون تمييز بان يكون مسلماً او غير مسلم.(٩٩)

ومع أن الخليفة حدد سنة ١٠٠ هجرية كسنة لتطبيق هذه السياسة الأمر الذي أدى الى ابقاء الحال على ماكان عليه سائداً بخصوص الاراضي الخراجية التي كان يمتلكها المسلمون . فقد كان الخليفة يواجه مشكلة مستفحلة وهي موجة استملاك الاراضي وتوسع الملكيات الكبيرة ، وعملاً منه على أبقاء موارد الدولة من ضريبة الخراج حيوية فانه منع اهل الذمة من بيع آلاتهم ، وقد علق ابو عبيد على ذلك قائلاً « يستبقيها من أجل خراجها لانه اذا باع اداة الزرع لم يستطع ان يزرع فيبطل خراجه »(١٠٠) ولهذا عمل على منع بيع الاراضي خوفاً من تعطيل خراجها وهي سياسة تتماشى مع الواقع التاريخي .

وقد حاول الخلفاء الامويون بعده التأكيد على هذه السياسة كما فعل هشام بن عبد الملك اذ عاقب وكيل خالد القسري عندما اشترى ارضاً في الغوطة دون اذنه لانه وجد في اوامر الخليفة عمر بالنهي عن بيع الارض سياسة عملية . غير أن سياسة هذين الخليفتين لم تثبت طويلاً اذ أقبل العرب بعدهما الى الشراء فتحولت اراضيهم الى عشرية .

لقد شكلت الضريبة المفروضة على الاراضي الخراجية جزءاً حيوياً من ميزانية الدولة العربية ولذلك انشغل الخلفاء الامويون وعمالهم بهذه المشكلة خشية أن تتحول نسبة عالية من الاراضي الخراجية الى عشرية فتفقد الدولة وارداً مالياً كبيراً ، فقدر مثلا خراج السواد ايام ولاية عبيد الله بن زياد بـ ٣٥ مليون درهماً ، وبلغ زمن الحجاج الثقفي بين ثمانية عشر مليون درهم الى مائة وثمانية عشر مليون درهم . وبلغ الخراج زمن الخليفة عمر بن عبد

---

(٩٩) يحيى بن آدم : الخراج ص ٣٣ . انظر مقالة (Kharadj) في دائرة المعارف الاسلامية (ط/ جديدة) بقلم Cl. Cahen.

(١٠٠) ابو عبيد : الاموال ص١٣٦ .

العزيز الى قدر يتراوح بين ثمانين مليون درهم الى مائة واربعة وعشرين مليون درهم (وفقاً لاختلاف الروايات)، وصار زمن ولاية عمر بن هبيرة وخالد القسري حوالي مائة مليون درهم.

اما خراج بلاد الشام ايام عبد الملك بن مروان فبلغ حوالي مليوني دينار موزعة على أجناد الاردن وفلسطين ودمشق وحمص وقنسرين والعواصم.

اما خراج مصر خلال ولاية عبد الله بن سعد بن ابي سرح فبلغ حوالي اربعة عشر مليون دينار وتناقص خلال ولاية عبيد الله بن الحجاج خلال خلافة هشام (١٠٥-١٢٥ هجرية) ليصل الى اربعة ملايين دينار.

من هذا كله فإن ضريبة بهذه المقادير من المبالغ التي تتراوح بين مائة وثلاثين مليون درهماً في العراق الى ست وثلاثين مليون درهم في مصر والى عشرين مليون درهماً في بلاد الشام تعّد بحق ضريبة حيوية وتشكل نسبة عالية من ميزانية الدولة.

التقدم الصناعي

في الوقت الذي كانت فيه التجارة تمثل العصب الحيوي للحياة الاقتصادية لاي مجتمع من المجتمعات عن طريقها يتصل هذا المجتمع او ذاك بالبلدان المجاورة والعالم الخارجي فتكون بحد ذاتها رافداً لنقل الموروثات الحضارية من هذا المجتمع الى الخارج او بالعكس، فان الصناعة تعّد الممون الاساس للتعامل التجاري هذا وهي بذلك تمثل نمطاً حيوياً وفعالاً للنمو الاقتصادي الانتاجي لاي مجتمع.

غير أن علينا الا نخلط بين الصناعات والثورة الصناعية في العصر الحديث الذي يتميز بالصناعات الخفيفة والثقيلة وبتشابك العلاقات في المعامل وبكثرة الانتاج وبالتنافس الصناعي بين الشركات والدول، وبين الصناعات قبل حركة التصنع الحديثة التي تعتمد بالدرجة الاولىٰ على الصناعة اليدوية. والصناعات في العالم الاسلامي ليست استثناءاً من ذلك.

ومع ورود هذه الفكرة غير أن هناك بعض الاراء الحديثة تزعم ان صناعات العصور الاسلامية هي صناعات انسجة بالدرجة الاولىٰ اي نسج الملابس بانواعها. وهو رأي على الرغم من وجود الكثير من الادلة المؤيدة له لكنه ليس سليماً تماماً اذ اشتهر العرب

قبل مجيء الاسلام الى جانب شهرتهم بالنسيج والحياكة وخاصة في اليمن وعمان والحيرة فضلاً عن نسج البسط المختلفة في الجزيرة العربية، فقد كانوا على علم بصناعة الزيوت والدهون من دهن السمسم ومن اشجار تشبه النخيل تسمى "الكاذي" ومن شجر الشوع. كما انهم كانوا يستخرجون ويصنعون انواعاً من الصمغ (الذي كان يعرف بالعرمط) كالعلك وصمغ الصنوبر والارزة والسر والبطم والكندر وصمغ المقل، كما انهم كانوا يعرفون صناعة عصير التمر واستخراج الدبس، وعرفوا دباغة الجلود. وتعد الادم من السلع المهمة والمشهورة في التجارة انذاك اما الخمور فقد صنعت لديهم من الكروم والشعير والذرة.

والصناعات الخشبية قد دخلت هي الاخرى حقل التجارة لما وصلت اليه من تقدم كصنع اواني الطعام الكبيرة وابواب البيوت والصناديق لحفظ وخزن الاشياء كما كانت الصياغة معروفة اذ اشتهر الصاغة العرب بصياغة حلي الذهب والفضة والنقوش والزينة.

اما صناعة المعادن المختلفة كالجزع والعقيق والنحاس والرصاص والفولاذ فقد قطعوا فيها شوطاً بعيداً، ومايقال عن صناعة المعادن يمكن أن يقال عن الصناعة الجلدية. فقد برعوا في صناعة الاحذية المختلفة كالخف والنعال.

اما بخصوص الانسجة والثياب والحياكة فكانوا ينسجون البسط والسجاجيد من الصوف وغزل البرد ونسجها وغزل القطن ونسجه وعرفوا الانسجة الكتانية كالبرجد والعبـاءة والشـملة والانمـاط وعرفوا الثياب الحريرية والديباج والسندس والاستبرق كما عرفوا ثياب القز وهي ثياب صوف كالمرعزي يخالطها الحرير. واستخدموا الاصباغ المتنوعة كالعصفر والدرس والزعفران لصبغ الثياب، كما استخدموا شعر الماعز لصنع الخيام.[١٠١]

ان هذه المعلومات المقتضبة تؤكد بصورة لاتقبل الشك ان العرب كانوا يمارسون انواعاً من الصناعات اليدوية. ولم يكونوا مشمولين بصناعة النسيج وحياكة الملابس فقط.

ولم يطرأ اختلاف عن تلك الصورة التي قدمناها بعد مجيء الاسلام واقامة الدولة العربية الاسلامية، بل على العكس من ذلك فان الدين الاسلامي الحنيف يشجع العمل ويؤكد عليه كقوله تعالى في كتابه العزيز (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)[١٠٢] وقوله تعالى (ليأكلوا من ثمرة وماعملته ايديهم افلا يشكرون)[١٠٣] وقوله

---

(١٠١) راجع عن هذه المعلومات دائرة المعارف الدكتور جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام حـ ٢.

(١٠٢) سورة التوبة: آية ١٠٥.

(١٠٣) سورة يس: آية ٣٥.

تعالى في تصنيف العمل الى درجات وكل منها لها اجرها (ولكل درجات مما عملوا ولايظلم ربك أحداً)[104] وقوله تعالى في سورة النحل (ولتسألن عما كنتم تعملون)[105] وقوله عز وجل (فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض)[106].

وللرسول الكريم (ص) احاديث شريفة حول اهمية العمل وتقديره (ص) للعامل فقد قال (ص) [من امسى كالا من عمل يده امسى مغفوراً له] وحديثه (ص) [ماأكل أحد طعاماً قط خيرا من ان يأكل من عمل يده وان نبي اللّه داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده][107]

وعلاوة على ذلك فان اهتمام العرب بانشاء المدن والامصار وباستصلاح الاراضي واحيائها لغرض زراعتها زراعة واسعة النطاق قد ادى بالضرورة الى تطوير الصناعات المحلية القائمة على هذه الانتاجات فضلاً عن الصناعات اليدوية الاخرى لاسيما بعد أن تطورت العلوم عند العرب كالكيمياء والصيدلة والطب وغيرها من العلوم التي دخلت في الصناعة وطورتها.

وكما ان هناك عوامل مشجعة دفعت بعجلة الاحوال الزراعية والتجارية في العالم الاسلامي ابان الخلافة الاموية فان هناك عواملا شجعت اتجاه الناس نحو امتهان الحرف الصناعية اليدوية ونحو تصنيع المنتوجات الزراعية والحيوانية من بينها:

١- التحول الحضري السريع الذي طرأ على المراكز التي اسسها العرب خلال مرحلة الفتوحات الاسلامية لاغراض عسكرية بالدرجة الاولى ومن بينها البصرة والكوفة وواسط والفسطاط والقيروان والموصل وغيرها. وقد جاء هذا على أثر استقرار العرب في هذه المراكز بعد توقف العمليات العسكرية. وكذلك على أثر توافد الكثير من الاقوام غير العربية للاستقرار في هذه المراكز الحضرية والامتهان بشتى المهن والحرف كانت الحاجة ماسة اليها في تسيير الشؤون اليومية الحياتية واخص بالذكر منها حرفة

---

(١٠٤) سورة الاحقاف: آية ١٦.

(١٠٥) سورة النحل: آية ٩٣.

(١٠٦) سورة آل عمران: آية ١٩٥.

(١٠٧) البيهقي: السنن الكبرى حـ ٢ ص ١٧٠.

- انظر عن موقف الاسلام من العمل، الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ٧٩.
- مقالة (Amal²) في دائرة المعارف الاسلامية (ط/ جديدة) Carclet.

النسيج والحياكة والتطريز والصياغة وصناعة الاصباغ والدباغة والنجارة وصناعة الاسلحة او بالاحرى الصناعة العسكرية والصناعة المعدنية بما فيها صناعة الاواني التي تحتاجها البيوت كالقدور والاكواب والاباريق وصناعة الزجاج والزينة وصناعة العطور.

٢ – التطور العلمي الذي حصل نتيجة لاستقرار العرب وانصرافهم للتعلم والعطاء والاخذ بما توصل اليه الشرق والغرب. والمعروف ان بوادر التفكير الفلسفي قد انطلق في المدن الاسلامية ايام الامويين كما ازداد الاهتمام بمسألة تحويل المعادن الأولية الى معادن ثمينة كالذهب.

والمتفق عليه مثلا ان خالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم كان مهتماً بترجمة الكتب اليونانية في الطب والكيمياء، لاسيما الكيمياء التي دخلت في صناعة الصناعة العملية للحصول على الذهب، وقد عدّه ابن النديم في فهرسته اول من ترجم كتب الطب والنجوم والكيمياء وذكر انه الف كتب عدة في ذلك منها كتاب في الصنعة، [١٠٨] (الكيمياء).

ومع أن ابن خلدون وقف موقفاً متشككاً من انشغال خالد بن يزيد في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الكيمياء عند العرب إلا أن المهم في هذه الرواية هو أن العرب بعد استقرارهم التفتوا الى ماتوصلت اليه الحضارات القديمة، وليس بعيداً ان يهتموا بعلوم الفلسفة والكيمياء لاسيما وان الفكرة في تحويل المعادن الى الذهب فكرة قديمة حاولوا الوصول اليها.

٣ – زيادة الطلب على المنتجات الصناعية المختلفة نتيجة الى تطور المجتمع العربي، فدور الطراز التي اهتم الامويون بتأسيسها دليل واضح على اهتمام الخلفاء الامويين وافراد عائلتهم والاغنياء بصناعة نسيج الثياب. والطراز كما يقول بن خلدون "من ابهة الملك والسلطان" [١٠٩] فقد كانت ترسم في هذه الدور علامات تختص بالخلفاء والامراء وتطرز على اثوابهم من الحرير والديباج والابريسم. وكان ينسج في هذه الدور الاعلام وازياء البلاط وما كان يخلعه الخليفة من خلع وهدايا على الامراء والموظفين الكبار في الدولة. وقد شاع استخدام انواع من الملابس كالوشي الذي كان يجلب

---

(١٠٨) انظر ابن النديم: الفهرست ص ٤١٩؛ الجاحظ: البيان والتبين حـ ٢ ص ٣١١. انظر مقالة Khalid b.Yazid في دائرة المعارف (ط/ الجديدة) بقلم: ULLmann

(١٠٩) ابن خلدون: المقدمة ص ٢١٠.

من اليمن والاسكندرية والكوفة واتخذ الناس منه جلابيب وسراويل وعمائم ، ويقال ان سليمان بن عبد الملك كان ولوعاً بالوشي حتى انه كان لايدخل عليه احد من اهل بيته وعماله واصحابه ورجال بلاطه إلا في الوشي . (١١٠)

وعندما خالط العرب الامم الاخرى اثروا فيها وتأثروا بها ، ومن جملة المؤشرات التي اثرت في الحياة الاجتماعية للعرب اثناء الخلافة الأموية ظهور مراسيم ثابتة في بلاطات الخلفاء ، ففي مجال الطعام مثلا تعددت الوان الطعام وادخل استخدام طرق جديدة في تناوله كاستعمال الفوط والملاعق . وقد اشار المؤرخون الى هذه التغيرات خلال الفترة الاموية فكانت الملاعق تصنع من الخشب كما جلبت الملاعق الفخارية من الصين . كما استخدمت الكراسي الخشبية امام الموائد . وقد عرف عن الخلفاء الامويين مثل معاوية وسليمان بن عبد الملك حبهم للطعام وتفننهم في اختيار انواعه . (١١١)

وتشير الدلائل التاريخية الى أن الخلفاء الامويون واقربائهم اهتموا اهتماماً بالغاً في العمارة فاحتاجوا الى تطوير مختلف انواع الصناعات كالزخرفة والنجارة والحدادة كي تقدم ارق الفنون في هذه الابنية ، فازدانت قصورهم بالفسيفساء واعمدتها بالرخام والذهب ، واتخذت النافورات والمياه الجارية . ومما يذكر أن عبد العزيز بن مروان والي عبد الملك على مصر كان شغوفاً بالعمارة وبناء التماثيل فادخل انواعاً من الحجارة والزجاج لتزين مابناه .

ويذكر ايضاً ان صناعة الخز والقطيفة ظهرت في عهد هشام بن عبد الملك لما كان له من اهتمام واضح في هذه الصناعة . فيورد لنا ابن الزبير " ان الخليفة الاموي هشاماً بن عبد الملك أول من استخدم الطراز وعمل في ايامه الخز وغيره من الوشي وكان له ستور وكسوه وطراز ولم يكن لمن قبله ، وهو أول من أتخذ الطراز وذلك سنة ثمان ومائة . "(١١٢)

وكما هو الحال بخصوص شحة المعلومات عن الاحوال التجارية خلال الخلافة الاموية فإن الحديث عن الصناعة في هذه الفترة صعب ايضاً لان مانملكه من معلومات تعود الى العصر العباسي بصورة واضحة . كما أن الامثلة التي وصلت الينا من التحف المعدنية الاسلامية قليلة جداً . ولعل السبب في ذلك هو ان التحف المعدنية عادة تصهر وتعاد

---

(١١٠) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ٢ ص ١٦٢ .

(١١١) انظر المسعودي : ن . م . جـ ٢ ص ١٦٣ ؛ ابن الطقطقي : الفخري في الاداب السلطانية ص ١١٦ . Levy: The Social Structure of Islam (1965) PP 242 – 265.

(١١٢) ابن الزبير . القاضي الرشيد : الذخائر والتحف ص ٢١١ .

صناعتها خلال العصور ومن هنا كان من الصعب أن نجد سلسلة متماسكة الحلقات تمثل تطور الصناعة تمثيلاً صحيحاً في العصور المختلفة بل كثيراً ماتعترضنا حلقات مفقودة .(١١٣)

وبالرغم من هذه المشاكل وغيرها فإنه لاتعني ابداً ان الصناعات خلال العصر الاموي لم تكن متقدمة . وأن شاهدنا في هذا ماتكتنزه المتاحف البريطانية و الاوربية من نماذج قيمة تعكس المستوىٰ الراقي الذي وصلت اليه الصناعة في هذه الفترة ، ففي المتحف البريطاني مجموعة من الاطباق الفضية والصواني ذوات الاشكال المختلفة الدائري منها والمثمن . وفي متحف برلين هناك صوانٍ فضية وبرونزية تحيل اوساطها رسوم فيها القباب والشرفات والعقود . وفي المتحف الفني الاسلامي بالقاهرة مجموعة من الاباريق فمن اشهرها ابريق مصنوع من البرونز ، وينسبه معظم علماء الاثار والفنون الى الخليفة مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية ، ومن الجدير بالذكر ان الزخرفة على محيط هذا الابريق قد اكدت على ماعرفه العرب في هذا الفن منذ وقت سابق اذا استخدمت الطرق والحفر والتكفيت والترصيع .(١١٤)

والحقيقة أن المدن التي نمت في العراق خلال هذه الفترة ومدن الشام والجزيرة العربية والمغرب العربي قد اشتهرت كثيراً في عالم الصناعة خلال العصر العباسي وهي حالة تؤكد انها كانت مشهورة كذلك في العصر الذي سبقه ، اي العصر الاموي . فمدينة البصرة التي بلغت تطوراتها العمرانية والتخطيطية وضوحا في العصر الاموي اشتهرت بصناعاتها المتنوعة واهمها صناعة النسيج كالخز والبز والقز ، والبصرة كانت مشهورة انذاك بزراعة القطن ، علاوة على ذلك فانها اشتهرت بانواع اخرى من الانسجة والثياب كالفوط البصرية والبسط وعمائم الأبلة ، ومن الجدير ذكره بإن هذه المدينة – الأبلة – قد اشتهرت ايضاً بانتاج الثياب الرقيقة المصنوعة من نسيج القصب فضلاً عن صناعة نسيج الخز الخاص بالعمائم وغيرها .

وقد عرفت عبادان بصناعة الحصران التي كانت تصدر الى مختلف البلدان المجاورة . كما اشتهرت بعطورها كماء الورد والبنفسج ، وعرفت بصناعة الاواني الفخارية التي اظهرت التنقيبات التي اجرتها بعثة الاثار في المدينة على نماذج عدة جميلة الصنع ترجع فترة صنعها الى الفترة الأموية ، كما اظهرت التنقيبات ايضاً مجموعة كثيرة من الاواني الزجاجية لاسيا

---

(١١٣) صلاح حسين العبيدي : الفنون الزخرفية العربية والاسلامية ص ١٠ .
(١١٤) العبيدي : ن . م . ص ١٠ – ١١ ، ١٢١ .

القناني الصغيرة . والمعروف ان صناع الزجاج في البصرة كسبوا سمعة وخبرة واستعين حتى ان الخليفة العباسي المعتصم بالله اعتمد عليهم في صنع الزجاج في سامراء .

اما مدينتا الكوفة وواسط فقد اشتهرتا ايضاً بصناعة الانسجة وبشكل خاص المنسوجات القطنية والصوفية ، وعرفت واسط بستائرها وانواع من البسط كما عرفت بصناعة الاواني الخزفية الملونة وصناعة النبيذ وصناعة الاسفاط والحصران .(١١٥)

وعرفت مدينة الفسطاط بصناعة الانسجة ، وقد اهتم الامويون بتنمية هذه الصناعة اذ يذكر ان عبد العزيز بن مروان بنى قيسارية سميت باسمه وكانت مخصصة لبيع اقمشة البز ، وعلاوة على البز فقد كانت اسواقها معروفة بانسجة اخرى صوفية وكتانية .(١١٦)

واشتهرت مدينة القيروان ومدن المغرب العربي بصناعة الانسجة الحريرية والصوفية والصناعات المعدنية وصناعة الزيوت .(١١٧) كما كانت تصدر بعض مدن المغرب الانسجة والصابون مما يدل على شيوع هذه الصناعات وكثرة انتاجها وعرفت ايضاً بدباغة الجلود وصناعة تشبيك الحديد والنحاس وصناعة الزجاج والورق والطابوق .(١١٨)

اما مدينة سجلماسة التجارية فقد عرفت بصناعاتها المعدنية نظراً لتوفر الذهب والفضة في منطقة درعة .(١١٩) اشتهرت هذه المدينة بصناعة الانسجة القطنية والصوفية . ويذكر الدكتور الجنحاني أن النساء السجلماسيات كُنّ معروفات بصناعة الازر من الصوف ، كما عرفت بصناعة السكر وصناعة الجلود والاواني الخشبية والصياغة والنجارة والحدادة .(١٢٠)

ولمدينة الموصل سمعتها الصناعية ، فقد اشتهرت بالصناعات المعدنية وصناعة الانسجة الحريرية وغيرها من الانسجة ، غير أنها اشتهرت بشكل خاص في انتاج " المسح "

---

(١١٥) انظر عن هذه الصناعات ، عبد القادر سلمان المعاضيدي : واسط في العصر الاموي (ط/ ١ - ١٩٧٦) .
- وعن احوال البصرة انظر الدكتور صالح احمد العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول للهجرة ، والانسجة في القرنين الأول والثاني الهجريين .
Serjeant: Islamic Textiles, in B. S. O. A. S.

(١١٦) ابن عبد الحكم : فتوح ص ١٣٤ ، ٣٤٥ .

(١١٧) ابن حوقل : صورة الارض ص ٩٤ - ٩٥ ؛ ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الامصار ص ٣٢ - ٣٤ .

(١١٨) الجزنائي : زهرة الآس في بناء مدينة فاس ص ٣٣ .

(١١٩) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ١٧٥ .

(١٢٠) الحبيب الجنحاني : م . ن .

والمسح الكساء المصنوع من الشعر، اضافة الى الستائر والثياب والاواني والسكاكين والنشاب.[121]

ولمدن مصر خصوصيتها في انتاج الانواع المختلفة والجيدة والمشهورة كالانسجة الكتانية وثياب الدبيق،[122] والثياب القبطية المصنوعة من الكتان الابيض الرقيق، والثياب القسية المصنوعة من الكتان المخلوط بالحرير، فضلاً عن الانسجة الصوفية وصناعة الستائر والبسط.

وقد عرفت مدن بلاد الشام كدمشق وحلب وغيرها بصناعة الانسجة الحريرية والقطنية والكتانية. وقد اشتهرت مدينة "المقدية" من بين مدن بلاد الشام بصنع نوع من الثياب يقال لها المقدية،[124] اضافة الى صناعة الزيوت.

اما اليمن وحضرموت وقطر فقد اشتهرت – بل ذاع صيتها – بانتاج البرود، وتروي لنا كتب السيرة ان الرسول الكريم (ص) كان له برد يمني وآخر من حضرموت.[125]

وقد اعتاد خلفاء بني أمية في الشام لبس البرود اليمنية التي فضلت على غيرها من الألبسة.

ومن خلال تتبعنا لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية وتطورها التي وجدنا حولها اخباراً هي صناعة الآلات الموسيقية (الآلات الطرب)، فقد جاء ذكرها في الشعر العربي (امرؤ القيس، الاعشىٰ) وفي كتب (الاغاني: لابي الفرج الاصبهاني؛ العقد الفريد: لابن عبد ربه، سيرة عمر بن عبد العزيز: لابي عبد الله بن عبد الحكم؛ التلخيص في معرفة اسماء الاشياء: لابي هلال العسكري؛ والمخصص: لابن سيدة، ابو الحسن علي بن اسماعيل)، والمعاجم التي من بينها لسان العرب: لابن منظور.

وقد اشارت المصادر الاثارية والتاريخية والادبية المختلفة العربية منها والاسلامية الى شيوع الالات الموسيقية وتنوعها بين العرب على مدىٰ تاريخهم البعيد، وكان لهذا الشيوع اثره في بلورة وتطور صناعة هذه الآلات التي عرفت بالدقة والحذاقة.

---

(١٢١) ابن حوقل: صورة الارض ص ١٩٥.

(١٢٢) الجاحظ: التبصر بالتجارة ص ٢٢؛ لسان العرب حـ ٢ ص ٥٩٦.

(١٢٣) لسان العرب: حـ ١٠ ص ٩٥، حـ ٦ ص ١٧٤ – ١٧٥.

(١٢٤) لسان العرب حـ ٣ ص ٤٠٨

(١٢٥) ابن سعد: الطبقات ١/ ١/ ١٠.

وقد اشتهر العود من بين هذه الآلات في العصر الاموي ، ومما يذكر أن يزيد بن حبيب قد كتب الى الخليفة عمر بن عبد العزيز في اللعب في الدفوف والبربط (العود) في الاعراس. فكتب اليه الخليفة " امنع الذين يضربون البرابط ودع الذين يضربون بالدفاف فان ذلك يفرق بين النكاح و السفاح ". (١٢٦)

اما عن شكل العود وصناعته في العصر الاموي فقد ورد له وصف فريد في كتاب العقد الفريد. (١٢٧)

وقد ازدهرت صناعة التحف العاجية في بلاد الشام ولم تقف هذه الصناعة عند حدود هذه البلاد بل خرجت الى الاندلس فيما بعد حيث يتجلىٰ الفن الاندلسي اروع مايتجلىٰ في فن صناعة التحف العاجية ولا عجب في ذلك فالطراز الاندلسي قام على تقاليد الفن الاموي الذي حمله الامويون معهم من بلاد الشام. (١٢٨)

الحركة التجارية

والتجارة حسبما هو معروف عنصر اساسي من عناصر الحياة الاقتصادية لاي أمة من الامم ، ولقد لعب العرب منذ أزمنة بعيدة دوراً مهماً في عالم التجارة الداخلية والخارجية على حد سواء. وما الدور الذي لعبه عرب عمان واليمن والحجاز والجزيرة الفراتية في تجارة العالم القديم عبر البحر الاحمر والبحر العربي والمحيط الهندي والخليج العربي وعبر أرجاء الجزيرة العربية براً ، وما اشتهر به المجتمع المكي التجاري من نشاط تجاري في رحلتي الشتاء والصيف ، وما لعبه مجتمع مملكة تدمر العربية من فعالية تجارية في الطريق التجاري البري عبر الجزيرة الفراتية إلا أدلة واضحة على نشاط العرب في هذا المضمار.

فلم ينظر العرب الى امتهان التجارة نظرة استهجان وازدراء ، لكنهم على العكس عدوا الاشتغال بالتجارة من أشرف الحرف. فقد زاولها الملوك وعلية القوم والامراء ، وكانت لهم خبرة واسعة في البيع والشراء.

---

(١٢٦) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٨ .

(١٢٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ٦ ص ٧٢٤ ؛ رسائل اخوان الصفا حـ ١ ص٢٠ .

(١٢٨) صلاح حسين العبيدي : الفنون الزخرفية العربية الاسلامية ص ١٨٧ .

لقد كان خير الأمة رسولها الكريم (ص) واكابر عشيرته يزاولون التجارة واحتوى القرآن الكريم على عدد من الايات الكريمة تضمنت مصطلحات تخص التجارة النزيهة الخالية من الربا.[١٢٩]

وكما أن هناك عوامل ادت الى ازدهار الزراعة في العالم الاسلامي خلال عهد الخلافة الأموية، فان هناك عوامل متنوعة دفعت العرب خلال هذه الفترة الى تنشيط فعالياتهم والابقاء على أهمية دورهم في عالم التجارة ومن بين هذه العوامل:

١ - الموقع الجغرافي:

لقد تمتعت البلاد العربية بموقع جغرافي مهيمن، فقد ازدادت اهمية هذا الموقع ذا المواصفات المتنوعة فيما نجحت الجيوش العربية في تحرير وفتح الكثير من المناطق الشاسعة والمهمة التي كانت خاضعة لسيطرة الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية فصارت الدولة العربية ابان العصر الاموي ممتدة شرقاً حتى نهر سيحون وجيحون بضمنها بلاد السند والهند، وغرباً في المغرب العربي والاندلس، لهذا غدت مهيمنة على البحر الاحمر والبحر الابيض وبحر العرب والمحيط الهندي والخليج العربي، وهي بحار ومحيطات استقطبت جميع الخطوط الملاحية التجارية البحرية التي كانت تربط الشرق بالغرب. علاوة على هيمنتها على الطرق البرية الممتدة عبر الجزيرة العربية والجزيرة الفراتية والعراق وبلاد فارس الى مصر والمغرب العربي.

٢ - انتعاش نشاط الطرق البحرية والنهرية والبرية:

لقد انتعشت الطرق البحرية والنهرية والبرية في الدولة الاموية الواسعة الارجاء، وقد ظهر هذا الانتعاش والنشاط نتيجة الى زيادة الطلب على الواردات والى تبادل السلع والتجارات بعد استقرار عمليات التحرير والفتوحات العربية الاسلامية وتأسيس الامصار والمدن. فنشطت انماط انتاجية غير زراعية في هذه المراكز الحضرية التي جذبت بدورها الطرق التجارية البرية والنهرية والبحرية كالبصرة والكوفة وواسط والموصل ودمشق وحلب والفسطاط والقيروان وتونس وموانىء اليمن وموانىء مكة المكرمة وموانىء البحرين وعُمان وموانىء الساحل الشرقي من الخليج العربي.

---

(١٢٩) انظر سورة المطففين، اية ١ ومابعدها؛ سورة البقرة، آية ٢٤٥ ٢٧٥، ٢٧٩؛ سورة النساء، الآية ١٠٠.

وبالرغم من الحقيقة بإن النشاط التجاري خلال المرحلة التي انشغل فيها العرب المسلمون بالفتوحات الاسلامية لم تكن مزدهرة بشكل واضح علاوة على الاهتمام المتزايد الذي ابداها المسؤولون في البلاد العربية لتنمية الموارد الزراعية والاهتمام بتحسين وتطوير مشاريع الري. وعلى الرغم من أن الامصار التي تأسست انذاك خلال العصر الراشدي وبداية الخلافة الأموية لم تكن انذاك امصاراً قد نمت وتطورت لتصبح مراكز تجارية غير أنها بمرور الزمن، وربما عندما أفلح الخلفاء الامويون في السيطرة على المشاكل السياسية ابان عصر الخليفة عبد الملك بن مروان وعندما ابدى هذا الخليفة اهتماماً ملحوظاً بالشؤون المالية كتعريب النقود وسكها مثلا انصرفت الجهود نحو النشاطات التجارية.

ومع ان المصادر التي بين أيدينا لم تقدم غير معلومات قليلة حول واقع النشاط التجاري في الخليج العربي والمحيط الهندي، الذي ربما كان منكمشاً حتى منتصف القرن الاول للهجرة لكن دون شك فان الطرق البحرية عبر البحر الاحمر والبحر المتوسط، كذلك الطرق البرية من اليمن عبر مكة وبلاد الشام ثم موانيء البحر المتوسط وكذلك طرق الحجيج عبر البصرة والكوفة الى مكة والطرق البرية عبر الساحل الافريقي الشمالي (المغرب العربي) كانت اكثر فعالية وحيوية في نقل البضائع المختلفة.

٣- التطور الاقتصادي للمجتمع العربي:

وكما المحنا سابقاً فان توجه الخلفاء الامويون وعمالهم وآخرين غيرهم باستصلاح الاراضي وتحويلها من اراض موات الى اراضي زراعية مثمرة وتزايد اهتماماتهم بتلك الاراضي الزراعية كان واضحاً اثناء عمليات التحرير والفتوح وبعدها. غير أن نشوء الامصار التي توافد الناس عرباً وغير عرب الى الاستقرار فيها ادى الى الانخراط في تلبية الشؤون اليومية الحياتية القائمة على السوق وتبادل البضائع وتصنيع مايحتاج اليه من صناعات يدوية ضرورية. كل هذه المتغيرات جعلت الحاجة ماسة الى سد الاحتياجات اليومية الاساسية من مأكل وملبس وهذه لم تتحقق طبعاً في هذا المصر لوحده او ذلك انما استوجب استيرادها او جلبها من مراكز والامصار التي تنتجها.

إنه ليس من المبالغة في شيء، اذا أكدنا، باديء ذي بدء، أن قضايا العمران بنوعية البدوي والحضري، التي جاءت كنتيجة حتمية ومنطقية لنشوء الامصار والمدن واستقرار العرب ادى الى تطور الاحوال الحضرية في المجتمع العربي الذي تطور من مجتمع زراعي الى مجتمع اهتم بالجوانب الاقتصادية الأخرى تجارية وصناعية.

فقد اهتم الامويون وعمالهم بتنظيم الاسواق في المدن وتشجيع التجار واصحاب الحرف. فيذكر المؤرخون ان والي الخليفة عثمان وبداية الدولة الأموية عبدالله بن عامر كان مهتماً بتنظيم سوق البصرة وبناء الحوانيت ، كما أن خالد بن عبد الله القسري والي العراق بنى ايضاً الحوانيت في مدينة الكوفة وسقف سوق المدينة بالآجر والجص والحصى ، وأتخذ اخوه أسد بن عبدالله القرية المعروفة بسوق أسد في منطقة الكوفة وبنى فيها سوقاً ونقل اليها الناس.[١٣٠] وذكر ايضاً أن بلال بن ابي بردة حفر نهر بلال في البصرة وبنى على جانبيه الحوانيت ونقل اليها السوق.[١٣١].

اما الحجاج الثقفي فقد اعتنى عند بنائه مدينة واسط بالاسواق ، فقد اتخذ السوق الرئيس ووصفه بحشل مؤلف واسط قائلاً ان هذا السوق كان كبيراً يمتد من دار الامارة حتى شاطىء نهر دجلة شرقاً ونحو درب الخرازين جنوباً.[١٣٢]

وفي هذا المجال يورد لنا المؤرخ الواسطي بحشل رواية مفصلة عن الكيفية التي وزع فيها الحجاج هذه الاسواق التي كانت موزعة وفقاً للحرف التي نشطت فيها ، اذ انزل اصحاب الطعام والبزازين والصيارفة والعطارين الى الجهة اليمنى من السوق الاساس وتمتد هذه الاسواق الى درب الخرازين ، كما انزل باعة السفط وباعة الفواكه الى الجانب المقابل للسوق المركزي ، وانزل الخرازين والروزجارين والصناع الى الجهة اليسرى من السوق.[١٣٣]

اما في مدينة الفسطاط في مصر فقد ذكر ابن عبد الحكم أن موسى بن وردان لعله زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك قد انشأ سوق وردان. واهتم الامويون بتأسيس اسواق اخرى كسوق البربر وسوق البركة.

ومن المحتمل ان حركة نمو هذه المدينة – الفسطاط – ونشاطها التجاري جعل هذه الاسواق قاصرة وغير كافية للتعامل التجاري ، فيذكر أن عبد العزيز بن مروان بنى القيسريات. والقيسارية عبارة عن مجمعات للاسواق والمحلات ومن بين تلك القيسريات قيسارية العسل وقيسارية الحبال وقيسارية الكباس وقيسارية عبد العزيز التي كان يباع فيها

---

(١٣٠) البلاذري : فتوح ص٢٨٤.

(١٣١) م.ن. ص٣٥٨.

(١٣٢) بحشل ، اسلم بن سهل الواسطي : تاريخ واسط ص٤٤.

(١٣٣) م.ن.

قماش البز. وبنى الخليفة هشام بن عبد الملك قيسارية اخرى لبيع البز الفسطاط وكان يمتد من القصر الى البحر وسمي بقيسارية هشام. (١٣٤)

ووصفت مدينة القيروان بكثرة اسواقها ونشاطها التجاري ، سوق التمارين وسوق الصباغين وسوق الصرافين وسوق القيروان . ويصف ابو عبيد البكري ان سماط سوق القيروان كان كبيراً ومتصلاً من جهة القبلة الى الجوف حتى ان طوله بين باب ابي الربيع الى المسجد الجامع بلغ حوالي ميلين إلا ثلث وكان سماط من الاسواق (اي يشبه القيسارية) يشتمل على جميع التجارات والصنائع والمهن وقد أمر الخليفة هشام بن عبد الملك بترتيبه وتنظيمه حيث وزعه توزيعاً مهنياً فصار كل سوق متخصص بنوع من المهن والبضائع. (١٣٥)

وقد شجع الامويون بناء الاسواق في مدينة الموصل ، اذ يقال ان سوق الحر الذي كان يقع الى الغرب من جسر المدينة اسسه والي المدينة الحر بن يوسف في العصر الاموي ، كما كان هناك سوق الشعارين وسوق الحشيش.

اما في مدينة الحيرة فقد بنى يوسف بن عمر خلال خلافة هشام بن عبد الملك بها سوقاً سمي «سوق عمر». (١٣٦)

وحرصاً من الخلفاء على مصلحة الرعية وامكاناتهم المعاشية وابعاد المستغلين والمتلاعبين ، واقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه رضوان الله عليهم من بعده ، (١٣٧) اعطوا عنايتهم بالاسواق وبالاشراف عليها ، فخضعت لمراقبة موظفين خاصين يعينهم الامراء والولاة ومعهم الاعوان يساعدونهم على القيام بمهامهم المختلفة والمتعددة فمنهم من يتولى حراستها في الليل والنهار ، ومنهم من يراقب المكاييل والاوزان ، وتمييز الدراهم لمعرفة جيدها ورديئها ورصد عمليات البيع خوف التلاعب بالاسعار والتحكيم بين اصحاب المهن فيما يقع بينهم من خلافات ، اضافة الى جمع ضريبة

---

(١٣٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ .

(١٣٥) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص٢١٦ .

(١٣٦) البلاذري : فتوح ص٢٧٥ ؛ الازدي : تاريخ الموصل ص٢٤ ، ٢٠٤ .

(١٣٧) استعمل الرسول (ص) سعيد بن العاص على سوق مكة بعد فتحها ، واستعمل عمر (رض) على سوق المدينة. اما الخليفة عمر (رض) فتذكر المصادر انه أوجد قاعدة عامة يسير عليها اهل الاسواق في الحصول على مقاعدهم ، كما تذكر المصادر بانه أول من عسّ في عمله بالمدينة .
- زيادة في التفاصيل ، ينظر الطبري : تاريخ ح ٤ ص٤٥ - ٤٦ ، ١٩ ، ٢١٣ ؛
- احمد ، لبيد ابراهيم : الخلافة الراشدة ص٩٨-٩٩.

الاسواق ، وقد ذهبت مهامهم الى أبعد من ذلك حيث اشرفوا على الصناعات كالصباغة والحياكة وغيرها . كل ذلك كان ينصب في الاطمئنان على سلامة العمليات التجارية. (١٣٨)

ان هذه الانجازات الكبيرة في بناء الاسواق ومراقبتها وتنظيمها وفقاً للمهن والبضائع المعروضة فيها تعّد دليلاً واضحاً على الاهتمام المتزايد الذي بذله الخلفاء الامويون وعمالهم في عملية تنشيط الحركة التجارية .

اضافة الى ماقام به الامويون في هذا الصدد فانهم ايضاً شجعوا التجارة من وجوه عدة :

١ - تأمين سلامة الطرق البرية والنهرية والبحرية :

لقد بذل الامويون جهوداً استثنائية لتأمين طرق القوافل البرية وطرق الحجاج والطرق النهرية والبحرية بمطاردتهم قطاع الطرق واللصوص وقراصنة البحر. فيذكر ان الحجاج الثقفي عندما وصلته اخبار قيام بعض الاعراب بقطع الطرق وافسادها كتب اليهم محذراً اياهم فكفوا عن اعمالهم تلك . (١٣٩)

كما يذكر البلاذري ان الحجاج الثقفي اهتم بموقف «الميد» وهم قراصنة البحر واصلهم من السند ، اذ تعرضوا في بوارجهم لتجار مسلمين كانت تحمل نساء مسلمات فاخذوا السفينة . فلما وصلت الحجاج اخبار هذا العمل قال «انما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم» ، ويعني انه لايستطيع غزوهم بالبحر لكنه بعث عبيد الله بن نبهان غازياً (للديبل) وهو موطن الميد لصدهم . ثم ارسال محمد بن القاسم الثقفي ايام الخليفة بن عبد الملك فغزا السند . (١٤٠)

ويرجع اصل الميد او «الميذ» الى الهند واعتادوا على امتهان القرصنة ومهاجمة السفن التجارية وارباك خطوط الملاحة البحرية ، وتعرضت مدينة البصرة وبعض الجزر الواقعة في الخليج العربي كجزيرة قيس الى هجماتهم المتكررة ، لكن الخلفاء وقفوا موقفاً متأهباً للرد هجمات هؤلاء القراصنة .

---

(١٣٨) الجاحظ : البيان والتبين حـ ١ ص١١٠ ، البلاذري : انساب حـ ٥ ص٤٧ ، الاصفهاني : الاغاني حـ ١ ص١١٠، الماوردي : الاحكام السلطانية ص٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ابن الاثير : الكامل حـ ١ ص ٥٣ ، حـ ٤ ص٥٣.

(١٣٩) ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ١ ص٥١.

(١٤٠) البلاذري : فتوح ص٤٢٣ - ٤٢٤ ، خليفة بن خياط : تاريخ ص٤٤٦ ، ٤٥٢.

والواضح ان الخلفاء الامويين وعمالهم اهتموا اهتماماً واسعاً بشؤون البريد وتنظيم طرقه وحفظ الأمن فيها وصيانتها من قطاع الطرق واللصوص وهجمات الاعراب على طرق الحجاج(١٤١) . لذلك فقد خصصوا للبريد ديواناً وان الخليفة عبد الملك بن مروان يعدّ أول خليفة جعل من ديوان البريد مؤسسة ادارية منظمة ومستقلة وانه كان على اتصال دائم ومستمر بهذه المؤسسة وعين على مسؤولياتها اخص خاصته وهو قبيصة بن ذؤيب . (١٤٢)

وفي هذا الصدد يقول ابو يوسف مشيراً الى اهتمام الخليفة باقامة المسالح على المواضع التي تنفذ الى بلدان الاعداء وان تقوم هذه المسالح بتفتيش من يمّر بها من التجار فمن كان معه سلاح أخذ منه . ويذكر ان الحجاج الثقفي أمر ببناء اسطول تجاري يتألف من عدة سفن لتسير في عرض البحر وتفرض الأمن والسلامة للنقل والتجارات .(١٤٣)

وللغرض نفسه قام الخليفة هشام بن عبد الملك بتهيئة الأمن والاستقرار للقوافل واوعز الى ولاته بتقوية الثغور.(١٤٤)

٢- تنظيم طرق البريد وتحديدها وتثبيتها :

كذلك عمل الامويون على تنظيم طرق البريد وتحديدها وتثبيتها ، فأمر الخليفة عبد الملك بن مروان ببناء الاميال (علامات كانت توضع لتحديد مسافة كل ميل بوضع حجر كبير) في الطرقات والمسالك كعلامات لتعيين سير الطريق وتحديد مسافته . وقد عثر على بعض هذه الحجارة – العلامات – التي وضعت على الطريق في فلسطين.(١٤٥)

واستخدم الحجاج الثقفي طرقاً اخرى لتسهيل المرور النهري والبري على حد سواء فبنى المنارات او الفنارات التي كانت توضع على المناطق المرتفعة بغرض نقل الاشارات بواسطة اشعال النيران أو ارسال الدخان ، وبهذا المعنى يقول ياقوت الحموي أن الحجاج اتخذ المناظر بينه وبين قزوين فاذا دخن اهل قزوين دخنت المناظر ان كان ذلك الوقت نهاراً وان كان ليلاً فانهم يشعلون النيران ، ويبدو أن هناك مسالح متأهبة لدرء اي خطر حينما تتم اشعال

---

(١٤١) جرجي زيدان : التمدن الاسلامي جـ ١ ص١٩٩ – ٢٠٠ .

(١٤٢) ابن سعد : طبقات م٥ ص١٧٦ .

(١٤٣) ابو يوسف : الخراج ص١٩٠ ؛ ابن رستة :الاعلاق النفيسة ص١٩٦ .

(١٤٤) المسعودي : مروج جـ ٣ ص ٢٠٥ .

(١٤٥) سيدة اسماعيل كاشف : الوليد بن عبد الملك ص١٨٤ .

– مقالة Barid في دائرة المعارف الاسلامية (ط/ جديدة) : Sourdel .

النيران ، اذا يقول ياقوت انه اذا اشعلت « تجرد الخيل اليهم » ، وكانت هذه المناظر متصلة على الطريق من قزوين الى واسط . (١٤٦)

ومما لاشك فيه ان عمال الامويين في العراق ساعدوا كثيراً على حفر الانهار والقنوات التي استخدمت لاغراض الري لكنها في الوقت نفسه استثمرت للاغراض الملاحية الداخلية . ففي العراق كان نهري معقل والأبله المتفرعين من نهر شط العرب قد حفرا ايضاً بهدف تسهيل عملية الملاحة النهرية من مدينة البصرة والكوفة الى الخليج العربي من جهة وبينها وبين البصرة وواسط والكوفة من الجهة الثانية ومنها الى مدن المشرق الاسلامي من الجهة الثالثة .

واورد الطبري رواية تؤكد بأن الخلفاء الأمويين وعمالهم قد أولوا عناية دقيقة براحة التجار خلال تنقلهم عبر البلدان المختلفة ، فقد كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز الى واليه على سمرقند سليمان بن ابي السري كتاباً جاء فيه « ان اعمل خانات في بلادك لمن مَّر بك من المسلمين فاقروهم يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين ومن كان منقطعاً به فقروه بما يصل الى بلده » . (١٤٧)

وتوكيداً لاهتمام الأمويين بالتجارة وحماية التجار فان هناك معلومات قليلة لكنها مفيدة تبين ان الخلفاء قاموا بالغاء بعض الضرائب والمكوس المفروضة على التجارات مثلما فعل الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي قال في المكس :

« واما المكس فانه التجسس الذي نهى عنه الله . (١٤٨) والمكوس تعني الضرائب التي كانت تفرض على التجار.

والجدير بالذكر ان الامويين كانوا يعتمدون على واردات الضرائب المفروضة على التجارات في الخزينة . فما يذكر ان الخليفة الوليد بن عبد الملك فرض المكوس على التجارات الداخلية كما فرضها على تبادل التجارات الخارجية سواء كان ذلك على الطرق البرية او النهرية او البحرية . (١٤٩)

---

(١٤٦) ياقوت الحموي : معجم البلدان حـ ٥ ص٣٥٠ .

(١٤٧) انظر الطبري : تاريخ حـ ٦ ص٥٦٧ .

-بارتولد : تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي ص٣٠٧ .

Gibb, H.A.R. :Arab conquests in the central Asia p.55.

(١٤٨) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٩٩ .

(١٤٩) سيدة كاشف : الخليفة الوليد بن عبد الملك ص٩٨-١٠٠ .

وبالرغم من حاجة الخزينة الى هذا النوع من الواردات ، فإن تلك الضرائب لم تكن باهضة . اذ اعفي صغار التجار منها تشجيعاً لهم ، كما أعفي منها المواشي والزروع التي ليست للتجارة .(١٥٠)

٣- استخدام النظم التجارية المتطورة :

لقد عرف العرب في بلادهم قبل الاسلام معاملات البيع والشراء والتي تتم باستعمال العملتين المتداولتين انذاك الذهبية منها والفضية .

ولما جاء الاسلام اجاز تبادل العملتين انفتي الذكر على أن تكون عملية التبادل يدأ بيد وأن لاتكون هناك اي فائدة لقاء المبادلة لان الفائدة - الزيادة - تعتبر ضرب من ضروب الربا .(١٥١)

ونظراً لتقدم الحركة التجارية الداخلية وزيادة نشاطها في العصر الاموي بدأ الامويون بادخال النظم التجارية المتطورة كنتيجة لاتساع الرقعة الجغرافية للدولة وحالة الأمن والاستقرار التي تعتبر الحافز الاول لتنشيط الحركة التجارية ، لذا كانوا يتعاملون بالعقود في البيع والشراء بما ينسجم والتعاليم الدينية . وعرفوا المصارف واهتموا بشروط التجارة وخاصة عقود الرهن والودائع ونظام المقايضة .(١٥٢)

وعود على بدء فإن العرب قبل الاسلام استخدموا الصكوك والسفاتج الى جانب التعامل بالعملات النقدية في عملياتهم التجارية والمالية المختلفة . والصك كما يذكر الدكتور الكبيسي هو أمر خطي يحتوي على مبلغ محدد من المال يدفع للشخص المسمى فيه .(١٥٣)
وأول اشارة الى استخدام الدولة العربية الاسلامية رسمياً للقطة الصك كانت في زمن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (رض) ، وهو أول من صك وختم اسفل الصكوك .(١٥٤)

---

(١٥٠) ابو يوسف : الخراج ص١٤٣ ، ١٤٧ - ١٤٨ .
- ابن آدم : الخراج حـ٢ ص٥٠ .

(١٥١) ن . م .

(١٥٢) البلاذري : فتوح ص ٤٠ .

(١٥٣) الكبيسي، حمدان : اصول النظام النقدي ص ٤٨ - ٤٩ .

(١٥٤) اليعقوبي : تاريخ جـ٢ ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

والى جانب الصكوك عرفت العرب «السفاتج» او (الحوالات ومنهم من يساويها بالكمبيالة)(١٥٥) منذ قبل الاسلام، والسفتجة هي «ان تعطي مالاً لاخر وللآخر مال في بلد المعطي (او هي) ان تعطي مالاً لآخر فيوفيه اياه ثم يستفيد أمن الطريق»(١٥٦) وقيل هي «كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالاً قراضاً يأمن به خطر الطريق»(١٥٧)

وعندما جاء الأمويون واستقرت حروب التحرير والفتوح كبر حجم التبادل التجاري بين اسواق اقاليم الدولة، اتسع نطاق التعامل بالسفتجة وتعددت اغراضه. فيذكر الطبري ان حتى واردات الدولة من الاقاليم اصبحت تسلم اليها بموجب سفاتج احياناً.(١٥٨)

ان الغرض واضح من استخدام الصكوك والسفاتج وهو عدم الالتزام بالدفع بالعملات المعدنية، وبالتالي تسهيل عملية نقل النقود من بلد الى آخر دون التعرض للاخطار. وعلى اية حال فان استخدام الصكوك والسفاتج من شأنه بعث روح التبادل التجاري اليسير والمستند على الثقة التي تخدم جميع الاطراف المشاركة في التبادل التجاري وبالتالي الى زيادة المردود الاقتصادي.

ومن هذا كله نشأت حوانيت مالية -- أشبه بالبنوك- لها فروع في المدن(١٥٩) خاصة تلك التي تشهد حياة اقتصادية دائمة ونشطة مثل الكوفة والبصرة وواسط ودمشق وحلب والاسكندرية، وغيرها من المدن التي تربو على العد، ولكن الذي لايجب نسيانه مدينة مكة، تلك المدينة التي لعبت دوراً بارزاً على كافة الاصعدة ومنها التجارية اذ كانت اسواقها الموسمية وغير الموسمية ملتقى التجارات ورجالاتها حيث تمثل فيها القديم من النظم التجارية وحديثها.

---

(١٥٥) انظر خياط: معجم ص ٨٢، انظر الكبيسي، حمدان: ن. م ص٤٩.

(١٥٦) الصابي: الوزراء ص ٤٥٢.

(١٥٧) الصابي: ن. م.

(١٥٨) الطبري: تاريخ جـ ٩ ص٣٥٤، ٣٥٥.

- للمزيد من التفاصيل عن اسواق العرب التجارية، انظر، حتى اسماعيل العاني: اسواق العرب التجارية في شبه الجزيرة العربية قبيل وفي صدر الاسلام، رسالة ماجستير مكتوبة على الآلة الكاتبة، كلية الاداب- جامعة بغداد ١٩٩٠.

(١٥٩) العلي، صالح: التنظيمات الاجتماعية في البصرة ص٢٩٥.

طرق التجارة الداخلية والخارجية

ليس هناك معلومات مباشرة عن أوضاع الطرق التجارية وانواعها والمصاعب التي تكتنفها والتسهيلات المتوفرة فيها خلال الفترة الأموية بشكل خاص ويعود ذلك الى عدم توفر الكتب الجغرافية وكتب الرحلات خلال هذه الفترة وان الاغلبية العظمى لهذه الكتب التي تعد ثروة حقيقية للحديث عن طرق التجارة والنشاطات التجارية في العالم الاسلامي تخص القرن الرابع الهجري فصاعداً.

واعتماداً على هذه الكتب الجغرافية المتأخرة عن الفترة الاموية هناك انواعاً عدة من طرق التجارة والمواصلات، منها الطرق النهرية الداخلية والطرق البحرية الخارجية والطرق البرية الخاصة بالقوافل وطرق الحجيج الى مكة والطرق الخاصة بنقل البريد. ومن المحتمل أن تكون اغلب الطرق البرية هي طرق استعملت لنقل البريد ايضاً.

ودون شك ان هذه الطرق المتنوعة كانت موجودة والى حد كبير نشطة خلال الفترة الأموية لاسيما بعد أن تم حفر الانها الكثيرة في العراق مثلا، اذ تحولت هذه الانهار امثال نهر الأبلة ونهر معقل ونهر شط البصرة والنهر الرئيسي دجلة العوراء (شط العرب)، والانهار التي حفرها الحجاج الثقفي في منطقة واسط لربطها مع الكوفة، والانهار التي حفرت في منطقة الكوفة.

فمن المؤكد ان هذه الانهار استثمرت لاغراض الملاحة الداخلية لانها كانت صالحة لسير القوارب النهرية والسفن الخاصة بنقل المواد الغذائية والتمور والبضائع والحمولات التي تصدر الى المدن المجاورة.

صحيح ان الملاحة البحرية والنقل في السفن الكبيرة قد تطور ونما بسرعة خلال العصر العباسي، غير أن هذا لايعني ان الفترة الاموية خلت من هذه الانشطة. وعلاوة على ذلك فانه من المؤكد هناك عدة طرق برية تتجه سنوياً باتجاه مدن الحجاز المقدسة، مكة والمدينة، خلال موسم الحج الاكبر والمواسم الاخرى، اذ أن هناك:

- طريقاً من المشرق الاسلامي عبر البصرة ومكة.
- وهناك ايضا طريق عبر المشرق الاسلامي والمناطق الشمالية منه عبر الكوفة – مكة.
- وهناك طريق ثالث من الموصل الى مكة.
- وهناك طريق الحج الشامي من بلاد الشام الى مكة.

- وطريق الحج المغربي والمصري الى مكة .
- وطريق اليمن الى مكة .
- وطريق عُمان والبحرين الى مكة .

ان هذه الطرق البرية العديدة قد استثمرت فعلاً لاغراض التجارة ونقل البضائع من البلدان المختلفة الى مكة وبالعكس .

والذي يدرس الحياة الخاصة في البلاط الاموي ومراسيم الخلفاء اليومية وشؤون حياتهم ، واخبار الولاة والعمال وافراد البيت الاموي والاغنياء وما تتطلبه حياتهم ، من مأكل وملبس وكماليات ومواد غذائية يصل الى نتيجة تفيد أن النشاط التجاري الداخلي والخارجي كان واسعاً . اذ احتاج الامويون الى المعادن المختلفة كالذهب والفضة والنحاس مثلا لتعدين النقود وسكها ، واحتاجوا الحديد وغيره من المعادن الصلبة لتعدين الاسلحة وكانوا مشهورين ومهتمين كثيراً بصنع الاسلحة ، واحتاجوا الاخشاب لصناعة السفن واحتاجوا الانسجة الفاخرة القطنية والصوفية والحريرية من الهند والصين ومصر واحتاجوا العطور والاطياب الفاخرة من الهند والبلدان المجاورة واحتاجوا الادوية والعقاقير واحتاجوا المواد الانشائية الجيدة والفسيفساء التي دخلت في بناء القصور والمساجد الضخمة ، وكان الامويون مشهورين في هذا الاتجاه .

ان جميع هذه السلع والبضائع لاتنتج في منطقة واحدة انما في مناطق متعددة من المشرق الاسلامي والمغرب العربي والغرب ، لذلك بات من الضروري جداً نقلها اما براً او بحراً او نهراً عبر موانئ كانت موجودة على سواحل الخليج العربي والبحر الاحمر والبحر المتوسط امثال : البصرة والأبلة وسيراف واوال والخط ودارين وصحار وظفار وعدن والقطيف ودبا وهجر وعيذاب و الاسكندرية وفاس وسجلماسة والقيروان وغير ذلك من الموانئ البحرية و المراكز الواقعة على الطرق البحرية .

وقد تطور الكثير من هذه الموانئ ليصبح بمرور الزمن مدناً تجارية لها سمعة واسعة . وان المتصفح للكتاب المنسوب للجاحظ (التبصر بالتجارة) يرى سعة النشاط التجاري الداخلي والخارجي وضخامة قائمة السلع والبضائع المصدرة من البلاد العربية الى مختلف الارجاء والتي كانت تردها من الخارج .

فكان يأتي من الهند والسند النمور والفيلة والاحجار الكريمة كالياقوت والتوابل ، وكان يأتي من الصين المنسوجات الحريرية واواني الذهب والفضة ، وكان يصدر من الجزيرة

العربية الخيول ومن اليمن الجلود المدبوغة والروائح والصمغ والبن ، ومن بلاد فارس كان يأتي الى الشام وغيرها العطور و المفروشات والفضة ، واللؤلؤ من سواحل الخليج العربي وعُمان وجزيرة اوال وجزيرة قيس وتصدر الى مختلف الارجاء اذ كان لؤلؤ هذه المنطقة مشهوراً بصورة واسعة ، وكانت دمشق وغيرها من مدن الشام ومدن مصر مشهورة بانتاج الانسجة الدقيقة الصنع التي تصدر الى الخارج .

اما بلاد المغرب فقد اشتهرت بتصدير الزيوت والانسجة . فكانت ترد الى مدينة فاس من مدن تاهرت والقيروان وسجلماسة الفستق الجيد من مدينة قفصة والسكر والكمون والقمح والكروم والتمور والثياب والمطرزات القطنية والمنسوجات الحريرية والصوفية والكتانية ، وكانت تاهرت مشهورة بالقوارير الزجاجية واواني الخزف والتحف المعدنية . وعرفت سجلماسة بانها تصدر الى بلاد السودان وغانة ومدينة اودغست القمح والزبيب والثمار المجففة والمنسوجات القطنية والنحاس المصنع والاحجار الكريمة وتستورد من السودان الذهب والرقيق ومن اودغست اشجار الصمغ .

وعن طريق الصلات التجارية عبر الطرق البرية والبحرية مع الاندلس فقد استوردوا الثياب القطنية والحريرية المشهورة في قرطبة ، واستوردت سجلماسة القطن الاشبيلي المعروف .

ولتوضيح الصلات التجارية بين المشرق الاسلامي والمغرب العربي نقول أن التجار القادمين الى سجلماسة او الخارجين منها كانوا يسلكون طرقاً برية وبحرية اهمها : طريق يربط سجلماسة بمدينة وجدة ويبدأ من وجدة الى مدينة صالح ثم الى مدينة تافليت ثم الى جبل بني برنيبان وقيرو ثم الى مدينة مسلىٰ منتهياً بمدينة سجلماسة .

ان هذا الطريق البري كان يتصل بطريق آخر في موضع معين بطريق يأتي من المشرق من البصرة والكوفة ماراً بالمدن الواقعة على الفرات ثم الى الرقة وحران والرها وتل موزن وحلب ودمشق وطبرية والرملة ثم يأتي الى الفسطاط في مصر ثم الاسكندرية وبعدها يمر ببرقة ثم سجلماسة .(١٦٠)

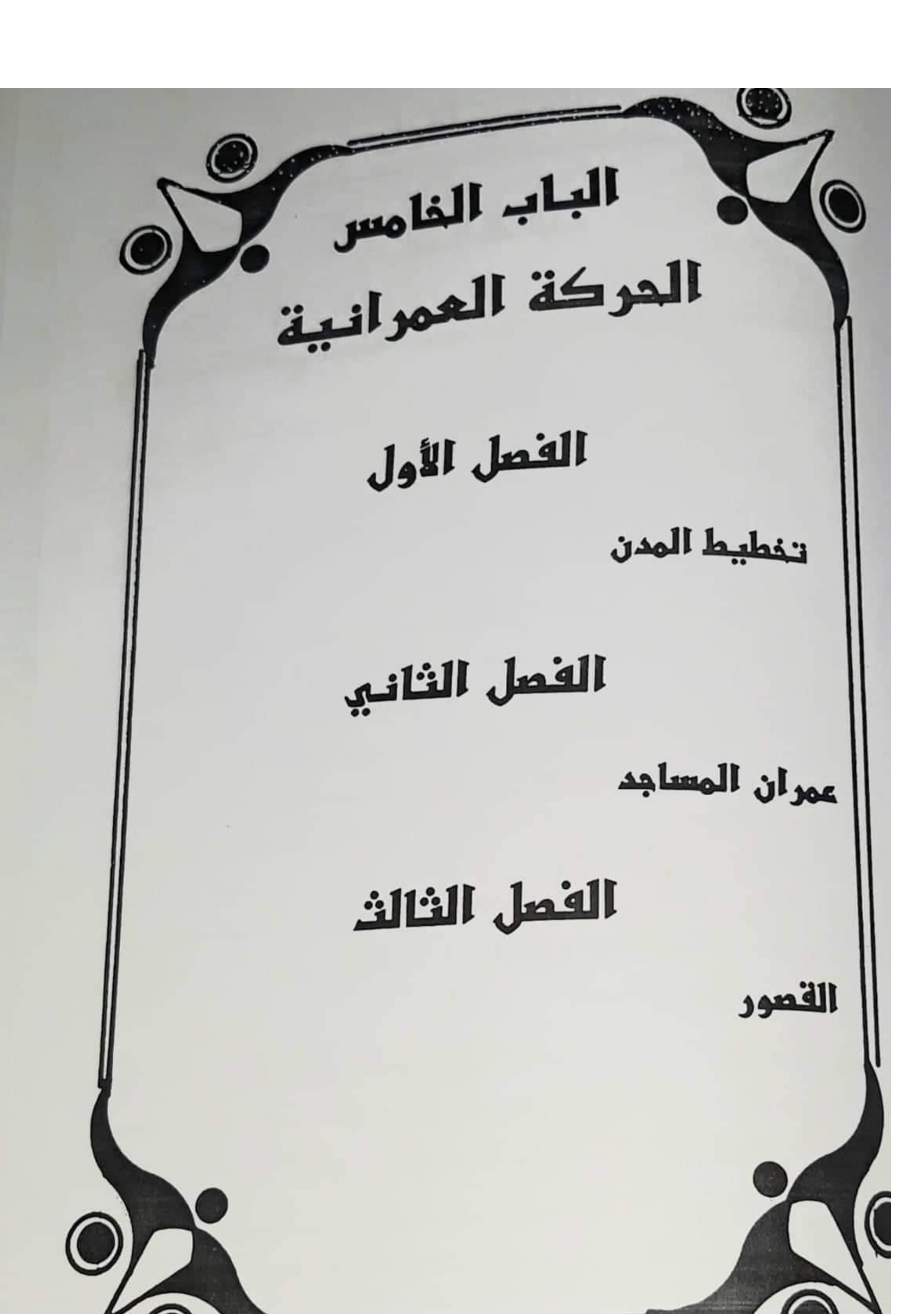
اما في البحر فان الطرق تبتدأ من موانئ الاندلس مثل اشبيلية وشاطبة الى مدن وموانئ

المغ

---

(١٦٠) انظر البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٧٧ ، ٨٨ ، ١٤٦ .

فالعالم الاسلامي كان مترابطاً ، المشرق منه والمغرب ، عن طريق شبكة مسالك برية وبحرية نشطة ، ومن مدن وموانئ مزدهرة تجارياً خدمت نقل التجارات والبضائع المختلفة ليس على الصعيد الداخلي فحسب ، وانما على الصعيد العالمي ، اذ كان لها أثر فعال في الدورة التجارية العالمية عصرئذٍ ، وذلك بفضل ربطها بين واجهتين تجاريتين حساستين ، الواجهة البحرية والواجهة البرية ، وهي حالة لم تكن مقصورة على الفترة العباسية كما تصورها المصادر انما هي عامة ولها جذور تاريخية قديمة تمتد الى الفترة الأموية وغيرها من الفترات التاريخية من تاريخنا العربي الاسلامي .



الباب الخامس
الحركة العمرانية

الفصل الأول

تخطيط المدن

الفصل الثاني

عمران المساجد

الفصل الثالث

القصور



الفصل الأول

تخطيط المدن

تعتبر المدينة ، بصورة عامة ، والمدينة العربية الأسلامية على وجه الخصوص الأساس والمحرك للحضارة . والتأريخ العربي القديم والأسلامي يبرز بوضوح دور المدينة في المجالات السياسية والحضارية والاقتصادية وأن هناك دولا في وادي الرافدين ووادي النيل أشتهرت بأسماء مدنها ومراكزها الحضارية أمثال سلالة لارسا وسلالة ايسن وسلالة بابل وسلالة الوركاء .

كان من اهم المظاهر الحضارية التي رافقت عمليات الفتوح العربية الاسلامية شرقي الجزيرة العربية وشمالها وغربها تأسيس الحواضر والمراكز الحضارية . وهو اتجاه يقف بالضد مع ماطرحه بعض الغربيين من ان المسلمين قاموا بهدم الحضارة والمعالم الحضارية والمقومات الحضارية الأنسانية خلال فتوحاتهم ، اذ أن الحديث عن مساهمات العرب بصورة عامة والأمويين خاصة في مجال تخطيط المدن يؤكد قطعاً خطأ هذه الافكار والنظريات الغربية التي تصور العرب المسلمين بدواً رحلاً .[1] انما في واقع الأمر فأن العرب اسهموا بشكل عميق في انعاش الاحوال الحضارية وفي اعادة تعمير ماتهدم من المناطق التي فتحوها وحرروها . فالفتوحات العربية الاسلامية كانت عمليات عسكرية ناجحة ، وفي الوقت نفسه اظهرت مدى اهتمام الخلفاء والقادة والولاة العرب في تطوير المناطق والمراكز الحضرية التي وصلت اليها الجيوش العربية .

ولم يكتف العرب بالاضافات العمرانية التي اضافوها في كل مدينة وحاضرة وصلوا اليها انما قاموا بتأسيس عدد من الحواضر والمدن الجديدة كالبصرة والكوفة والموصل والفسطاط ، أثناء الخلافة الراشدة ومدن واسط والقيروان وغيرها اثناء الخلافة الاموية .

---

(١) عبد الجبار ناجي : دراسات في تأريخ المدن العربية الاسلامية (البصرة ١٩٨٦) ص١٠١ .
- عبد القادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي (بغداد ١٩٧٦) ص ١١

وبذلك يمكننا القول ان الاسلام دين تمدني بطبعة وانه ظهر وترعرع في مكة مدينة التجار والتجارات والمدينة (يثرب) مركز النشاط الاقتصادي الزراعي والتجاري.

فالمدينة العربية الاسلامية دليل واضح على رقي الحضارة العربية وعلى جدارة الفرد العربي في الاعمار والبناء.

والمدينة، وهي المكان الطبيعي للفرد المتمدن المتحضر تمثل موضع استقراره وتفاعله مع مايحيط به من افراد في مجتمع المدينة المتطلع نحو التطور والتقدم الاقتصادي والاجتماعي والحضاري. وفي هذا المعنى قال ابن خلدون مانصه "ان البناء واختطاط المنازل انما هو من منازع الحضارة التي يدعو اليها الترف والدعة" ويقول في مجال آخر بأنه "لابد في تمصير الامصار واختطاط المدن في الدولة والملك" ويقول ايضاً «اعلم ان المدن قرار تُحرزه الامم عند حصول الغاية المعلومة من الترف فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار». (٢)

فالمدينة العربية الاسلامية تمثل العنصر المركزي للحضارة العربية. والمعروف ان تاريخ العرب قبل الاسلام شهد ظهور العديد من هذه المراكز الحضرية في اليمن والحجاز وبلاد الشام والعراق ومصر وعُمان والبحرين امثال: مأرب وصنعاء ودبار وهجر وصحار واوال والأبلة والحيرة وتدمر والبتراء ومكة والمدينة ودمشق وحلب والاسكندرية وغير ذلك من المدن الكبيرة التي احتلت مكانة حضارية واقتصادية وتجارية كبيرة.

ولما جاء العرب المسلمون الى العراق وبلاد الشام والجزيرة الفراتية ومصر وشمال افريقيا اثناء حروب التحرير والفتوح عملوا على تأسيس بعض الامصار التي تحولت بمرور الزمن الى مدن مهمة تجارياً واقتصادياً ولهذا فأن العرب لم يدمروا، اثناء فتوحاتهم، الحضارة التي كانت موجودة في الشرق والغرب انما ساعدوا بكل جدارة على تأسيس مدن جديدة وساعدوا على اعادة اعمار ماخربه اهمال عمال تلك الدول الساسانية والبيزنطية في المدن التي كانت موجودة انذاك، واضافوا اليها اضافات جديدة تتفق وعقيدتهم الدينية.

ولم تقف حركة الاعمار وبناء المدن وتأسيسها على فترة الخلفاء الراشدين وحدهم انما حدث هذا ابان العصر الاموي والعباسي. فقد تمت عدة انجازات عمرانية وفي مجال تخطيط المدن خلال العصر الاموي منها:

---

(٢) ابن خلدون: **المقدمة** ص ٢٧٤، عبدالجبار ناجي: **مقاومة المدن العربية للغزاة** (بغداد ١٩٨٨) ص ٧-٨.

١ - بناء وتأسيس مدن جديدة .

٢ - بناء قصور بمثابة مدن في مناطق بعيدة عن المراكز الحضرية القديمة .

٣ - استحداث واضافة عدد من الوحدات العمرانية والتخطيطية للمدن التي كانت موجودة .

٤ - بناء المساجد الضخمة .

ومن اهم المدن الجديدة التي اسسها الامويون مدينتا واسط التي بناها الحجاج الثقفي في العراق ومدينة القيروان التي اسسها عقبة بن نافع في تونس في المغرب العربي .

مدينة واسط :

ان المعلومات التاريخية المتوفرة تؤكد على ان العرب خلال العصر الاموي هم الذين اسسوها ولم تكن المدينة موجودة قبل ذلك بالرغم من ان المؤرخين يذكرون اسم موضع قديم هناك يقع على الجانب الآخر (الشرقي من نهر دجلة يعرف ببلدة كسكر او كشكر ويرجع تاريخه الى الفترة الساسانية .

وان هناك معلومات اخرى تشير الى ان هناك موضعاً اخر يحمل اسم واسط ويدعى " واسط القصب " ، وان واسط القصب هذه كانت موجودة ايام الامويين لانه ورد ان الخليفة عبدالملك بن مروان عين الحجاج بن يوسف الثقفي قبل ان يبني هذا مدينة واسط ، عينه والياً على ولاية البصرة والكوفة وواسط القصب ،[٣] لكن هذا الموضع ، واسط القصب ، هو ليس مدينة واسط التي اسسها الحجاج ، ومدينة واسط القصب كانت قريبة منها .

لماذا اسس الحجاج الثقفي واسط ؟

فالمعروف ان العرب المسلمين خلال خلافة عمر بن الخطاب (رض) اسسوا مدينة البصرة لتكون معسكراً للجند المقاتلين والمتوجهين صوب بلاد فارس وكذلك اسسوا مدينة الكوفة بالقرب من المدينة القديمة "الحيرة" لتكون معسكراً ايضا للمقاتلة المسلمين المتوجهين نحو شمال بلاد فارس ، وان الكوفة صارت عاصمة خلال خلافة الخليفة علي ابن ابي طالب (رض) ، كما اتخذ عبدالله بن عامر بن كريز مدينة البصرة وحدة ادارية

---

(٣) اليعقوبي : البلدان ص ٣٢٢ ، بحشل : تاريخ واسط ص ٤٠ ، ٤٣ .

والمهم ان كلا من البصرة والكوفة تأسستا بفعل العامل العسكري اي ان العرب المقاتلين ارادوا من اقامة هذه المخيمات ان تكون معسكرات لهم ولكي تسهل عملية الامداد والتموين. اما واسط فان هناك عوامل وبواعث اخرى غير العسكرية هي التي دفعت بالحجاج الى ان يؤسسها.

لتشمل منطقة واسعة من بلاد فارس.

تسميتها :

سميت واسط بناءاً على أحد التفسيرات لانها تحتل موقعاً وسطاً بين مدن البصرة والكوفة والاحواز، اذ انها كانت تبعد بمقدار خمسين فرسخاً (الفرسخ يساوي ٣ أميال) عن كل من هذه المدن الثلاثة.

وهناك رأي يقول ان التسمية وردت نتيجة لان ارضها كانت قصب فسميت واسط القصب. والمهم ان التسمية واسط هي تسمية عربية اطلقه عليها مؤسسها الحجاج الثقفي وترجع التسمية الى موقعها الجغرافي.(٤)

تأسيسها :

اختلفت الروايات التاريخية بشأن سنة تأسيس المدينة، فبعضهم جعل بداية سنة التأسيس هو ٧٥ هـ/٦٩٤ م وان العمل فيها استمر مدة ثلاثة سنوات وانتهى في سنة ٧٨ هـ/٦٩٧م، والبعض الآخر يرى ان سنة التأسيس ٨٠ او ٨١ هـ/٦٩٩-٧٠٠م. وان الحجاج الثقفي لم ينزل مدينته انما كان ينزل في قصر قريب من البصرة مع جنده الشامي. المهم ان الحجاج بدأ يفكر بشكل جدي باتخاذ مدينة واسط بعد قضائه على حركة عبدالرحمن بن الأشعث، ومن المحتمل انه بدأ بالاعمال العمرانية فيها سنة ٨٠ هـ او ٨١ هـ/٦٩٩-٧٠٠م واستمر مدة ثلاثة سنوات لينتهي منها سنة ٨٣ هـ او ٨٤ هـ/٧٠٢-٧٠٣م.

توجه الحجاج نحو بناء مدينة واسط لعدة عوامل منها :

---

(٤) البلاذري: فتوح ص ٣٥٥؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ ٥ ص٣٤٨.
- انظر مقالة (Kaskar) في دائرة المعارف (ط/جديدة) بقلم Lassner.

١- العوامل السياسية :

وهي دوافع ارتبطت ارتباطاً مباشراً بالمواقف السياسية التي كانت سائدة في كل من البصرة والكوفة . اذ انه واجه بعد قدومه العراق والياً سنة ٧٥هـ/٦٩٤م بعض المتاعب في هذين المصرين (الكوفة والبصرة) . فقد حدثت حركة عبدالله بن الجارود وهي من اهالي البصرة في نفس السنة التي قدم بها العراق . ويبدو ان ابن الجارود وصل الى مرحلة كاد فيها ان يحقق النصر على قوات الحجاج الثقفي لولا ماحدث من انشقاق بين مؤيديه ، فافلح الحجاج في القضاء على الحركة .

والخوارج كان لهم متاعبهم ، اذ انه واجه الازارقة الذين اشتد ساعدهم وتزعمهم شبيب بن يزيد الشيباني الذي نجح في دخول الكوفة عدة مرات وظل يقاوم الحجاج مدة سنتين الى ان استطاع سنة ٧٧هـ/٦٩٦م من اخماد حركته .

علاوة على ذلك فان المؤرخين ومن بينهم الطبري يؤكدون على ان أهالي البصرة والكوفة انضموا الى حركة عبدالرحمن بن الاشعث ضد الحجاج ، وكانت حركة ابن الاشعث قوية جداً بحيث انها هددت من مكانة الحجاج السياسية والادارية ، غير انه استطاع في نهاية المطاف ان ينتصر على ابن الاشعث في معركة "دير الجماجم" سنة ٨١هـ/ ٧٠٠م.(٥)

لذلك كله بعد ان وجد الحجاج بان وجوده في البصرة والكوفة بات مهدداً وغير آمن فكر بشكل جدي باختيار وتأسيس مدينة جديدة له ولجنده الشاميين.

٢- الدوافع الادارية والاجتماعية :

ان المعلومات المتعلقة بتأسيس مدينة واسط توضح ان الحجاج الثقفي اراد ان يعزل جنده من اهل الشام عن اهالي العراق (الكوفة والبصرة) . وقد اتبع هذا النهج منذ اول قدومه الى العراق اذ انه لم يقم مقره في البصرة ، انما اقام مع جنده في قصر اتخذه خارج المدينة ويبعد عنها حوالي الفرسخ .(٦) ومن المحتمل ان يكون عمله هذا مدفوعاً بدافع عزل جنده الشاميين في مدينة خاصة تحيط بها سور وخندق .

بالاضافة الى ماتقدم فان البصرة والكوفة كانتا تمثلان وحدتان اداريتان مستقلتان ، بمعنى ان لكل منها مؤسسات ادارية مستقلة من والي وديوان وقاضي منذ بداية الدولة

(٥) الطبري . تاريخ جـ٦ ص ٢١ ، ٣٤٧-٣٤٨ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ٤ ص ٣٨٤ ، ٤٦٥ ، ٤٩٩ .

(٦) البلاذري : انساب الاشراف (تحقيق Ahlwardt) جـ١١ ص ٣٤٩ ؛ الطبري : تاريخ جـ٦ ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ .

الأموية ، ثم صارت بعد ذلك ، وبعد ولاية زياد بن ابي سفيان ، تابعتين الى والٍ واحد كان ينتقل من مصر الى آخر ويعتمد على نواب له في كل واحدة منها نائب . ولذلك فإنه اقدم على تأسيس المدينة واتخاذها عاصمة له ، وبذلك يكون قد وحد الجوانب الادارية والمالية في مراكز ادارته .

٣- الدوافع الشخصية :

لاينبغي ان نغفل في دراستنا اثر هذه الدوافع ، لان الحجاج الثقفي جاء الى العراق في فترة مضطربة اتسمت بكثرة الحركات السياسية لذلك كان بناء مدينة جديدة له تعكس مكانته السياسية وقدرته وهيمنته على الاوضاع في نظر معارضيه من اهالي الكوفة والبصرة. فيذكر البلاذري ان الحجاج لما فرغ من واسط كتب الى الخليفة عبد الملك بن مروان كتاباً قال فيه انه اتخذ مدينة بين الجبل والمصرين سماها واسط . (٧)

ولذلك فانه فرض عدة شروط ينبغي تواجدها عند اختياره، المدينة ، منها ان تكون في كرش من الارض اي في منطقة مرتفعة لتحقق له ظروف مناخية وصحية باعتبار ان هذه المنطقة هي منطقة اهوار. وانه فرض ان تكون على نهر جاري وبذلك يكون قد وفر له الموارد المائية المهمة دون ان يخشى من احد ان يقطعها عنه . كما انه اتخذ تخطيطاً خاصاً به في المدينة فلم يتبع النهج الذي سار عليه تخطيط البصرة والكوفة والفسطاط . فقد وجه اهتمامه ببناء القصر واهتم ببنائه وتحصينه ، ويذكر انه انفق على بناء القصر والخندق والسوق والجامع حوالي (٤٣) مليون درهم او مايعادل خراج السواد كله لمدة خمس سنوات .(٨) فالحجاج الثقفي بنى اولا قصره بينما كان التقليد في بناء البصرة والكوفة ان مؤسسيها بدأوا في بناء المسجد الجامع اولاً ثم بناء دار الامارة .

مساحة بناء المدينة :

كانت المساحة المخصصة لقصر الحجاج كما ذكر حوالي اربعمائة (٤٠٠) ذراع × مثلها اي مايعادل (٨٠,٠٠٠ متر مربع) وكان هذا القصر يحتوي على اربعة ابواب يفضي كل

---

(٧) البلاذري : فتوح ص ٢٨٨ .

(٨) بحشل : تاريخ واسط ص ٤٣ .

باب منها الى شارع يبلغ عرضه عشرين مترا . وقد نقل الحجاج هذه الابواب من عدد من المراكز الحضرية المجاورة .

اما مساحة المسجد الجامع فقد بلغت مائتي (٢٠٠) ذراع × مثلها اي بما يعادل (٢٠,٠٠٠ متر مربع تقريباً) وحسب تفسير الدكتور المعاضيدي ان كل ضلع من اضلاعه الاربعة كان مئتا ذراع مايقارب (١٠٠ م) فتكون مساحة المسجد (١٠,٠٠٠ م٢)، وانه كان لذلك يتسع لعشرين الف مصلي.(٩)

تخطيط المدينة

بعد أن حدد الحجاج الثقفي الموضع الذي اختاره كتب الى الخليفة عبدالملك بذلك واصفاً له الموضع . فبنى اولاً - كما ذكرنا - القصر الذي احتوى على اربعة ابواب وجعل موقعه وسط المدينة ، واسس المسجد الجامع قربه ، كما اسس سوق واسط الى قرب القصر اذ كان يمتد هذا السوق من القصر حتى شاطئ نهر دجلة . واتخذ الى الجانب الغربي من القصر السجن المعروف بسجن "الديماس".

وعرف قصر الحجاج بقبته المرتفعة "القبة الخضراء" وكانت تقع وسط القصر وقد بقيت هذه القبة الى فترة متأخرة .

اما المسجد الجامع فكان الى جوار القصر وكان شكله ، كما يبدو ، مربعاً واحتوى على عدة ابواب وقد تم اجراء عملية تنقيب في موضع المسجد فعثر على بعض اضلاعه واساطينه ، وكتب الاستاذ فؤاد سفر تقريراً ارفق به مخططاً تصويرياً للمسجد الجامع وشكله ، فكان يحتوي في الداخل على صحن مستطيل مبلط بالآجر، وفيه مجموعة من الاساطين المبنية من الحجر الرملي . وكان في صحن الجامع ميضأة ونافورة .(١٠)

وقد اهتم الحجاج بالاسواق في مدينته ، فقد بنى سوق واسط المركزي بالقرب من القصر والمسجد الجامع ، وكان كما يبدو ان هذا السوق يتفرع الى اسواق فرعية اخرى . ويتجلى

---

(٩) المعاضيدي ، عبدالقادر : **واسط في العصر الاموي** ص ١٥٣ .

(١٠) فؤاد سفر : **واسط الموسم السادس للتنقيب** (١٩٥٤) ص ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ . كذلك انظر بحشل : **واسط** (عن النافورة) ص ٧٦ .

الاهتمام بالسوق من تنظيمه حيث جعل الحجاج هذا السوق منظماً تنظيماً جيداً وموزعاً حسب الحرف والبضائع المعروضة في محلات كل سوق ، فيقول بحشل (مؤرخ مدينة واسط) ان الحجاج انزل اصحاب (او باعة) الطعام والبزازين والصيارفة والعطارين الى الجهة اليمنى من السوق ويمتد حتى درب الخرازين. وانزل البقالين وباعة السقط وباعة الفواكه الى الجانب المقابل للسوق الرئيسي ، وامتدت هذه الاسواق حتى درب الخرازين ايضاً ، ثم انزل الخرازين والروزجارين والصناع الى الجهة اليسرى من السوق الرئيسي وانتهت الى درب الخرازين. فجعل درب الخرازين بمثابة النهاية المركزية للاسواق الفرعية. وقد جعل لكل سوق او تجارة صريفياً يقوم بعملية الصيرفة لتسهيل التجارة والبيع والشراء.[11]

وللشوارع اهميتها في مدينة الحجاج حيث حرص على تخطيطها وتوزيع المحلات فيها ، ويبدو انه اتبع النهج المتعارف عليه في تقسيم الشارع الرئيسي والشوارع الفرعية والأزقة ، ومن اسماء الشوارع والسكك التي وردت اسمائها : سكة البريد ، درب الخرازين ، الذي كان يمثل الشارع الرئيس في المدينة.

ومن الجدير ملاحظته ان المحلات قد وزعت توزيعاً قبلياً او شخصياً مهنياً ، فهناك محلة الرزازين ومحلة المهالبة ومحلة بني دالان ومحلة الحادرة ومحلة الخزاعيين.[12]

ولما كان الحجاج يهدف من بناء مدينة واسط عزل الجند الشاميين فإنه لذلك استحدث فكرة احاطة المدينة بسور وخندق ، ويقال انه بنىٰ سورين واحاطها بخندق ، ولكننا لانعرف عن كيفية بناء السورين شيئاً ، أو نكاد. ويبدو انه بنىٰ فوقهما أبراجاً ، وكان للسور ابواب عدة وردت اسماء بعضها ، منها : باب المضمار وباب الزاب وباب القورج وباب الخلالين وباب البصرة وباب القبل.[13]

وينبغي ان لايفوتنا ذكر ان الحجاج منع اي فرد من أهل السواد أن يسكن المدينة كما انه فرض عليهم مغادرتها ليلاً ولذلك ، ولغيره ، وضع حراساً على كل باب من ابوابها مهمتهم تفتيش من يدخل اليها ، ومنع الدخول اليها بعد حلول المغرب.[14]

---

(١١) بحشل : واسط ص ٤٤.

(١٢) بحشل : واسط ص ١٢٦ ، ١٤٠ ، ١٨٢ ، وكيع : اخبار القضاة جـ ٣ ص ١٦٥ المعاضيدي : واسط في العصر الاموي ص ١٤٠-١٤٣.

(١٣) انظر المعاضيدي : م. ن. ١١٩-١٢٠.

(١٤) بحشل : واسط ص ٤٦ ، المعاضيدي ص ٩٧.

ولأنه أراد من واسط ان تكون مركزاً ادارياً مستقلاً فقد اسس فيها الدواوين ، ومن المحتمل انه اتخذ هذه المؤسسات الادارية بالقرب من مجموعة القصر والمسجد الجامع . فكان هناك بيت المال ويقع أيضاً في القصر.[١٥]

اما السجن المعروف بسجن الديماس فربما يكون بالقرب من دار الامارة . ولواسط مثل بقية المدن العربية الاسلامية مقبرة تقع في الجانب الشرقي وكان اهل واسط يدفنون في هذه المقبرة موتاهم .[١٦]

كما وصفت مدينة واسط بأنها تحتوي على جسر يربط بين جانبيها الشرقي والغربي .[١٧]

القيروان

وهي من المدن التي اسسها المسلمون في العصر الاموي . ويجمع المؤرخون والجغرافيون العرب ان القيروان تأسست سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م .

والواقع ان فكرة بناء هذه المدينة ترجع الى أقدم من ذلك لأن معاوية بن حديج التيجبي الذي تولى فتح افريقية سنة ٣٤ هـ / ٦٥٤ م قد وصل بفتوحاته الى قونية في المغرب واتخذ موضعاً بنى فيه مركز لقيادته وجيشه اطلق عليه « القيروان » ، ومع ذلك فإن قيروان معاوية بن حديج لم تمكث طويلا وانها ليست القيروان التي تأسست سنة ٥٠ هـ .

وتذكر الرواية ان معاوية بن ابي سفيان هو الذي ولى عقبة بن نافع الفهري فتح ماتبقىٰ من افريقية سنة ٤٨ هـ / ٦٦٨ م وكان عقبة انذاك يقيم في نواحي برقة فدعا اليه جميع من أسلم من سكان افريقية البربر وضمهم الى جيشه الذي بعث به معاوية فسار عقبة بن نافع فاتحاً القرىٰ والمدن عنوة اذ ان اهاليها كانوا يبدون مقاومة لتقدمه ، وكان نتيجة انتصاره أن اسلم الكثير من البربر.[١٨]

---

(١٥) المعاضيدي : م . ن . ص ١٤٦ .

(١٦) بحشل : م . ن . ص ٤٤ .

(١٧) ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ٨٨٦ ؛ المعاضيدي : م . ن . ص ١٤٨ .

(١٨) انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٣٤٦ – ٣٤٧ .

وقد رأىٰ عقبة على أثر ما احرزه من انتصارات على البربر ان يفكر جدياً باتخاذ مركزاً لقيادته وادارة دفة العمليات الحربية ضد البربر وكذلك محلا لاقامة جنده. والمعلومات التاريخية تبين انه سار برفقه جيش بلغ تعداده عشرة الآف فارس الكثير منهم كان من القبائل العربية.

وقد دفعت عقبة بن نافع عدة عوامل الى تأسيس مدينة القيروان منها :

١ – العامل الاستراتيجي العسكري :

انه بعد أن احرز تلك الانتصارات العسكرية كان عليه أن يختار موضعاً لجيشه للاعتصام والاحتماء به خشية من اي رد فعل يقوم به عدوه من الروم والبربر ممن لم يسلموا. فاراد عقبة في البداية ان يقيم في الموضع الذي اختاره معاوية بن حديج لكنه وجد فيه صفات غير ملائمة. كما انه لم يرض بالموقع الذي احتلته مدينة قرطاج الرومانية ولا موقعها القريب من البحر لأنه كان يخشىٰ ان يقوم عدوه بمباغتته من جهة البحر.

٢ – الاصالة في التخطيط والسكن :

بالاضافة الى العامل الاستراتيجي العسكري السابق فإن عقبة لم يشأ أن يقطن المواضع القديمة لانها لاتتفق مع المبدأ التخطيطي للمدن العربية الاسلامية، فاراد من القيروان ان تكون مدينة عربية في تخطيطها وفي سكانها وفي محلات اقامتهم، واسلامية في اقامة صلوات الجمع والاعياد.

٣ – الموقع الاداري التعبوي :

فمن الناحية الادارية، وجد عقبه نفسه سيبتعد كثيراً عن مركز ادارة العمليات في الفسطاط اذا ماتقدم اكثر من ذلك باتجاه الغرب. فتأسيس مدينة القيروان وسط هذه المنطقة سيجعل عملية الامداد بالمؤن والجيش ميسورة. وقد أشار الدكتور حبيب الجنحاني الى أن عقبة بن نافع اراد ان يبتعد عن شواطئ البحر المتوسط بغية حماية ظهره من أية حملات بحرية، وانه هدف الى حماية ظهرة بالطريق البري الذي يربط مواضع جنده في هذه المنطقة ومقر القيادة في الفسطاط. ومن الجانب الآخر كان يخشىٰ من البربر الذي لم

يدخلوا الاسلام بعد أن يشنوا هجمات برية على جيشه . فاختار موضعا مواجها لجبال اوراس التي كانت معقل البربر حيث كانوا ينحدرون منه لمباغتة العرب .

من كل ذلك فان العوامل السياسية والعسكرية تعدّ هي العوامل الاساسية في قرار عقبة لاتخاذ موضع القيروان وتأسيسه المدينة . وقد كان الاختيار موفقاً لان الموضع الذي اسست فيه القيروان امتاز بعدة سمات هي : [19]

١ – لايفصله عن مركز القيادة العربية في الفسطاط اي بحر أو نهر أو جبل . اذ كانت تقع على الطريق البري الذي يربط بين الفسطاط (مصر) وبين المغرب الذي كان طوله يبلغ حوالي (٦٣٨) ميلاً .

٢ – ان الموضع يوافق ذهنية العرب ومتطلباتهم الاساسية ، فهو قريب من السبخة وبذلك كما قال عقبة لجماعته «ان اكثر دوابكم الأبل تكون ابلكم على بابها في مراعيها» . [20] اي ان الموضع قريب من الكلأ والمرعىٰ والمحتطب .

٣ – احتواء الموضع على انتاجات ذاتية فهو قريب من بقعة زراعية تكفل مورداً غذائياً للمقاتلين .

٤ – توفر المياه الصالحة للشرب من (المواجل) وهي عبارة عن صهاريج تخزن فيها المياه كما أن هناك وادياً قريباً هو وادي السراويل ، يأتي فيه ماء مالح يستخدم في اغراض عدة . [21]

ذكر ياقوت الحموي أن القيروان كلمة معربة وهو كروان ، وقد ذكر التعبير في الشعر العربي ، قال امرؤ القيس :

وغـــــارت ذات قـــــيروان   كـــأن اسرابهـــا الـــرعـــال . [22]

---

(١٩) انظر الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية في المغرب (١٩٦٨) ص ٥٥
– عبدالجبار – ناجي : دراسات في تاريخ المدن العربية الاسلامية ص ٢١٥ – ٢١٦
(٢٠) الحميري : الروض المعطار في خبر الاقطار (١٩٧٥) ص ٤٨٦ .
– عبد الجبار ناجي : م . ن . ص ٢١٧ .
(٢١) الجنحاني: م . ن . ص ٥٩ ؛ انظر اليعقوبي : البلدان ص ٣٤٨ ؛ المقدسي : احسن التقاسيم ص ٢١٦ .
(٢٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ ص ٤ ص ٤٢٠ .
– الرِعال : جمع رُعيلُ وهي القطعة من الخيل القليلة .

والقيروان في الاقليم الثالث طولها احدىٰ وثلاثون درجة وعرضها ثلاثون درجة . وهي مدينة عظيمة بافريقية وليس بالمغرب العربي مدينة اجّل منها . وقد مصرت في الاسلام في ايام معاوية بن ابي سفيان ، وقصة ذلك التمصير ان معاوية عزل معاوية بن حديج الكندي عن افريقية واقتصر به على ولاية مصر اي ان معاوية فصل اداريا مصر عن افريقية وولىٰ افريقية عقبة بن نافع بن عبد قيس بن لقيط بن عامربن أمية . وكان مقيماً اول الأمر بنواحي برقة وزويلة منذ ولاية عمروبن العاص له . فلما انتصر على اهل البلاد البربر قال «وقد رأيت ان ابني ههنا مدينة يسكنها المسلمون» فاستصوب جماعته رأيه فجاءوا الى موضع القيروان وكانت تقع في طرف البر وهي أجمة وغيضة متشابكة الاشجار وقال عقبة :

«انما اخترت هذا الموضع لبعده عن البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكها » ، وكانت في وسط البلاد . ثم أمر عقبة بن نافع اصحابه بالبناء فقالوا انها غياض كثيرة السباع والهوام وكان عقبة مستجاب الدعوة فجمع من كان في عسكره من الصحابة وكانوا ثمانية عشر ونادىٰ «ايّها الحشرات والسباع نحن اصحاب رسول اللّه (ص) فارحلوا عنا فانا نازلون فمن وجدناه بعد قتلناه»[٢٣]

تسمية القيروان

هناك من اللغويين من يرجع اصل القيروان الى جمع من الخيل ، في حين يرىٰ آخرون ان المقصود بالكلمة الجيش اوكتيبه من الجيش ، او القافلة ، وهناك من يرىٰ ان القيروان كلمة تعني القافلة ، فكل قافلة من الابل تسمىٰ قيروان . وبذلك يتضح ان اصل الكلمة عربي على الرغم من ان البعض من اللغويين العرب من يجعل اصل الكلمة معرب من كاروان التي يقصد به القافلة .[٢٤]

---

(٢٣) م . ن .

(٢٤) انظر الفيروز آبادي: القاموس المحيط ، ومقالة : في دائرة المعارف الاسلامية. Al- Kayrwan-

بعد ان قرر عقبة بن نافع واصحابه تحديد الموضع لمدينة القيروان توجه الى وضع خططها، ومع ان المعلومات عن هذا الموضوع ليست كافية لاعطاء صورة واضحة على تخطيط المدينة، فان المؤرخين يذكرون بان عقبة بن نافع هو الذي ارسى اللبنات الاولى للمسجد الجامع ودار الامارة، ثم اقطع الناس القطائع فبنوا الدور حول المسجد الجامع.

إن هذه الخطوات العمرانية تبين بوضوح ان عقبة بن نافع كان مدركاً للموروثات العربية الاسلامية في تخطيط الامصار. وقد استمرت علمية البناء والعمران مدة خمس سنوات ابتدأت سنة (٥٠) وانتهت سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٠-٦٧٤م.

لقد وردت اشارة الى ان المدينة امتدت بعد اتمام عملية البناء فيها الى مساحة تقدر بحوالي ثلاثة الآف وستمائة (٣٦٠٠) باع وان مساحة سورها الذي كان يحيط بها حوالي (١٢) ميلا.(٢٥)

وإن اول وحدة عمرانية اسسها عقبة بن نافع كان المسجد الجامع ودار الامارة. وإن هناك قصة تبين حيرة عقبة بعد اختطاطه المسجد الجامع في تحديد جهة القبلة. اذ يقول ياقوت الحموي ان عقبة احتار في قبلة المسجد الجامع فبقى مهموماً وبات ليله فسمع قائلا يقول له» في غدٍ ادخل الجامع فانك تسمع تكبيراً فاتبعه فاي موضع انقطع الصوت فهناك القبلة التي رضيها الله للمسلمين بهذه الارض، فلما اصبح سمع الصوت ووضع القبلة واقتدىٰ بها بقية المساجد.(٢٦) ومن المحتمل ان عقبة بنى المسجد الجامع من اللبن والطين لانها المادة الاساسية التي بني بها السور ودور الناس.

وقد تعرض بناء المسجد الجامع في القيروان الى عدة تعديلات وتحسينات خلال الفترة الاموية اذ هدم والي الخليفة عبدالملك بن مروان، وهو حسان بن نعمان الغساني الذي وصل افريقية سنة ٧٤ هـ/ ٦٩٣ م، الجامع عدا الجزء الذي كان يمثل المحراب ثم اعاد بنائه من جديد واضاف اليه ساريتين حمراوتين جلبها من كنيسة كانت في موضع يعرف بالقيسارية وجعلها حسان مقابل المحراب. كذلك شهد المسجد الجامع عمليات

---

(٢٥) الاصطخري: المسالك والممالك ص ٣٤.

(٢٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤ ص ٤٢١.

هدم وبناء وتحسين وتوسيع بعد فترة ولاية حسان ، في خلافة هشام بن عبدالملك كتب عامله على القيروان كتابا يعلمه فيه ان المسجد يضيق بالمصلين واشار عليه ان يضم الى المسجد موضعاً كانت قبيلة مهرة تمتلكه فوافق الخليفة على شرائه وادخاله في المسجد الجامع ، وقد بنى هذا العامل مخزن مياه في صحن المسجد. (٢٧)

كما بنى عقبة بن نافع الدار الذي سكنه وهو دار الامارة وكان مبنياً باللبن وقد ظل فيها عقبة الى ان تحول عنها الوالي الذي جاء بعده وهو ابو المهاجر الذي استعاض عنها بدار جديدة بناها على بعدميلين من دار عقبة ، لكن دار عقبة بقيت هي الدار التي قطن فيها الولاة والعمال حتى سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م . والظاهر ان المسجد الجامع ودار الامارة كانتا في وسط القيروان حيث احاطت بها الاسواق ، كما ان بيت المال والديوان والمؤسسات الادارية الاخرى كانت تتجمع حولها. (٢٨)

ولعل من الصحيح القول ان عقبة بن نافع وزع اصحابه وفقاً لانتمائهم القبلي على المحلات ، وكانت هذه القبائل قد شاركت في عمليات الفتوح منذ أن توجهوا مع عبدالله ابن سعد بن ابي سرح فكان جيشه الذي بلغ عدده عشرين الف يتكون من قبائل مهرة اليمانية وبطون من قبيلة الازد. (٢٩) كما جاء مع القائد معاوية بن حديج عدد من المهاجرين والانصار ، وضم جيش عقبة بن نافع افراد من قبيلة بلي وجماعة من الانصار والمهاجرين ، لذلك فانه من المحتمل وزع اصحابه تبعاً لقبائلهم على المحلات . وقد اورد المقدسي ذكر لبعض هذه المحلات التي تحمل اسماء اشخاص مثل درب أسلم ودرب الربيع ودرب عبدالله .

وتبين المعلومات التاريخية ان عقبة بن نافع عند اتخاذه المسجد الجامع تحولت المنطقة المحيطة به الى مجمع للاسواق . واذا دققنا اسماء ابواب المسجد الجامع نجد انها ربما تعكس الاسواق التي تفضي اليها مثل باب الصباغين والباب الخاصة التي تقود الى سوق التمارين وسوق الرماحين وسوق القلائين . وقد تميزت هذه الاسواق بالنشاط الاقتصادي وكانت البضائع المعروضة فيها تعكس ذلك النشاط ، علاوة على رخص الاسعار. (٣٠)

---

(٢٧) انظر ابو عبيد البكري : **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** ص ٢٢ – ٢٤ .

(٢٨) م . ن . ص ٢٨ .

(٢٩) ابن عبدالحكم : **فتوح** ص ٢٤٦ – ٢٤٧ ؛ عبدالجبار ناجي : **دراسات** ص ٢١٣ – ٢١٤ .

(٣٠) ابن حوقل : **صورة الارض** ص ٩٤ – ٩٥ .

وعوداً على بدء يجب ان نذكر ان المعلومات المتوفرة لدينا في الأقل لا توضح ان عقبة بنى سوراً يحيط بمدينة القيروان عندما وقع نظره واختياره للموضع . لكننا نرى في المصادر المتأخرة ان القيروان كانت محاطة بالسور. والواقع ان القروان ، عندما تأسست كانت تضم سبع محارس وهي نقاط للحراسة ورصد نشاطات العدو. اما السور فانه من المحتمل قد بني اثناء الخلافة العباسية ربما في سنة ١٤٤هـ / ٧٦١ م او قبل ذلك بقليل.(٣١)

ومن الواضح تاريخياً ان عقبة بن نافع اختط المسجد الجامع ودار الامارة ولذلك اختط الناس حول المسجد الجامع ودار الامارة منازلهم ، وكان حينذاك يسكن هذه المنازل اخلاط من الناس من قريش وسائر بطون العرب من مضر ومن ربيعة وقحطان ، كما أقام فيها من الاقوام غير العربية من اهل خراسان ومن البربر والروم . وفيما بعد بنى السور من اللبن والطين وبناه القائد العباسي محمد بن الاشعث الخزاعي ، ولكن زيادة الله ابراهيم ابن الاغلب هدمه سنة ٢٠٩ هـ عندما ثار عليه اهل القيروان بثورة تزعمها المنصور ، وظل مهدماً الى ان اعاد بناءه المعز بن باديس بن منصور الصنهاجي سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢ م.(٣٢)

(٢) الاعمال العمرانية التي اضافها الامويون للمدن :

لم يكتف الامويون ، خلفاء وامراء وولاة ، بتشجيع البناء والعمران وتخطيط المدن ، بل شجعوا الاعمال العمرانية في المدن التي كانت موجودة فاضافوا اليها اضافات وزيادات في البناء والعمران وعملوا على تجميل وتحسين خطط المدن التي اسسها العرب اثناء حروب التحرير والفتوح .

فقد زاد والي معاوية بن ابي سفيان على البصرة ، زياد ، في المسجد الجامع زيادة كثيرة واعاد بناءه مستعملاً الآجر والجص وسقفه بالساج وقال «لاينبغي للامام ان يتخطى الناس» فحول دار الامارة من الدهناء الى قبلة المسجد فكان الامام يخرج من الدار في الباب الذي في حائط القبلة . وبعد انتهاء زياد من هذه التحسينات والبناء اخذ يطوف في دار الامارة وينظر الى البناء ويقول لمن معه من وجوه اهل البصرة «اترون خللاً

(٣١) ابو عبيدالبكري : المغرب ص ٢٤.
(٣٢) م. ن. ص ٢٤- ٢٥.

فيقولون مانعلم بناء احكم منه فقال بلى هذه الاساطين التي على كل واحدة منها اربعة عقود لو كانت اغلظ من سائر الاساطين» وهي اشارة الى مدى حبه للبناء ومعرفته بهندسته. وبهذا يقول الشاعر المجاشعي :

بنى زياد لذكر الله مصنعة من الحجارة لم تعمل من الطين
لولا تعاون ايدي الانس ترفعها اذاً لقلنا من اعمال الشياطين

ويذكر أن زياد جعل صفة المسجد خمس سواري وبنى منارته بالحجارة وبنى المقصورة ؛ كما أمر بجمع الحصى وغطى ارضية المسجد بها لكي لاتتسخ أيدي المصلين عندالسجود. [٣٣]

والى زياد بن ابي سفيان يرجع الفضل في اعادة تخطيط مدينة البصرة وجعلها على شكل اخماس ووزعها على القبائل وحلفائها ، وبذلك صار للمدينة شكلاً هندسياً منظماً بعد أن كانت خططها مبعثرة. وصارت شوارعها وسككها منظمة وفقاً لقياسات هندسية ، فشارعها الرئيس «المربد» كان ستين ذراعاً وصار عرض شوارعها الاقل اتساعاً عشرين ذراعاً ، كما اهتم زياد بتنظيم اسواق المدينة فبنى مدينة تجارية في البصرة اسمها مدينة «الرزق» وهي مدينة واسعة تحتوي على اربعة ابوب ، وقد لعبت دوراً مهماً في النشاطات الاقتصادية اضافة الى كونها كمخزن كبير للطعام والمؤن. [٣٤] كما بنى والي البصرة بلال بن ابي بردة سوقاً على جانبي نهر بلال وبنى فيه الحوانيت. [٣٥]

اما دار الامارة في البصرة فقد أستمرت عمليات التجديد فيه اذ قام صالح بن عبدالرحمن السجستاني والي خراج سليمان بن عبدالملك ببنائها بالآجر والجص.

وقام زياد باعمال تضاهي اعماله العمرانية في مدينة البصرة ، لكنها في مدينة الكوفة اذ زاد ايضاً في مساحة المسجد الجامع وبنى فيه ابوابه وجدرانه التي بلغت ارتفاعها ثلاثين ذراعاً وكسى ارض المسجد بالحصى وبنى فيه المقصورة واتخذ فيه الاساطين ، كما فعل في البصرة ، وجلب حجارتها من جبال الاحواز فكانت تنقر ثم تثقب ويصب في ثقوبها الرصاص والحديد. [٣٦]

---

(٣٣) انظر البلاذري : **فتوح** ص ٣٤٢ – ٣٤٤

(٣٤) عبدالجبار ناجي : **دراسات** ص ١٤١.

(٣٥) البلاذري : **فتوح** ص ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ؛ عبدالجبار ناجي : **دراسات** ص ١٣٦ – ١٤٢.

(٣٦) البلاذري : **م ن**. ص ٢٨٤ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٤ ص ٤٩١.

وخلال فترة ولاية خالد بن عبدالله القسري تم بناء دار او سوق في الكوفة اذ بنىٰ فيه الحوانيت وسقفها بسقوف من ازاج معقود بالآجر والجص.[37]

وشهد المسجد الجامع في الفسطاط اجراء تحسينات وزيادات وعمليات هدم وبناء زمن ولاية مسلمة بن مخلد الانصاري ايام الخليفة معاوية فزاد فيه من الجانب البحري واتخذ له رحبة وبيضة وزخرفة وفرش ارضه بالحصر بعد ان كان مكسواً بالحصىٰ وجعل له اربع صوامع في اركانه الاربعة. كذلك عمل عبدالعزيز بن مروان اثناء ولايته الفسطاط اذ اعاد بناءه وزاد في مساحته.[38] وبنىٰ عبدالعزيز هذا داراً عظيمة هي دار الامارة واطلق عليها اسم دار «الذهب» وبنىٰ لها قبة مذهبة.

والملاحظ ان ولاة مصر اثناء الخلافة الاموية اهتموا ببناء وتنظيم الاسواق مما شجع الى ايجاد حركة تجارية نشطة.

وكان حظ مدينة الموصل ايام الامويين افضل مما نالته ايام العباسيين اذ بنيت فيها الدور والقصور امثال قصر الحر بن يوسف والي هشام الذي ابدىٰ اهتماماً ايضا بالاسواق حيث بنىٰ سوقاً كبيرة سمي بسوق الحر.[39] وحفرت فيها الانهار، وبنى سعيد بن عبدالملك سوراً للمدينة ونظم شوارعها وسككها، وفرش صاحب شرطة الخليفة مروان بن محمد شوارعها بالحجارة؛ وقد استمرت خلال خلافته اعمال البناء حيث تم توسيع المسجد الجامع فيها.

---

(٣٧) البلاذري: م. ن. ص ٢٨٤؛ عبدالجبار ناجي: **دراسات** ص ١٧٠.

(١٣٨) ابن عبدالحكم: فتوح ص ١٣٣، ١٣٩.

(٣٩) البلاذري: م. ن. ص ٣٢٧ – ٣٢٨.

اعداد

د. سرمد الجبوري

الاستاذ: صديق الجنابي

الفصل الثاني

عمران المساجد

المساجد

واجه المسلمون الذين هاجروا الى المدينة المنورة تحديات كبيرة من اليهود والمنافقين وممن لم يعتنق الاسلام، واهم هذه التحديات مسألة ديمومة الدعوة الاسلامية باقامة الشعائر والطقوس الدينية امام اولئك الذين يتصورون انهم شعب الله المختار، ومن اهم ذلك اقامة الصلاة والصلاة الجامعة. لذلك فقد كان رسول الله (ص) واقعياً جداً حينما تعاون (ص) مع صحبه المهاجرين والانصار على بناء اول مسجد جامع في يثرب عندما وصلها وكانت الارض التي اختارها لتكون مسجداً مملوكة لغلامين يتيمين في حجر اسعد بن زرارة، وكانت تلك البقعة مربداً(سوقاً) للتمر وارادان يهبها لله وللرسول فابىٰ الرسول (ص) إلا أن يشتريها بالثمن، ثم قام المسلمون بتسوية حفر المربد وقطع ماكان به من النخيل ثم بدأوا في بناء المسجد من اللبن وكان (ص) يشاطرهم في البناء.

كان بناء المسجد الجامع في المدينة بسيطاً، اذ بناه (ص) من اللبن ثم سقفه بجريد النخيل كذلك استخدم جذوع النخيل اعمدة له وكان ارتفاع ذلك البناء على قدر قامة اومايزيد على ذلك قليلا، ثم حدد قبلة المسجد باتجاه بيت المقدس اولاً ثم تحولت الى الكعبة. وبنىٰ الصُفة، وكانت موضعاً مضللاً من المسجد اعتاد الفقراء من المسلمين السكن فيه. وكان للمسجد الجامع بابان هما باب عائشة (رض) وباب عاتكة، وهناك باب في مؤخرة المسجد يقال له باب مليكة. وكان طوله مما يلي القبلة الى مؤخرته مائة ذراع (حوالي خمسون متراً). وقد زيدت مساحة المسجد عندما ابتاع الرسول (ص) ارضاً متصلة به من اسعد بن زرارة بن عدس بن النجار نقيب النقباء بعشرة دنانير اداها من مال ابي الصديق (رض).

وقد حصلت بعض التجديدات على المسجد النبوي الشريف اذ زاد عليه الخليفة عمر (رض) وبناه على ما كان من بنائه . وفي زمن الخليفة عثمان (رض) غير البناء واستبدل اللبن بالحجارة المنقوشة والفضة وجعل اعمدته من حجارة منقوشة بدلاً من جذوع النخل وسقفه بالساج بدلاً من جريد النخيل وزاد في مساحته .[1]

اذن كان المسجد الشريف في المدينة اول مسجد بناه المسلمون واتخذوه لاداء فريضة الصلاة ومجمعاً لهم يستمعون فيه الى احاديث الرسول الشريفة وكان لاستقبال من يفد المدينة على الرسول (ص) ومسكنا لبعض الفقراء من المسلمين ، ومكاناً لحل الامور والمشاكل التي يواجهها المسلمون .[2]

وبعد ان توسع المسلمون في عمليات التحرير والفتوح شرقاً وغرباً وفي داخل الجزيرة العربية وبلاد الشام دأبوا أولاً على وضع لبنات المسجد الجامع في كل مصر ومدينة وبقعة وصل اليها المسلمون ، فصار المسجد الجامع السمة الاساسية للمدينة الاسلامية وهي حالة تختلف تماماً عن المدن الاوربية والمدن الفارسية . ولذلك فان المسلمين حينما حرروا الاراضي الواقعة تحت السيطرة الساسانية والبيزنطينية وجدوا مدناً عامرة ومبانٍ جاهزة فقاموا بتحويل الكنائس الموجودة في مدن بلاد الشام الى مساجد او بتحويل جزء من هذه الكنائس الى مساجد ، كما انهم اتخذوا بعض المباني في مدن الفرس اماكن لاقامة الصلاة والصلاة الجامعة . من هنا فان ماقام به الخلفاء المسلمون والعمال والولاة في هذه المناطق توجه نحو اعادة بناء او تجديد او تعمير المساجد التي اتخذت تلك المباني . ويستثنىٰ من هذه القاعدة فقط المساجد التي اسسها العرب في المدن والامصار الاسلامية التي تأسست حديثاً ، وبوجه خاص الامصار الاسلامية السبعة ومدن القيروان وواسط والموصل . اذ ان المسلمين حينما تم اختيار هذه الامصار والمدن مراكز اقامة شرعوا اولاً ببناء المسجد الجامع في كل منها .

ومساجد هذه الامصار ، كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط ، مرت بمراحل عمرانية مشابهة الى حد كبير بما تم بناؤه في مسجد الرسول (ﷺ) بالمدينة . إذ انها بنيت اولاً بالقصب او اللبن وكان بناؤها بسيطاً وكانت مسقفة بجريد النخيل لاسيما

---

(١) انظر البلاذري : فتوح ص ٧ – ٢٠ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ ٥ ص ٨٦ .
- Creswell: Early Muslim pp. 3-4.

(٢) عن وظائف المسجد الاخرىٰ ، انظر ، احمد ، لبيد ابراهيم : عصر النبوة ، بغداد . مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر ١٩٩٠ ، ص ٩٢ – ٩٦ .

مساجد البصرة والكوفة والقيروان ثم أعيد البناء والعمران فصارت الحجارة والطابوق بدلاً من الطين وادخلت عليها تحسينات اخرى كالزخرفة وبناء الاعمدة (الاساطين) من الحجارة الجبلية بدلاً من جذوع النخيل.

ولم تقتصر عمليات البناء والعمران على فترة من الفترات دون الاخرىٰ اذ شهدت المساجد الجامعة في جميع انحاء العالم الاسلامي اهتمامات واسعة من قبل الخلفاء وعمالهم وولاتهم. ومع ذلك فمن الممكن القول ان الخلفاء الامويين وعلى وجه الخصوص عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك وسليمان وهشام قد اولوا عناية خاصة وكبيرة ببناء واعمار المساجد الجامعة في دمشق وحلب وبيت المقدس والمدينة المنورة، كذلك اعتنى العمال والولاة امثال الحجاج الثقفي وقرة بن شريك والي مصر اثناء خلافة الوليد بن عبدالملك وعامل هشام بن عبدالملك على القيروان باعادة عمران وبناء وتجديد المساجد الجامعة.

والواقع ان الانجازات التي خلفها الخليفة الوليد بن عبدالملك في اعماره المسجد الكبير في دمشق المعروف بالجامع الاموي، والجامع الاموي في حلب والمسجد الاقصىٰ تعد من الانجازات الرائعة التي خلدها التاريخ الى الوقت الراهن، فمن يزور الجامع الاموي في دمشق الان يشعر بفخر واعتزاز لما حققه الوليدبن عبدالملك في هذا المضمار الحضاري العمراني.

وعلينا أن لانقلل ماقام به والده عبدالملك بن مروان من خدمات في هذا المجال اذ بنىٰ القبة الصخرة العظيمة، واعمال بعض العمال الامويين مثل ماقام به الحجاج الثقفي بالنسبة الى المسجد الجامع في مدينته واسط واعادة بناء مسجد القيروان ايام امارة يزيد ابن حاتم على افريقية.

وبالنظر الى كثرة المحاولات والانجازات العمرانية بخصوص المساجد ايام الخلافة الاموية فاننا سوف نركز الحديث على بعض هذه الانجازات المهمة التي اقر بعظمتها الاجانب في دراساتهم التاريخية والأثرية. ولعل من المفيد تقسيم الاعمال العمرانية المتعلقة بالمساجد خلال الخلافة الاموية الى جانبين

الجانب الأول: يمثل المساجد التي قام ببنائها الخلفاء الامويين او عمالهم على الامصار.

والجانب الآخر: تمثل اعمال التجديد والاعمار والبناء التي قام فيها الخلفاء الامويون او عمالهم في جوامع المدن والامصار الاسلامية.

١ - المسجد الجامع في دمشق:

وهو المسجد الذي يعرف حتى اليوم بين اوساط الناس بالجامع الاموي، ويعّد من النماذج العمرانية الرائعة والجليلة التي تميزت بمهارة البناء وجمال الزخرفة والتنظيم. وعَده المتخصصون بالفن المعماري الاسلامي آية من آيات الفن العربي تعكس معاني العظمة والتفوق والابداع العربي.

وحقيقة الأمر ان الخليفة الوليد بن عبدالملك لم يكن هو الذي اختطه في بداية الأمر إلا ان الذي يعود اليه فضل الاختيار والتخطيط هو امير الجيوش العربية اثناء فتوح بلاد الشام ابو عبيدة بن الجراح. وكان اصل موضعه قديماً معبد وثني خصص لعبادة جوبيتر ثم تحول بعد ذلك في حوالي القرن الرابع الميلادي عندما انتشر الدين المسيحي الى كنيسة نسبت الى القديس يوحنا المعمدان فصارت تسمى باسمه. وعندما حرر العرب بقيادة خالد ابن الوليد دمشق صلحاً، كتب لهم القائد كتاب الصلح وجاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق اذا دخلها اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم ولايسكن شيء من دورهم.."، [٣] وبالفعل فان الخليفة معاوية بن ابي سفيان لما ولي ولاية الشام اراد ان يعمر في كنيسة القديس يوحنا ويزيدها الى المسجد بدمشق، غير ان النصارى رفضوا ذلك فامسك عن العمل، وكذلك يذكر ان الخليفة عبدالملك بن مروان طلب الكنيسة من النصارى لزيادة المسجد وبذل لهم مالاً غير ان النصارى أبوا ان يسلموا الكنيسة اليه. ولهذا السبب ينسب المؤرخون بناء المسجد الى الخليفة الوليد بن عبدالملك. [٤]

اذ تقول الروايات التاريخية ان الوليد جمع النصارى عندما ولي الخلافة وعرض عليهم اموالاً عظيمة القدر مقابل ان يعطوه الكنيسة فتم الاتفاق على ذلك مقابل تنازل المسلمين عن جميع كنائس الغوطة التي اخذت عنوة وصارت في ايدي المسلمين (اي المناطق التي

---

(٣) البلاذري: فتوح ص ١٢٨.

(٤) م.ن. ص ١٣١-١٣٢؛ انظر مقالة:

– Dimashlk "in the Encyclopedia of Islam.

لم يصالح اهاليها المسلمين وانما وقفوا معادين للفتح العربي فاضطر المسلمون الى فتحها بالقوة).[٥] فالأمر اذن فيه تفاهم واتفاق وليس كما يدس بعض المستشرقين من تحريف لحقيقة الحال.

لقد كان اول عمل هدم قام به الوليد سنة ٨٨هـ / ٧٠٧، ومع ذلك فان رواية البلاذري تقول ان في مسجد دمشق في الرواق القبلي مما يلي المئذنة كتاب في رخامه بقرب السقف يذكر فيها ان الوليد امر بذلك سنة ٨٦هـ /٧٠٥م. وقد استمر البناء في الجامع الاموي مدة تسع سنوات. واستعان الخليفة الوليد بالعمال والصناع المهرة من مصر وبقية الامصار الاسلامية، كما احتاج الى صناع آخرين من الغرب فكاتب ملك الروم يطلب منه ان يبعث اليه مائتي صانع من صناعهم المهرة في البناء فلبىٰ ملك الروم الطلب.[٦]

لقد وصف المؤرخون جامع دمشق بانه جامع المحاسن كامل الغرائب وهو معدود احدى العجائب فقد فرشت ارضيته بالرخام ونظم احسن نظام وكان خالياً من صور الحيوان لكن زخارفه تعكس الواحاً فنية رائعة لصنوف النباتات وفنون الاغصان. ويقال ان عجائب الدنيا اربع: قنطرة سنجة ومنارة الاسكندرية وكنيسة الرها ومسجد دمشق. وقد عمل الوليد له اربعة ابواب: في شرقيه باب جيرون وفي غربيه باب البريد وفي القبلة باب الزيادة وباب الناطفانيين مقابلة وباب الفراديس خلف القبلة.

ومما يذكر عن نفقات بناء المسجد الجامع ان الوليد انفق على عمارته خراج الشام كله لسنتين وقدحملت اليه سجلات الحسابات فأمر باحراقها ولم ينظر فيها وقال مقولة مشهورة «شيء اخرجناه لله فلم نقيمه» (انظر الحميري: الروض المعطار).

وتشير المعلومات ان الاهالي ضجوا عندما علموا عظمة النفقات واتهموا الوليد بإنه سلب بيوت اموال المسلمين وانفقها فيما لانفع لهم فيه فقال الوليد لهم في خطبة له "بلغني انكم تقولون وتقولون وفي بيت مالكم عطاء ثماني عشر سنة اذا لم تدخل لكم فيها حبة قمح".[٧]

---

(٥) ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار في ممالك الامصار (١٩٢٤) ص ١٨٢.

(٦) ياقوت الحموي: معجم جـ ٢ ص ٤٦٦.

(٧) م. ن.

وقد عمل في بناء الجامع الذي استغرق تسع سنين حوالي عشرة الاف رجل كانوا يقطعون الرخام ، وكان يحتوي على ستمائة سلسلة ذهب . ولما فرغ الوليد من بنائه سقفه بالرصاص وقد استوردها من شتى الارجاء .[٨]

وقد ملأ الفخر قلوب اهالي دمشق لما رأوا حسن وجمال وابهة مسجدهم ، وكان مبني على الاعمدة الرخامية بطبقتين الطبقة السفلى كانت عبارة عن اعمدة كبار والعليا اعمدة صغار يتخللها نقوش بالفسيفساء العديدة الالوان خاصة تلك التي تقابل القبة المعروفة بقبة النسر. وكان للقبة ثلاث منائر احداها وهي المنارة الكبرى كانت في الاصل ديدباناً للروم ثم تحولت الى منارة وجاء في الاخبار المسيحية ان السيد المسيح (ع) كان ينزل من السماء عليها .[٩]

ولما جاء الخليفة عمر بن عبدالعزيز الى الخلافة اراد ان يقلل من النفقات فينتزع السلاسل الذهبية ويستبدلها بالحبال وان يقلع الرخام لكن اهالي دمشق اشتد عليهم الأمر، ولما سمع الخليفة رأي وفد ملك الروم الذي زار المسجد وتعجب ببنائه لم يطبق اجراءاته قائلاً "اني ارى مسجدكم هذا عظيماً على الكفار" .[١٠]

واجه المسجد الجامع فترات من الاهمال مما ادى الى اصابة فسيفسائه بالتلف ولم يبق منها إلا اجزاء صغيرة ، ولكن اشد مالحق به هو حريق سنة ٤٦١ هـ /١٠٨٨ م الذي ادى الى تلف وتخريب بعض اجزائه .

ومن الجدير بالذكر ان بعثات التنقيب كشفت سنة ١٩٢٧ اجزاء كثيرة من فسيفسائه كانت مغطاة بالملاط ومن اهم هذه الاجزاء المكتشفة تلك التي كانت تقع بقرب المدخل الرئيس للجامع . والاثر المكتشف عبارة عن صورة لنهر في مقدمة المنظر وعلى ضفته الداخلية اشجار ضخمة تطل على منظر طبيعي وتحتوي على رسوم عمارة بين اشجار وغابات . ومن بين هذه الرسوم رسم ملعب للخيل وقصور ذات طابقين ورسم بناء مربع الشكل له سقف صيني الشكل والطراز، وكانت فوق النهر قنطرة تشبه تلك التي فوق نهر بردى. ولذلك يذكر الدكتور زكي محمد حسن ان هذا الرسم ربما يكون رسم مدينة دمشق .[١١]

---

(٨) م. ن .

(٩) م. ن .

(١٠) م. ن . انظر كذلك Creswell: EarlyMuslim pp. 48 – 9

(١١) فنون الاسلام ص ٦٤٧.

٢ - قبة الصخرة

ويدعى احياناً بجامع عمر (رض)، ويعد من أقدم الاثار الاسلامية الماثلة للعيان الذي يعكس الفن العربي الاسلامي في العمران. وقد عدّه المؤرخون والاثاريون الاجانب اول عمل فني رائع للحضارة الاسلامية.[١٢]

والقبة تقع على منصة اصطناعية تقع تقريباً في وسط الحرم الشريف في بيت المقدس، الذي قال الله تعالى في كتابه العزيز (سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من اياتنا إنه هو السميع البصير)،[١٣] والمسجد الاقصى هنا هو بيت المقدس، وقال تعالى (وجعلنا ابن مريم وامه آيةً وآويناهما الى ربوةٍ ذات قرار ومعين) والاشارة هنا الى بيت المقدس ايضاً.[١٤] وقوله تعالى (وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجّيا)[١٥] وهنا ايضاً المقصود بيت المقدس.

وورد في حديث شريف عن ابي ذر الغفاري قال "قلت لرسول الله (ﷺ): اي مسجد وضع على وجه الارض اولاً؟ قال: المسجد الحرام، قلت ثم أيّ؟ قال: بيت المقدس". وروى عن أُبي بن كعب قال: أوحىٰ الله تعالىٰ الى داود ان يبني بيتاً قال "يارب واين من الارض قال: حيث ترىٰ الملك شاهراً سيفه" فرأى داود ملكاً على الصخرة واقفاً وبيده سيف.[١٦]

وهناك نقش مشهور استبدل فيه المأمون الخليفة العباسي بدلاً من الخليفة عبدالملك ابن مروان يُظهر ان تاريخ بناء القبة يرجع الى سنة ٧٢هـ/٦٩١-٦٩٢م. وقد وصفت القبة بأنها انموذجاً فذاً للعمارة الاسلامية، فهي تتألف من قبة يبلغ ارتفاعها حوالي (٣٠) متراً.

ويصف المؤرخون والجغرافيون العرب المسلمين ان بمسجد بيت المقدس يوجد المصلىٰ الذي يخطب عليه ايام الجمع وكان في غاية الحسن والمتانة مبني على اعمدة رخام ملونة ومزخرفة بالفسيفساء الذي لايوجد مثلها شبيه. وكان في وسط صحن هذا الموضع مصطبة

---

(١٢) انظر مقالة Kubbat al – sakhra في دائرة المعارف الاسلامية.

(١٣) سورة الاسراء: الآية ١.

(١٤) سورة المؤمنين: الآية ٥٠.

(١٥) سورة مريم: الآية ٥٢: انظر سورة طه: الآية ٨٠.

(١٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ ٥ ص ١٦٦.

عظيمة في الارتفاع بنحو خمسة اذرع يصعد اليها الناس بدرج ، وفي وسط هذه المصطبة قبة عظيمة تقوم على اعمدة رخام مسقفة برصاص ومنمقة بزخارف من الخارج والداخل وهي مطبقة بالرخام الملون ، وتقوم القبة الصخرة في وسط هذا الرخام . وتقع تحت القبة مغارة ينزل اليها بالسلالم وهي ايضاً مبلطة بالرخام ، ولهذه القبة اربعة ابواب ، وتقع الى الشرق منها قبة اخرى قائمة على اعمدة مكشوفة هي قبة "المعراج" وقبة النبي داود (ع) .

وقبة الصخرة وسط دكة مربعة تقوم على بيت مثمن باربعة ابواب يقابل كل باب منها رواق ، والابواب هي : الباب القبلي وباب اسرائيل وباب الصور وباب النساء ، وهي ابواب مثمنة ، وبنى على كل باب صفة مرخمة وعلى ابواب الصفات ابواب ايضاً سراذج داخل البيت ثلاثة اروقة دائرة على اعمدة رخامية تشرف على رواق مستدير على الصخرة . والقبة كانت انذاك عالية تبلغ المائة ذراع وترى من بعيد . وهي عظيمة ملبسة بالصفر المذهب وتقع على ثلاث سافات ، الاولى مروقة على الالواح والثانية من اعمدة الحديد والثالثة من خشب عليها الصفائح وفي وسطها طريق الى عند السفود يصعد منها الصانع لتفقدها فاذا بزغت عليها الشمس اشرقت القبة وتلألأت . ولذلك يقول كل من يزورها بانه لم يرَ في الاسلام مثلها .(١٧)

اما حجم الصخرة فيقدر بثلاثة وثلاثين ذراعاً في سبع وعشرين ذراعاً ويقع تحت الصخرة مغارة تزار ويصلى فيها وتسع لمائة وستين مصلياً . اما ارتفاع الصخرة عن الارض فيتراوح بين متر ومترين .

وأقام الخليفة عبدالملك من يقوم بخدمتها والوقوف على احتياجات زائريها وهم خدام الصخرة وكانوا من المماليك الذين يسمون "الاخماس" وهم يمثلون خمس الاسرى وهؤلاء يسهرون على خدمتها والمحافظة عليها ، وبلغ عددهم (٣٠٠) خادم .

تعرضت الصخرة الى اعمال عدائية خلال الحروب الصليبية فاخذوا حوالي سنة ٤٩٢ هـ / ١١٨٠ م اكثر من اربعين قنديل من الفضة وزن كل قنديل بلغ ثلاثة الاف وستمائة درهم فضة وسلبوا ايضاً تنور فضة وزنه اربعون رطلاً شامياً . وجعل الصليبيون الصخرة والمسجد الاقصى مأوى للخنازير ، حتى افلح صلاح الدين الايوبي من انقاذ هذه المقدسات من تحريرها سنة ٥٨٣ هـ بعد أن خضعت لسيطرة الأفرنج احدى وتسعين سنة .(١٨)

---

(١٧) ياقوت الحموي ج ٥ ص ١٧١ .

(١٨) م.ن .

وحول الاسباب الحقيقية التي حدت بالخليفة الاموي عبدالملك الى بناء قبة الصخرة هناك تفسيران : اولها يشير الى ان الخليفة اثناء نزاعه مع عبدالله بن الزبير الذي نجح في السيطرة على بلاد الحجاز وعلى مكة بالدرجة الاولى اراد من بنائه هذه القبة ان يقلل من تأثير ابن الزبير على بلاد الشام وذلك من خلال عودة حجاج بلاد الشام بعدانتهاء موسم الحج. لذلك فانه بنى القبة لكي يمنع حجاج الشام من الذهاب الى مكة ويتم شعائر الحج حول قبة الصخرة. وهو تفسير غريب ، اقل مايوصف به انه ساذج ، وقد تستتر وراءه احياناً نوايا ابعد ماتكون عن الموضوعية التاريخية ، فاحداث الواقع التاريخي تدحض هذا الرأي جملة وتفصيلاً خاصة مع خليفة من طراز عبدالملك.

اما الرأي الاخر الذي عرضه جغرافي بيت المقدس (المقدسي) ان سبب تشييد عبدالملك للقبة انما كان لاسباب دينية لاسياسية. فبلاد الشام بلاد خضعت لسيطرة الحضارة الغربية ، وقطنها النصارى منذ القدم وكانت لهم كنائس وعمائر تتسم بالضخامة وحسن البناء امثال كنائس بيت المقدس واللد وحمص وهي كنائس اذهلت كل من زارها ومن بينهم المسلمين. لذلك كان هدف عبدالملك من بناء قبة الصخرة ان يضاهي عمائر النصارى.[19] وهو تفسير قد يكون اكثر واقعية من التفسير الاول الذي لاتؤيده الادلة بان عبدالملك اراد ان يحول الحج من مكة المكرمة الى الحج الى بيت المقدس وان يستعيض بالقبة بديلاً للكعبة ، فهو تفسير غير منطقي وربما يكون اليعقوبي قد اندفع بذلك بسبب عدائه للامويين.

والواقع ان الاستاذ كريزول[20] قد درس بالتفصيل جميع المواصفات الفنية لهذاالاثر الرائع اعتماداً على المصادر الاسلامية وما قام به من دراسة عملية فدرس صفاته المعمارية ووضع خارطة تقريبية لواجهته واروقته وشرفاته ثم عرج على دراسة مواصفاته الداخلية وسقفه واوصاف القبة الخشبية وغير ذلك.

---

(١٩) انظر اليعقوبي : تاريخ (هوتسما) جـ ٢ ص ٣١١.
– المقدسي : **احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم** ص ١٣٩.

(٢٠) Creswell: Early Muslim pp. 17– 42.
– كذلك ماذكره :

٣- الجامع الأموي في حلب :

لقد كان تأسيس الجامع الاموي في دمشق بادرة حسنة لتقليده في المدن الشامية الاخرى . ولماكانت حلب مدينة قديمة حيث تعد من اقدم المدن لاتضاهيها مدينة اوموضع آخر في تاريخها القديم ارتبط اسمها باسم الموضع الذي كان ابراهيم (ع) يحلب فيه غنمه ويوزع الحليب على الفقراء (حلب من حلب الغنم).

ان مدينة حلب عندما تم فتحها من قبل العرب المسلمين كانت مدينة مأهولة ، اذ تحدثنا المصادر التاريخية ان القائد العربي ابا عبيدة بن الجراح بعد ان وافق على طلب الصلح من اهالي المدينة دخلها من جهة باب انطاكية ، وهناك أمرَ بان يبنى المسجد الجامع الذي صار يعرف بعدئذ باسم المسجد الفضائري نسبة الى احد الاولياء من اصحاب السري السفطي . ويبدو ان ابا عبيدة اتخذ مكاناً كان معبداً رومانياً اوكنيسة وان العرب المسلمين بنوا سوراً لكي يفصلوا بين الاعمدة الرومانية وبين المسجد وحولوا المكان الى مكان مغلق خاص بهم . وظل هذا الجامع هو المسجد الجامع الوحيد في مدينة حلب حتى زمن الخليفة الوليد او سليمان .

اذ تباينت الروايات التاريخية بشأن مؤسس جامع حلب فمنهم من يرى ان الخليفة الوليد قد بناه بعد ان نجح في بنائه المسجد الجامع في دمشق ، ومنهم من يقول ان اخاه سليمان بن عبدالملك هو الذي وضع اسسه وابتناه ليتمثل باخيه الذي خلد عن طريق بنائه الجامع الاموي . وقد عرف سليمان انه كان ايضا مهتماً بالبناء والعمران .

وقد وصف الجامع الاموي بحلب بانه كان مسجداً كبيراً موصوفاً بمتانة البناء وكثرة الاساطين والاعمدة الرخامية له صحين واسع الذي يشتمل على ابواب عديدة تزيد على الخمسين باباً حسنة المنظر متينة البناء . وقد انبهر الرحالة المشهور ابن جبير عندما زاره فقال عن الزخارف التي عملت بالفسيفساء مايلي "وقد استفرغت الصفة القرنصية جهدها في منبرة فما ارى في بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته . واتصلت الصفة الخشبية فيه الى المحراب فتجللت صفاته كلها حسناً على تلك الصفة الغريبة وارتفع البناء كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بمسلك السقف وقد قوس اعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية وهو مرصع بالعاج والانبوس ، واتصل الترصيع من المنبر الى المحراب مع مايليها من جدار القبلة". (٢١)

– Grabar: Kubbat al. Sakhra in E.I. (2)

(٢١) ابن جبير: **رحلة** ص ٢٢٧ .

لذلك يمكن القول ان هذا الجامع الذي بناه الخليفة الاموي الوليد او سليمان يعّد ايضاً من العمائر الاسلامية الاموية الماثلة للعيان والتي تعكس مدىٰ التقدم الحضاري في البناء خلال هذه الفترة لما اتصف به من جمال وفن وبخاصة احجاره المرمرية وفسيفسائه واعمدته الرخامية .

٤ – الجامع الكبير في واسط :

كان حتى عهد قريب يعتقد بإن الجامع الاموي الكبير في دمشق هو أقدم المساجد الجامعة الاموية هو والمسجد الجامع في قصر الحير. لكن قبل حوالي الاربعين سنة تقريباً عندما قام الاستاذ فؤاد سفر بحفرياته في واسط تم العثور على شاهد اثاري واضح عن المعالم الاثرية المعمارية لجامع واسط التي اسسها الحجاج الثقفي في العراق . وقد أضفىٰ هذا الشاهد الاثري الضخم على المعرفة التاريخية اضافة جديدة على اقدم جامع اموي قبل الجامع الاموي في دمشق .

لقد بدأ الحجاج اعماله العمرانية بعد اختياره موضع مدينته واسط ببناء القصر المعروف بقصر الحجاج ، وابتنىٰ الى جانبه المسجد الجامع الذي يقال انه كان في طرف الاسواق وبعيداً عن الشط (اي نهر دجلة). والحقيقية ان مجموعة القصر اضافة الى الجامع كانت تحتل موقعاً وسط المدينة كما كان التقليد السائد في بناء الامصار الاسلامية كالبصرة والكوفة وغير ذلك من المدن التي اسسها العرب والتي لم تكن هناك مبان جاهزة استثمرها المسلمون لتكون مساجد كما هو الحال في مدن بلاد الشام والمدن الفارسية .

لقد دلت التنقيبات التي اجرتها البعثة التنقيبية العراقية إن شكل الجامع الكبير في واسط كان مربعاً تقريباً لان اضلاعه الاربع كانت متساوية الى حد كبير اذ تبلغ اطوالها ١٠٤,٣٠ م و ١٠٣,٥٠ م. وقد عثر خلال التنقيب على مدخل او باب واحد يتوسط الضلع الشمالية الشرقية . ومن المحتمل ان هذا المدخل هو الباب الرئيسي للجامع .

واعتماداً على ماذكره الاستاذ فؤاد سفر[٢٢] وآخرين فإن داخل المسجد الجامع كان يحتوي على صحن واسع يشبه المستطيل وكانت ارضه على عكس الجوامع الاخرىٰ في البصرة والكوفة مكسوا بالآجر وتحيط به بلاطات من جوانبه الاربعة ، فكان مصلى الجامع

---

(٢٢) فؤاد سفر : **واسط** ، الموسم السادس للتنقيب ، القاهرة ص ٣ ، ١٨ ، ٢٥ .

يحتوي على خمس بلاطات يتألف كل منها من تسعة عشر رواقاً . اما مؤخرة الصحن هذا فهناك بلاطة واحدة من تسعة عشر رواقاً بينما احتوت الجنبتين على بلاطة واحدة من ثلاثة عشر رواقاً . وكان الجامع الكبير في واسط يحتوي ، كما هو الحال في المسجد الجامع في البصرة والكوفة ، على مجموعة من الاساطين غير أنها كانت من الحجر الرملي بينما جلبت احجار اساطين مساجد البصرة والكوفة من جبال الاحواز.

والظاهر ان الجامع الكبير في واسط شأنه شأن الجوامع في الامصار الاسلامية كان خالياً من الزخارف والفسيفساء والاعمدة الرخامية ، تلك التي اتسمت بها جوامع الامويين في دمشق وحلب وبيت المقدس (المسجد الاقصى) . لكن هذا لايعني عدم وجود اساطين وواجهات مزخرفة زخرفة بسيطة عبارة عن ورق الكرم واغصان متشابكة وازهار وعناقيد تشبه عرانيص الذرة . وهناك نوع آخر من الزخرفة قوامها تخاديد عمودية مثلثة المقطع تنتهي بنطاق من الزخرفة ويفصل بينها صف من الخرز والكريات . اما زخرفة النطاق فهي نجوم او ورود .

وكانت اسس الجامع وجدرانه مبنية بالآجر والجص ويتراوح ثخن اضلاع هذه الاسس بين ٢,٤٠ م الى ٢,٦٠ م .

واحتوى صحن الجامع على نافورة وميضأة فيقول بحشل مايلي :
« قدم علينا بواسط رجل ... قال مررت بمدينتكم هذه وهي أجمة ومررت بها وهي تبنى ومررت بها وقد بنيت ونزلها الناس . وفي مسجد جامعكم هذا طشت من شبه فيها صورة امرأة من شبه » . (٢٣)

وقد شهد المسجد الجامع في واسط عدة تجديدات وعمليات اعمار لاسيما بعد أن اتسعت المدينة لتشمل الجانبين المطلين على النهر ، غير انه في القرن الرابع الهجري تعرض للاهمال حتى ان المقدسي الجغرافي وصفه بانه (متشعث) اي الى حد ما خرب ، والواقع ان استاذ فؤاد سفر هو الآخر قد دعم ان المسجد قد خرب في القرن الرابع الهجري . (٢٤)

---

(٢٣) انظر عبدالقادر المعاضيدي : **واسط في العصر الاموي** ص ١٢٦ - ١٣٢ .

(٢٤) بحشل : **تاريخ واسط** ص ٧٦ ؛ المقدسي : **احسن التقاسيم** ص ١١٨ .

– انظر المخططات المرفقة في نهاية الفصل .

وكما مرّ بنا سابقاً فإن الخلفاء الامويين اولوا عناية فائقة الى عمليات الاصلاح والتعمير لما كان موجوداً من مساجد واماكن عبادة في المدن الاسلامية . وحقيقة الأمر فان العناية ترجع الى الخلفاء الامويين وعمالهم في العمليات الاصلاحية الجذرية التي قاموا بها في بعض المساجد الجامعة التي بنيت في امصار كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان . لان مؤسسي هذه الامصار خلال الخلافة الراشدة قد وضعوا اللبنات الاولى لهذه المساجد من المواد الانشائية المتوفرة أنذاك كاللبن والطين علاوة على ذلك فإن مساجد فترة الخلفاء الراشدين كانت ، اسوة بمسجد الرسول (ص) في المدينة ، مساجد بسيطة في بنائها وتسقيفها . اذ لم يهتم اولئك المؤسسون بزخرفتها وانفاق الاموال الطائلة على بنائها انما بنيت بتكاتف ايديهم لتكون مؤهلة لتأدية فريضة الصلاة والصلاة الجامعة ولتكون مكان لتجمعهم وحل قضاياهم . بينما لم تكن الحالة ذاتها ايام الامويين عندما استقر العرب بعد عمليات التحرير والفتوح وعندما انشغل الخلفاء وعمالهم بالبناء والعمران والاخذ بمقاليدالحضارة الانسانية ، وعندما اراد الخلفاء ان يضاهوا الامم الاخرىٰ في متانة البناء وضخامته وادخال جميع مستلزمات الفن المعماري الاسلامي الاصيل .

ولهذا بالامكان القول ان اغلب المساجد الاسلامية في المدن التي اسسها العرب المحررون والفاتحون قد تعرضت الى اعادة الاعمار والتجديد والترميم .

وكان اول الخطوات في اكمال عملية الاعمار والتجديد هذه استبدال مواد البناء من اللبن والطين الى الآجر والجص والحصىٰ ، وهذا ماحدث بالفعل بالنسبة الى المسجد الجامع في البصرة ، فيقول البلاذري ان معاوية بن ابي سفيان عندما عين زياد بن سفيان واليا على البصرة قام هذا بتجديد بناء مسجد المدينة اذ زاد في مساحته زيادة كبيرة وبناه بالآجر والجص واستبدل سقفه الذي كان من الجريد بالساج ، وحول دار الامارة من منطقة الدهناء الى قبلة المسجد فكان الامام قبل ذلك يتخطىٰ من الدار في الباب الذي في حائط القبلة . فلما انتهىٰ زياد من البناء اخذ يطوف بالمسجد وينظر الى البناء ويقول لمن كان برفقته من وجوه اهل البصرة «اترون خللاً ؟» فيقولون «مانعلم بناء احكم منه» ولشدة اهتمامه بالبناء والعمران فانه رد عليهم » بلىٰ هذه الاساطين التي على كل واحدة منها اربعة

عقود لو كانت اغلظ من سائر الاساطين» . [٢٥] وقد جعل زياد صفة المسجد من خمس سواري وبنىٰ منارته بالحجارة ، وبنىٰ مقصورة له . كما أن زياداً كسىٰ ارضية المسجد بالحصىٰ بدلاً مما كان عليه قبل ذلك اذ كان مكسواً بالتراب . [٢٦]

وقد حظي المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة باعمال اصلاحية ايضاً اذ أمر الخليفة الوليد بن عبدالملك عامله عمر بن عبدالعزيز بادخال حجرات زوجات الرسول (ﷺ) في المسجد فزادت مساحته مائتي ذراع في مثلها . ثم ان الوليد ارسل في طلب الصناع المهرة من المدن الاسلامية ومن امبراطور الروم للعمل في مسجد المدينة فبعث الامبرطور اربعين مهندساً وعاملاً من الروم ومثلهم من القبط وارسل اربعين الف مثقال من الذهب واحمالاً من الفسيفساء . لذلك فانه عندما اعاد بناء المسجد بنى جداره واسسه واساطينه بالحجارة بعد أن كانت بناءً بسيطاً من اللبن وجذوع النخيل ، وبنىٰ المحراب ومقصورة المسجد من خشب الساج .

بعد ان هيأ الوليد مستلزمات بناء المسجد النبوي الشريف قام العمال الروم والقبط بهدم المسجد ثم خمروا النورة للفسيفساء حوالي السنة وحملوا الفضة من قرية بطن نخل (وهي قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة) . وشرعوا في بناء اساس المسجد بالحجارة كذلك شيدوا الجدار والاساطين ، ثم عملوا اعمدة المسجد من حجارة محشوة بعمدالحديد والرصاص .

وقام عمر بن عبدالعزيز (الوالي) ببناء المحراب والمقصورة من الساج وكان قبل ذلك من الحجارة . وجعل طول المسجد مائتي ذراع (حوالي ١٠٠ م) وعرضه مائتين ايضاً اما مؤخرته فكانت مائة وثمانين ذراعاً (حوالي ٩٠ م) .

وبدأ عمر بن عبدالعزيز عمليات التجديد سنة ٨٧ هـ وفرغ منها نهاية سنة ٨٩ هـ .

ومن الجدير الاشارة اليه ان المسجد الشريف بقي على وضعه هذا بعد عمليات التجديد الواسعة الى زمن الخليفة العباسي المهدي الذي قام بدوره بجملة اعمال اصلاحية وترميمية في المسجد . [٢٧]

---

(٢٥) البلاذري : فتوح ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢٦) م.ن . ص ٣٤٣ .

(٢٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ ٥ ص ٨٦ - ٨٧ .

وشملت اعمال الخلفاء الامويين وعهدهم العمرانية الجامع العتيق، جامع عمرو بن العاص، في الفسطاط. والمعروف ان المسجد الجامع في الفسطاط قد بني حينما اختار القائد عمرو بن العاص الموضع الذي تأسست فيه مدينة الفسطاط (سنة ٢١ هـ / ٦٤٥ م) بنى المسجد الجامع اولاً ثم دار الأمارة. وكان الموضع الذي بنى فيه عمرو بن العاص المسجد جبانه صار بعد عودة عمرو بن العاص من الاسكندرية منزلاً لرجل هو قيسبه التجيبي. وقد طلب عمرو بن العاص من قيسبه ان يتنازل عن منزله ليكون مسجداً فتصدق به قيسبة واختط المسلمون المسجد وكان طوله انذاك خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين ذراعاً. (٢٨)

وبقيت اوضاع المسجد العمرانية بسيطة الى أن ولي مصر الوالي مسلمة بن مخلد الانصاري خلال خلافة معاوية بن ابي سفيان فقام باولى الزيادات في سنة (٥٣ هـ /   ) والسبب في ذلك يعود الى ان طاقة المسجد الاستيعابية لم تعد تكفي المصلين مما حدى بمسلمة باخذ موافقة الخليفة بالزيادة في المسجد فزاد فيه من ناحيته الشمالية وجعل من هذه الزيادة رحبة واسعة. كما زود المسجد بوحدة معمارية هي المئذنة وجعل له اربعة صوامع في اركانه الاربعة ليلقي منها الاذان، وكانت المئذنة في الواقع نواة للمآذن في مصر. وقد استبدل مسلمة ارضية المسجد من الحصى وفرشه بالحصر اضافة الى بياضه وزخرفته.

وبعد ان ولي عبدالعزيز بن مروان مصر من قبل اخيه الخليفة عبدالملك بن مروان اجرى في سنة (٧٩ هـ / ٦٩٨ م) توسعة كبيرة من ناحيتيه الغربية والشمالية ضاعفت مساحة المسجد اربع مرات ولتنفيذ هذا الغرض ادخل عبدالعزيز الرحبة في البناء. (٢٩)

وفي سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م أمر عبدالله بن عبدالملك بن مروان بأن يرفع سقف المسجد وكان منخفضاً. (٣٠)

---

(٢٨) زيادة في التفصيل عن تأسيس الجامع العتيق، انظر: زينب فاضل رزوقي، **مصر من التحرير حتى نهاية العصر الراشدي**، رسالة ماجستير مكتوبة على الآلة الكاتبة، كلية الاداب - جامعة بغداد ١٩٩١.

(٢٩) انظر بن عبدالحكم: **فتوح مصر** ص ١٣٣ - ١٣٤.

- ياقوت الحموي: **معجم البلدان** جـ ٤ ص ٢٦٥.

- عبدالجبار ناجي: دراسات في المدن ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٣٠) الباور، طلعت: العمارة العربية الاسلامية في مصر، بغداد، بيت الحكمة، ١٩٨٩، ص ٢٠ - ٢.

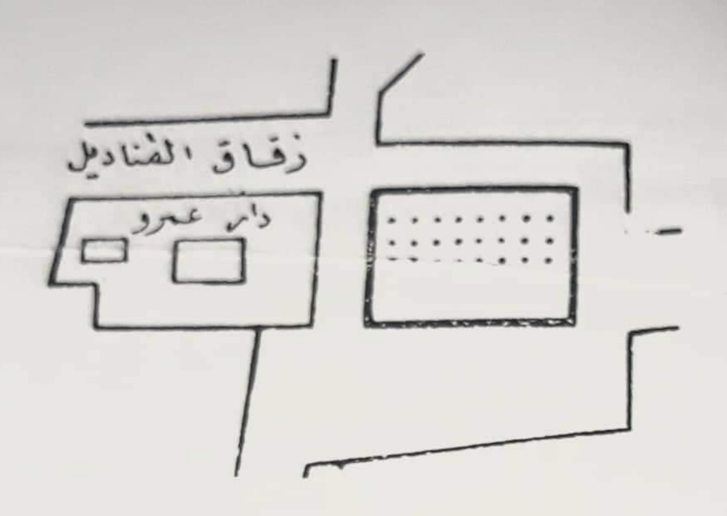
ثم جاءت اعمال قرة بن شريك الكبيرة . فلم يكن للمسجد محراب مجوف وان اول من ابتنى فيه محراباً مجوفاً هو قرة بن شريك والي مصر للخليفة الوليد بن عبدالملك ، ولتنفيذ اجراءاته بدقة فان قره قام سنة ٩٢هـ بهدم المسجد بعد أن حصل على اذن من الخليفة واعاد بناءه فزاد من مساحته ونمقه وحسنه وادخل فيه ماادخل الوليد على الجوامع في دمشق وحلب . واستغرقت عملية اعادة البناء والتجديد هذه قرابة السنة . ونصب قرة منبراً جديداً فيه من الخشب بدلا من المنبر الذي اتخذه عمرو بن العاص ، وجاءت عمليات التوسيع في المسجد من جانبه القبلي والشرقي بحيث انه اضطر الى ان يضم دار الامارة التي بناها عمرو بن العاص ودار ابنه عبدالله فادخلهما في المسجد ثم جعل له اربعة ابواب .[٣١]

وتعرض المسجد العتيق في مصر الى حريق سنة (٢٧٥ هـ// ٨٨٨ م) اذ احترق فيه ثلاث حنايا امتدت من باب اسرائيل الى رحبة الحارث فقام خمارویة بن احمد بن طولون باعادة بناء المسجد وعمارته بحيث بقيت اعماله الاصلاحية هذه الى فترات متأخرة .

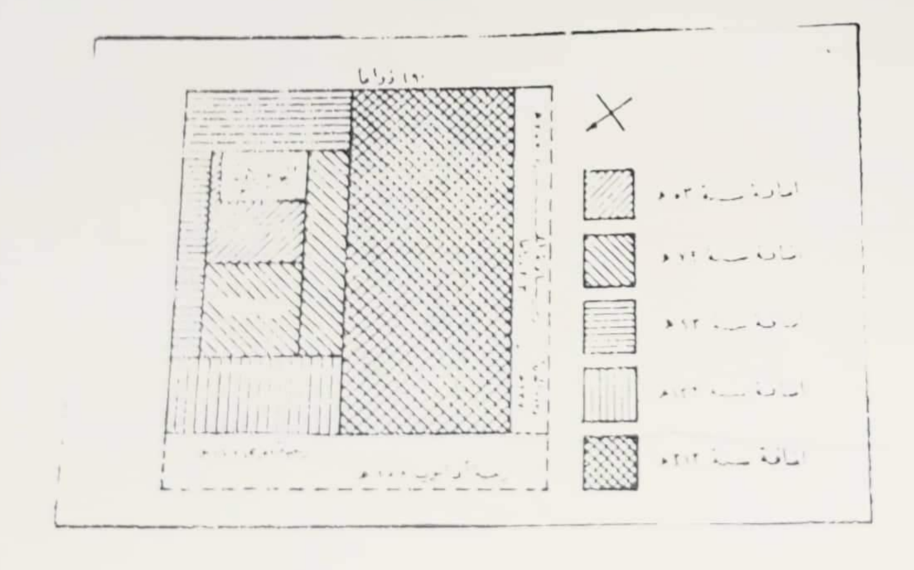
بذلك يمكن القول ان الامويين عملوا الكثير من الانجازات العمرانية التي ارست الطابع الاسلامي الاصيل في الفن المعماري في بناء المساجد وبذلك اغنوا الحضارة العربية الاسلامية بشكل واسع .

---

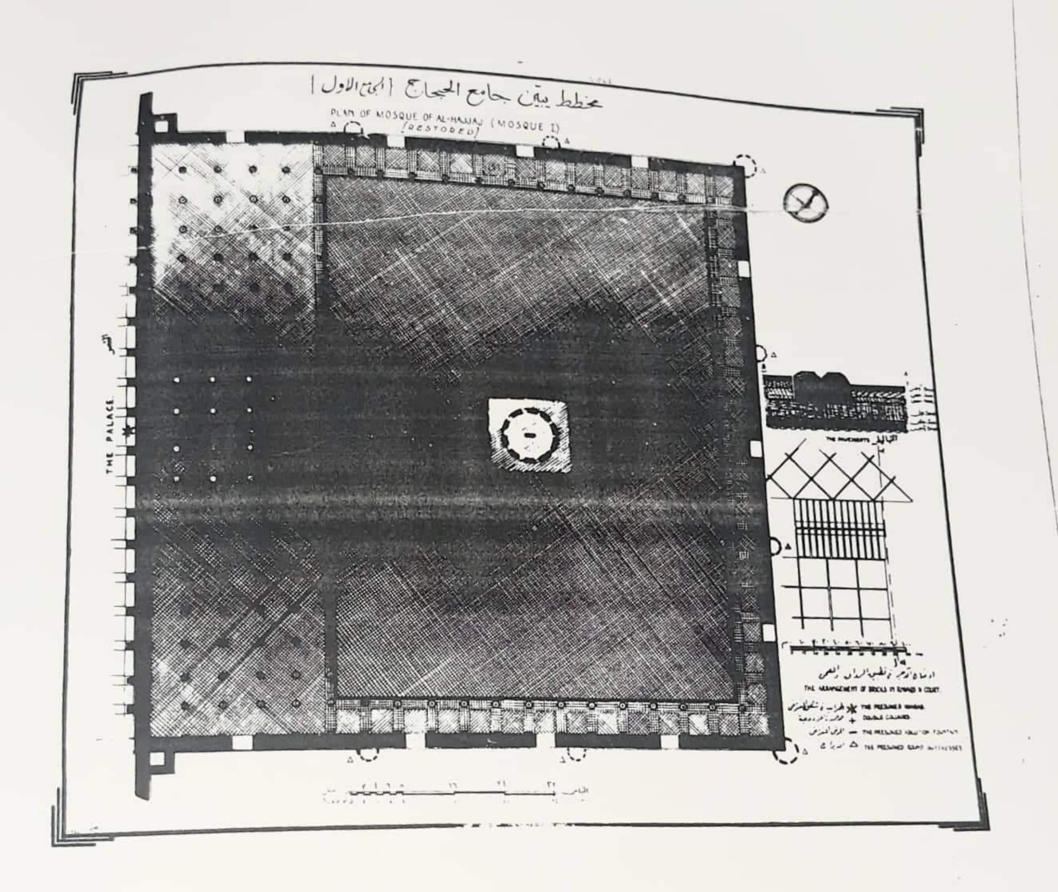
(٣١) انظر ابن عبدالحكم : م.ن . ياقوت الحموي ، م. ن. ناجي : دراسات م. ن.



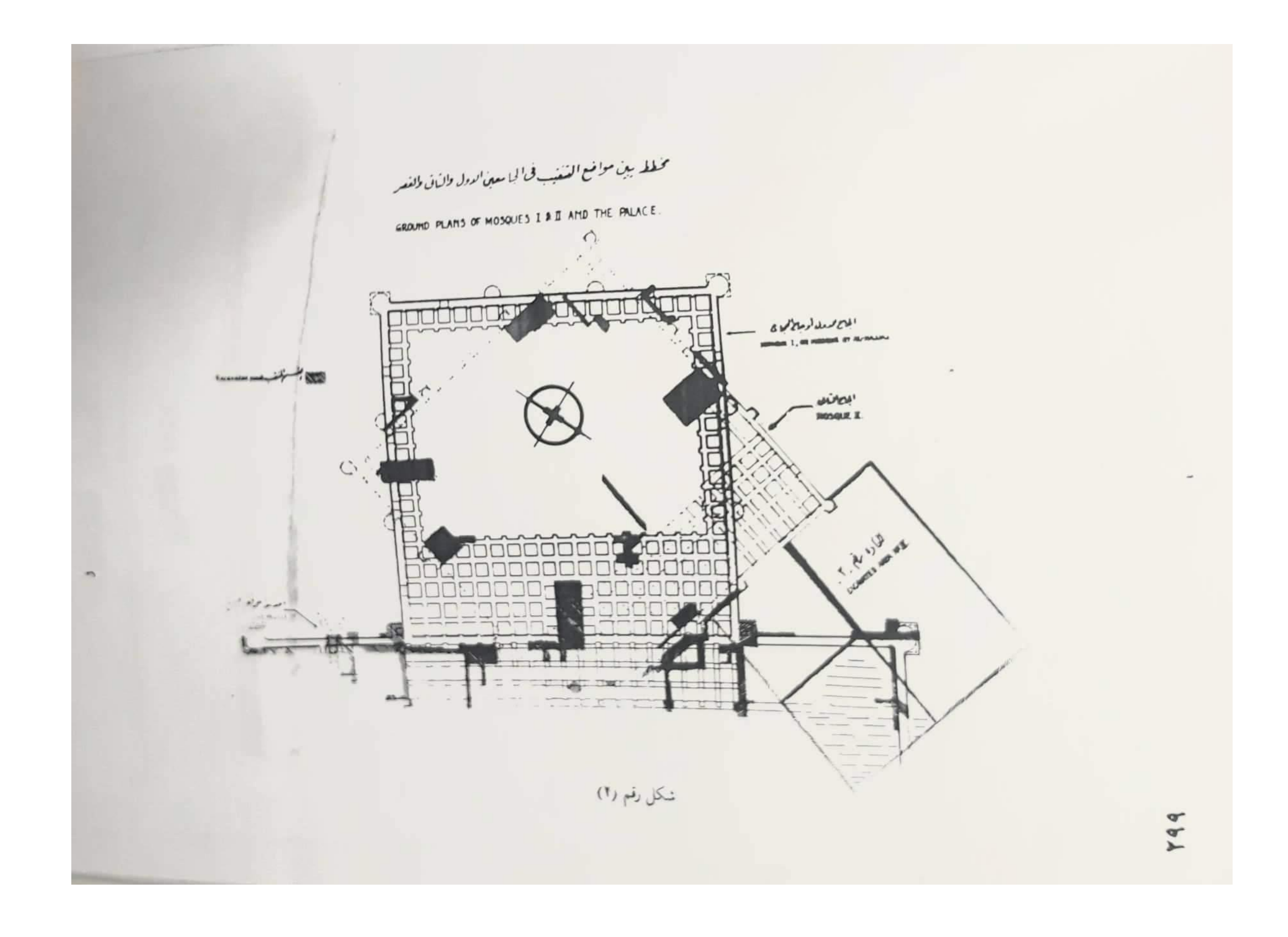
رسم تصوري لتخطيط
مسجد عمرو سنة انشائه (٢١هـ – ٦٤٢ م)



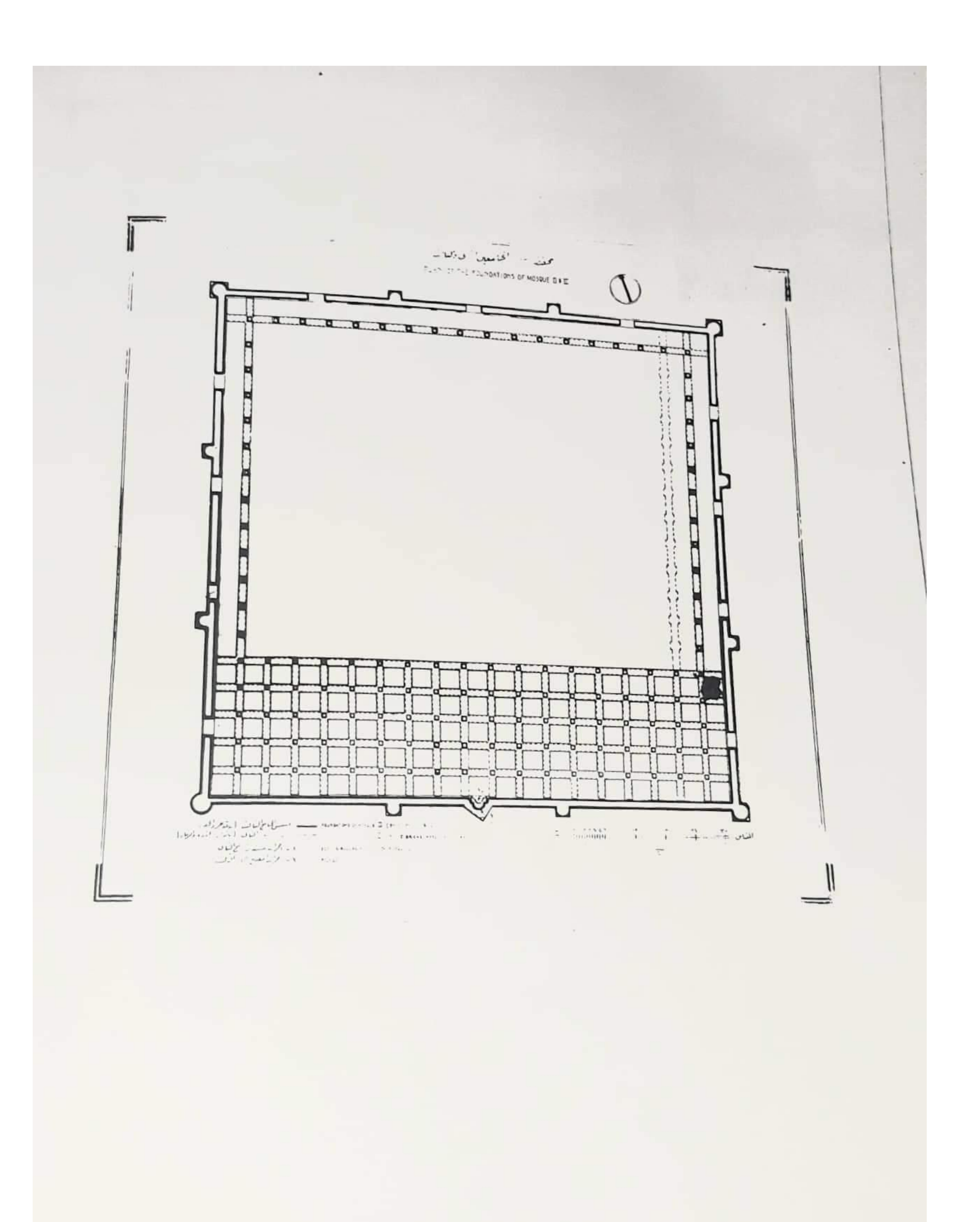
المخططات اعلاه عن كتاب : العمارة العربية الاسلامية في مصر الدكتور طلعت الباور



شكل رقم (٣)
مخطط يبين جامع الحجاج (الجامع الاول)


مخطط يبين مواضع التنقيب في الجامعين الاول والثاني والقصر
GROUND PLANS OF MOSQUES I & II AND THE PALACE.
MOSQUE II.

شكل رقم (٢)



الفصل الثالث

بناء القصور

لقد كانت حصيلة اختلاط العرب بعد استقرار الفتوحات العربية الاسلامية بالامم الاخرى كالروم ان دخلت الى حياتهم متغيرات اجتماعية في العادات وفي الحياة اليومية. فقد استفاء الخليفة معاوية من نظم الحكم التي ادخلها الروم البيزنطيين الى بلاد الشام واستحدث لذلك زيادات واضافات عمرانية الى الفن والريازة المعمارية الاسلامية، فهو اول من اتخذ الحجاب والحشم ووضع المقصورة لاقامة الصلاة، وكان الخليفة يحضر المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء ويرقى المنبر لالقاء الخطبة وبيده الخاتم والعصا.

وقد تشبه خلفاء بني امية بالملوك في ابهتهم فزاد اهتمامهم ببناء القصور الخاصة بهم، فكان للخليفة قصوره وللامراء والعمال والاغنياء قصورهم الخاصة. والمعروف ان حياة الخلفاء الراشدين وعمالهم كانت حياة بسيطة في جميع مجالاتها ومناحيها بما في ذلك ابنيتهم العامة او دورهم الخاصة. فيقال ان خارجة بن حذافة بنى داراً عالية فبلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب (رض) فكتب الى عمرو بن العاص: "سلام. اما بعد فانه بلغني ان خارجة بن حذافة بنى غرفة ولقد اراد خارجة ان يطلع على عورات جيرانه فاذا اتاك كتابي هذا فاهدمها ان شاء الله والسلام". [1]

ان هذا القول يشير الى مدى البساطة التي كان المسؤولون العرب يتخذونها في حياتهم وتصرفاتهم، لكنهم بمرور الزمن ونتيجة الى اختلاطهم وتأثرهم بالموروثات الحضارية العالمية انذاك تخطوا عهد البساطة وتوسعوا في البناء فانتجوا في الفنون، فبنى عبدالله بن سعد بن ابي سرح والي مصر قصراً كبيراً اطلق عليه اسم قصر "الجن". [2]

---

(١) ابن عبدالحكم: فتوح ص ١٠٤، المقريزي: خطط جـ٢ ص ٢٤٧.

(٢) م.ن: ص ١١٠.

زيادة في الاطلاع على مجمل الرسوم والتقاليد التي استحدثت او تطورت في مؤسسة الخلافة في العهد الاموي، انظر رسالة الدكتوراه الموسومة بـ (رسوم دار الخلافة الاموية) (١٩٩٠) للدكتور غانم هاشم خضير السلطاني/كلية الاداب - جامعة بغداد.

وازدادت عناية العرب بالبناء والفنون خلال خلافة الامويين فكان الطراز الاموي الذي ينسب الى العصر اول الطراز او المدارس في الفن الاسلامي ، ولعل سبب ذلك يرجع الى تأثر الامويين بما قدمته مدارس الفن الهلنستي الشرقية ، وقد بان ذلك ببناء العمائر بسبب اعتمادهم في بداية الأمر على الصنّاع والفنيين الاقباط والسوريين. ومن بين ماتوجهت اليه اهتمامات الخلفاء الامويين وعمالهم وافراد بيتهم بناء القصور فكان قصر الخليفة معاوية في دمشق في غاية الابهة وازدانت جدرانه بالفسيفساء واعمدته بالرخام والذهب وسقوفه بالذهب المرصع بالجواهر، وبنيت فيه النافورات والمياه الجارية والحدائق لتلطيف جو القصر. فكان الخليفة يجلس في البهو الكبير وعلى يمينه امراء البيت المالك وعلى يساره كبار المسؤولين.

ويذكر المؤرخون ان الخليفة مروان بن الحكم اقام حوالي الشهرين في مصر فامر ببناء الدار التي سميت ''الدار البيضاء'' ليسكنها وقال ''لاينبغي لخليفة ان يكون ببلد ليس له فيها دار'' كما أمر عبدالعزيز بن مروان ببناء دار للخليفة عبدالملك في مصر سماها ''الدار الذهبية''.[٣]

وكان الخليفة الوليد بن عبدالملك من اعظم الخلفاء الامويين اهتماماً بالعمارة والفنون وقيل ان الناس في زمنه كانوا لايتحدثون الا عن البناء والعمارة. وقد تأثر الوليد باهتمامات والده في الاعتناء بالعمارة والبناء ، فكان مولعاً بالبناء واقامة الحصون الحربية (المصانع). وتأثر الناس بولعه واهتمامه فشيدوا القصور واعادوا بناء بيوتهم واهتموا بالضياع والعمارات لوفرة الثروة في ايديهم وكان عصره عصر رخاء .واهتم ايضاً ببناء المستشفيات للمرضى وبنى دار للضيافة وبنى المساجد.[٤]

ولم يقتصر هذا الاهتمام على الخلفاء الامويين وافراد عائلتهم فحسب انما تنافس فيه الامراء والعمال ، فقصر ابن هبيرة الذي ينسب الى والي مروان بن محمد على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة هو قصر بناه على فرات الكوفة وقد صار محطاً لسكنى الناس فتحول الى مدينة ، ثم تركها وبنى قصراً اخر بالقرب من جسر '' سورا '' وكان قصراً كبيراً.[٥]

---

(٣) الكندي: الولاة والقضاة ص ٤٩.

(٤) اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٣٤-٣٥.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤ ص ٣٦٠.

وبنى الحر بن يوسف والي الموصل اثناء خلافة هشام بن عبد الملك قصراً منيعاً زينه بالرخام الخالص والمرمر وكانت تسمى "المنقوشة" لما امتازت به من نقوش بديعة. وبنى زياد بن ابي سفيان عدة قصور له في البصرة منها قصر "النواهق" وبنى ابنه عبيد الله ابن زياد اثناء ولايته قصر عبيد عبيد الله بن زياد، وهناك قصر "المسيرين" لعبد الرحمن ابن زياد وهو قصر في جوف قصر.[6]

كانت قصور الاغنياء والقصور التي قطنها الامراء والولاة تتكون من فناء مستطيل تحيط به اروقة من الاعمدة وان ارضية القصر كانت مكسوة بالحجارة والرخام وفي الفناء اعتادوا وضع نافورة تحيط بها حديقة صغيرة. وعلى جانب الفناء يكون الايوان الذي هو عبارة عن صالة مفروشة بالرخام الملون. ويتكون القصر من طبقتين في اغلب الاحيان وكانت سقوف الدار تزدان بنقوش على الطراز العربي مطلية بالذهب.[7]

قصور البادية :

بالاضافة الى هذه القصور التي بناها الخلفاء الامويون وعمالهم في المدن الرئيسية فانهم اعتادوا على بناء قصور ضخمة في البادية بعيداً عن ضوضاء المدينة. وهي قصور اشتهرت بالتاريخ لما تحمله من آثار فنية في العمارة الاسلامية.

لقد اعتاد الخلفاء الامويون على بناء مثل هذه القصور الفخمة في البادية او في المناطق التي تتوفر فيها مواصفات جغرافية وطبيعية يتخذونها احياناً مشاتي واحياناً اخرى مصايف لهم، ومن المحتمل جداً انهم كانوا ينقلون الى هذه القصور اثناء اقامتهم الطويلة المؤسسات الادارية التي يحتاجونها او التي ترتبط بمراسيم الخليفة. ومن المؤسف ان الكثير من هذه القصور لم يدون المؤرخون عنها معلومات مفصلة، ويتردد ذكرها احياناً في متون الكتب التأريخية والجغرافية.

وقد درس الاستاذ الاثري (كريزول Creswell) بعض هذه القصور من بينها قصر "طوبة" وقصر "المشتى" وقصر "الحير الشرقي" و "الحير الغربي" وقدم لها مخططات عن تصميماتها الهندسية وهي دراسة ممتازة.

---

(٦) البلاذري: فتوح ص ٣٥٠.

(٧) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٥٤٠-٥٤١.

ومع ذلك فان هناك عدداً غير قليل من قصور الخلفاء الخاصة لم يأتِ عليها هذا العالم، فقد ذكر ان معاوية بن ابي سفيان كان يشتو في قصر يسمى "قصر الصنبرة" وهو قصر اتخذ في موضع الصنبرة في الاردن مقابل العقبة، وتبعد الصنبرة مسافة ثلاثة اميال عن طبرية.[8] فالقصر هنا اسمه معاوية في منطقة تتصف بالدفء لذلك كان يلجأ اليه عندما تشتد برودة الجو، وقدا تخذه مروان بن الحكم مشتىً ايضاً.

كذلك أحب الخليفة يزيد بن معاوية أن يقيم في قصر له شيده في حوارين وهي قرية من قرى حلب، وقيل انها قريبة من تدمر وتبعد عنها مسافة مرحلتين. وذكر ان يزيد بن معاوية مات وهو مقيم في هذا القصر، كما ان يزيداً بنى قصر له في منطقة أذرعات وهو بلد يجاور البلقاء وعمان وفي إطراف الشام ينسب اليه خمر اذرعات.[9]

ومن اهم تلك القصور قصر "اسبس" (اوكما ذكره ياقوت الحموي) "سيس" ويقع على بعد (٨٣) ميلاً من شرق دمشق وكان موضعاً محصناً يشتمل على شبكة من قنوات الري التي تتغذى من مياه الامطار وقد بقيت اثاره حتى الوقت الحاضر، ومن المحتمل ان تكون مباني القصور الموجودة في تل سيس قد بناها الخليفة الوليد بن عبد الملك لانه كان يقيم في مدينة تل سيس احياناً.[10]

وكان الخليفة هشام بن عبد الملك قد بنى قصراً له في بادية الشام في موضع يسمى "الزيتونة" وقد ظل مقيماً في هذا القصر الى ان عمر الرصافة فانتقل اليها.[11]

قصور المصانع

غير ان هناك مجموعة مهمة من القصور التي ربما كانت في الاصل حصون تقع في بادية الشام او مايسميه العرب "المصانع" واطلال هذه القصور متناثرة في بادية الشام منها: قصير عمرة وقصر الطوبة وقصر المشتىٰ وقصر خربة المنية وقصر خربة الفجر وقصر القسطل وقصر الموقر وقصر الحير الشرقي وقصر الحير الغربي، وقصور الرملة.

---

(٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ ١ ص ٢٣٣، جـ ٣ ص ٤٢٥.
(٩) م.ن: جـ ١ ص ١٣٠.
(١٠) م.ن: جـ ٣ ص ٢٩٧، فليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ ٢ ص ١٢٥.
(١١) ياقوت: م.ن: جـ ٣ ص ١٦٣.

ان التطرق اليها جميعاً يحتاج الى مجال واسع من هذا الكتاب لكننا سوف نلقي الضوء ، بما توفره المعلومات التاريخية من امكانية ، على عدد من هذه القصور.

قصر الرملة

والرملة مدينة عظيمة في فلسطين وكانت قصبتها قدخربت الآن وكانت رباطاً للمسلمين. ورملة فلسطين تبعد عن بيت المقدس حوالي مسيرة ثمانية عشر يوماً ، ولما ولي الخليفة الوليد بن عبد الملك الخلافة ولىٰ اخاه سليمان بن عبد الملك جند فلسطين فنزل " لد " وبعد ذلك نزل " الرملة " . ويعد سليمان اول من مصر الرملة ، وكان اول مابنى في الرملة قصره وداراً تعرف بدار الصباغين واختط المسجد وبناه . وان السبب الرئيس الذي دعاه الى بناء القصر وعمارته انه كان له كاتب يقال " ابن البطريق " قد زين له فكرة البناء مذكراً اياه ان الخليفة عبد الملك بنى في مسجد بيت المقدس (قبة) فعرف بها فاذا بنيت مسجداً ومدينة ونقلت الناس الى المدينة عرفت بها فبنى الرملة .

كان بنو أمية ينفقون الاموال على ابار الرملة وقناتها فلما استخلف بنو العباس انفقوا عليها ايضاً. وكان اكثر المنطقة صهاريج ماء واتسمت بكثرة اشجار الفواكه وتميزت بصحة هوائها .

ويذكر البلاذري ان سليمان بن عبد الملك جعل في القصر صهريجاً متوسطاً لها ثم اختط المسجد وبناه واتم العمران الخليفة عمر بن عبد العزيز. ومن ذلك يظهر ان الخليفتين سليمان ابن عبد الملك وعمر بن العزيز قد بنيا هذا القصر وصار مدينة نتيجة لما يتمتع به الموقع من مناخ ملائم وازدهار اقتصادي .

والطبري يضع امامنا رواية مفادها ان الخلفاء الامويين كانوا عادة يخرجون الى قصور البادية للفرار من موجات الامراض والأوبئة . (١٢)

---

(١٢) انظر الطبري : تاريخ جـ ٩ ص ٦ .

قصر عمرة

وهو احد القصور التي ربما كانت في الاصل حصن من الحصون الحربية . وهو قصر صغير ، يقف في الصحراء على حافة وادي بوم الذي يقع على بعد (٥٠) كم الى الشرق من عمان . وقد تم اكتشافه اول مرة من قبل المتشرق المشهور (موسيل Musil) في سنة ١٨٩٨ وقد استنسخ زميله الفنان الاسترالي (ميلك Melk) نسخ من صورة ، ورسم مخططاً له . والدلائل تشير الى ان تاريخ بنائه يرجع الى فترة الخليفة الوليد بن عبدالملك (٩٢ - ٩٦ هـ / ٧١١ - ٧١٥ م) وحسبما يبدو انه ضمن تلك القصور التي كان الخلفاء يتخذونها للراحة بعد متاعب الصيد الذي كانوا يقضون معظم اوقات الراحة به ، فهو بمثابة قصر صيد ، وكما وصفه الذين زاروه بانه يمتاز بلوحاته الجدرانية الفنية البديعة ، وان هذه اللوحات تحتوي رسوم صيد واستحمام ورسوم راقصات ورسوماً رمزية لالهة الشعر والفلسفة والنصر والتاريخ عند الاغريق ، ورسوم اخرى للمراحل التي يمر بها الانسان من فتوة الى رجولة الى كهولة ورسوم طيور وحيوانات وزخارف ونجوم .

من الجدير بالذكر انه عثر على قبة هي «قبة السماء» ، لونت بذلك بشكل بديع مع النجوم والكواكب المهمة كالدب الكبير والدب الصغير .

ومع ذلك فان هناك اختلافاً حول زمن البناء اعتماداً على ماتحمله الرسوم التي على جدرانه التي تمثل شخصيات اجنبية كالقيصر البيزنطي وخسرو امبراطور الفرس ولوذريق ملك اسبانيا وملك الحبشة وقد حصرها الاستاذ كريزويل بين سنة ٩٣ هـ / ٧١١ م حيث معركة وادي لكه حيث هزم فيها القائد طارق بن زياد القوط وبين سنة ٩٧ هـ / ٧١٥ م حيث انتصر العرب في سمرقند على الترك وانضمت سيحون وجيحون بمناطقيها وفرغانه وسمرقند وغيرها من المدن الى سلطتهم .

وهناك رأي من يقول انها من القصور التي شيدها الغساسنة في الصحراء وانها لذلك تحمل هذه الرسوم التي يظهر فيها المؤثرات اليونانية .

ومن اهم النقوش الموجودة في قصر عمرة رسم الخليفة وهو جالس على عرشه وحول رأسه هاله وفوقه مظله يحملها عمودان حلزونيان ويحيط به شخصان وعلى عقد المظلة كتابه كوفية قد تلف بعضها ، والصورة الاخرى المهمة هي صورة اعداء العرب من الملوك

والاباطرة الذين سبق ذكرهم وهم قيصر الروم وملك القوط في اسبانيا لوذريق وكسرىٰ ملك الفرس والنجاشي ملك الحبشة .[١٣]

قصر المشتىٰ

وهو من اشهر القصور الاموية شهرة ، وقد تم اكتشافه من قبل الاستاذ (ليارد Layard) في سنة ١٨٤٠ ولكن ابحاثه لم تنشر إلا بعد اكثر من ثلاثين سنة . ويقع قصر المشتىٰ على بعد حوالي ميلين من جنوب عمان وحوالي ثلاثة اميال الى الشمال الشرقي من محطة (زيزا) الواقعة على سكة حديد الحجاز. ان مابقي من القصر عبارة عن صخور بمثابة ابراج ومدخل يقود الى بلاط يؤدي الى ساحة القصر الرئيسية . واظهرت الواجهة الجنوبية من القصر زخارف جميلة .

اما موضوع سنة تأسيس قصر المشتىٰ فمختلف عليه لان هناك بنايتين (قصرين) متشابهين في كثير من الجوانب مما جعلها يرجعان الى نفس الفترة وتشمل هذه العناصر المتشابهة بين قصر المشتىٰ وقصر الطوبه في مادة البناء ، الصخر والطابوق ، فمن النظريات من تقول ان القصر يرجع الى احد الملوك اللخميين ، فقد ورد في احدىٰ النقوش اسم امرؤ القيس ، كما يرىٰ اخرون الى ان القصر من بناء الغساسنة الذين امتدت منطقة نفوذهم من حدود سوريا الشرقية ابتداءاً من نهر الفرات حتى شرقي الاردن. غير ان هناك عناصر ضعيفة في هذه الفرضية اذ ينقصها ادلة تشير الى نماذج نصرانية أو مؤثرات نصرانية ، علاوة على ان الغساسنة لم يتركوا اثاراً كثيرة في منطقة نفوذهم عدا بعض الاثار المتفرقة .[١٤]

والواقع ان المستشرق (برشيم Van Berchem) لايميل أن يكون المشتىٰ من نتاج اموي لانه قصر حصن بينما كان الامويون لايحتاجون الى قلعة محصنة في حدودهم .[١٥] لكن العلماء الاثرين يردون على هذا الاعتراض بان القصر اموي سواء اكان في طراز بنائه ام في

---

(١٣) Creswell: Ashort accoumt of early Muslim architecture (London 1958) pp. 84-98.

– فليب متي : تاريخ سورية ولبنان جـ ٢ ص ١٢٥

(١٤) -Creswell: Early Muslim Architecture pp. 124-150.

(١٥) م . ن Op.cit-

الاشارات التي وردت في الكتب الادبية والتاريخية العربية ، اذ يقول الاصفهاني أن الوليد الثاني قد بنىٰ قصراً في منطقة البلقاء . كما ان الاعمال العمرانية التي بقيت من هذا القصر توحي الى ان الامويين اعتمدوا المهارات العملية من مختلف ارجاء الدولة الاموية في حين لم يكن بمقدور الغساسنة ان يجندوا المهارات العربية من العراق ومصر مثلاً . ومن المحتمل ان تكون فترة بناء القصر ترجع الى فترة خلافة مروان بن محمد الذي جعل حران عاصمة له .

من كل ماتقدم ذكره عن تلك القصور وقصور اخرى كثيرة يظهر أن الخلفاء الامويين علاوة على تأثرهم بالفن المعماري الذي كان سائداً في عمارة بلاد الشام وفنونهم في البناء فانهم تأثروا ايضاً بطبيعتهم العربية وما كانوا يكنونه من حب ووفاء لحياة الصحراء التي دفعتهم بالدرجة الاولىٰ الى بناء عدد من اماكن اقامتهم وقصورهم في البادية مثل قصير عمرة وقصر المينا وقصر الحير وقصر المشتىٰ وقصر الطوبه . وكانت هذه القصور عموماً تتكون من غرف النوم والجلوس وبلاط (عبارة عن ساحة) وقد بنيت تلك البيوت — الغرف — حول الساحة الداخلية ، وهي مزينة بنقوش جميلة من الفسيفساء .



الباب السادس
الحياة الفكرية

الفصل الأول
العلوم الدينية

الفصل الثاني
علوم العربية

الفصل الثالث
الدراسات التاريخية

الفصل الرابع
العلوم العقلية

اعداد

د. سرمد الجبوري

الاستاذ: صديق الجنابي

الفصل الأول

العلوم الدينية

١ - علم القراءات

اطلق لفظ القراء في عهد الرسول (ص) والخليفتين ابي بكر وعمر (رض) على من كانوا يحفظون القرآن الكريم. كما اطلق عليهم اسم «حملة القرآن»[١].

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان (رض) تطورت هذه اللفظة وأخذت معنى أدق، فشملت عدداً محدوداً من الصحابة اشتهروا بقراءاتهم وكان لكل منهم مصحف، وقد بدأت الأمصار تأخذ عن بعض هؤلاء الصحابة، فالشام تأخذ عن أبي بن كعب[٢] والمقداد بن الأسود[٣] والكوفة عن عبدالله بن مسعود، والبصرة عن أبي موسى الأشعري[٤]، حتى ظهر الخلاف بين أهل الشام والعراق في حركات تحرير ارمينية سنة ٣٠ هـ / ٦٥٠ م

وقد لاحظ القائد العربي حذيفة بن اليمان اختلاف جنده في قراءاتهم للقرآن الكريم، فاقترح على الخليفة عثمان ان يتفادى هذا الخطر، فألف الخليفة لجنة ضمت كل من زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأمرهم الخليفة بأن يكتبوا مايختلفون فيه بلسان قريش، وقد اعتمدت هذه اللجنة في عملها بالدرجة الاولى على النسخة التي كانت لدى حفصة زوجة الرسول (ص)، فلما نسخوا الصحف أرسل الخليفة عثمان بمصحف الى كل من الكوفة والبصرة ودمشق ومكة، ومصر، واليمن ومع كل مصحف رجلاً يقرأ لأهل ذلك المصر، ثم أمر باحراق المصاحف الاخرى، وهكذا حفظ نص القرآن الكريم موحداً على مر العصور.[٥]

( ) اليعقوبي: تاريخ: ٢/ ٣٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٣/ ١١٢

(٢) انظر ترجمته في: ابن النديم: الفهرست: ٤٦، ٤٧

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب: ١/ ٣٩

(٤) الكامل في التأريخ: ٣/ ١١١.

(٥) اليعقوبي: تاريخ: ٢/١٧٠. ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٣/١١١، ١١٢.

واصبح لأهل كل مصر بعد ذلك قراءة خاصة للقرآن الكريم يتبعون فيها قارئاً يثقون بصحة قراءته.[6]

إن سبب ظهور هذه القراءات يرجع الى طبيعة الخط العربي آنذاك فأن من خصائصه ان الرسم الواحد للكلمة الواحدة قد يقرأ باشكال مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف او تحتها، كما ان عدم وجود الحركات النحوية وفقدان الشكل في الخط العربي يمكن ان يجعل للكلمة حالات مختلفة من ناحية موقعها من الإعراب.[7]

وبعد شيوع اللحن في قراءة القرآن الكريم نتيجة الاختلاط بالأعاجم قام ابو الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ/٦٨٨م) بتنقيط القرآن الكريم في البصرة في عهد امير العراق زياد بن ابيه (٤٤-٥٣هـ/٦٦٤-٦٧٢م) وبأمر منه، وذلك لتمييز حركات الحروف من ضم وفتح وكسر[8] وعندما جاء امير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٤-٩٥هـ/٦٩٣-٧١٣م) عمل على إعجام القرآن الكريم، وقد ندب لذلك نصر بن عاصم الليثي (ت ٨٩ هـ/٧٠٧م) الذي قام بنقط الحروف المتشابهة في الصورة وذلك لتمييز بعضها من بعض، كتمييز الباء من التاء من الثاء، وكتمييز الحاء من الجيم ومن الخاء وهكذا.[9]

وقد عني المسلمون بالقرآن الكريم، وكانت مساجد المدن آنذاك مراكز لدراسته وتفهم معانيه وقراءاته ورواياته،[10] وقد ألف عدد من الكتب تتعلق بالقراءات منها كتابات لعبدالله بن عامر، الأول هو «في مقطوع القرآن وموصوله» والثاني هو «كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق».[11]

---

(٦) وقد ظهرت للقراءات في الامصار العربية الاسلامية سبع طرق، كل طريقة منها تمثلها مدرسة ترجع قراءاتها الى إمام، ففي مكة اشتهرت قراءة عبدالله بن كثير الداري (ت. ١٢٠هـ) وفي المدينة قراءة نافع بن عبدالرحمن (ت ١٦٩هـ) ويزيد بن القعقاع (ت ١٣٢هـ) وفي البصرة قراءة ابو عمرو بن العلا، (ت ١٥٤هـ) وفي الكوفة قراءة عاصم بن ابي النجود (ت ١٢٨هـ) وحمزة بن حبيب الزيات التيمي (ت ١٥٦هـ) وفي دمشق قراءة عبدالله بن عامر (ت ١١٨هـ). انظر: ابن النديم: الفهرست، ٣٠-٣٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان. الذهبي: معرفة القراء الكبار: ١/٥٨، ٦٧، ٧١، ٧٣، ٨٣، ٨٩، ٩٣.

(٧) د. حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام: ١/٤٩٧.

(٨) ابن الانباري نزهة الألبا: ١٢.

(٩) ابن خلكان: وفيات الاعيان: ٢/٣٢.

(١٠) انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار: ١/٤٠-٨٢.

(١١) ابن النديم: الفهرست: ٥٤، ٥٥.

هذا وقد برز عدد من قراء القرآن الكريم في العصر الأموي منهم مجاهد بن جبر[١٢] وعبدالله بن كثير في مكة[١٣] وفي بلادالشام ابو ادريس الخولاني،[١٤] وعبدالله بن عامر اليحصبي.[١٥] وعامر بن عبدالله بن قيس،[١٦] والحسن البصري في البصرة[١٧] وفي الكوفة مسروق بن الأجدع الكوفي،[١٨] وابو عبدالرحمن السلمي.[١٩] وعقبة بن عامر بن الجهني[٢٠]، وابي تيم الجيشاني في مصر.[٢١]

٢ - الحديث

الحديث في الأصل: الخبر او الرواية الشفهية، ثم اتخذت معنى خاصاً بعد البعثة النبوية فصارت تعني أقوال الرسول (ص)[٢٢]. وأما كلمة سُنة فتعني العادة، وكانت معروفة عند العرب قبل الاسلام، فلما جاء الاسلام صارت تعني عادة الرسول (ص) وأصحابه[٢٣] ان كل حديث يتألف من قسمين: الاول: سلسلة رواة الحديث على التوالي ويسمى (الاسناد) أو (السند) لأنه يثبت صحة الخبر، وتبدأ السلسلة بآخر رواية وتتدرج الى الشخص الذي صدر عنه الحديث، والقسم الثاني هو (المتن) اومحتويات الحديث.[٢٤]

الحديث النبوي الشريف هو الأصل الثاني للتشريع العربي الاسلامي بعد القرآن الكريم، فالقرآن الكريم يحوي اسس الدين ومبادئه، ولم يتعرض للتفصيلات إلا نادراً،

---

(١٢) الذهبي: **تذكرة الحفاظ**: ١/٩٢.
(١٣) الذهبي: **معرفة القراء الكبار**: ٧١.
(١٤) الذهبي: **تاريخ الاسلام**: ٣/٢١٦.
(١٥) المقدسي: **احسن التقاسيم**: ٣٩.
(١٦) ابن حجر: **تهذيب التهذيب**: ٥/٧٧.
(١٧) الذهبي: **تاريخ الاسلام**: ٤/٩٩.
(١٨) ابن حجر: **تهذيب التهذيب**: ١٠/١١٠.
(١٩) ابن سعد: **الطبقات الكبير**: ٦/١١٩.
(٢٠) ابن حجر: **تهذيب التهذيب**: ٧/٢٤٢.
(٢١) م. ن: ٥/٣٧٩.

(٢٢) انظر: لسان العرب: مادة حدث
(٢٣) انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوي: ١/٦
(٢٤) الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب: ٣٦

وقد فصل الرسول (ص) ما أجمله القرآن الكريم.[25] فأصبح من الضروري رواية وتدوين أقوال الرسول (ص) وافعاله في حياته وذلك للاستفادة منها فكان بعض الصحابة يكتبون أحاديث الرسول (ص) ويحفظونها.[26]

في عصر الرسالة نسبت اقوال الى الرسول (ص) يدعو فيها اصحابه الى رواية احاديثه وحفظها وتبليغها الى من لم يسمعها عنه[27]، أما في عصر الخلفاء الراشدين فقد كانت الظاهرة السائدة في عهدهم الاقلال من الرواية عن الرسول (ص) والتثبت منها، والتشدد فيها وذلك لئلا يقع الرواة في الخطأ والنسيان، ولكي لاينشغل الناس برواية الحديث وينصرفون عن تلاوة القرآن الكريم.[28] أما في العصر الأموي فقد ظهرت فرق ومذاهب مختلفة، وحدثت مشاكل جديدة تتطلب معرفة حكم الشريعة فيها فأدى ذلك الى شيوع رواية الأحاديث وظهور الكذب في الحديث، ولهذا نجد أن أئمة الحديث يتفقون على ان احاديث كثيرة وضعت[29] لاسباب متباينة، فقد كان للخلافات السياسية التي نشأت في اثناء الفتنة التي أدت الى استشهاد الخليفة عثمان بن عفان سنة ٣٥ هـ/ ٦٥٥ م والفتن اللاحقة واستشهاد الخليفة علي بن ابي طالب سنة ٤٠ هـ/ ٦٦٠ م أثر في هذا الوضع، فقد أراد بعض اتباع هذه الاحزاب أن يؤيد دعواه فلجأوا لاختلاق الأحاديث انتصاراً لاحزابهم.[30]

كذلك فعلت الفرق المختلفة كالقدرية والمرجئة وغيرهما، فقد كان اتباع هذه الفرق يناظر بعضهم الآخر في امور دنيوية لها مساس بالدين، أو امور دينية كمسألة الخلافة، وأمر مرتكب الكبيرة، وصفات الله تعالى وغيرها، فكان لابد من تأييد عقائدهم بالنصوص الشرعية، فوضعوا الأحاديث[31]

---

(٢٥) ومثال ذلك أنه جاء في القرآن الكريم فرض الصلاة والصوم والزكاة والحج بصورة مجملة دون تفصيل، فالأحاديث النبوية والسنة وضحت كيفية الصلاة وعدد ركعاتها، وتحديد نصاب الزكاة، وكيفية إداء مناسك الصوم والحج.

(٢٦) ابن سعد: الطبقات: ٧/ ١٨٩

(٢٧) ابو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الاسلامية: ٨٩. احمد امين: فجر الاسلام: ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١.

(٢٨) ابو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الاسلامية: ٢١٠. احمد أمين: فجر الاسلام: ٢١٠.

(٢٩) يقول السيوطي: «الموضوع هو الخبر الذي يختلقه الكذابون وينسبونه الى الرسول (ص) افتراء عليه» التدريب: ٩٨

(٣٠) تهذيب تأريخ ابن عساكر: ٧/ ٣٢٢. احمد امين: فجر الاسلام: ٢١٢، ٢١٣

(٣١) انظر: تنزيه الشريعة: ١/ ١٤٩، ١٥٠، الذهبي: تأريخ الاسلام: ٣/ ٩٢

كما ان بعض الزهاد كانوا قد وضعوا أحاديث نسبوها الى الرسول (ص) ترغيباً للناس في صالح الأعمال تبين فضل التمسك بالدين وقراءة القرآن.[٣٢]

ومن الوضاعين أيضاً الزنادقة، الذين كانوا يبطنون الكفر ويتظاهرون بالاسلام، وكان هؤلاء من الفرس، كانوا يتشبهون بأهل العلم ويذكرون احاديث تناقض حقيقة الدين الاسلامي لكي يوقعوا الشك في قلوب الناس، وكان هدفهم من ذلك هو هدم الاسلام وتشويه مبادئه، ومن ثم اسقاط السلطة العربية التي قامت على أساسه والتي عملت على نشره، وتعمل على حمايته.[٣٣]

ووضع القصاصون الأحاديث وذلك لشد عامة الناس الى قصصهم وكسب المال من جراء ذلك.[٣٤]

اسفرت حركة الوضع في الحديث هذه عن مجموعة كبيرة من الاحاديث الموضوعة امتزجت بالأحاديث الصحيحة، فبذل العلماء جهوداً جبارة لتمييز الحديث الصحيح من غيره، فقاموا برحلات كثيرة في طلب الحديث منذ القرن الاول الهجري وذلك لأن بعض العلماء اشتهروا باحاديث معينة رويت عنهم ولم ترو عن غيرهم لذا كان من الضروري لصاحب الحديث ان يشد الرحال الى مثل هؤلاء[٣٥]، فعلى سبيل المثال رحل الصحابي جابر بن عبدالله (ت ٧٨ هـ /٦٩٧ م) الى الشام ليسأل عبدالله بن أنيس عن حديث[٣٦] ورحل سعيد بن المسيب (ت١٠٥هـ / ٧٢٣ م) في طلب الحديث، وقال في هذا الصدد: «ان كنت لأرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد»[٣٧]. ومكحول (ت ١١٣ هـ ٧٣١ م) الذي تجشم عناء السفر بين مصر والشام والعراق والحجاز لسماع الحديث.[٣٨] والزهري (ت ١٢٤هـ / ٧٤١ م) لازم سعيد بن المسيب عشر سنين، وانفق ماعنده في طلب الحديث.[٣٩]

---

(٣٢) انظر: السيوطي: تدريب الراوي: ١/ ٢٨١ – ٢٨٩

(٣٣) انظر: تنزيه الشريعة: ١/ ١١. تدريب الراوي: ١/ ٢٨٤.

(٣٤) انظر: ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث: ٢٧٩. تنزيه الشريعة: ١/ ١٣

(٣٥) يقول ابن حزم: فهذا الزهري له نحو تسعين حديثاً انفرد بها عن النبي (ص) لم يروها أحد من الناس سواه، وليس أحد من الأئمة إلا وله أخبار انفرد بها». الاحكام في اصول الاحكام: ١/ ١٢٥

(٣٦) د. صبحي الصالح: علوم الحديث: ٥٤

(٣٧) ابن سعد: الطبقات: ٥/ ٨٩

(٣٨) الذهبي: تذكرة الحفاظ: ١/ ١٠٧،١٠٨ ابن سعد: الطبقات: ٧/ ١٦٠، ١٦١

(٣٩) الذهبي: تذكرة الحفاظ: ١/ ١٠٨.

كما وضع العلماء قواعد خاصة لرواية الحديث ، وشروطاً لقبول الاحاديث فقد نقدوا اسناد الحديث (اي سلسلة الرواة) ولاحظوا متنه ، إلا انهم ركزوا جهدهم على الاسناد ، فلا يمكن الوثوق بالحديث إلا ان يكون اسناده سلسلة من الرواة الموثوقين.[٤٠]

والظاهر أن بدء استعمال الاسناد كان في منتصف القرن الاول الهجري وقد أصاب الاسناد تحرٍ وبحث قام بها علماء الحديث ، فقد عنوا بمعرفة اماكن الرواة وزمن معيشتهم ، وصلتهم بمن نقلوا الحديث عنهم ، وسلامة ايمانهم وحبهم للحقيقة ودرجة تدقيقهم في نقل الاخبار، وهذا النقد لرواة الحديث يعرف بعلم (الجرح والتعديل).[٤١]

كما اهتم العلماء بدراسة نص الحديث كأساس مهم في النقد ، فان معنى المتن واتجاهه كانا في كثير من الأحيان سبب إثارة الشك في الاسناد، وقد ظهرت اصطلاحات عديدة تدل على مدى صحة الحديث إلا انها لم تظهر دفعة واحدة وانما اتفق عليها بالتدريج ، ويميز المحدثون ثلاثة اصناف من الحديث :

١- الصحيح : وهو الحديث المسند الذي لايوجد في اسناده علة ولا يوجد في متنه فكرة تناقض المقبول.[٤٢]

٢- الحسن : الذي يكون راوية من المشهورين بالصدق والأمانة ، غير انه لم يبلغ درجة رجال الصحيح لكونه يقصر عنهم في الحفظ والاتقان ويكون متن الحديث قد عرف بأنه روي مثله أو نحوه.[٤٣]

٣- الضعيف : كل حديث يوجد اعتراض قوي عليه ، سواء أكان ذلك بخصوص متنه ، أو حين يوجد بين رواته من لايوثق بهم أولا يطمأن الى عقيدتهم.[٤٤]

ويصنف الحديث الى اصناف بالنسبة الى طريقة جمعه منها : «المتواتر» وهو حديث يرويه اشخاص لايحصى عددهم ، ولايمكن اتفاقهم على كذب لكثرتهم ، وعدالتهم ،

---

(٤٠) يقول ابن سيرين (ت ١١٠ هـ) : «لم يكونوا يسألون عن الاسناد حتى وقعت الفتنة ، فلما وقعت الفتنة نظروا من كان من أهل السنة أخذوا حديثه ، ومن كان من أهل البدع تركوا حديثه». انظر: العسقلاني : لسان الميزان : ١/ ٧

(٤١) انظر: د. اكرم العمري : بحوث في تأريخ السنة : ص ٨٤ وما بعدها

(٤٢) السيوطي : تدريب الراوي : ١/ ٦٣

(٤٣) السيوطي : تدريب الراوي : ١/ ١٥٨

(٤٤) السيوطي : تدريب الراوي : ١/ ١٧٩

وتفرق مساكنهم[٤٥] و «المعروف» أو «المشهور» ويأتي عن ثلاثة رواة ثقات على الاقل.[٤٦] و «العزيز» يأتي من اثنين من الرواة أو ثلاثة ولم يصل شهرة الصنفين السابقين[٤٧] و «الغريب» وهو الحديث الذي ينفرد به بعض الرواة.[٤٨]

كما ان ظهور الوضع في الحديث اوجب الاهتمام بكتابة الاحاديث النبوية من قبل العلماء.

لقد نهى الرسول (ص) عن تدوين الحديث في أول الأمر. مخافة اختلاط الحديث بالقرآن، فعن ابن سعيد الخدري ان رسول الله (ص) قال: «لاتكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه»[٥٠] ثم أجاز الرسول (ص) تدوينه بعد ان كتب القرآن الكريم وحفظه الصحابه.[٥١] وقد أشارت المصادر الى بعض الصحابة الذين كتبوا الحديث الشريف، إلا انه يبدو مما جاء في هذه المصادر ان ماكتب من الحديث في عصر الرسالة كان محدوداً.[٥٢]

أما في عهد الخلفاء الراشدين فإن ماكتب من الحديث كان محدوداً ايضاً وذلك لانه كان هم الخلفاء الأول هو المحافظة على القرآن الكريم الذي جمع في عهد الخليفة ابي بكر الصديق (رض) ونسخ في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رض) وبعث به الى الامصار كما اسلفنا.[٥٣]

وقد ظل تدوين الحديث على هذا الحال حتى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٩٩ – ١٠١ هـ / ٧١٧ – ٧١٩ م) الذي أمر بتدوين الحديث، فقد بعث الى أمير المدينة ابي

---

(٤٥) ابن الصلاح: علوم الحديث: ٢٤١. انظر: السيوطي: تدريب الراوي: ٢/ ١٧٧، ١٧٩، ١٨٠

(٤٦) السيوطي: تدريب الراوي: ٢/ ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥

(٤٧) الدكتور عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى: ١٧٢

(٤٨) الدكتور عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى: ١٧١

(٤٩) يقول الخطيب البغدادي ان ابن شهاب الزهري قال بهذا الصدد: «ولولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لانعرفها، ماكتبت حديثاً ولا أذنت في كتابته» تقييد العلم: ١٠٨

(٥٠) ابن عبدالبر: جامع بيان: ١/ ٦٣

(٥١) الخطيب البغدادي: تقييد العلم: ٦٤ – ١١٤. ابن عبدالبر: جامع بيان العلم: ٨٥

(٥٢) وهم: عبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وجابر بن عبدالله الانصاري، وعبدالله بن عمرو بن العاص. انظر: ابن سعد: الطبقات: ٧/ ١٨٩. تقييد العلم: ٧٩. ابن الأثير: اسد الغابة: ٣/ ٢٣٣

(٥٣) انظر: علم القراءات. يذكر ابن سعد ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) فكر في تدوين الاحاديث إلا انه عدل عن ذلك. الطبقات: ٣/ ٢٠٦. انظر: جامع بيان: ١/ ٦٤.

تقييد العلم: ٥٠. ويذكر الذهبي ان الخليفة ابو بكر الصديق (رض) كتب شئ من السنة ثم اخرقها. تذكرة الحفاظ: ١/ ٥.

بكر بن عمر بن حزم : «أن انظر ما كان من حديث رسول الله (ص) أو سنة ماضية أو حديث عمرة بنت عبدالرحمن فاكتبه فاني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله». [٥٤]

وقام الخليفة عمر بن عبد العزيز بتدوين الأحاديث التي تروى في مجلسه بواسطة كتبه عينهم لهذا الغرض. [٥٥] كما اختار الخليفة عمر من العلماء الزهري وأمره «بجمع السنن، وقد دون الزهري له في ذلك كتاباً فغدا عمر يبعث الى كل أرض له عليها سلطان دفتراً من دفاتره» [٥٦] وقد اعتبر علماء الحديث تدوين الخليفة عمر بن عبدالعزيز هذا اول تدوين رسمي للحديث.

ويبدو ان الزهري وجماعة معه كانوا يكتبون الحديث فقد ذكر الجاحظ ان عبدالرحمن ابن ابي الزناد قال : كنا لانكتب إلا سُنه، وكان الزهري يكتب كل شئ فلما احتيج اليه عرفت انه أوعى الناس» [٥٧]

وقد اهتم الخليفة هشام بن عبدالملك بتدوين الحديث، وعين شعيب بن ابي حمزة الحمصي للكتابة عن الزهري وقد قال عنه أحمد بن حنبل : «رأيت كتب شعيب بن ابي حمزة، فرأيت كتباً مضبوطة مقيدة، وكتب للخليفة هشام كثيراً بإملاء الزهري عليه» [٥٨]

وقال رجاء بن حيوة الكندي : «كتب هشام بن عبدالملك يسألني عن حديث، وكنت قد نسيته لولا ان كان عندي مكتوباً» [٥٩].

وهناك اشارات عديدة الى علماء كانوا قد كتبوا الحديث في هذا العصر [٦٠]
والجدير بالذكر هنا هو انه كان قد برز في العصر الأموي عدد كبير من علماء الحديث

---

(٥٤) ابن سعد : الطبقات : ٢ / ٣٨٧. ويذكر ابن سعد ان امير مصر عبدالعزيز بن مروان كتب الى كثير بن مرة الحضرمي في الشام ان يكتب اليه بما سمع من أحاديث الصحابة، وان كثير قد ادرك بحمص سبعين بدرياً من الصحابة. الطبقات الكبرى : ٧/ ٤٤٨ ويذكر ابن الأثير ان الذي طلب من كثير بن مرة كتابة الحديث هو الخليفة عبدالملك بن مروان. الاصابة في تميز الصحابة : ٨/ ٣٢٦.

(٥٥) الخطيب البغدادي : تقيد العلم : ٤٥

(٥٦) ابن عبدالبر: جامع بيان : ١/ ٧٦

(٥٧) البيان والتبيين: ٢/ ٢٩٠ انظر: ابن عبد البر: جامع بيان : ١/ ٧٣

(٥٨) الذهبي : تذكرة الحفاظ : / ٢٠٠

(٥٩) الخطيب البغدادي : تقيد العلم : ١٠٨

(٦٠) انظر : تذكرة الحفاظ : ١/ ٨١
تهذيب ابن عساكر: ٣/ ٢٧٤، ٢٧٥. الذهبي : تأريخ الاسلام : ٤/ ٢٦، ٧/ ٤٢٦. ابن سعد : الطبقات : ٢/ ٢٨٩
الاصابة في تميير الصحابة : ٦/ ٢٩١، ٧/ ٣٢٨

منهم قتادة بن دعامة السدوسي، [٦١] وحماد بن سلمة في البصرة، [٦٢] وسفيان الثوري في الكوفة [٦٣] وفي واسط شعبة بن الحجاج الأزدي [٦٤] وفي الشام محمد بن مسلم بن عبيدالله المعروف بابن شهاب الزهري [٦٥] ومالك بن انس في المدينة المنورة. [٦٦] وفي مكة المكرمة عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريح [٦٧]، وعبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي في دمشق [٦٨].

٣ - التفسير

فسر الرسول (ص) بعض الآيات للصحابة، وذلك لأن الصحابة كانوا على علم بمعاني كثير من الآيات، واسباب نزولها، فاذا أشكل عليهم فهم شئ من القرآن الكريم سألوا عنه الرسول (ص)، وكان الرسول (ص) يجيب عن ذلك، وهو لم يفسرها من عنده بل بوحي من الله تعالى عن طريق جبريل عليه السلام، ولهذا لم تكن الحاجة ماسة الى وضع تفاسير للقرآن الكريم في عهد الرسول (ص) والصحابة. [٧٠]

وأغلب الظن ان تفسير القرآن الكريم في عصر الرسالة كان قليلاً وذلك لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب واضحاً وبيناً لكي يفهموه ويتدبروه إلا ان الصحابة كانوا يختلفون في فهم القرآن الكريم حسب رقيهم العقلي كما ان ظروف الرسول (ص) والصحابة آنذاك وانشغالهم بتبليغ الرسالة العربية الاسلامية والدفاع عنها أملت عليهم ان يفهموا من القرآن الكريم تفصيل الاحكام دون الدخول في مناقشات لاتناسب ظروفهم آنذاك. [٧١]

---

(٦١) البسوي: المعرفة والتأريخ: ٢/ ٦٢١

(٦٢) ابن عبدالبر: جامع بيان العلم: ٢/ ١٦٧

(٦٣) الذهبي: دول الاسلام: ١/ ٨٤

(٦٤) الذهبي: تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٩٩

(٦٥) البسوي: المعرفة والتأريخ: ٢/ ٦٢١

(٦٦) ابن عبد البر: جامع بيان العلم: ٢/ ١٦٧

(٦٧) الذهبي: تذكرة الحفاظ: ١/ ١٦

(٦٨) ابن عبدالبر: جامع بيان العلم: ٢/ ١٦٧

(٦٩) التفسير لغة: معناه الايضاح والتبيين، اي بيان كلام الله تعالى بذكر مفهوم الكلمات والعبارات الموجودة في القرآن الكريم، والتفسير اصطلاحاً علم يبحث في احوال القرآن الكريم. انظر: السيوطي: الاتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٧٣.

(٧٠) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٣٧. احمدالشرباصي: قصة التفسير: ٤٥

(٧١) احمد الشرباصي: قصة التفسير: ٤٤، ٤٥

وقد ظهر عدد من المفسرين من الصحابة إلا ان اشهرهم كانوا عشرة وهم : الخلفاء الراشدون الأربعة (رض) وعبدالله بن العباس ، وعبدالله بن مسعود ، وابي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وابو موسى الأشعري ، وعبدالله بن الزبير. (٧٢)

وكان هؤلاء يفسرون القرآن الكريم اعتماداً على ماسمعوه من الرسول (ص) أو حسب ماوصل إليه فهمهم ، ويعتبر هؤلاء الصحابة مؤسسي مدرسة التفسير في الاسلام. (٧٣)

أما في العصر الأموي فنظراً لاتساع رقعة الدولة العربية ودخول شعوب غير عربية في الاسلام ، ونشوء مشاكل جديدة كانت تتطلب حلول لها ، اصبح هناك ضرورة لاستنباط الأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وذلك لأن القرآن الكريم كان آنذاك هو المصدر الاول للتشريع العربي الاسلامي فكان لابد من فهم آياته ليكون فهمها معيناً على ذلك ، وهذا الفهم هو الخطوة الاولى في التفسير. (٧٤) وقد إتجه المفسرون في تفسير القرآن في هذا العصر اتجاهين : يعرف اولهما باسم التفسير بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول (ص) وكبار الصحابة من تفسير للقرآن الكريم ، ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأي وهو ما كان يعتمد على العقل اكثر من اعتماده على النقل وتسمى تفاسير أهل الكلام ، وهم المعتزلة والمرجئة والقدرية ، والخوارج ، والفرق الباطنية المختلفة وغيرهم. (٧٥)

ونجد في هذا العصر تأثر تفسير القرآن الكريم برواية أهل الكتاب من الذين اسلموا ككعب الاحبار (كعب بن نافع) ووهب بن منبه ، وعبدالله بن سلام ، وتميم الداري وغيرهم ، وكانوا يعتنقون اليهودية قبل اسلامهم ، وتفسيراتهم كانت لاتخلو من الخرافة والأوهام ، وكان هؤلاء يروون عن التوراة وكتب اخرى كانت لديهم وهي كتب اليهود (الاسرائيليات) (٧٦) ، وقد امتلأت كتب التفاسير بامثال هذه الروايات وخصوصاً في الأمور

---

(٧٢) السيوطي : الاتقان : ٢/ ٣١٨

(٧٣) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام : ١/ ٥٠٢

(٧٤) احمد امين : فجر الاسلام : ٢٣٤

(٧٥) ينظر: احمد امين: فجر الاسلام : ٢٠٠. احمد الشرباصي : قصة التفسير: ٧٣، ١٠٠ ، ١٠٤-١٠٧.
صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن : ٢٩٧.
ابو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية : ٢١٣

(٧٦) ابن قتيبة : عيون الاخبار: ١/ ٧٦. ابن سعد : الطبقات : ٧/ ٤٤٥
النويري : نهاية الارب في فنون الأدب : ١/ ٣٢٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق : ٢/ ١٢٢. ابن خلدون : تاريخ : جـ١ م١ق١: ١/ ٢٠، ٢١ احمد امين : فجر الاسلام : ٢٠٥ ، احمد الشرباصي : قصة التفسير : ٦٩

التي تتعلق بسير الأولين من الانبياء والملوك الذين يشير اليهم القرآن الكريم وبدء الخليقة والكون ونهايته ، وهي أمور لم يتحدث عنها القرآن الكريم بصورة مفصلة . فكان المسلمون يسألون هؤلاء عن بعض التفصيلات حول هذه الأمور.[77]

كما ان تفسير بعض الموالي للقرآن الكريم كان قريب من تفاسير أهل الكتاب ، ومن المؤكد ان ذلك يرجع الى تأثرهم بالعقائد التي كانوا يعتنقوها قبل اسلامهم.[78]

هذا وقد برز في هذا العصر عدد من المفسرين كانوا قد رأوا الصحابة وسمعوا منهم ، وهؤلاء بحكم صلتهم بالصحابة عدوا مرجعاً للتفسير.[79] وكان اشهرهم عبدالله بن عباس (ت ٦٨ هـ) الذي يقال عنه أنه أول من ألف في تفسير القرآن الكريم.[80] وقد برز بمكة من تلامذته عطاء بن ابي رباح (ت ١١٤ أو ١١٥ هـ)[81] وسعيد بن جبير (ت ٩٤ هـ)[82] وطاوس بن كيسان اليماني (ت ١٠٦ هـ)[83] وغيرهم ، وكلهم ثقات في الرواية عن عبدالله بن عباس.[84]

ومن أشهر رجال المدينة في التفسير زيد بن اسلم العدوي (ت ١٣٦ هـ)[85] وابو العالية رفيع بن مهران الرياحي (ت ٩٠ هـ وقيل ٩٣ هـ)[86]

أما اشهر رجال الشام فهم محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) الذي أمره الخليفة عمر بن عبدالعزيز ان يفصل له مواضع الصدقات في الأصناف الثمانية

---

(٧٧) ابن عساكر: تاريخ دمشق: ٢/ ١٢٢

(٧٨) انظر: ابن سعد: الطبقات: ٧/ ٤٥٣. تهذيب تأريخ دمشق الكبير: ١/ ٥٣، ٦١.

(٧٩) يقول ابن تيمية: «تفسير القرآن بالقرآن وإلا فبالسنة فاذا لم نجد فنرجع الى قول الصحابي وإلا فآراء التابعين» مقدمة في اصول التفسير: ٢٩.

(٨٠) ابن النديم: الفهرست: ٣٦

(٨١) الذهبي: تذكرة الحفاظ: ١/ ٩٨. الشيرازي: طبقات الفقهاء: ١٩

(٨٢) م. ن: ١/ ٧٦ ويذكر الرازي ان الخليفة عبدالملك بن مروان أمر سعيد بن جبير الكوفي ان يكتب له تفسير القرآن الكريم «فكتب سعيد بن جبير اليه بتفسيره فحفظه عبدالملك عنده في الديوان» كتاب الجرح والتعديل: جـ٣ ق١: ص ٣٣٢

(٨٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ: ١/ ٩٠. الشيرازي: طبقات الفقهاء: ١٩

(٨٤) احمد الشرباصي: قصة التفسير: ٦٣. احمد امين: فجر الاسلام: ٢٠٤

(٨٥) الذهبي: تذكرة الحفاظ: ١/ ١٣٢

(٨٦) م. ن: ١/ ٦١

التي ذكرها الله تعالى في الآية «إنما الصدقات للفقراء والمساكين... الى آخر الآية» فأخذ يبين كل صنف من هذه الاصناف ويشرحه.[87] ومكحول الشامي (ت ١١٣ هـ) وغيرهما.[88]

ومن اشهر رجال العراق مسروق بن الأجدع الهمداني (ت ٦٣ هـ) وهو من تلاميذ عبدالله بن مسعود.[89] والحسن البصري (ت ١١٠ هـ)[90] وقتاده بن دعامة السدوسي (ت ١١٧ هـ)[91] وغيرهم.[92]

وهؤلاء التابعين أخذوا أقوالهم من الصحابة، وهم بدورهم أوصلوا اقوالهم الى تابعي التابعين، وهكذا حتى وصل الينا تفسير القرآن الكريم عن طريق التلقي جيلاً بعد جيل. فقد أخذ العلماء يؤلفون كتب التفسير على طريقة واحدة وهي ذكر الآية ونقل مايروى في تفسيرها من الصحابة والتابعين بالسند، وهؤلاء العلماء هم طبقة اتباع التابعين.[93]

٤ – الفقة

الفقة لغة الفهم أو المعرفة، واصطلاحاً هو العلم الذي يتناول القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بقصد الفهم واستنباط الاحكام من ادلتها التفصيلية لكل مشاكل الناس الدينية أو الدنيوية، وهو بذلك يرادف التشريع، ومن يقوم به يسمى فقيهاً[94].

اجتهد الرسول (ص) في امور حدثت في المجتمع العربي آنذاك، ولم يرد بها نص في القرآن الكريم، كما ان الرسول (ص) أذن للصحابة في عهده بالاجتهاد[95]. وفي عصر الخلفاء الراشدين اعتمد الصحابة للاجتهاد القرآن الكريم والسنة النبوية، والاجماع، فإذا لم يجدوا نصاً في القرآن الكريم يسعفهم في حل المشكلة التي تواجههم التمسوه في السنة النبوية.

---

(٨٧) ابن سلام: الاموال: ٥٧٨

(٨٨) الذهبي: تذكرة الحفاظ: ١/ ١٠٧، الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٥٣

(٨٩) الذهبي: تذكرة الحفاظ: ١/ ٤٩. ابن سعد: الطبقات: جـ٦ ق١: ٥٠ وما بعدها

(٩٠) ابن سعد: الطبقات: جـ٧ ق١: ١٤ وما بعدها

(٩١) الذهبي: تذكرة الحفاظ: ١/ ١٢٢، ١٢٣. ابن سعد: الطبقات: ٧/ ١

(٩٢) انظر: ابن سعد: الطبقات جـ٦ ق١: ١٧١ – ٢١٤: جـ٧ ق١: ١١٤ – ١٩٩. الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٥٨ – ٦٤

(٩٣) انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٥٩

(٩٤): ابن خلدون: المقدمة: ٣٥٩. ابن عبد البر: جامع بيان: ٢/٤٥.

(٩٥) ينظر ابن قيم الجوزية: احكام أهل الذمة: ٢٢. تفسير القرطبي: ١٤/١٣٨.

لقد تطور علم الفقة في هذا العصر وذلك على أثر اتساع رقعة الدولة العربية وضمها شعوباً تتباين في ثقافتها وعاداتها وتقاليدها فظهر من جراء ذلك في المجتمع الجديد مشاكل جديدة لم تكن موجودة في الجزيرة العربية ، كانت تستدعي حل لها ، فنتج عن هذا ظهور أصل آخر من أصول التشريع وهو الرأي (القياس) وقد ذكرت المصادر حالات عديدة استعمل فيها المشرعون رأيهم منها مشكلة توزيع الأراضي المحررة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) فكان رأي المقاتلين هو ان توزع الأراضي عليهم توزيع الغنائم فيكون لهم أربعة اخماسها والخمس الباقي للوجوه التي بينها القرآن الكريم : «واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى والمساكين وابن السبيل»[٩٦] كما قسم الرسول (ص) أرض خيبر، أما الخليفة عمر (رض) وبعض الصحابة فقد رأوا ان تحبس الأرض (اي توقف) لمصالح الامة العامة ، وأن يستبقي عليها أهلها ويفرض عليهم الخراج ويكون فيئاً للأمة ينفق على شؤونها ، ولما استشار الخليفة عمر (رض) كبار الصحابة اختلفوا فيما بينهم ، ولما وقع الاختلاف ، احتكموا الى عشرة من الأنصار رغبة ان يشركوه في الأمانة التي حملها ، فأعطى هؤلاء الرأي للخليفة عمر (رض)[٩٧] غير ذلك من الحالات.[٩٨]

وهكذا اصبح الفقه في هذا العصر يستند الى أصول اربعة هي : القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، والاجماع (وهو اجماع الصحابة على أمر من الأمور) والرأي (او الاجتهاد او القياس).

وقد برز في هذا العصر عدد من الفقهاء كان أشهرهم الخليفة عمر بن الخطاب (رض)[٩٩] والخليفة علي بن ابي طالب (رض)[١٠٠] وزيد بن ثابت[١٠١] ، وعبد الله بن عباس[١٠٢] ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب[١٠٣] ، وعبد الله بن مسعود[١٠٤] ، وابو موسى الاشعري[١٠٥].

---

(٩٦) : سورة الأنفال : آية ٤١.

(٩٧) : لمعلومات أوسع عما دار بين عمر وكبار الصحابة انظر : ابو يوسف : الخراج : ٢٣ - ٢٨ ، ٣٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ابن آدم : الخراج : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٤ - ٣٦ ، ٤٣ - ٤٨. ابن سلام : الأموال : ١٤ ، ١٥.

(٩٨) : ينظر عنها : احمد امين : فجر الاسلام : ٢٣٦ - ٢٤٠.

(٩٩) : الشيرازي : طبقات الفقهاء : ٦-٨. تذكرة الحفاظ : ١/٥ ومابعدها.

(١٠٠) الشيرازي : طبقات الفقهاء : ٩ ، ١٠. تذكرة الحفاظ : ١/١٠ ومابعدها.

(١٠١) الشيرازي : طبقات الفقهاء : ١٥. تذكرة الحفاظ : ١/ ٣٠.

(١٠٢) الشيرازي : طبقات الفقهاء : ١٨ تذكرة الحفاظ : ١/ ٤٠.

(١٠٣) الشيرازي : طبقات الفقهاء : ١٩. تذكرة الحفاظ : ١/ ٣٧.

(١٠٤) الشيرازي : طبقات الفقهاء : ١١. تذكرة الحفاظ : ١/ ١٣.

(١٠٥) الشيرازي : طبقات الفقهاء : ١٢. تذكرة الحفاظ : ١/٢٣.

وفي العصر الراشدي والعصر الأموي انتشر الصحابة في انحاء الدولة العربية يحملون العقيدة الاسلامية والناس يسألونهم عن المشاكل التي كانت تجابههم ، فيجيبون كلاً بحسب حفظه أو ماأدى اليه اجتهاده موفقين بين ذلك وما جاء به الاسلام ، فكثرت أقوال الصحابة في الأمصار واختلفت آراؤهم تبعاً لمقدار علم الصحابي من جهة . وعلى ماوجدوه من مشاكل في الأمصار التي استوطنوها من جهة اخرى ، على أن الصحابة لم يكونوا جميعاً فقهاء ، وانما اختصت بذلك جماعة منهم هم القراء ، فكان ممن نزل العراق من الصحابة الخليفة علي بن ابي طالب (رض)[١٠٦] وعبد الله بن مسعود[١٠٧] وسعد بن ابي وقاص[١٠٨] ، وعمار بن ياسر[١٠٩] وابو موسى الأشعري[١١٠] وغيرهم[١١١] .

وممن نزل الشام من الصحابة : معاذ بن جبل[١١٢] ، وعبادة بن الصامت[١١٣] . وابو ذر الغفاري[١١٤] ، وابو الدرداء[١١٥] ، وعمرو البكالي[١١٦] وغيرهم[١١٧] لقد أثر هؤلاء الفقهاء في الأمصار التي استوطنوها ، وكونوا لهم تلامذة حفظوا اقوالهم ، وسمعوا آراءهم ، وأخذت تتكون مدارس حول الفقهاء من التابعين الذين استوعبوا آراء هؤلاء الفقهاء . وحفظوا شيئاً من احاديث الرسول (ص) وضموا الى ذلك آراءهم الشخصية المستنتجة من ظروف امصارهم ، فتمخض الوضع قرب نهاية القرن الاول الهجري عن مدرستين هما مدرسة الحجاز ، ومدرسة العراق اللتين جمعتا كل مسائل الفقة التي ظهرت حتى ذلك العهد ، فالمدينة كان لها الأسبقية والدور الأول في تكوين الفقة ، فهي منبع الحديث النبوي الشريف ، وهي مجمع الفقهاء والعلماء ، وبلد السنة وموطن الصحابة ،

---

(١٠٦) ابن سعد : الطبقات : ٦/٦ .

(١٠٧) ابن سعد : الطبقات : ٦ /٧ . الشيرازي : طبقات الفقهاء : ١١ .

(١٠٨) ابن سعد : الطبقات : ٦/٦ .

(١٠٩) ابن سعد : الطبقات : ٧/٦ .

(١١٠) ابن سعد : الطبقات : ٩/٦ .

(١١١) ينظر: ابن سعد : الطبقات : ٦/٧- ٤٣ ، ٧/١- ٦٣ .

(١١٢) ابن سعد : الطبقات : ١١٤/٧ ، الشيرازي : طبقات الفقهاء : ١٤ .

(١١٣) ابن سعد : الطبقات : ٧/ ١١٣ .

(١١٤) المسعودي : مروج الذهب : ٢٤٠/٢ . الطبري : ٢٨٣/٤ .

(١١٥) ابن سعد : الطبقات : ٧/ ١١٧ . الشيرازي : طبقات الفقهاء : ١٦ ابن حبان البستي : مشاهير علماء الامصار: ١١٦ .

(١١٦) ابن سعد : الطبقات : ١٣٨/٧ . الاصابة : ٧/ ١٥٢ .

(١١٧) ينظر: ابن سعد : الطبقات : ١١١/٧-١٥١ .

لذلك فقد كان فقهاء الحجاز يتمسكون بالاحاديث – عدا الموضوعة – في استنباط أحكامهم[118].

أما الأمصار التي حررها العرب – ومنها العراق – فقد ظهرت فيها مشاكل جديدة – كما اسلفنا – مما أدى بالفقهاء الى استخدام رأيهم والأجتهاد من أجل ايجاد حلول للمشاكل التي كانت تعرض عليهم[119]. كما سكن العراق عدد من الصحابة كان على رأسهم عبد الله بن مسعود الذي كان تلميذاً للخليفة عمر بن الخطاب (رض) وقد عرفنا ان الخليفة عمر (رض) اتبع الشورى والأخذ بالرأي في حل المشاكل التي ظهرت في الأمصار المحررة والتي لا يوجد لها حكم في القرآن الكريم والسنة، فلهذا نجد ان عبد الله ابن مسعود كان قد تأثر به، كما تأثر بعبد الله تلامذته في العراق[120]. ومن المؤكد ان مافعله اصحاب الفرق المختلفة والزنادقة من الفرس من وضع في الحديث في العراق كان سبباً في الأخذ بالرأي في استنباط الأحكام في هذا المصر[121].

هذا وقد ظهر في العصر الأموي عدد من الفقهاء كان أبرزهم سعيد بن المسيب المخزومي (ت ٩٤هـ)[122]، وعروة بن الزبير القرشي (ت، ٩٢هـ)[123] والقاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق (ت١٠٧هـ)[124]، وابو بكر بن عبد الرحمن المخزومي القرشي (ت ٩٤هـ)[125]، وعبيد الله بن عبد الله الهذلي (ت٩٨هـ)[126]، وخارجة ابن زيد بن ثابت (ت١٠٠هـ)[127]، وسليمان بن يسار (ت١٠٤ وقيل ١٠٧هـ)[128]. وعامر بن شراحيل الشعبي الهمداني (ت١٠١هـ)[129]، وعلقمة بن

---

(١١٨) احمد امين: فجر الاسلام: ٢٤٠.

(١١٩) أحمد امين: فجر الاسلام: ٢٤١ ومابعدها.

(١٢٠) احمد امين: فجر الاسلام: ٢٤١.

(١٢١) انظر: الحديث.

(١٢٢) الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٢٤.

(١٢٣) الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٢٦. ابن سعد: الطبقات: جـ٥ ق١: ١٣٣.

(١٢٤) الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٢٧. ابن سعد: الطبقات: جـ٥ ق١: ١٣٩ الذهبي: تذكرة الحفاظ: ٩٦/١.

(١٢٥) الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٢٨.

(١٢٦) الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٢٨. ابن سعد: الطبقات: جـ٥ ق١: ١٤٩.

(١٢٧) الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٢٩. ابن سعد: الطبقات: جـ٥ ق١: ١٩٣.

(١٢٨) الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٣٠. ابن سعد: الطبقات: جـ٥ ق١: ١٣٠ الذهبي: تذكرة الحفاظ: ٩١/١.

(١٢٩) الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٦١. ابن سعد: الطبقات: جـ٦ ق١: ١٧١ تذكرة الحفاظ: ٧٩/١ – ٩٠.

النخعي (ت ٦٢ هـ)[١٣٠]، وابراهيم النخعي (ت ٩٥ هـ)[١٣١]. وحماد بن ابي سليمان (ت ١٢٠ هـ)[١٣٢]. ورجاء بن حيوة الكندي (ت ١١٢ هـ)[١٣٣]، وابو ادريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني (ت ٨٠ هـ)[١٣٤] ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ)[١٣٥] ومكحول بن عبد الله الشامي (ت ١١٣ هـ)[١٣٦] وغيرهم[١٣٧].

---

(١٣٠) الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٥٨. ابن سعد: الطبقات: جـ٦ ق١: ٥٧ تذكرة الحفاظ: ٤٨/١.

(١٣١) ابن سعد: الطبقات: جـ٦ م: ١٨٨. تذكرة الحفاظ: ٧٤/١.

(١٣٢) ابن سعد: الطبقات: جـ٦ ق١: ٢٣١.

(١٣٣) ابن سعد: الطبقات: جـ٦ ق١: ١٦١. وفيات الأعيان: ٣٠١/٢ ومابعدها.

(١٣٤) الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٥٢. ابن سعد: الطبقات: جـ٧ ق٢: ١٥٧.

(١٣٥) الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٣٥.

(١٣٦) الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٥٣. ابن سعد: الطبقات: جـ٧ ق٢: ١٦٠. ويذكر ابن النديم ان مكحول اول من ألف كتباً في الفقه منها كتاب «السنن في الفقه». وكتاب «المسائل في الفقه» الفهرست: ٣٣٢.

(١٣٧) انظر: الشيرازي: طبقات الفقهاء: ٢٤- ٧٢. اليعقوبي: تاريخ: ٢٨٢/٢، ٢٩٢، ٣٠٨، ٣١٥، ٣٢٩، ٣٤٨.

الفصل الثاني

علوم العربية

١ - النحو :

كان من أهم ماحافظ عليه العرب في جزيرتهم في عصر ماقبل الاسلام هو لسانهم العربي الخالص ، فقد كانوا يتكلمون على سليقتهم ، وحافظوا على قواعد اللغة دون ان تكون هناك قواعد[١] .

ومع انه كان لكل قبيلة عربية لهجتها الخاصة ، إلا ان العرب ومنذ اواخر القرن الخامس الميلادي كانوا قد اتخذوا لهم لغة ادبية واحدة هي اللغة العربية ، والتي يظن بانها كانت لهجة قبيلة قريش ، فأصبحت هي لغة الشعر والخطابة والتعامل اليومي الحياتي ، مما ساعد في نضج الوحدة الثقافية ، وهذا التطور في اللغة هو جزء من حركة تطور كانت شاملة للحياة العربية في المجالات الثقافية والسياسية ، والاجتماعية في هذا العصر[٢] .

وفي عصر الرسالة نزل القرآن الكريم باللغة العربية الفصحى فحفظ للعرب فصاحتهم[٣] ، إلا انه في اثناء حركات التحرير العربية اختلط الشعب العربي بشعوب اخرى مما ادى الى شيوع اللحن في لغتهم وتسربت العجمة الى لسانهم[٤] ، وقد انتقل اللحن الى قراءة القرآن الكريم ، فدعت الضرورة الى تقويم اللسان العربي حتى لايتعرض القرآن الكريم للتحريف ومن ثم يؤدي الى خلل في الأحكام الشرعية ، وصيانة اللغة من اللكنة واللسان من اللحن والعجمة فوضعوا علم النحو[٥] .

---

(١) الدكتور خليل السامرائي : دراسات في تأريخ الفكر العربي : ١٧٩ .

(٢) م ن : ١٧٩ .

(٣) الدكتور عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية : ١٥٤ .

(٤) الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الأدبية في عصر بني امية : ٢٢ .

(٥) ينظر : ابن جني : الخصائص : ٣/٢٤٦ . اهتم الرسول (ص) بالقراءة الصحيحة للقرآن الكريم بعد ان شعر بوجود شيء من اللحن ، فقد روي أنه (ص) لما سمع رجل يلحن في كلامه قال : «ارشدوا أخاكم فانه قد ظل» . د. شوقي ضيف : المدارس النحوية : ١١ . وقد اهتم الخلفاء الراشدون بالقراءة الصحيحة للقرآن الكريم ايضاً . ينظر : ابن جني : الخصائص ٣ /١٨

بدأ تدوين النحو والكتابة فيه في العصر الأموي ، فقد ذكرت المصادر ان ابا الاسود الدؤلي بدأ بإعراب القرآن الكريم في عهد أمير العراق زياد بن ابيه (٤٤-٥٣هـ) وبأمر منه ، وقد تعاون ابو الأسود مع أحد الكتبة في وضع دوائر صغيرة على حروف القرآن الكريم بلون يخالف لون مداد القرآن الكريم ، وكانت الصورة كما يقول ابو الأسود : «اذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف ، واذا ضممتها فاجعل النقطة الى جانب الحرف ، واذا كسرتها فاجعل النقطة في اسفله ، فإن اتبعت شيئاً من هذه الحركات غُنةً فانقط نقطتين». وأخذ يملي والكاتب يكتب وهو يتفقده حتى اتم عمله.[٦]

وقد أخذ عن ابي الأسود جماعة منهم : يحيي بن يعمر ،وعنبسة بن معدان ، وميمون بن الأقرن ، ونصر بن عاصم.[٧]

كان ابو الأسود الدؤلي قد وضع اسس علم النحو ونقط القرآن تنقيط إعراب بعد شيوع اللحن في قراءته - كما ذكرنا أعلاه - ثم جاء امير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٥-٩٥هـ) فعمل على إعجامه ، حيث أمر نصر بن عاصم الليثي أحد تلاميذ ابي الأسود بنقط القرآن الكريم لتمييز الحروف المتشابهة في الصورة بعضها من بعض كتمييز الباء من التاء ومن الثاء ، وكتمييز الجيم من الحاء من الخاء وهكذا.[٨]

وقد نشأت في العصر الأموي مدرسة في النحو هي مدرسة البصرة ، وقد أشارت المصادر الى ان أول من وضع اسس علم النحو لهذه المدرسة هو عبدالله بن ابي اسحق الحضرمي (ت ١١٧هـ).[٩] ثم تلميذيه عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩هـ)[١٠] وابي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ).[١١] ثم تلامذة عيسى بن عمرو وهما الخليل بن احمد

---

(٦) ابن الانباري : نزهة الألبا : ١٢. ابن النديم : الفهرست : ٤٥ .
الرازي : كتاب الزينة : ٧.

(٧) ينظر: ابن النديم : الفهرست : ٤٦ ، ٤٧.

(٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٣٢/٢. د. مهدي المخزومي : مدرسة الكوفة : ٣٦.

(٩) راجع ترجمة ابي اسحق في : ابن الانباري : نزهة الألبا : ١٨. انباه الرواة : ١٠٢/٢. ابن الجزري : طبقات القراء : ٤١٠/١ .

(١٠) راجع ترجمة عيسى بن عمر في : الفهرست : ٤٧. نزهة الألبا : ٢١ . ياقوت معجم الادباء : ١٤٦/١٦. انباة الرواة : ٣٧٤/٢. طبقات القراء : ١٣/١.

(١١) راجع في ترجمة ابي عمر بن العلاء : الفهرست : نزهة الألبا : ٢٤ .
معجم الأدباء : ١٦ /١٤٦. طبقات القراء : ٢٨٨/١ .

الفراهيدي (ت ١٧٤ هـ) [١٢] ويونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ) [١٣].

وقد اعتمدت هذه المدرسة في وضع قواعد النحو واصوله على القرآن الكريم وقراءاته، [١٤] كما اعتمد هؤلاء على جماعة وفدوا الى البصرة من شبه الجزيرة العربية واحترفوا تعليم ابناءها اللغة العربية الفصحى والأشعار، كذلك اعتمدت الشعر العربي في عصر ماقبل الاسلام، ولكي يأخذوا اللغة العربية من مصادرها نجد ان هؤلاء كانوا قد رحلوا الى شبه الجزيرة العربية لأخذ اصول اللغة من فصحاء العرب هناك. [١٥]

وفي العصر العباسي ظهرت مدرسة نحوية اخرى في العراق هي مدرسة الكوفة وقد اعتبرت هذه المدرسة امتداداً لمدرسة البصرة النحوية وذلك لأن مؤسسي هذه المدرسة كانوا قد تلقوا النحو على علماء مدرسة البصرة فقد اشارت المصادر الى ان أبا جعفر الرواسي (ت ١٨٧ هـ) الذي كان من أقطاب مدرسة الكوفة كان قد أخذ النحو عن عيسى بن عمرو الثقفي، وابي عمرو بن العلاء وعاد الى الكوفة، وتتلمذ عليه علي بن حمزة الكسائي، [١٦] وان مؤسس نحو الكوفة ومذهبها الكسائي (ت ١٨٩ هـ) تلقي النحو عن يونس بن حبيب، وجالس الفراهيدي في حلقاته. [١٧]

إلا ان مدرسة الكوفة استطاعت ان تشق لنفسها مذهباً نحوياً جديداً له طابعه وله أسسه ومبادؤه. [١٨]

إن سبب تأخر مدرسة الكوفة النحوية الى هذا العصر هو ان علماء هذه المدينة كانوا مشغولين على الأقل حتى منتصف القرن الثاني الهجري بالفقه ووضع اصوله، وبقراءة القرآن الكريم ورواية الشعر والأخبار. [١٩]

---

(١٢) راجع في ترجمة الفراهيدي: نزهة الألبا: ٤٥. طبقات القراء: ١/٢٧٥. معجم الادباء: ١١/٧٢. انباه الرواة: ١/٣٤١. الفهرست: ٤٨.

(١٣) راجع في ترجمته: نزهة الألبا: ٤٩. معجم الادباء: ٢٠/٦٤. طبقات القراء: ٢/٤٠٦. الفهرست: ٤٧، ٤٨.

(١٤) د. مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة: ٥١.

(١٥) الفهرست: ٤٩. د. شوقي ضسف: المدارس النحوية: ١٨–٢٠.

(١٦) نزهة الألبا: ٥٤. د. مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة: ٨٧.

انظر في ترجمة الكسائي: الفهرست: ٧١. نزهة الألبا: ٦٧. الخطيب: تأريخ بغداد: ١١/٤٠٣. معجم الادباء: ١٣/١٦٨. انباه الرواة: ٢/٢٥٦. طبقات القراء: ١/٥٣٥.

(١٧) د. مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة: ١٠١، ١٢١، د. شوقي ضيف: المدارس النحوية. ١٥٥.

(١٨) د. مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة: ٩٥.

(١٩) د. شوقي ضيف: المدارس النحوية: ٢٠. د. مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة: ٣٨.

٢ـ الأدب :

أ ـ الشعر:

اهتم العرب بالشعر ونظموا بأنواعه المختلفة منذ عصر ماقبل الاسلام [٢٠] وقد برز عدد من الشعراء العرب في ذلك العصر. [٢١] وفي عصر الرسالة شجع الرسول (ﷺ) الشعر والشعراء للدفاع عن الدين الجديد ، وقد اشتهر من الشعراء في هذا العصر حسان بن ثابت [٢٢] وآخرين [٢٣] وفي العصر الراشدي نظم الشعراء قصائد تغنوا فيها بانتصارات العرب في حروب التحرير العربية ، ووصفوا بلاء المقاتلين في هذه الحروب وشجاعتهم كما نظم الشعراء قصائد حماسية حثوا فيها المقاتلين على مواصلة الجهاد في سبيل نشر الرسالة العربية ، وهذا الشعر سمي «شعر الفتوح» [٢٤]

وفي ظل الدولة العربية في العصر الأموي إزدهر الشعر ازدهاراً كبيراً وتعددت فنونه ، وشمل التجديد في كل مظهر من مظاهره. وكانت الأسباب التي أدت الى هذا الأزدهار كثيرة ومتضافرة ، إلا ان أهم هذه الأسباب هي :

١ ـ تقدير الخلفاء والامراء للشعراء ، وعنايتهم بهم ، وتشجيعهم لهم ، فقد كان هؤلاء عرب يهزهم الشعر ، وتسحرهم بلاغته من جهة ، كما ان الشعر هو سجل تأريخ العرب ، وايامهم ومآثرهم من جهة اخرى [٢٥] .

---

(٢٠) ينظر ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ١/٥٠-٢٢٢ . العسكري : الصنعاتين ١٣٨ . ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء : ٦ ومابعدها .

(٢١) ينظر عنهم : الشعر والشعراء : ١/٥٠-٢٢٢ . طبقات الشعراء : ٢٥ - ١٤ .

(٢٢) انظر في ترجمته : ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ٢٢٣-٢٢٦ . ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء : ٥٢ . خليفة بن خياط : الطبقات : ٨٨ . الاصابة في تمييز الصحابة : ٢/٢٣٧ .

(٢٣) ينظر: ابن عبد ربه : العقد الفريد : ٥/٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ طبقات الشعراء ٨٤ ومابعدها .

(٢٤) ينظر على سبيل المثال : الجاحظ : الحيوان : ٤/١٣٧ ، ٧/٢٦٣ . الأغاني : ١١/٢٧٨ ، ١٥/٢٤٣ ، ١٦/٥١ . الاصابة : ١/١٠٨ ، ٣/١٤ ، ٥/٦٠ . تهذيب تاريخ دمشق الكبير: ٣/٥١ ، ٧/٣٥ .

(٢٥) يقول ابن قتيبة : «الشعر معدن علم العرب ، وسفر حكمتها ، وديوان اخبارها ، ومستودع ايامها ، والسور المضروب على مآثرها ، والخندق المحجوز على مفاخرها ، والشاهد العدل يوم النفار ، والحجة القاطعة يوم الخصام» عيون الاخبار: ٢/١٨٥ .

فالخليفة معاوية بن ابي سفيان كان يتعقب اخبار الشعراء[٢٦] وخصهم بجزيل العطاء[٢٧] وقال عن الشعر: «اجعلوا الشعر اكبر همكم، واكثر آدابكم، فإن فيه مآثر اسلافكم.»[٢٨] وابنه يزيد شجع الشعر والشعراء[٢٩] وكان يحسن قول الشعر[٣٠].

واهتم الخليفة عبدالملك بن مروان بالشعر، وكانت له معرفة بشعر عصر ماقبل الاسلام، وقد أمر بجمع المعلقات السبع.[٣١] ومن جراء الاهتمام بالشعر طلب من امير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ان يرسل له رجلاً عارفاً باشعار العرب واخبارهم، فأرسل اليه عامر الشعبي الذي كان أجمع أهل زمانه على حد قول ياقوت.[٣٢] وكان الخليفة عبدالملك يقول الشعر.[٣٣] وقد قرب هذا الخليفة عدد من الشعراء[٣٤] وخصهم بجزيل العطاء[٣٥] إلا ان الشاعر الأخطل[٣٦] كان اكثرهم صلة به، وقد عُرف هذا الشاعر واشتهر عند الأمويين عندما مدحهم بقصيدته المشهورة:

---

(٢٦) ياقوت: معجم الادباء: ١١/٩٠

(٢٧) عيون الاخبار: ١/٣٨، ٨٢. الأغاني: ٢٠/٢٠٨، ٢٠٩. ديوان الفرزدق: ١/٤٥.

(٢٨) وفيات الأعيان: ٢/٤١.

(٢٩) ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء: ٨٨. الأغاني: ٨/٣٦، ٣٢١، ١٧/١. تهذيب تأريخ دمشق الكبير: ٣/٩٤.

(٣٠) عيون الاخبار: ١/٢٠٢. العقد الفريد: ٤/٣٧٣. تهذيب تأريخ دمشق الكبير: ٦/٢٣٧.

(٣١) البغدادي: خزانة الأدب: ١/١٢٤.

(٣٢) معجم الادباء: ١/ ٩٦، ٩٧.

(٣٣) البيان والتبيين: ٤/٦٠، ٦١. الدينوري: الاخبار الطوال: ٣١٧، ٣٢٥ معجم الادباء: ١٠/٢٢٩.

(٣٤) ينظر: الأغاني: ١/١٢، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٢/٤٠٤، ٤٢٠، ٤٢٦، ٥/٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧/١٠٦، ١٤/ ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٨، ١٧/٢٧١، ٢٧٢، ١٨/١٣٢، ١٣٤. البيان والتبيين: ٣/ ٣٤٦، ٣٥٨، ٣٦١، الجمحي: طبقات الشعراء: ١١٨، معجم الادباء: ١٠/٢٢٨. تهذيب تأريخ دمشق: ٧/٣٧٨.

(٣٥) الجمحي: طبقات الشعراء: ١٢١، ١٢٣. العقد الفريد: ٥/٣٢٧. الأغاني: ٩/٢٣. ٢٩. الاصابة: ١/ ١٦٤. تهذيب تأريخ دمشق: ٢/٣٣٥.

(٣٦) هو غياب بن غوث بن الصلت، من بني تغلب، ترجم له: الجمحي: طبقات الشعاء: ١١٤. ابن قتيبة: الشعراء والشعراء: ١/٣٩٣-٤٠٤. الأغاني: ٨/٢٨٢، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٤.

شمسُ العداوة حتى يُستقاد لهم   واعظم الناس أحلاماً اذا قدروا[37]

وكان الخليفة عبدالملك يقول عنه: شاعر بني امية الأخطل، ولقبه «شاعر العرب». [38]

ومن الشعراء الذين قويت علاقتهم بالخليفة عبدالملك الشاعر جرير[39] الذي مدح الأمويين بقوله:

ألستم خير من ركب المطايا   واندى العالمين بطون راح[40]

كما قرب الخليفة الوليد بن عبدالملك عدد من الشعراء وأجزل لهم العطاء كان اشهرهم الأخطل[41]، وجرير[42]، والفرزدق. [43]

واهتم الخلفاء يزيد بن عبدالملك، وسليمان بن عبدالملك، وهشام بن عبد الملك بالشعر والشعراء وقربوا اليهم عدد منهم واجزلوا لهم العطاء. [44]

---

(٣٧) شرح ديوان الأخطل: ١١، ٥١. طبقات الشعراء: ١١٥.

(٣٨) الأغاني: ٨/٢٨٧.

(٣٩) هو جرير بن عطية بن حذيفة من بني كليب الجمحي: ٣١٥. خزانة الأدب: ١/٣٦. الاغاني: ٨/٣ ومابعدها: الشعر والشعراء: ١/٣٧٤–٣٨٠.

(٤٠) العقد الفريد: ٢/٨٢، ٨٣.

(٤١) م. ن: ٥/٣٦٨. ديوان الاخطل: ٢٨٢.

(٤٢) ديوان جرير: ١٣، ١٤، ٧٧. ٩٢. الاغاني: ٨/٤٣، ٤٤.

(٤٣) العسكري: الصناعتين: ١٦٢. والفرزدق: هو همام بن غالب بن صعصعه من بني دارم. انظر في ترجمته: الأغاني: ١٩/٢ ومابعدها. الشعر والشعراء: ١/٣٨١–٣٩٢. الجمحي: طبقات الشعراء: ٢٤٩. معجم الادباء: ١٩/٢٩٧. البغدادي: خزانة الادب: ١/١٠٥.

(٤٤) عن الخليفة يزيد انظر: ديوان جرير: ١٦٧. ابن قتيبة: أدب الكاتب: ١٤٧ وعن الخليفة سليمان انظر: معجم الادباء: ١٠/٢٨٠، ٢٨٩. الأغاني: ٦/١٥٢. تهذيب تاريخ دمشق: ٥/٣٣٥. أما عن الخليفة هشام فانظر: ديوان جرير: ٩، ١١٧، ١٢٣، ١٤٣. العقد الفريد: ١/٣١٧، ٣١٨. معجم الادباء: ١٠/٢١٢ ٢١٤، ١٩/٢٢٨. الأغاني: ١٠/١٥٥، ١٥٨. العسكري: الصناعتين: ٧١

وكان الخليفة الوليد بن يزيد شاعراً. كما كان ابنه الخليفة يزيد شاعراً وقد ذكرت المصادر انهما قربا الشعراء اليهما.(٤٥) كما ذكرت المصادر ان الخليفة مروان الثاني قرب عدد من الشعراء.(٤٦)

ومن امراء الدولة العربية في العصر الأموي الذين اهتموا بالشعر والشعراء، واجزلوا للشعراء العطاء، امراء العراق، زياد بن ابيه،(٤٧) وخالد بن عبدالله بن أسيد،(٤٨) وبشر بن مروان.(٤٩) والحجاج بن يوسف الثقفي،(٥٠) وعمر بن هبيرة الغزاري،(٥١) وخالد بن عبدالله القسري،(٥٢) ويزيد بن عمر بن هبيرة الغزاري.(٥٣)

كذلك اهتم امراء الدولة العربية في العصر الأموي في منطقة الخليج العربي،(٥٤) والمشرق الاسلامي بالشعر والشعراء وكان منهم شعراء ايضاً(٥٥)

٢ – إحياء الأدب العربي لعصر ماقبل الاسلام وتدوينه في هذا العصر.(٥٦)

٣ – بلاغة القرآن الكريم، وفصاحة الحديث النبوي الشريف أثرتا في اساليب والفاظ، واغراض الشعر ومعانيه واخيلته تأثيراً كبيراً.(٥٧)

٤ – ظهور الأحزاب السياسية، والفرق الدينية.(٥٨)

---

(٤٥) عن الخليفة الوليد انظر: الى قتيبة: المعارف: ٣٦٦. الأغاني: ٧/١–٦، ٨/٢٧١ الاخبار الطوال: ٣٤٧، معجم الادباء: ١٢/٢٢. تهذيب تاريخ دمشق: ٢/٢٣٧، ٦/٣٢٧. وعن الخليفة يزيد انظر: عيون الاخبار، ٢/١٢٥، ٣/١١٤. الحجي: طبقات الشعراء: ١٢٣، ١٢٤. البيان والتبيين: ٢/٢٥٣.

(٤٦) الأغاني: ١٢/٤٦، ٢٢/١٣٥، ١٤١. العقد الفريد: ١/٣١٩. تهذيب تاريخ دمشق: ٣/٤٣.

(٤٧) الحجي: طبقات الشعراء: ٢٥٩. الأغاني: ٢١ /١٩.

(٤٨) ابن حبيب: المحبر: ١٥٠. الطبري: ٥/٤٥.

(٤٩) طبقات الشعراء: ٣٧٧. الأغاني: ١/٣٣٤، ١١/٢٧٠.

(٥٠) الأغاني: ١١/٢٤٨، ١٦/١٥٦. البيان والتبيين: ١/٣٩١. ديوان جرير: ٢١، ٢٣.

(٥١) ديوان الفرزدق: ٢٨٠، ٥٧٩.

(٥٢) م. ن: ١٥٦، ١٦٥، ١٧٤، ٣٣٥. البيان والتبيين: ٣/٢٣٦.

(٥٣) ديوان بشار: ١ /١٤٥. الشعر والشعراء: ٢ /٧٤٥.

(٥٤) ديوان الفرزدق: ٧٠٠. ديوان جرير: ٣٩، ١٢٥، ٢٥١. الأغاني: ١٨/١٤٥ ومابعدها.

(٥٥) الأغاني: ٦/٥٦، ١٥/٣٧٩، ٣٨٥. البيان والتبيين: ٣/٢٠٥.

(٥٦) الدكتور شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي: العصر الاسلامي: ٢٠٠.

(٥٧) م. ن: ١٧٦ ومابعدها.

(٥٨) م. ن: ١٨٢ ومابعدها.

٥ - ازدهار الثقافة العربية في مختلف فروع المعرفة والعلم.[٥٩]

ان ازدهار الشعر أدى الى تعدد مراكز الشعر، ومنتدياته في هذا العصر، ومن اشهرها: البصرة[٦٠]، والكوفة[٦١]، والمدينة[٦٢]، ومكة[٦٣] والشام[٦٤].

وفي هذا العصر ظهر تطور وتجديد في اغراض الشعر حيث ظهرت اغراض جديدة هي:

١ - الشعر السياسي:

كان هذا الشعر صدى للاحزاب السياسية في ذلك العصر. فقد كان لكل حزب شعراء يشيدون بحزبهم ويدعون له ويهجون خصومه السياسيين، وكان شعرهم عادة يصبغ بصبغة دينية وذلك لأنه كان يتصل مباشرة بفكرة الخلافة، فالخوارج كان اشهر شعراءهم قطري بن الفجاءة[٦٥]، وعمران بن حِطان[٦٦]، والطرماح[٦٧]، وكان عبيد الله بن قيس الرقيات يمدح عبدالله بن الزبير، ويدّعي انه احق بالخلافة من غيره[٦٨]. وكان الكميت بن زيد الأسدي يدافع عن حق آل البيت في الخلافة[٦٩]، وكان عدد كبير من الشعراء يدافعون عن حق الأمويين في الخلافة، كان اشهرهم الأخطل، وجرير والفرزدق[٧٠]. وعبدالله بن الأسدي الزبير[٧١]، وعدي بن الرقاع[٧٢].

---

(٥٩) م. ن: ١٩٩ ومابعدها.

(٦٠) الدكتور شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي: العصر الاسلامي: ١٥٧ ومابعدها

(٦١) م ن: ١٥٣ ومابعدها

(٦٢) م ن: ١٣٩ ومابعدها

(٦٣) م ن: ١٤٥ ومابعدها

(٦٤) م ن: ١٦٥ ومابعدها

(٦٥) انظر في ترجمته وأشعاره: وفيات الأعيان: ٤/ ٩٣-٩٥

(٦٦) انظر في ترجمته: الأغاني: ١٤٦/١٦. خزانه الأدب: ٢/ ٤٣٦

(٦٧) انظر في ترجمته واشعاره: الاصابة في تمييز الصحابة: ١٨١/٥. ديوان الطرماح: ١٤٩، ١٥٧ وصفحات اخرى.

(٦٨) انظر في ترجمته واشعاره: الأغاني: ١١٢/١٧، ١٢٤/٢٠

(٦٩) انظر في ترجمته واشعاره: الأغاني: ١٥/ ١٠٨. طبقات الشعراء: ٢٦٨ الشعر والشعراء: ٢/ ٥٦٢. خزانة الأدب: ٦٩/١.

(٧٠) تقدم الكلام عنهم.

(٧١) انظر في ترجمته واشعاره: الأغاني: ٢١٧/١٤ ومابعدها. خزانة الأدب: ٣٤٥/١.

(٧٢) انظر في ترجمته واشعاره: الأغاني: ٢٩٩/١ ومابعدها. ٣٠٧/٩ وما بعدها. الشعر والشعراء: ٢/ ٦٠٠، طبقات الشعراء: ٣٢٤، ٤٣٥، ٥٥١ ٥٥٨.

٢ – شعر الشعوبية :

وهو من الأغراض التي نشأت في هذا العصر، حاول فيه الشعراء الفرس الاشادة بقومهم، وحضارتهم ومجدهم، والطعن بالعرب، وتفضيل العناصر غير العربية عليهم[٧٣]. ومن اشهر شعراء الشعوبية في العصر الأموي اسماعيل بن يسار، وهو من أصل فارسي[٧٤].

٣ – شعر الغزل :

شاع هذا الشعر في العصر الأموي، وتعددت ألوانه، واتسعت مظاهره، بل انه أخذ مظهراً جديداً لم يكن من قبل، فقد وجد هذا الشعر مستقلاً لايشركه غرض آخر، وظهرت وحدة الغرض في القصيدة الغزلية، كما وجد شعراء وقفوا حياتهم وفنهم على الغزل، لاينظمون في غيره ولا يطرقون باباً سواه[٧٥]، وقد انقسم الغزل في هذا العصر الى قسمين: الغزل الصريح، واشهر شعراءه عمر بن ابي ربيعة[٧٦]، ومطيع بن إياس[٧٧]. والغزل العذري، واشهر شعراءه قيس بن ذريح[٧٨]، وجميل بن معمر[٧٩]، وكثير عزة[٨٠].

---

(٧٣) الدكتور عبدالله السامرائي : الشعوبية : ٩٢ ٩٩.

(٧٤) انظر في ترجمته واشعاره : البيان والتبيين : ١١٩/٤، ١٢٤. الأغاني : ١٢/٤، ٤٢٢.

(٧٥) الدكتور عبد المنعم خفاجي : الحياة الأدبية – عصر بني امية – : ١٠٢.

(٧٦) انظر في ترجمته واشعاره : الأغاني : ٦٦/١ ومابعدها، ٩/ ٢٣٩ وما بعدها. الشعر والشعراء : ٥٣٥/٢. وفيات الأعيان : ٤٣٦/٣ وما بعدها.

(٧٧) انظر في ترجمته واشعاره : الأغاني : ٢٧٦/١٣، ٢٧٧، ٢٨٦.

(٧٨) انظر : الأغاني : ١٨٠/٩ ومابعدها. الشعر والشعراء : ٦١٠/٢.

(٧٩) انظر في ترجمته واخباره واشعاره : الأغاني : ٩٠/٨. طبقات الشعراء ٤٦١، ٥٤٣، الشعر والشعراء : ٤٠٠/١ ومابعدها. خزانة الأدب : ٩٠/١.

(٨٠) انظر في ترجمته : الشعر والشعراء : ٤١٠/١ وما بعدها.

٤ – شعر الزهد :

وفيه دعوة الى التقوى والزهد في الدنيا ، والنسك والعبادة ، والاكثار من أحاديث الموت ، والتهيوء للحساب يوم القيامة والرضا بقضاء الله تعالى ، كما فيه دعوة الى التحلي بمكارم الأخلاق [٨١] . وكان من اشهر شعراء الزهد في هذا العصر سابق بن عبد الله [٨٢] .

٥ – شعر الهجاء :

انتشر الهجاء في هذا العصر انتشاراً كثيراً وذلك لكثرة اسبابه وتعدد دواعيه ، فقد كان هناك هجاء بين شعراء الاحزاب السياسية ، وهجاء بين الشعراء أنفسهم دعت اليه المنافسة بينهم في مجالس الخلفاء والامراء [٨٣] أو العصبية للقبيلة [٨٤] . وكان اشهر شعراء الهجاء في هذا العصر هم جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وكانت النقائض تمثل الهجاء الذي دار بين هؤلاء الشعراء الثلاثة [٨٥] .

كما كانت هناك أغراض اخرى في هذا العصر كشعر المديح ، والفخر ، والوصف ، والرثاء ، والحماسة [٨٦] .

وكان اشهر شعراء المديح جرير والأخطل والفرزدق – كما تقدم – ونُصيب [٨٧] . وعُمر ابن شييم التغلبي [٨٨] وكعب بن معدان الأشقري الأزدي [٨٩] أما اشهر شعراء الفخر هو الطرماح [٩٠] .

---

(٨١) الدكتور شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي : ٣٦٩/٢ ومابعدها .

(٨٢) انظر في ترجمته واشعاره : البيان والتبيين : ٢٠٦/١ . الأغاني : ٥٧/٦ خزانة الأدب : ١٦٤/٤ . تهذيب تاريخ دمشق الكبير : ٤٠/٦ ، ٤١ .

(٨٣) انظر مثلاً : طبقات الشعراء : ١١٠ . العقد الفريد : ٢٩٦/٥ .

(٨٤) انظر مثلاً : ديوان جرير : ١٦ ، ٢٤ ، ٥٠ ، ١٢٤ . ديوان الأخطل : ٥٧ ، ٢٩١ ، ٣٧٠ ، ٤٥٩ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، طبقات الشعراء : ١١٦ . الصناعتين : ٤٢٣ . ٥١٩ ، ٥٢٤ ، ٥٧١ .

(٨٥) انظر : نقائض جرير والأخطل . نقائض جرير والفرزدق .

(٨٦) الدكتور عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبية في عصر بني امية ١٣٩ ومابعدها .

(٨٧) انظر في ترجمته : الأغاني : ٣٢٤/١ . الشعر والشعراء : ٣٧١/١ . طبقات الشعر : ٥٤٤ . معجم الادباء ١٩/ ٢٢٨ .

(٨٨) انظر في ترجمته : الأغاني : ١١٨/٢٠ . طبقات الشعراء : ٤٥٢ . الشعر والشعراء ٧٠١/٢ . خزانة الأدب : ١/ ٣٩١ .

(٨٩) انظر في ترجمته : الأغاني : ٢٨٣/١٤ . الشعر والشعراء : ٣٩٧/١ .

(٩٠) انظر : ديوان الطرماح

وكان من أشهر شعراء الوصف الفرزدق [٩١] ، والأخطل [٩٢] ، وجرير [٩٣] ، وذو الرمة [٩٤] .

أما أشهر شعراء الرثاء هو مالك بن الريب التميمي [٩٥] ، وليلى الأخيلية [٩٦] . وقد برز بشعر الحماسة قطري بن الفجاءة الخارجي [٩٧] .

ب - النثر

١ - الخطابة :

اهتم العرب في عصر ماقبل الاسلام بالخطابة ولهم خطب مشهورة [٩٨] . وفي عصر صدر الاسلام والعصر الأموي اسهمت عوامل كثيرة في ازدهار الخطابة . ففي اثناء حركات التحرير العربية كان قادة الجيوش العربية والوعاظ قبل وفي اثناء المعارك يخطبون بالمقاتلة يحثوهم في هذه الخطب على الشجاعة والاقدام والشهادة في سبيل تبليغ الرسالة العربية الاسلامية [٩٩] .

والعصر الأموي امتاز بظهور الاحزاب السياسية المعارضة للأمويين ، حيث كانت هذه الاحزاب ترى انها احق بالخلافة منهم ، فكان خطباء هذه الاحزاب يدعون لها ويشرحون اهدافهم ، ويبررون خروجهم على طاعة الخلفاء الأمويين وذلك في خطبهم في الجماعات

---

(٩١) ديوان الفرزدق : ٢٦٢ ، ٦٢٦ .

(٩٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ٤٠٢/١ .

(٩٣) ديوان جرير : ١٥٠ .

(٩٤) ذو الرمة : هو غيلان بن عقبة من بني عدي بن عبد مناة . انظر : طبقات الشعراء : ٤٦٥ . الشعر والشعراء : ١/ ٥٠٦ . الأغاني : ١٠٦/١٦ .

(٩٥) جمهرة اشعار العرب :

(٩٦) الشعر والشعراء :

(٩٧) ديوان الحماسة : ٤٩/١ ، ١١١/٢ . وفيات الأعيان : ٤/ ٩٣- ٩٥ . بروكلمان تأريخ الأدب العربي : ٢٣٣/١ .

(٩٨) انظر مثلاً : البيان والتبيين : ٣٤٨/١ .

(٩٩) انظر مثلاً : البيان والتبيين : ٢٧٣/٣ . الاصابة في تمييز الصحابة : ٢٨٧/٤ . ٢٢١ ، ١/ ٢٤٣ .

المؤيدة لهم[100] وكان أنصار الأمويين يردون عليهم بخطبهم ، يصورون فيها خروج هؤلاء على الجماعة[101] ، مما هيأ نشاط الخطابة السياسية في هذا العصر.

والخلفاء الأمويون كانوا قد قربوا الخطباء اليهم[102] وكان يحضر مجلسهم عدد من الخطباء[103].

كما كان معظم الخلفاء الأمويين خطباء مفوهين. فالخليفة معاوية بن ابي سفيان كان خطيباً مفوهاً[104]. وكان ابنه الخليفة يزيد كذلك[105].

وكان الخليفة عبد الملك بن مروان من الخطباء المشهورين[106]. كما كان الخليفة سليمان بن عبد الملك من الخطباء المشهورين ايضاً[107] وقد عرف بفصاحته وبلاغته[108]. واهتم الخليفة عمر بن عبد العزيز بالخطابة ، وكان أشد الناس في اللحن[109]. كما كان خطيباً[110].

وكان الخليفة هشام بن عبد الملك من الفصحاء والخطباء المشهورين[111]. أما الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك فقد كان من الخطباء المعدودين في البيت الأموي[112]. وكان ابنه الخليفة يزيد من الخطباء المشهورين[112] وقد برز دور الخطباء

---

(١٠٠) انظر مثلاً : البيان والتبيين : ٢/١٢٢ . عيون الاخبار : ٢/٢٤٩ ، ٢٠ العقد الفريد : ٤/ ١٤١ ، ١٤٤ . الأغاني : ٢٠/١٠٤ ، ٤١٢ .

(١٠١) انظر مثلاً : العقد الفريد : ٤/٨١ ، البيان والتبيين : ٢/٣٠٧ . عيون الاخبار : ٢/٢٤٤ .

(١٠٢) انظر مثلاً : البيان والتبيين : ١/١٢١ ، ٢٣٧ ، ٢٦٢ ، ٣٤٨ . المعارف ٣٣٩ .

(١٠٣) انظر : البيان والتبيين : ١/٣١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٥٥ ، ٣٩٩ . الفهرست : ١٨٧ . تهذيب تأريخ دمشق الكبير : ٥/٥٦ . معجم الادباء : ١١/٢٤ .

(١٠٤) عن خطبه انظر: عيون الاخبار: ١/١٩٠ ، ٢/٢٣٧ ، ٢٧٨ ، العقد الفريد : ٤/٨١– ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ .

(١٠٥) انظر مثلاً : عيون الاخبار: ٢/٢٣٨ . العقد الفريد : ٤/٨٩ .

(١٠٦) انظر: البيان والتبيين: ١/٦٠ . ابن سعد : الطبقات : ٥/٢٣١ العقد الفريد : ٤/٩٠ . الفخري في الآداب السلطانية : ١١٣ .

(١٠٧) عن خطبة انظر: عيون الاخبار: ٢/٢٤٧ . العقد الفريد : ٤/٩١ .

(١٠٨) العقد الفريد : ٤/٤٢٥ .

(١٠٩) معجم الادباء : ١/٨٨ ، ٨٩ .

(١١٠) عن خطبة انظر: عيون الاخبار: ٢/٢٤٦ . البيان والتبيين : ٢/ ٢٠ . العقد الفريد : ٤/٩٢– ٩٥ .

(١١١) البيان والتبيين: ٢/٢٢٠ ، ٣/ ١٨٨ ، ١٨٩ .

(١١٢) البيان والتبيين: ١/٢٥١ . تهذيب تأريخ دمشق الكبير : ٧/٢٧١ .

في مسألة البيعة للخليفة الجديد ، وولاية العهد ، فقد كانت الوفود في هذا العصر تتوجه من شتى انحاء الدولة العربية الى عاصمة الخلافة دمشق لبيعة الخليفة الجديد وولي عهده كما كانت الوفود تتوجه الى دمشق لتطلب من الخلفاء تحسين ظروف امصارهم(١١٣) .

كما اسهمت الخطب الدينية في ازدهار الخطابة في هذا العصر كخطب الجمعة ، والعيدين ، وقد ساهم بذلك الخلفاء وامراء الامصار(١١٤) .

هذا وان الخصومات القبلية كانت قد ساهمت في ازدهار الخطابة ايضاً فقد كان خطباء هذه القبائل يشرحون في خطبهم موقفهم من القبائل الأخرى ، وموقفهم من الخلافة الأموية في حالة تأييدهم او معارضتهم لها(١١٥) .

اما اشهر خطباء هذا العصر فهم : زياد بن ابيه(١١٦) ، والحجاج بن يوسف الثقفي(١١٧) . وخالد بن عبدالله القسري(١١٨) . وقطري بن الفجاءة(١١٩) ، وعبدالله بن الزبير بن العوام(١٢٠) ، ويزيد بن المهلب بن ابي صفرة(١٢١) ، والحسن البصري(١٢٢) وغيرهم(١٢٣) ،

---

(١١٢) عيون الاخبار: ٢/٢٤٨ . العقد الفريد : ٤/ ٩٥ .

(١١٣) البيان والتبيين : ١/٤٠٦ ، ٢/ ٩٥ . المبرد : الكامل : ٦٤٠ . عيون الاخبار. ٢/٤٢٠ . العقد الفريد : ٤/٤١٢ .

(١٠) البيان والتبيين : ١/٤١ ، ٢٩٢ .

(١١٤) البيان والتبيين : ١/٣٥٤ .

(١١٥) انظر مثلاً : عيون الاخبار: ٢/٢١٠ ، العقد الفريد : ٤/٣٦٩ .

(١١٦) الامامة والسياسة : ١٦٦ ، ١٦٧ . البيان والتبيين : ١/٤٨ ، ٣٠٠ ، ٣٩٨ .

(١١٧) انظر مثلاً : البيان والتبيين : ١/٣٤٨ .

(١١٨) د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي : العصر الاسلامي : ٤٠٨ .

(١١٩) انظر مثلاً : ابن سعد : الطبقات : ٦/٥٣ ، الأغاني : ٥/٢٩ . الاصابة في تميز الصحابة : ١٠/ ١٥٨ . البيان والتبيين : ٢/ ٨٠ ، ٣٥ .

(١٢٠) البيان والتبيين : ١/ ٢٥٩ ، ٢/ ٦١ ، ١٤٥ . عيون الاخبار: ١/٢٤١ . العقد الفريد : ٤/ ١١٠ .

(١٢١) البيان والتبيين : ١/٣٧٨ ، ٣٩٣ ، ٢/٣٧ ، ١٣٨ ، ١٧٣ ، ٣٠٨ . العقد الفريد : ٤/١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ .

(١٢٢) البيان والتبيين : ١/٥١٩ ، ٢/٢٧٥ . عيون الأخبار: ٢/٢٤٧ .

(١٢٣) البيان والتبيين : ١/٢٢١ ، ٢/١٠٣ ، ١٢٦ ، عيون الاخبار: ٢/٢٥٠ . العقد الفريد : ٤/ ١٤١ ، ١٤٢ .

٢ – الكتابة :

كانت الكتابة منتشرة بين العرب في عصر ماقبل الاسلام(١٢٤) وفي عصر الرسالة أخذت الكتابة تنتشر بتشجيع من الرسول (ص) وذلك للحاجة اليها في تصريف شؤون الدولة العربية آنذاك ، فقد حث الرسول (ص) على تعلمها(١٢٥) وجعل فداء الأسير في معركة بدر تعليم عشرة من العرب المسلمين الكتابة(١٢٦) ، واتخذ كُتّاباً للوحي وكُتّاباً آخرين لاحصاء الغنائم والاجابة على رسائل الملوك وغير ذلك(١٢٧) وفي العصر الراشدي كثرت العناية بالكتابة وعظم الاهتمام بها ، فقد ذكرنا سابقاً ان القرآن الكريم نسخ في هذا العصر وارسلت منه نسخ الى الأمصار(١٢٨) ، كما انشيء في هذا العصر ديوان الجند لكتابة اسماء الجند وانسابهم واعطياتهم(١٢٩) . وكانت الكتابة في هذا العصر تتسم بالايجاز والوضوح والسهولة والبساطة وقلة التكلف(١٣٠) .

أما في العصر الأموي فقد اتسعت حركة التدوين عما كانت عليه سابقاً ، فقد كتب الشعر ودون في هذا العصر ، فقد روى الجاحظ ان الشاعر ذي الرمة كان يقول لعيسى بن عمر : «اكتب شعري فالكتاب احب اليّ من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لاينسى ولايبدل كلام بكلام»(١٣١) .

كما عني بتدوين اخبار العرب في عصر ماقبل الاسلام واشعارهم وانسابهم(١٣٢) وقد سبق ان ذكرنا انه تم في هذا العصر تدوين الحديث النبوي الشريف وتفسير القرآن الكريم

---

(١٢٤) فتوح البلدان : ٥٧٩ ومابعدها

(١٢٥) م.ن : ٥٨٠ ومابعدها

(١٢٦) الحلبي : السيرة الحلبية : ٢/٤٥١ . احمد امين : فجر الاسلام : ١٤٢ .

(١٢٧) تاريخ خليفة بن خياط : ١/٦٣ ، ٦٤ . الطبري : ٣/١٧٣ ، ٦/١٧٩ . اليعقوبي : تاريخ : ٢/٨٠ .

(١٢٨) انظر : القراءات في هذا الكتاب .

(١٢٩) انظر : الدواوين في هذا الكتاب .

(١٣٠) انظر مثلاً : ابن سعد : الطبقات : ٢/٢٤٢ . اليعقوبي : تاريخ : ٢/٨٠ – ٨٣ . الطبري : ٤/٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٤٧ وصفحات اخرى : والبيان والتبيين : ٢ ، ٤١ ، ٤٨ ، ١٥٠ ، ١٨٠ ، ٢٩٣ .

(١٣١) الحيوان : ١/٤١ . وعن تدوين الشعر لشعراء آخرين انظر : نقائضه جرير والفرزدق ٤٣٠ . الأغاني : ٨/٣٢ ، ١٩/ ١١ ، ١٢ . طبقات الشعراء : ٣٧٤ .

(١٣٢) البيان والتبيين : ١/١٢١ ، ٢٤٧ ، ٣٢١ ، ٢/٨٠ ، ٢٥٣ .

والفقة ، كما دون التاريخ[١٣٣] . ونجد اشارات الى مصنفات أدبية وعقائدية[١٣٤] . كما ترجم ودون عدد من الكتب في الكيمياء[١٣٥] . والطب[١٣٦] وغيرهم[١٣٧] .

وفي هذا العصر ولى الخلفاء كتابا على ديوان الرسائل ، كانوا مسؤولين عن تحرير رسائل الخليفة التي كانت تتضمن أوامره ووصاياه الموجهة الى ولاته وقادته في أقاليم الدولة العربية ، كما يتولى الاشراف على مراسلات الخليفة مع حكام الدول الاخرى[١٣٨] . فأدى ذلك الى تنوع اساليب الكتابة وتعدد اغراضها ، وبعد ان كانت تتمثل بالبساطة والايجاز صارت تمثل فناً جديداً له نظمه وقواعده[١٣٩] .

وقد ذكرت المصادر اسماء عدد من هؤلاء الكتاب[١٤٠] ، ولابد ان الخلفاء كانوا قد اختاروا هؤلاء الكتّاب من بين أرباب البلاغة والبيان وقد اهتم الخلفاء الأمويون بالكتابة والكتّاب كما يبدو من وصايا الخليفة عبد الملك بن مروان الى كتّابه ، وتدقيقه فيمن يختاره منهم[١٤١] .

وكانت الرسائل الى زمن الخليفة الوليد بن عبدالملك بسيطة ، إلا ان الوليد أمر بأن تكون الرسائل مطولة ومفخمة فقد ذكر الجهشياري أنه : «أول من كتب في الطوامير ، وأمر بان تعظم كتبه ، ويجلل الخط الذي يكتب فيه ، وكان يقول : تكون كتبي والكتب الي خلاف كتب الناس بعضهم الى بعض»[١٤٢] . وبقيت الرسائل هكذا حتى عهد

---

(١٣٣) انظر: العلوم التاريخية في هذا الكتاب.

(١٣٤) انظر: الفهرست: ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٧١ ، ٢٠٧ . الأغاني: ٤/ ٣٩٨ ، ١٧/ ٢ عيون الاخبار: ٢/ ٣٤٥ . البيان والتبيين: ١/ ١٥ .

(١٣٥) انظر: العلوم العقلية في هذا الكتاب.

(١٣٦) انظر: العلوم العقلية في هذا الكتاب.

(١٣٧) انظر: العسكري: الصناعتين: ٦٩ .

(١٣٨) انظر: ديوان الرسائل في هذا الكتاب.

(١٣٩) الدكتور عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية – عصر بني امية –: ٢٦٨ .

(١٤٠) انظر: ديوان الرسائل في هذا الكتاب.

(١٤١) انظر: العقد الفريد: ٢/ ٤٢١ .

(١٤٢) الوزراء والكُتّاب: ٤٧

الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أمر كُتّابه باختصار الرسائل[١٤٣] . ولما جاء الخليفة هشام ابن عبد الملك أعاد صياغة الرسائل كما كانت عليه زمن الخليفة الوليد[١٤٤] . وفي عهد الخليفة مروان الثاني صارت كتابة الرسائل على يد كاتبه عبد الحميد بن يحيى[١٤٥] صناعة فنية لها اصولها وقواعدها ، فهو أول من جعل للرسائل قواعداً واصولاً في بدئها وختامها ، وجعل لكل مخاطب نوعاً خاصاً واسلوباً معين يخاطب فيه ، وكانت له القدرة في رسائله على الايجاز في غير اخلال حين يكون الايجاز مطلوباً ، بحيث كانت بعض رسائله قصيرة تشبه التوقيعات[١٤٦] كما كانت له قدرة على الاطالة في غير إملال كرسائله في اخبار حركات التحرير العربية والجهاد[١٤٧] ، وكرسالته الى الكُتّاب[١٤٨] .

---

(١٤٣) ابن سعد : الطبقات : ٥/ ٤٠٠

(١٤٤) انظر: الجهشياري : الوزراء والكُتّاب: ٦٢

(١٤٥) انظر في ترجمته : الجهشياري : الوزراء والكُتّاب: ٧٢ . البيان والتبيين : ١/ ٢٠٨ ، ٢٥١ ، ٣/ ٢٩ . عيون الأخبار: ١/ ٢٦ . الصناعتين: ٦٩ . وفيات الأعيان : ٣/ ٢٢٨ ومابعدها

(١٤٦) انظر: الوزراء والكُتّاب: ٨١

(١٤٧) انظر: الوزراء والكُتّاب: ٧٢ ومابعدها . صبح الأعشى : ١٠/ ١٩٥

(١٤٨) انظر: الوزراء والكُتّاب: ٧٣ ومابعدها

الفصل الثالث

الدراسات التاريخية

اهتم العرب في عصر ماقبل الاسلام بالقصص التاريخية وأيام العرب وأنسابهم، ومع ان القصص والايام كانت معلومات متفرقة يعوزها الربط، وينقصها التاريخ الثابت، إلا انها كانت تحوي بعض الحقائق التاريخية[1] وكان راوية القصص والأيام بمثابة المؤرخ في ذلك العهد، وكان أشهر هؤلاء عبيد بن شرية الجرهمي[2] ووهب بن منبه[3] وعلاقة بن كريم الكلابي[4] وعندما ظهر الاسلام بدأت نظرات جديدة للدراسات التاريخية، أدت الى ظهور التأريخ أهمها مايلي:

١ – قدم القرآن الكريم مادة تأريخية هامة تتعلق باخبار الأمم الماضية والانبياء السابقين، كان الغرض منها هو الموعظة والاعتبار، فكانت الرغبة في معرفة تفاصيل ماأجمله القرآن الكريم قد دفعت المفسرين الى البحث عن معلومات تأريخية لتفسير ماجاء فيه[5].

٢ – اهتم العرب المسلمون بجمع احاديث الرسول (ص) منذ نهاية القرن الاول الهجري، وذلك للاعتماد عليها في التشريع والتنظيم الاداري، وشؤون الحياة فعندما جمعوا الأحاديث ممن سمعها او رواها عن أحد سامعيها بالاسناد المتسلسل لاحظوا تناقضاً في بعض الروايات، فميزوا بين الصحيح منها والموضوع، فأدى بهم الى دراسة المحدثين، وتصنيف الأحاديث – كما اسلفنا –[6] فتوفرت لديهم مادة تأريخية

---

(١) الدكتور عبد العزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب: ٥ ومابعدها

(٢) انظر في ترجمته: الفهرست: ١٣٣ معجم الادباء: ٧٢/١٢ ومابعدها

(٣) انظر في ترجمته: عيون الأخبار: ٦٢/٢، ٢٦١. الفهرست: ٣٨ معجم الادباء: ٢٥٩/٩، ٢٦٠

(٤) انظر: الفهرست: ١٣٢. معجم الادباء: ١٢/ ١٩٠

(٥) الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ: ٨. الدكتور نور الدين حاطوم واخرين: المدخل الى التأريخ: ١٦٥

(٦) انظر: الحديث في هذا الكتاب

مهمة تتعلق بسيرة الرسول (ص) والصحابة الذين قاتلوا تحت لوائه ، وابلوا بلاءاً حسناً في نشر وتوطيد رسالته ، فكان جمع الحديث عوناً على كتابة سيرة الرسول (ص) التي اعتبرها العرب جزءاً أساسيا من تأريخهم ، لذلك كانت سيرته أول موضوع للتأريخ العربي الاسلامي في عصر التدوين كما سنرى[٧] .

٣ - شعر العرب بعد أن انشأوا لهم دولة في الجزيرة العربية بأنهم اصحاب رسالة جاءت لتغير مسيرة الانسانية ، وانهم يمرون بمرحلة هامة ، كما ان حركات التحرير العربية التي ألغت الدول الكبرى التي كانت لقرون طويلة تسّير شؤون العالم آنذاك ، جعلتهم يحسون بأن لهم دور تأريخي خطير بعد ان برزت دولتهم بدلاً من تلك الدول ، لذلك نجدهم بعد استقرار دولتهم في العصر الأموي يهتمون بتدوين تجارب الأمة العربية ومسيرة الدولة العربية[٨] .

٤ - عندما قام الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بتأسيس ديوان الجند لسجل المقاتلين واهليهم حسب قبائلهم ، اعطى هذا للانساب أهمية جديدة ، وكان حافزاً للاهتمام بدراسة الأنساب[٩] .

٥ - ان اهتمام الخلفاء الأمويين بالتأريخ العربي وتشجيعهم على تدوين الحوادث التأريخية دعى الى اهتمام المؤرخين العرب بهذا الفن ، وكان اسبقهم في هذا المضمار الخليفة معاوية بن ابي سفيان (٤٠ - ٦٠هـ / ٦٦٠ - ٦٧٩م) فقد روت المصادر ان أول محاولة لجمع وتدوين الأخبار المتناثرة التي كان يسردها الرواة الاخباريون قد تمت في عهده ، فقد استدعى هذا الخليفة عبيد بن شرية الجرهمي من اليمن ليسأله عن اخبار الأمم ، فاجابه الى ماأمر به ، فأمر معاوية الكتبة ان يدونوا أقواله ، فهذا يكون أول تدوين للتأريخ في العصر الأموي[١٠] .

---

(٧) الدكتور نور الدين حاطوم وآخرين : المدخل الى التأريخ : ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٨) الدوري : نشأة علم التأريخ : ١٨ ، ٩ .

(٩) الدوري : م.ن : ١٩

(١٠) البيان والتبيين :١٢١/١ ، ٣٦٠ . المعارف : ٥٣٤ . عيون الأخبار: ٣٠٥/٢ . معجم الادباء : ٧٣/١٢ الفهرست : ١٣٧ ، ١٣٨ . واستدعى معاوية من اليمن ذو قريات الذي كان صاحب اخبار الملاحم . الاصابة في تمييز الصحابة : ٩٩/١ . كما استدعى آخرين . ينظر عنهم : البيان والتبيين : ٩٦/١ . ٢٣٧ ، ٣٦٢ ، العقد الفريد : ٢٦١/٢ . الفهرست : ١٣٧ .

ويذكر المسعودي ان معاوية كان «يسمر الى ثلث الليل في اخبار العرب وايامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسير ملوك الامم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من اخبار الأمم السالفة ... وله غلمان مرتبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها» مروج الذهب : ٣١/٣ .

ولعبيد كتاب «الأمثال» وكتاب «الملوك وأخبار الماضين»[11] كانت رواياته تتعلق بحوادث وقعت في عصر ماقبل الاسلام[12] واهتم الخليفة معاوية بالأنساب ايضاً ، ومن الذين استدعاهم دغفل بن حنظلة السدوسي ، وكان له علم بالأنساب[13] ، كان يكتبها ويدونها على صحف[14] .

وكان الخليفة عبد الملك بن مروان يرسل الى عروة بن الزبير بن العوام يسأله عن بعض الحوادث التأريخية ، وكان عروة يكتب اليه بذلك[15] . واهتم الخليفة عبد الملك بالأنساب ، فحمد بن مسلم بن شهاب الزهري الذي كان أحد علماء الانساب[16] يقول عنه بهذا الصدد : «فجعل يسألني عن انساب قومي قريش فلهو كان أعلم بها مني»[17] .

أما الخليفة الوليد بن عبد الملك فقد كان مهتماً بتدوين الأخبار والشعر والمصاحف ، وكان قد عين كاتباً لذلك[18] .

كما شجع الخليفة عمر بن عبد العزيز دراسة «مغازي» الرسول (ص) وسيرته ، وسيرة الصحابة[19] ، واهتم بالأنساب[20] .

وللخليفة هشام بن عبد الملك اهتمام كبير بعلم الأنساب ، وقد بلغ من اهتمامه بهذا الجانب أنه كان يوصي مؤدب ولده سليمان بن سليم بن كيسان أن يعلمهم الأنساب

---

(11) الفهرست : ١٣٨

(12) خليل داود زرو: الحياة العلمية في الشام : ١٩٧

(13) ابن سعد : الطبقات : ١٤٠/٧ . المعارف : ٥٣٤ . البيان والتبيين : ٣٢٢/١ ، ٣٢٣ . الفهرست : ١٣٧ .

(14) الزمخشري : الفائق في غريب الحديث : ٦٧٧/١

(15) الطبري : ٤٢٧/٦

(16) ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب : ٤٤٩/٩

(17) الذهبي : تأريخ الاسلام : ٥/ ١٣٩

(18) الفهرست : ١٥

(19) تهذيب تاريخ دمشق الكبير : ٧١/١ ، ٧/ ١٣٠

(20) البيان والتبيين : ٣٢٨/١

والشعر و «مغازي» الرسول (ص)[٢١] وعندما تولى الخلافة استدعى حماد الراوية من العراق، وكان أعلم الناس بأيام العرب، واخبارها واشعارها، وانسابها[٢٢] ليسأله عن شعر العرب وأيامهم واخبارهم[٢٣].

وكان هذا الخليفة يعقد المجالس ليتذاكر فيها مع العلماء اخبار العرب وايامها واشعارها[٢٤] ومن الذين كانوا يمثلون مكانة في مجلسة خالد بن صفوان بن الأهتم البصري الذي كان راوية للأخبار[٢٥].

أما تدوين التأريخ في العصر الأموي فقد بدأ بمحاولة لجمع وتدوين اخبار العرب في عصر ماقبل الاسلام، واخبار الأمم المجاورة، وقد ذكرنا من قبل ان اشهر هؤلاء الاخباريين هم عبيد بن شرية الجرهمي (ت٧٠هـ/٦٨٩م) صاحب كتاب «الأمثال»[٢٦] وكتاب «الملوك واخبار الماضين»[٢٧] ووهب بن منبه (ت١١٤هـ/٧٣٢م) الذي نسبت اليه المصادر بعض الكتب منها كتاب «أحاديث الأنبياء والعباد، واحاديث بني اسرائيل»[٢٨] وكتاب «قصص الأنبياء»[٢٩] وكتاب «مبتدأ الخلق»[٣٠] وكتاب «المبتدأ»[٣١] وكتاب «الملوك المتوجة من حمير واخبارهم»[٣٢] وكتاب «المغازي»[٣٣] وقد عني في كتبه هذه برواية تأريخ العرب قبل الاسلام واخبار الامم الاخرى، كما كان رائداً من رواد تدوين «مغازي» الرسول (ص)[٣٤] كما ان الاهتمام

---

(٢١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير: ٦/٢٧٩، ٢٨٠

(٢٢) الأغاني: ٦/٨٠، ٨٧، ٢٤/٢٢٠. شذرات الذهب: ١/١٥٥. معجم الادباء: ١٠/٢٥٨

(٢٣) الأغاني: ٦/٧٦. معجم الادباء: ١٠/ ٢٦٠. وكان لحماد كتب تتعلق باخبار العرب قبل الاسلام وانساب القبائل منها كتاب «قريش» وكتاب «ثقيف» الأغاني: ٦/٩٤. وقد طلب كتبه الخليفة الوليد بن يزيد عندما أراد ان يجمع ديوان العرب. الفهرست: ١٤٠

(٢٤) الأغاني: ١١/١٨٩، ١٩٠

(٢٥) البيان والتبيين: ١/٤٧. معجم الادباء: ١١/٢٤

(٢٦) الفهرست: ١٣٨. معجم الادباء: ١٢/٧٨

(٢٧) الفهرست: ١٣٨. معجم الادباء: ١٢/ ٧٨

(٢٨) ابن سعد: ٧/٩٧

(٢٩) المعارف: ص١. ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب: ١/٧٨٨

(٣٠) المعارف: ص١. تهذيب التهذيب: ١/٧٨٨

(٣١) المسعودي: مروج الذهب: ٥/١٢٧. السخاوي: الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ: ٤٨

(٣٢) معجم الادباء: ١٩/٢٥٩

(٣٣) حاجي خليفة: كشف الظنون: ٢/١٧٤٧

(٣٤) الدكتور نور الدين حاطوم وآخرون: المدخل الى التاريخ: ١٥٠

بجمع وتدوين احاديث الرسول (ص) منذ نهاية القرن الاول الهجري أدى الى توفر مادة تاريخية غنية تتعلق بسيرة الرسول (ص) والحروب التي اشترك فيها ، فالرسول (ص) كثيراً ماأشار في احاديثه الى سيرة حياته ، والى الحياة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية في الجزيرة العربية ، كما تحدث عن مغازية ونضاله في سبيل نشر الاسلام ، وغير ذلك من الأخبار التي تناولت جميع نواحي حياته(٣٥) . كما ان جمع الأحاديث وتدوينها كان قد أدى الى دراسة المحدثين – كما اسلفنا – فتوفرت لدى المؤرخين مادة تاريخية تتعلق بالصحابة ، فتطورت دراسة السيرة الى دراسة التراجم والطبقات فيما بعد .

كما ان سيرة الرسول (ص) كانت مثل للعرب المسلمين يقتدون بها في شؤون الحياة ، لذا أصبحت تروى من قبل الصحابة الذين رأوا سيرته(٣٦) (ص) ، كما روى الصحابة الحروب التي اشترك فيها الرسول (ص) واصحابه وقد توسعت هذه الدراسة فيما بعد فأصبحت تشمل حركات التحرير العربية التي قام بها العرب في سبيل نشر الرسالة العربية ، وتحرير الأرض العربية ، والدفاع عن الدولة العربية(٣٧) .

وكان الصحابة يروون مايتعلق بسيرة الرسول (ص) ومغازيه ليس على اساس انهم مؤرخين ، بل كان التابعون يسألونهم عنها ويقومون بتدوين – رواياتهم(٣٨) .

وأهم من كتب في السيرة والمغازي هم : عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٤ هـ) . الذي كان أول من ألف كتاب في «المغازي»(٣٩) .

وإبان بن عثمان بن عفان (ت ٠٥ هـ)(٤٠) ، وعاصم بن عمرو بن قتادة (ت ١٢٠ هـ)(٤١) ووهب بن منبه (ت ١١٤ هـ)(٤٢) وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣ هـ)(٤٣)

---

(٣٥) م.ن : ١٨٧

(٣٦) الدوري : بحث في نشأة علم التأريخ عند العرب : ١٩

(٣٧) شاكر مصطفى : التأريخ العربي والمؤرخون : ٩٤

(٣٨) زرو : الحياة العلمية في بلاد الشام : ١٩٨

(١٣٩) كشف الظنون : ٢/ ١٧٤٧ . الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التأريخ : ٩٩

(٤٠) ابن سعد : الطبقات : ٥/ ١٥٦ . اليعقوبي : تاريخ : ٣/١

(٤١) الدوري : بحث في علم التاريخ عند العرب : ٢٣

(٤٢) حاجي خليفة : كشف الظنون : ٢/ ١٧٤٧

(٤٣) الدوري : بحث في نشأة علم التأريخ عند العرب : ٢٢

ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ)[٤٤] وعبد الله بن ابي بكر بن حزم (ت ١٣٠ هـ وقيل ١٣٥ هـ)[٤٥].

أما تدوين الدراسات التأريخية في الأنساب فيبدو انه كان واسعاً، فقد أشارت المصادر الى عدد من علماء النسب في العصر الأموي[٤٦] وقد ذكرنا سابقاً ان الخلفاء الأمويين كانوا قد اهتموا بالانساب وشجعوا على روايتها والكتابة فيها، وذلك للتفاخر بأنسابهم ولاعتبارات سياسية، وقد ذكر ابن النديم ان الخليفة الوليد بن عبد الملك أمر بتدوين سجل واف في الانساب[٤٧] مما شجع على الكتابة في هذا الفن.

ومما شجع على الكتابة في الأنساب ايضاً هو انتشار القبائل العربية في ارجاء الدولة العربية في هذا العصر، مما أدى الى تدوين انساب القبائل لتنظيم العطاء من جهة، وخوفاً على القبائل من التفكك والضياع وبخاصة بعد اختلاطهم بشعوب البلاد المحررة من جهة اخرى[٤٨].

وأهم من ألف في الانساب هم: عبدالله بن عمرو اليشكري (ت حوالي سنة ٨٠ هـ/ ٦٩٩ م)[٤٩]. ومجور بن غيلان الضبي البصري (ت حوالي سنة ٨٥ هـ/ ٧٠٤)[٥٠]. وخراش بن اسماعيل الشيباني استاذ محمد بن السائب الكلبي (المتوفى سنة ١٤٦ هـ/٧٦٣ م)[٥١] ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ/٧٣٢ م)[٥٢] وكان لحماد الراوية (ت م) كتب في الانساب منها كتاب «قريش» وكتاب «ثقيف» كانت متداولة في العصر الأموي[٥٣].

---

(٤٤) السخاوي: الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ: ٨٨. بروكلمان: تأريخ الأدب العربي: ١/ ٢٥٤

(٤٥) الدوري: بحث في علم التاريخ عند العرب: ٢٣

(٤٦) انظر: ابن سعد: الطبقات: ٧/ ١٤٠. ابن قتيبة: المعارف: ٥٣٤. البيان والتبيين: ١/٩٦، ٢٣٧، ٣٢٨. الفهرست: ١٣٨. الأغاني: ٢/٣٤٢، ٦/٨٠، ٨٧، ١٧/١، ٢٤/٢٢. العقد الفريد: ٢/ ٦١، تهذيب تأريخ دمشق الكبير: ٥/ ٢٤٢، ٦/ ٢٧٩، ٢٨٠.

(٤٧) الفهرست: ٩١

(٤٨) الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب: ٣٩، ٤٠

(٤٩) شاكر مصطفى: التأريخ العربي والمؤرخون: ٨١

(٥٠) الجاحظ: الحيوان: ٣/ ٢١٠

(٥١) الفهرست: ١٠٨

(٥٢) الدوري: بحث في نشأة علم التأريخ عند العرب: ٢٤

(٥٣) الأغاني: ٦/٩٤

الفصل الرابع

العلوم العقلية

١ - الكيمياء :

ارتبط علم الكيمياء الذي كان يطلق عليه «علم الصنعة» منذ القرن الاول الهجري/ السابع الميلادي بعالم عربي عاش في بلاد الشام هو خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٨٥هـ وقيل ٩٠هـ/ ٧٠٤م، ٧٠٨م)، وقد ترجمت لهذا العالم علوم كثيرة، وقال عنه ابن النديم بهذا الصدد : «عني بإخراج كتب القدماء في الصنعة ... وهو اول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء وكان جواداً، يقال انه قيل له لقد فعلت اكثر شغلك في طلب الصنعة، فقال خالد : ماأطلب بذاك إلا ان أغني أصحابي واخواني ... ويقال انه صح له عمل الصناعة، وله في ذلك عدة كتب ورسائل، وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت منه خمسمائة ورقة، ورأيت من كتبه : كتاب الحرارات، وكتاب الصحيفة الكبير، وكتاب الصحيفة الصغير، وكتاب وصيته الى ابنه في الصنعة»[١].

وقد استدعى خالد بعض الفلاسفة المصريين من مصر فقاموا بترجمة كتب الكيمياء من اليونانية والقبطية الى العربية، وعمله هذا يعتبر أول ترجمة في العصر الأموي من لغة اجنبية الى اللغة العربية[٢]. كما نقل له «اصطفن» كتب الكيمياء وغيرها من العلوم[٣].

ويذكر الجاحظ ان هذا العالم «أول من ترجم كتب النجوم والطب»[٤] وكانت لخالد بعض الرسائل العلمية فقد ذكر ابن العماد الحنبلي : انه «كان له معرفة بالطب والكيمياء

---

(١) الفهرست : ٤٩٧، ٤٩٨. انظر: وفيات الأعيان : ٢/ ٢٢٤

(٢) م.ن : ٣٥٤

(٣) م. ن : ٣٥٤

(٤) البيان والتبيين : ١/٣٢٨. انظر: المقريزي : شذور العقود : ١٦٣

وفنون العلم . وله رسائل حسنة »[٥] ، ويقول عنه بن خلكان : «كان من اعلم الناس بفنون العلم ، وله كلام في صناعة الكيمياء والطب ، وكان بصيراً بهذين العلمين ، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته »[٦] وكان خالد يستخدم الشعر في تأليف الكيمياء ، ويذكر بروكلمان ان له عدة كتب ورسائل منها : اختبارات خالد ، وهو ديوان شعر في الكيمياء مع مقدمة نثرية[٧] .

ومما يدل على تقدم علم الكيمياء في هذا العصر هو ان تحلية ماء البحر كانت معروفة فقد ذكر ابن عساكر ان خالد قال : «إن شئتم اعذبت لكم ماء البحر ، فأتى بقلال من ماء ثم وصف كيف يصنع به حتى يعذب »[٨] وهذا يدل على مدى التقدم العلمي الذي وصل اليه العرب في العصر الأموي .

٢ – الطب :

عرف العرب الطب منذ عصر ماقبل الاسلام ، وبرعوا فيه ، وقد اشتهر عدد من الأطباء في هذا العصر.[٩]

وعندما جاء الاسلام شجع الطب ، وقد روي عن الرسول (ﷺ) أحاديث في الطب ، وهي تشمل وصايا صحية في الوقاية من الامراض ، وفي فضائل الأطباء ، والعدوى وغيرها عرفت باسم الطب النبوي.[١٠]

اما في العصر الأموي فقد برز عدد من الأطباء أكدوا على حفظ الصحة والوقاية من الأمراض ، منهم الطبيب العربي الحارث بن كلدة الثقفي ، وقد كان له بعض الآراء والوصفات الطبية ، كان اغلبها نصائح للوقاية من الأمراض او المحافظة على الصحة .[١١]

---

(٥) شذرات الذهب : ٩٦/١

(٦) وفيات الاعيان : ٢٢٤/٢

(٧) تأريخ الأدب العربي : ٢٦٣/١ . ويذكر خليل داود زروان لخالد ديوان شعر مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٧١١٤. الحياة العلمية في الشام ص١٧٨ حاشية (٣).

(٨) تهذيب تاريخ دمشق الكبير: ١١٩/٥ ، ١٢٠

(٩) انظر عنهم : ابن سعد : الطبقات : ٢٤١/٤ . ابن جلجل : طبقات الاطباء : ٥٧ ، ١٥٩ . القفطي : تاريخ الحكماء : ١٦١ ، ١٦٢ ، ٤٣٦ . ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ؛ ٢٦٢–١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧١ .

(١٠) انظر عن تلك الاحاديث : صحيح مسلم : ج٤ ص ١٧٣٠ ، ١٧٣٤–١٧٣٦ . ابن قيم الجوزية : الطب النبوي : ٢ ، ١٨ ، ٢٩ . عيون الانباء : ١٦١ .

(١١) انظر: القفطي : تأريخ الحكماء : ١١٢ .

ومن هؤلاء الأطباء ابو الحكم الدمشقي الذي يقول عنه ابن ابي اصيبعة : «كان عالماً بانواع العلاج والادوية ، وله أعمال مذكورة ، وصفات مشهورة ، وكان يستطبه معاوية ابن ابي سفيان ، ويعتمد عليه في تركيبات ادويته» .[12]

وقد عاش ابو الحكم حتى زمن الخليفة الوليد بن عبدالملك (٨٦-٩٦هـ) .[13] ومنهم ابن آثال النصراني طبيب الخليفة معاوية بن ابي سفيان الذي قال عنه ابن ابي اصيبعة : «كان طبيباً متقدماً من الأطباء المتميزين في دمشق... وكان ابن آثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة...»[14]

وكان الطبيب تياذوق (ت ٩٠هـ/٧٠٨م) طبيب امير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بارعاً في الطب ، وكان الحجاج يعتمد عليه ويثق بمداواته قدم للحجاج وصايا صحية أكد فيها على الوقاية من الأمراض وحفظ الصحة[15] أما أهم مؤلفاته فهي : صنف لابنه «كناشاً» كبير بحث فيه مواضيع طبية شتى ذكر منها بعض مايخص امراض المعدة ،[16] وامراض الرئة وذات الجنب[17] والقولنج ،[18] وفي علاج المشيمة المنحبسة في الرحم[19] وامراض الطحال والكبد[20] وغير ذلك من الأمراض .

وكتاب «ابدال الأدوية وكيفية دقها وايقاعها واذابتها» ،[21] وكتاب «تفسير أسماء الأدوية» .[22] وله قصيدة قالها في حفظ الصحة .[23]

وكان لتياذوق تلاميذ بواسط تقدموا في الطب بعده منهم فرات بن شحناثا (ت في أيام الخليفة المنصور ١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٤م) وقد وصف بانه كان «طبيباً

---

(١٢) عيون الانباء : ١٧٥ .

(١٣) م . ن : ١٧٤ ، ١٧٥ . تاريخ الحكماء : ٤٠٤ .

(١٤) عيون الانباء : ١٧١-١٧٥ .

(١٥) م . ن : ١٨١ . تاريخ الحكماء : ١٠٥ .

(١٦) م . ن : ١٨١ . م . ن : ١٠٥ . الرازي : الحاوي : ٥/٥٦ ، ٩٤ . ١٨٥ ، ٧/٢٨ .

(١٧) الرازي : الحاوي : ٤/٥٣ ، ١٦٧ .

(١٨) م . ن : ٨/١٢٩ .

(١٩) م . ن : ٩/١٣٤ .

(٢٠) م . ن : ٧/٢٩٧ .

(٢١) عيون الانباء : ١٨١ . تاريخ الحكماء : ١٠٥ .

(٢٢) م . ن : ١٨١ . م . ن : ١٠٥ .

(٢٣) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي : ١/٢٦٤ .

الاسواق ، وقد ذهبت مهامهم الى أبعد من ذلك حيث اشرفوا على الصناعات كالصباغة والحياكة وغيرها. كل ذلك كان ينصب في الاطمئنان على سلامة العمليات التجارية.[138]

ان هذه الانجازات الكبيرة في بناء الاسواق ومراقبتها وتنظيمها وفقاً للمهن والبضائع المعروضة فيها تعّد دليلاً واضحاً على الاهتمام المتزايد الذي بذله الخلفاء الامويون وعمالهم في عملية تنشيط الحركة التجارية.

اضافة الى ماقام به الامويون في هذا الصدد فانهم ايضاً شجعوا التجارة من وجوه عدة :

١ - تأمين سلامة الطرق البرية والنهرية والبحرية :

لقد بذل الامويون جهوداً استثنائية لتأمين طرق القوافل البرية وطرق الحجاج والطرق النهرية والبحرية بمطاردتهم قطاع الطرق واللصوص وقراصنة البحر. فيذكر ان الحجاج الثقفي عندما وصلته اخبار قيام بعض الاعراب بقطع الطرق وافسادها كتب اليهم محذراً اياهم فكفوا عن اعمالهم تلك.[139]

كما يذكر البلاذري ان الحجاج الثقفي اهتم بموقف «الميد» وهم قراصنة البحر واصلهم من السند ، اذ تعرضوا في بوارجهم لتجار مسلمين كانت تحمل نساء مسلمات فاخذوا السفينة. فلما وصلت الحجاج اخبار هذا العمل قال «انما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم» ، ويعني انه لايستطيع غزوهم بالبحر لكنه بعث عبيد الله بن نبهان غازياً (للديبل) وهو موطن الميد لصدهم. ثم ارسال محمد بن القاسم الثقفي ايام الخليفة بن عبد الملك فغزا السند.[140]

ويرجع اصل الميد او «الميذ» الى الهند واعتادوا على امتهان القرصنة ومهاجمة السفن التجارية وارباك خطوط الملاحة البحرية ، وتعرضت مدينة البصرة وبعض الجزر الواقعة في الخليج العربي كجزيرة قيس الى هجماتهم المتكررة ، لكن الخلفاء وقفوا موقفاً متأهباً لدحر هجمات هؤلاء القراصنة.

---

(١٣٨) الجاحظ : البيان والتبيين حـ ١ ص١١٠ ، البلاذري : انساب حـ ٥ ص٤٧ ، الاصفهاني : الاغاني حـ ١ ص١١٠ ، الماوردي : الاحكام السلطانية ص٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ابن الاثير : الكامل حـ ١ ص ٥٣ ، حـ ٤ ص٥٣.

(١٣٩) ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ١ ص٥١.

(١٤٠) البلاذري : فتوح ص٤٢٣ - ٤٢٤ ، خليفة بن خياط : تاريخ ص٤٤٦ ، ٤٥٢.

وقد ترجم في هذا العصر بعض الكتب الطبية من اليونانية والسريانية الى العربية ، وكان أول تلك الكتب الطبية التي ترجمت كانت بطلب من خالد بن يزيد بن معاوية.[35] كما ترجم في خلافة مروان بن الحكم كناش أهرن بن أعين الاسكندراني من قبل الطبيب ماسرجويه البصري ، وقد حفظت هذه الترجمة في خزائن الخلافة الى ان نشرت بأمر من الخليفة عمر بن عبدالعزيز.[36]

والجدير بالذكر هنا هو ان الخلفاء الأمويين كانوا قد أولوا الطب اهتماماً كبيراً ، فالخليفة معاوية بن ابي سفيان انشأ مستشفى في دمشق[37] والخليفة الوليد بن عبدالملك انشأ في سنة ٨٨هـ/٧٠٧م مستشفى لعزل المجذومين عن سواهم ، واجرى الارزاق عليهم ، وشملت رعايته العميان والمقعدين والمصابين بالأمراض المزمنة.[38] وقام الخليفة سليمان بن عبدالملك بعزل المجذومين عن سواهم واسكنهم في قرية معزولة حتى لايخالطوا الناس وتنتقل العدوى الى غيرهم.[39] وأجرى الخليفة الوليد بن يزيد على «زمني اهل الشام وعميانهم وكساهم ، وأمر لكل انسان منهم بخادم»[40]

---

(٣٥) الفهرست : ٤٩٧ ، ٤٩٨.

(٣٦) ابن جلجل : طبقات الاطباء : ٥٩. تأريخ الحكماء : ٣٢٤ ، ٣٢٥.

(٣٧) أحمد عيسى : البيمارستانات في الاسلام : ٢٠٥.

(٣٨) اليعقوبي : تأريخ : ٢/٢٩٠. الطبري : ٦/٤٩٦.

(٣٩) م. ن : ٢/٢٩٩.

(٤٠) الطبري : ٧/٢١٧.


اعداد
د. سرمد الجبوري
الاستاذ: صديق الجنابي



الباب السابع

نهاية الدولة العربية في العصر الأموي

٣٥٦

اعداد

د. سرمد الجبوري

الاستاذ: صديق الجنابي

لقد تباينت الآراء حول تفسير الأسباب الرئيسة التي أدت الى تداعي الحكم الأموي بسرعة ، ولما يمضي عليه إلا حوالي قرن من الزمن . فمن المؤرخين من يعزو أسباب نهاية الأمويين ونهاية حكمهم الى عامل واحد سياسي الى درجة كبيرة وهو الدعوة العباسية التي أنتشرت في خراسان كأنتشار النار في الهشيم ثم توسعت وأمتدت غرباً بأتجاه مناطق نفوذ الأمويين ثم الى العراق وبلاد الشام . وبعدها أخذ العباسيون أصحاب الرايات السود يتعقبون آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد مع فلوله المهزومة .

ويصور أنصار هذا الرأي آخر خلفاء بني أمية وهو مطارد لايلوي على شيء ولايستطيع مقاومة هذا التيار العباسي الجارف فأضطر الى الفرار الى مصر حيث أدركته الجيوش العباسية بقيادة عبد الله بن علي العباسي وأخيه صالح بن علي العباسي الى أن ظفرا به في مصر عام ١٣٢ هـ / ٧٥٤م وقتله على يد صالح . وبذلك تظهر هذه القصة التأريخية أن الحكم الأموي قد تداعى بسرعة لاتصدق ، بعد أن كان يتمتع بقوة عسكرية جعلت سلطته تمتد شرقاً حتى نهر سيحون وجيحون والهند والسند وغرباً حتى المغرب العربي والأندلس .

وفي مقابل ذلك فأن هناك تفسيراً آخر لايقلل من أهمية العامل السياسي المتمثل بالثورة العباسية وما عمله الدعاة العباسيون من أعمال بغية تقوية روح النقمة والعداء للبيت الأموي الحاكم . لكن في الوقت نفسه لايجعل هذا العامل هو الأساس أنما يجعله ضمن عوامل أخرى تكاتفت جميعاً في أضعاف الخلافة الأموية . وبالتالي أنهيارها .

وهناك من يرى أن الثورة العباسية أو بالأحرى الدعوة العباسية وما نتج عنها من أثارة التناقضات بين صفوف القبائل العربية في خراسان إن هي إلا نتيجة من نتائج عوامل أخرى متعددة أمتدت جذورها الى الوراء الى أكثر من نصف قرن من الزمان تقريباً . ولهذا فأن أنصار هذا التفسير لايجعل تداعي البيت الأموي بهذه السرعة أنما يرجع الى عدة عوامل أهمها عوامل داخلية – سياسية – أجتماعية – أدارية تتعلق بماكنة الدولة الأموية . (١)

(١) أنظر عن هذه التفسيرات مقالة Abbasids بقلم B. Lewis ؛ – د. فاروق عمر فوزي : طبيعة الثورة العباسية وبحوثه الجديدة حول الموضوع ؛ – د. محمد عبد الحي شعبان : الثورة العباسية ص ٧٩–١٦١ ؛
– فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها (ترجمة يوسف العش) ص ٢٥١–٣٠٥ .

ويعزز أنصار الرأي الأخير تفسيرهم بالقول أن قصة هروب الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ومطاردته في كل مكان ماهي في الحقيقة إلا صورة واضحة للتفتت الذي كان يسري في جسم الدولة المريض منذ أكثر من نصف قرن. وما نجاح الدعوة العباسية وجمع المؤيدين والأنصار إلا حالة من ملء الفراغ لهذا التفتت الذي أصاب جسم الدولة العربية التي خلت من قيادة سياسية تتمشى وروح ذلك العصر، وعلى هذا أنتقل الحكم من أسرة عربية أموية الى أسرة عربية عباسية.

وموضوع آخر علينا أن لا نغفله هو المتعلق بالصورة التي صور فيها آخر خليفة أموي على أنه كان ضعيفاً لم يستطع الصمود أمام زحف التيار العباسي الهادر المتوجه من خراسان، أي أنه لم يقو على مجابهة هذا الخطر.

وواقع الأمر أن هذه الصورة هي ليست الصحيحة تماماً. فمروان بن محمد كان قبل أن يتولى أمور الخلافة الأموية والياً على الجزيرة الفراتية وأرمينية. وظل محارباً الأعداء وخاض حروباً ومعارك عدة مدة أثنتي عشر سنة. وقد أبلى بلاءً حسناً في الدفاع عن الحدود القفقاسية أمام هجمات الأتراك، وكان ناجحاً جداً من الناحية العسكرية اذ أفلح في نقل ميدان المعارك الى داخل أراضي الأعداء. ويقال أنه لقب بمروان الحمار لأنه كان لا يجف له لبد من محاربة الخارجين على الدولة فكان يصل السير بالسير ويصبر على مكايد الحروب. لذلك فانه وصف بالشجاعة والدهاء والمكر.

صحيح أنه كان من الناحية العائلية الأموية من فرع غير مشهور من البيت الأموي وأن أمه كانت أم ولد، لكن دفاعه المستميت عن أركان الدولة الأموية منذ أول مرة لمع فيها أسمه في سنة ١١٥ هـ/ ٧٤٠م يعكس مدى مقدرته وجرأته على مجابهة الأخطار لا الأذعان لها. والفضل العسكري يرجع الى مروان في تنظيم الجيش الأموي تنظيماً قتالياً مبنياً على أسلوب الكراديس وهو الذي قاد هذا التنظيم العسكري الى الكمال.

وعلاوة على خبرته في الأمور العسكرية وأنه عرك الكثير من الحروب فأنه كان على دراية وفطنة في الأمور السياسية فكانت الأخبار والمعلومات السياسية تأتيه من كل مكان. كما يروى أن مروان لقب بمروان الجعدي نسبة الى صاحب المقالات والأعتزال المشهور الجعد بن درهم الذي كان مدركاً للشؤون الثقافية السائدة انذاك اذ كان الجعد بن درهم مؤدبه. (٢)

---

(٢) أنظر الطبري: تأريخ ٢٢/ ١٩٣٩–١٩٤٠؛ البلاذري: أنساب ج ١١ ص ٢٦؛ المسعودي: مروج ج ٢ ص ١٩٣؛ الفخري في الأداب السلطانية ص ١٢٣.

من هذا كله فأن شخصية لها مثل هذه المواصفات والأمكانية على التحمل لايمكن بأية حال أن تصبح متخاذلة الى الدرجة التي وصفت بها. صحيح أن نصر بن سيار قد لفت أنظار مروان نحو الخطر الذي تشكله الدعوة العباسية، وأن مروان لم يعط ذلك أذناً صاغية كما هو معهود به نظراً لأنشغاله بأمور داخلية عائلية مهمه لكن ذلك أيضاً لايبرر كونه ضعيفاً أو منشغلاً عن أمور الدولة اذ صارت البلاد مرتعاً للفتن والأضطرابات وقد أنشغل في أخمادها ولهذا كما قيل بإنه لم يلبث أن باغتته الرايات السود في خراسان. قد يكون ذلك إلا أن الحالة في خراسان البعيدة جغرافياً عن مركز القيادة كانت موكلة الى عدد من الأداريين الكفوئين لكن التشاحن القبلي والتنازع بين المضريين واليمنيين ربما كان أقوى من نفوذ نصر بن سيار.

والواقع أن فلهاوزن عبر عن موقف مروان بن محمد القوي أثناء أنهيار الحكم الأموي فيقول مانصه «وعبثاً طلب- نصر بن سيار- النجدة بالحاح ليقضي عليه، أي الخطر العباسي، ولدى مروان في مركز الدولة عمل يفيض عليه، فهو يحمد الله على أنه قادر على أن يحتفظ بموقفه ظافراً هناك. وأذا هو في قمة نجاحه يرى أمامه جسداً لجسد وعلى حين غرةُ ذلك الشبح الأسود الذي لم يكن يعيره أنتباهاً. واذا بالخراسانين يضيعون عمله المرهق أدراج الرياح في اللحظة التي لاح له فيها أنه بلغ هدفه. فقد أنقض عليه رجل أقوى منه هو أبو مسلم الخراساني». [3] بالفعل فأن مروان بن محمد كان قوياً أزاء الحركة العباسية وهو الذي نجح في القضاء على أشد منها تلك التي ظهرت في البيت الأموي نفسه عندما ثار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك وآزرته اليمانية، أو الحركة التي تزعمها ثابت بن نعيم في فلسطين وحمص ودمشق وطبرية سنة ١٢٧ هـ أو حركات الخوارج في الجزيرة الفراتية والموصل والكوفة، لذلك فأن نجاح العباسيين ضد مروان عسكرياً كان مفاجئة لعبت فيها ظروف مواتية لهم وسلبية بالنسبة الى مروان.

من هذا السرد لمواقف مروان السياسية لابد لنا من القول أن عوامل أنحلال ونهاية الدولة الأموية، أذن، ترجع الى عدة عوامل لاتحددها فترة تأريخية محددة. وهي بالتالي ليست عوامل ظهرت وسادت ابان حكم مروان بن محمد أو أنها سادت في خراسان دون غيرها لكنها عوامل قديمة العهد ربما يرجع بعضها الى بداية الخلافة الأموية، ويمكن تقسيم هذه العوامل الى المحاور الآتية:

---

(٣) فلهاوزن: الدولة العربية ص ٣١٤-٣١٥.

١- ولاية العهد – مشكلة صارت عاملاً حاسماً في ضعف الأمويين :

من المعروف ان الأمويين قد استحدثوا عند مجئ معاوية بن ابي سفيان الى دست الخلافة في المجال الاداري – السياسي للخلافة اجراءً جديداً لم يكن معروفاً ايام الخلافة الراشدة إلا وهو توريث الخلافة وحصرها ووراثة بين افراد البيت الأموي بصورة عامة والفرع السفياني أولاً بشكل خاص دون غيره من الفروع الاموية او القبائل العربية الاخرىٰ. وقد دفع هذا الاجراء الفقهاء والصحابة وابناء الصحابة الى ان يتخذوا مواقف معادية او ان يصفوا الخلافة الأموية بأنها دولة دنيوية لأنها خرجت عن المألوف في سياسة الخلفاء الراشدين بالنسبة الى وضعية خليفة رسول الله (ﷺ).

ومع مافي هذا الاجراء من ايجابيات وسلبيات فانه تحول بمرور الزمن الى مشكلة ادارية – سياسية.

المهم ان هذا الاجراء الاموي قد بدت عليه متغيرات اخرىٰ منها أن بعض الخلفاء الأمويين قد تركوا تسمية وترشيح ولي العهد للخلافة غامضاً كالذي فعله سليمان بن عبدالملك مثلاً. فان الشيخ رجاء بن حيوه أشار عليه أن ينصب ابنه داود ثم اشار عليه ان يرشح عمر بن عبدالعزيز. وعندما أراد رجاء اخذ البيعة من الأمويين اعترض عليه افراد البيت الأموي ان يمنحوا البيعة دون معرفة المرشح. اما الخليفة عمر بن عبدالعزيز فانه عندما أدركته المنية وهو يحتضر سئل عن المرشح فقال «لو اخترت للامة غير يزيد كان اولى»(٤) ولذلك فانه كان بقرارة نفسه يفضل الخلافة من خارج البيت الاموي. وعندما وجد الامويون انه عازم على ذلك عمدوا الى دس السم اليه بطريق خادمه.

وعندما قتل الوليد بن يزيد بن عبدالملك سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣م من قبل يزيد بن الوليد دون أن يعهد بالخلافة لاحد من افراد عائلته تولىٰ يزيد (القاتل) الأمر. لكنه لم يبق في الخلافة إلا حوالي خمسة اشهر ثم توفي دون وريث ليأتي بعده، وتقلدها ابراهيم بن الوليد ابن عبدالملك سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٤م.

---

(٤) اليعقوبي : تاريخ جـ ٣ ص ٥١ – ٥٢ ؛ ابن عبدالحكم : سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ١١٦ ، ابن سعد : طبقات جـ ٥ ص ٢٥٤.

اما بالنسبة الى معاوية الثاني الذي تولىٰ مقاليد الأمر سنة ٦٣هـ/ ٦٨٠م وكان حينئذ صبياً ضعيفاً، فانه لم يتمتع بالخلافة لمرضه وذكر انه فكر في أن يرشح رجلاً آخر بدلاً عنه، اسوة بما فعله الخليفة ابي بكر (رض) مع الخليفة عمر (رض) لكنه لم يجد الرجل الصالح لذلك عندما أشير عليه أن يقلد الأمر لاخيه خالد قال «والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فلا اتقلد وزرها» وبعد أن خطب الناس أمر ان يصلي بالناس حسان بن مالك واعتزل عن الخلافة وظل في منزله معتزلاً الى أن مات دون أن يعين ولياً للعهد.(٥)

اما المتغير المهم الآخر في أمر الخلافة الأموية فان مؤتمر الجابية الذي أنعقد في سنة ٦٤هـ/ ٦٨٥م بين انصار خالد بن يزيد بن معاوية، وانصار مروان بن الحكم بن العاص لتحديد المرشح للخلافة على أثر موت معاوية الثاني بن يزيد الذي عزف عن الخلافة قد توصل فيه الطرفان الى اتفاق في هذا المؤتمر ان يكون الخليفة مروان بن الحكم اولاً ثم يأتي بعد موته خالد بن يزيد وبعد ذلك عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) اي أن مؤتمر الجابية قد سن سنة شكلت فيما بعد خطراً على أستراتيجية الحكم الأموي فقد تم الاتفاق على تعيين اكثر من ولي عهد للخلافة في آن واحد، لكن بمرور الزمن صار هذا الاجراء سنة متبعة تقريباً. اي ان الخليفة المرشح يأتي الى دست الخلافة على أمل أن يسلمها الى المرشح الثاني غير انه في الحقيقة لم يطبق ما اتفق عليه او لم يتبع ما تم الاتفاق بصدده وانه سرعان ما ينحى ولي العهد المسمىٰ بعده ليعين بدلاً منه ابنه او ابنائه بدلاً من ذلك المرشح الأموي المتفق عليه.

وقد بدأ هذه السياسة الخطيرة مروان بن الحكم ذاته اذ نقض عهد الجابية وابعد خالد بن يزيد وسعيد بن العاص وبايع كل من ابنيه عبدالملك بن مروان وعبدالعزيز بن مروان بدلاً منها. ومع أن اختياره لعبدالملك كان موفقاً جداً لأنه بحق كان رجل الساعة بالنسبة الى الظروف والأحوال السيئة التي سادت الولايات الأسلامية، لكن الاجراء بحد ذاته كان جديداً وغير مألوف. لأن مروان، من أجل تثبيت اختياره، اتبع سياسة التحقير وتقليل اهمية خالد بن يزيد أحد المرشحين في نظر الناس حتى يقال ذلك العمل قد دفع امه الى قتل مروان خنقاً.

ومع ذلك فان العهد كما مر بنا سابقاً كان لعبدالملك ثم لأخيه عبدالعزيز بن مروان بعد ذلك، فقد بقيت هذه الحالة حتى أواخر عهد الخليفة عبدالملك. عندئذ بدأ يفكر في

---

(٥) اليعقوبي: تأريخ جـ٣ ص ٢. - الكندي: الولاة والقضاة ص٤٥ - ٤٦.

مسألة الخلافة بعده وكان في واقع الأمر يود ان يحول ولاية العهد من اخيه عبدالعزيز الى ابنه الوليد بن عبدالملك ، لكنه كان يخشىٰ من غضب اخيه . ولتحقيق رغباته استشار من حوله من اصحابه حول الموضوع ، لكنه في نهاية الامر عزم على أتخاذ قراره في تنحية عبدالعزيز. في هذه الاثناء ولحسن حظ عبدالملك فإنه بينما كان يفكر في الطريقة إذا بخبر موت عبدالعزيز يصل اليه . فقد ابلغه صاحب خاتمه وبريده قبيصة بن ذؤيب بذلك الخبر ليلاً بعد وقت نوم عبدالملك . فوجم عبدالملك ساعة ، لكنه شعر بارتياح لان مسألة العهد قد حلت نفسها فقال لمن حوله «كفانا الله ما كنا نريد» وبذلك عين الوليد ولياً للعهد ثم من بعده سليمان بن عبدالملك .[٦] وهناك رواية لليعقوبي تفيد بان عبدالملك قد خلع اخاه سنة ٨٥هـ / ٧١٤م وبايع لولديه الوليد وسليمان .[٧]

وكذلك فعل يزيد بن عبدالملك الذي كان ولي عهده اخيه هشام ، لكن العلاقة توترت بين الأخوين ، وهناك من يقول ان يزيد تأثر باقوال حاشيته التي زينت له الخلافة وحصرها في ابنه الوليد وطمع يزيد بذلك . إذ اقترح مسلمة بن عبدالملك وكان له رأي ان يولي هشام العهد ولايخضع لرأي حاشيته فقال له «يا أمير المؤمنين ايما أحب اليك اخوك ام ابن اخيك؟ فقال : بل أخي ، فقال : فاخوك احق بالخلافة فقال يزيد اذا لم تكن في ولدي فأخي احق بها من ابن اخي كما ذكرت ، قال : فابنك لم يبلغ فبايع لهشام ثم من بعده لابنك الوليد» ،[٨] وكان الوليد يومئذ ابن احدىٰ عشرة سنة . ويقال أن يزيد بعث خالد القسري الى هشام وكان آنذاك بالجزيرة الفراتية عارضاً عليه ان تكون الجزيرة له مقابل تنازله .

وبمرور الزمن توترت العلاقة بين الخليفة وولي عهده فكتب اليه مرة «اما بعد فقد بلغني استثقالك حياتي واستبطاؤك موتي ، ولعمري انك بعدي لواهي الجناح ... وما استوجبت منك ما بلغني عنك» . وكان هشام ذكياً فلم يدخل معه في معركة كلامية فاجابه «اما بعد فان أمير المؤمنين قد فرغ سمعه لقول اهل الشنان واعداء النعم يوشك ان يقدح ذلك في فساد ذات البين وتقطع الارحام ... اما انا فمعاذ الله ان استثقل حياتك او استبطىء موتك» .[٩]

---

(٦) الطبري : تأريخ جـ ٦ ص ٤١٢ - ٤١٤ ، السيوطي : تأريخ الخلفاء ص ٨٤ .

(٧) اليعقوبي : تاريخ جـ ٣ ص ٢٦ .

(٨) ابن الأثير: الكامل جـ ٥ ص ٩١ .

(٩) اليعقوبي : تأريخ جـ ٣ ص ٥٥ - ٥٦ . - المسعودي : مروج جـ ٣ ص ٢٠٢ .

اما عن العلاقة بين الخليفة سليمان وبين موسى بن نصير وابنائه ، وكان موسى قد بذل جهوداً متميزة في تحرير الاجزاء الغربية في الشمال الافريقي ، فتشير المعلومات الى ان سليمان قبل ان يلي الخلافة كتب الى موسى بن نصير ناصحاً له أن يتأخر في مجيئه الى دمشق الى حين موت الخليفة الوليد الذي كان مريضاً وبذلك يتسنى لسليمان الحصول على الغنائم التي جلبها موسى من الأندلس وينال فخر الفتح لنفسه لكن موسى واصل السير ولم يتأثر باوامر سليمان ووصل دمشق ومازال الوليد على قيد الحياة فحقد سليمان على موسى واغرمه غرامة كبيرة بلغت مائة الف دينار. وذكر ان سليمان عند توليته الخلافة القى بموسى في السجن حيث مات فيه.

وكان من بين اهم نتائج هذه السياسة في العهد لاكثر من ولي عهد للخلافة واخطرها ما اتخذه المرشحون من اجراء في تغير ولي العهد المرشح الى ابنائه دون اخوانهم انفصام الوحدة العائلية للبيت الاموي وزرع عوامل الكره والحقد والتآمر بين افراده ، مما جرّ الى النزاع والحروب فيما بينهم من جهة وبينهم وبين عمالهم وولاتهم من جهة اخرى فذهب ضحية هذه السياسة عدداً من المشهورين في الميادين العسكرية والادارية من امثال القائد اللامع فاتح بلاد ماوراء النهر والهند والسند قتيبة ابن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي وفاتح بلاد الأندلس موسى بن نصير وأسرة الوالي الناجح الحجاج الثقفي والي العراق . اذ نكل بهؤلاء جميعاً الخليفة سليمان بن عبدالملك لشيء إلا لأنهم كانوا اما مقربين في حياة اخيه واما انهم كانوا من مؤيديه ، فان سليمان كان يبغض الحجاج وأهله وولاته فحقد على قتيبة ابن مسلم الباهلي ، فبعد أن رفض سليمان خلع نفسه من ولاية العهد لعبدالعزيز بن الوليد كتب الوليد الى عماله ان يبايعوا عبدالعزيز فلم يجبه احد من العمال سوى الحجاج وقتيبة فكانت نهاية هذا القائد وقتله نتيجة من نتائج هذا الحقد . كذلك كان الحال مع محمد بن القاسم الثقفي فاتح بلاد السند وختن الحجاج الثقفي وقد حقد عليه سليمان لهذه الصلة من الحجاج ، فحبسه بمدينة واسط وهناك لقي حتفه .(٥)

(٥) اما الحجاج فقد توفي قبل تولي سليمان الخلافة بقليل وذلك سنة خمس وتسعين وهو يومئذ ابن اربع وخمسين سنة ، وكانت امرة الحجاج على العراق فيما قال الواقدي عشرين سنة . انظر الطبري : تأريخ جـ ٦ ص ٤٩٣ .

كما ان الخليفة سليمان كان وراء عملية اغتيال عبدالعزيز بن موسى ، وان ابنه الآخر عبدالله بن موسى الذي كان والياً على شمال افريقيا وقد عزله سليمان نفسه .(١٠)

كذلك قاتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين الخليفة ابراهيم بن الوليد الذي بويع بالخلافة بعد الوليد بن يزيد محتجاً بانه يقاتل ابراهيم للاخذ بثأر الوليد الذي قتله يزيد بن الوليد . ولتحقيق رغباته التي قد تكون صادقة في الأخذ بالثأر وربما كان مدفوعاً بدوافع شخصية لنيل الخلافة لنفسه ، فانه قاد حملة عسكرية ضد ابراهيم الذي لم يستطع الصمود فاضطر الى الهرب من دمشق ، وتعقبه مروان الى ان ظفر به وقتله وصلبه وقتل جميع من وقف معه من افراد البيت الأموي .(١١)

ولنأخذ انموذجاً لهذه الاحوال السياسية الادارية وانعكاساتها على اوضاع الدولة الأموية وفيما اذا ساهمت في عملية انحلال الخلافة الاموية ام لا؟ فبعد ان حارب مروان ابن محمد ابراهيم مطالباً بدم الوليد بن يزيد سرعان ماانضمت اليه القيسيةلا لشئ إلا لانها كانت مناوئة لليمنية ، ولما شعر اليمنيون ان مروان يهدف الى اعادة ولد الوليد الى الخلافة اقدموا على قتل ابني الوليد وهما في السجن . من هنا فان مروان بعد ان ولي الخلافة تعصب للقيسية وطالب اليمنية بدم الوليد ، فكان من نتائج هذه الأزمة السياسية الادارية ان ثارت القبائل في حمص على مروان بقيادة ثابت بن نعيم وانضم اليها قبائل تدمر الكلبية برئاسة الاصبغ بن ذؤالة الكلبي . وجرت معركة بين مروان الخليفة الشرعي وبين المتحالفين من حمص وتدمر فافلح مروان في التغلب عليهم اذ انهزم المتحالفون امام تقدم مروان . في الوقت نفسه تحرك يزيد بن خالد القسري بدمشق ومال اليه اليمنية ، فاضطر مروان الى ان يجهز لهم جيشاً ودخل معهم في معركة احرز فيها النصر . وانتشر تحرك اليمانية ضد مروان لانه مال الى القيسية فثار يمنية فلسطين ضد مروان فجهز ضدهم جيشاً استطاع ان يقضي على حركتهم .

وبعد ان اقر مروان امر اليمينة في مدن حمص وتدمر وفلسطين خرج على حكم مروان سليمان بن هشام بن عبدالملك ، واقنع البيت الاموي بان يخلعوا طاعة مروان وايدت اليمانية موقفه ، فاضطر مروان الى ان يتوجه لحرب سليمان اذ دارت بينهما حروب طويلة

---

(١٠) انظر عن هذه الاحداث اليعقوبي : تاريخ جـ ٣ ص ٤٠ - ٤١ ؛
- البلاذري ؛ فتوح ص ٤٢٨ ؛ الطبري : تاريخ جـ ٦ ص ٤٩٨ - ٤٩٩ ؛ ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٣ .

(١١) انظر الطبري : تاريخ جـ ٩ ص ٢٨ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٦٨ .

انتصر فيها مروان واجبر سليمان على الهرب الى العراق حيث انضم الى من كان به من الخوارج الذين تحركوا انذاك ضد مروان .

ولم يقتصر الأمر على الاحوال السياسية في داخل بلاد الشام ، انما انتشرت هذه التوترات بسبب التنازع السياسي على الخلافة الى العراق والجزيرة الفراتية والى حد كبير المشرق الاسلامي ، فانشغل مروان طيلة مدة حكمه في تجهيز الجيوش لكبح هذه الحركات ، مما أدى بمرور الزمن الى ان يظهر الوهن العسكري على جيوشه وبالتالي اربك الاوضاع وانفلت زمام الامور فتشجع الطامعون والحاقدون على حكم مروان بصورة خاصة والحكم الاموي عامة .

ولذلك فمن الممكن القول ان العوامل الاخرى السياسية والاجتماعية الخاصة بالنزاع القبلي بين المضرية واليمنية هي في حقيقة امرها عوامل نتجت بشكل رئيسي من هذا التناقض الاداري السياسي المتعلق بطبيعة الماكنة الادارية للخلافة الاموية .

٢ – الأمويون والمشاكل السياسية :

لاشك ان الاصول التاريخية لبعض المشاكل السياسية الشائكة التي واجهت الخلافة الاموية في الحقب الاخيرة من حكمها ترجع الى بداية الحكم الاموي تقريباً . اذ بعد وفاة الخليفة معاوية بن ابي سفيان واعتلاء ابنه يزيد الخلافة ظهر ان على الخليفة الجديد ان يواجه مصاعب جمة ، اذ عصفت بالدولة احداث سريعة وخطيرة ومهمة وضعت الحكم الاموي امام تحدٍ كبير.

ويقف على رأس هذه التحديات تلك التي تعلقت بخروج الحسين بن علي نحو العراق واعلانه عن مناوأته للخليفة الاموي الجديد ، وتلك التي مثلتها حركة عبدالله بن الزبير في الجزيرة العربية. فكلتا الحركتان مثلتا جوانب حيوية كان على الامويين ان يقفوا ازاءها بحزم لحلها. غير ان بعض التصرفات في حل هاتين المشكلتين قد ادت الى نتائج اخذت تنمو تدريجاً لتتحول الى حركات عديدة متواصلة ماان يقضي الامويون على واحدة منها حتى تظهر في اعقابها حركة اخرى ، فقتل الحسين بن علي ولد احقاداً للأخذ بثأره ، ومحاصرة حرم رسول الله المدينة المنورة وفتحها عنوة ثم محاصرة مكة المكرمة وضربها بالمنجنيق والحاق الخسارة بالكعبة اذ «توارت احجار المنجنيق والعرادات على البيت ، ورمي مع الاحجار بالنار

(١٢) ابن الاثير: الكامل جـ ٤ ص ٥٥.

والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات واحترقت البنية »، [١٢] قد ولد غضب الفقهاء المسلمين واهالي المدينتين المقدستين والتي تبلورت لتصبح حركات مناوئة للحكم الاموي، اذ ظل بعض الامويين في بلاد الشام يؤيدون ابن الزبير، كما انقسم اهالي البصرة الى مؤيد لعبدالله بن الزبير ومعارض له وغير ذلك من الاحداث.

وللحديث عن كيفية مواجهة الخلفاء الامويين لاثار هذه الاحداث السياسية التي ظهرت ونمت منذ المراحل الاولى لحكم الامويين، ينبغي علينا ان نحصر فترة اثار هذه العوامل على انهيار الخلافة الاموية. فالحركة العلوية مثلاً كانت في المراحل الاولى من الحكم الاموي تشكل خطراً كبيراً لكنها في الحقب الاخيرة لم تكن كذلك. والواقع ان العلاقة بين الخلفاء الامويين كسليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز ويزيد بن عبدالملك وبين العلويين كانت علاقة ايجابية ففي خلافة سليمان كان عبدالله بن الحسن من اقرب الناس مجلساً الى سليمان، وان سليمان اكرم وفادة ابي هاشم عبدالله بن محمد بن علي .والمسعودي يقول ان الخليفة سليمان هو اول خليفة اموي قطع ما كان يذكر على المنابر من كلمات النيل من الخليفة علي (رض). [١٣]

اما بالنسبة الى الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز فان العلاقة هذه قد تحسنت كثيراً منذ ايام ولايته على المدينة (٨٧-٩٣هـ/٧١١م). فلما ولي الخلافة كان يقدم لبني هاشم والعلويين الاموال والصلات. فقد ذكر المؤرخ ابن سعد ان الخليفة وصل اهل البيت الطالبي بالمال فاعطى المرأة مثل الرجل واعطى الصبي مثل ماتعطى المرأة وقال «اني ان بقيت لكم اعطيتكم جميع حقوقكم». [١٤]

ولم يكتف الخليفة بمنح العلويين هذه الصلات بل شمل كرمه ابناء عمومتهم من بني هاشم. ودليل على رد جميل الخليفة فقد اجتمع نفر من بني هاشم فبعثوا اليه كتاباً يعبرون فيه عن شكرهم لما قام به من صلة ارحامهم. [١٥] وقد بقيت هذه العلاقة الجيدة بين الطرفين خلال فترة خلافة يزيد بن عبدالملك الذي كان بدوره يكن احتراماً قوياً للعلويين.

---

(١٣) انظر:الطبري: تاريخ جـ٦ ص ٥٤٧؛ المسعودي: التنبيه والاشراف ص ٢٩٠: كذلك انظر اليعقوبي: تاريخ جـ٣ ص ٤٣.

(١٤) ابن سعد: الطبقات جـ٥ ص ٢٨٩.

(١٥) م. ن. جـ٥ ص ٢٨٩.

ومع وجود هذه العلاقة الجيدة خلال هذه الفترة فان الامويين واجهوا تحديات من بعض الحركات اهمها حركة زيد بن علي ضد الخليفة هشام بن عبدالملك ، وقد صرح زيد عن اسباب خروجه قائلاً خرجت على بني أمية الذين قاتلوا جدي الحسين واغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار.(١٦) وقد رحب اهل العراق بزيد في بداية الامر وايدوا الحركة واخذ البيعة من اهل البصرة والكوفة وارسل الى اهل السواد واهل الموصل وانتشرت دعوته في المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان والري وجرجان والجزيرة .

تحرك زيد في سنة ١٢٢ هـ لكن اتباعه فارقوه ولم يبق معه سوى بضع مئات فاستطاع والي العراق يوسف بن عمر ان يقضي على الحركة وان يقتل زيد.(١٧)

اما الحركة الثانية فقد تزعمها عبدالله بن معاوية بن عبدالملك بن جعفر ابن ابي طالب خلال خلافة ابراهيم بن الوليد . اذ بدأ عبدالله دعوته سراً في الكوفة والحيرة . ولما كان ابراهيم بن الوليد منشغلاً في ذلك الوقت بالقتال مع مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين ، فقد استثمر عبدالله بن معاوية الظروف وامتد بدعوته الى المدائن والماهين وهمذان وقومس واصبهان و الري وفارس وانضم اليه عبيد الكوفة . لكن بعد ان انتصر مروان على ابراهيم بن الوليد ارسل جيشاً كثيفاً لقتال عبد الله بن معاوية الذي تنصل عنه مؤيدوه فأضطر الى ان يهرب مع اخوته الى خراسان حيث استطاع ان يسيطر على فارس وهمذان واصبهان والري . وقد التحق به الكثير من بنى هاشم . غير ان الدعوة العباسية كانت انذاك قد حصلت على تأييد واسع في خراسان فوجد ابومسلم الخراساني في ابن معاوية خطراً على الدعوة العباسية لذلك قبض عليه ثم قتله.(١٨)

أن الحركات العلوية السابقة لم تكن خطرة جداً على الخلافة الأموية بالقدر الذي كانت عليه الحركات في بداية الدولة الأموية أو مقارنة بالثورة العباسية فيما بعد . ومن المحتمل أن السبب في عدم تكرار الحركات السياسية العلوية خلال هذه الحقب المتأخرة من تأريخ الأمويين يرجع الى العلاقة الحسنة بين العلويين والأمويين من جهة والى أستثمار الدعوة العباسية لشعارات سياسية عامة كالدعوة لآل البيت التي تبدو أنها علوية .

---

(١٦) الطبري : تاريخ جـ ٧ ص ١٨٠ ومابعدها .

(١٧) ابن الطقطقي : الفخري في الاداب السلطانية ص ٩٩ .

(١٨) الطبري : تاريخ جـ ٧ ص ١٨٤ .

أما الحركات المناهضة الأخرى التي شكلت خطراً سياسياً على الخلافة الأموية في المرحلة الأولى للحكم الأموي حتى فترة الخليفة عبد الملك بن مروان والوليد فهي حركة الخوارج . اذ كان الخوارج في أوج قوتهم خلال تلك المرحلة وأحتلوا مناطق واسعة من الخليج العربي والأحواز والجزيرة الفراتية وقاوموا الولاة الأمويين مقاومة عنيفة ، لكننا مع ذلك نقرأ بعض الأخبار عن ظهور حركة هنا وهناك على الخلفاء الأمويين بعد عبد الملك ابن مروان مع أنها حركات خفيفة سرعان مايقضى عليها كالحركة التي تزعمها داوْد بن عقبة العبدي خلال خلافة الوليد ، اذ خرج مع جمع قليل من مؤيديه في البصرة فحاربه مروان ابن المهلب بن أبي صفرة وأفلح في دحره وقتله .[19]

وخمدت حركة الخوارج خلال خلافة سليمان بن عبد الملك بأستثناء خروج خمسة من الخوارج بناحية من نواحي البصرة لكن الوالي الأموي قضى عليهم . وعلى العموم فأنه يمكن القول أن الخوارج خلال خلافة الوليد وسليمان التزموا جانب السكينة وربما يرجع السبب الى أنهم فقدوا تأثيرهم فقلّ أتباعهم .

وخلال خلافة الخليفة عمر بن عبد العزيز ظهرت حركات قليلة ضعيفة منها حركة شوذب (بسطام بن مري) ، وأراد الخليفة أن يدخل مع الخوارج بحوار سياسي للتفاهم معهم تجنباً للقتال ، لكن شوذب وجماعته تصوروا أن سياسة الخليفة السلمية تعبر عن الضعف فأستثمروها لتوسيع حركتهم . غير أن الخليفة كتب الى عامله على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن « أن لا تحركهم إلا أن يسفكوا دماً أو يفسدوا في الأرض فأن فعلوا فخل بينهم وبين ذلك ، وأنظر رجلاً حازماً فوجهه اليهم ووجه معه جنداً »[20] فأرسل اليهم عبد الحميد جيشاً فهزمهم .

ولعله من الصحيح القول أن الخليفة الذي ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز ، وهو يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) قد أوكل الى والي الكوفة عبد الحميد قتال الخوارج بشدة وحزم ، الأمر الذي دفع هؤلاء الى أن يتعنتوا ويعزموا الأمر على مقاتلة الأمويين ، فشهد عصر هذا الخليفة ظهور عدة حركات خارجية منها حركة شوذب في الكوفة التي وجه اليها يزيد الجيوش من بلاد الشام ومن بينها الجيش الذي قاده مسلمة بن عبد الملك فأنهزم الخوارج . ويبدو أن حركة خوارج الكوفة قد شكلت خطراً على يزيد فأهتم بها لمحاولة

---

(١٩) معروف ، نايف محمود : الخوارج في العصر الأموي (بيروت ١٩٧٧) ص ١٥٧ .

(٢٠) الطبري : تأريخ ج ٦ ص ٥٥٥ ؛ البلاذري : أنساب ص ١٥٧ .

القضاء عليها. ووقعت بين جيش مسلمة وشوذب معركة طاحنة قتل فيها شوذب. لكن الخوارج، من أتباعه وآخرين، لم يركنوا الى السلم بعد هذه الهزيمة فخرج عقفان الخارجي في دمشق وخرج مسعود العبدي في البحرين، وحركة أخيه سعيد في البحرين أيضاً وحركة مصعب الوالبي بالقرب من الكوفة.[21]

ومع أن الأمويين نجحوا في السيطرة على هذه الحركات لكنها واقعياً أرهقت الأمويين وأشغلتهم عن متابعة الحركات الأخرى المهمة كالحركة العباسية. أذ ظل يزيد بن عمر بن هبيرة قائد مروان بن محمد يتعقب الخوارج في الجزيرة الفراتية اذ ظهر هناك سعيد الشيباني الخارجي، وخرج الضحاك بن قيس الشيباني بالقرب من الكوفة ونجح في الأستيلاء على الكوفة وواسط والقادسية وجبى خراج سواد العراق وبايعه عبدالله بن عمر بن عبد العزيز والي واسط وبايعه أهل الموصل وطلبوا منه التوجه اليها. وأستغرقت عملية أخضاع مروان ابن محمد وقائده يزيد بن عمر فترة طويلة حتى سنة ١٢٩ هـ، وهي الفترة التي كان فيها مروان بن محمد منشغلاً في كبح عدة تمردات عائلية في بلاد الشام.

أن تحركات الخوارج هذه قد أشغلت الخلفاء الأمويين المتأخرين عن تعقب نشاطات الدعوة العباسية اذ أن أرسال الجيوش تبع الجيوش لمحاربة الخوارج قد ساعد على أضعاف الدولة عسكرياً وأوقفوا نشاطها الى حد كبير داخلياً وأتاحوا لجيوش الأعداء أن تهدد العالم الأسلامي وأن تزحف على أطرافه خارجياً، كما شغلوا الدولة في فترات حاسمة من تاريخها، أضف الى ذلك أنهم ساعدوا على تأليب الناس ضد الأمويين ومهدوا بأفكارهم لأثارة الموالي ولجعل الجماهير أكثر أستعداداً لقبول الدعوة العباسية.

٣- الدعوة العباسية

والواقع أن الظروف السياسية السابقة والحركات المعارضة التي واجهها الخلفاء الأمويون المتأخرون سواء تلك التي كانت نتيجة من نتائج ولاية العهد أم تلك التي فرضتها القوى المعارضة للحكم الأموي كانت هي الضربات المتلاحقة الموجعة التي أرهقت هؤلاء الخلفاء وأتعبت جيوشهم وفتت وحدة البيت الأموي و مؤيديهم والرجال الذين كانوا يتبعونهم. وأن تلك الظروف قد هيأت فراغاً سياسياً بعد أن تقاتل أبناء البيت الأموي فيما بينهم وأنقسم مؤيدوهم الى أقسام وشعب بين مؤيد ومعارض وبين مناصر ومطالب بالثأر من

(٢١) البلاذري: أنساب ص ٢٣٠، ٢٣١؛ ابن الاثير: الكامل جـ ٥ ص ١١٩.

قتلة هذا الخليفة أو ذلك . ولذلك فأن نجاح الدعوة العباسية وتزعمها الحركات المناهضة والتفاف المعارضين للبيت الأموي أو الحاقدين عليه جاء كضربة أخيرة حاسمة أنهت حكم هذه الأسرة العربية .

يرجع نشاط الدعوة ونجاحها الى علي بن عبدالله بن عباس الذي نادى بحق العباسيين بالخلافة والذي تزعم الدعوة السرية لتحقيق هذا الهدف ، ويبدو أن الخلفاء الأمويين المتأخرين كانوا مرتابين من نشاطاته ومواقفه (٢٢) .

كانت الشخصية المركزية التي أنتفع من موقعها العباسيون أو لنقل محمد بن علي العباسي هي عبدالله بن محمد بن الحنفية المعروف بأسم أبي هاشم الذي مات سواء (سمّ أم بشكل طبيعي) في الحميمة . لكنه قبل أن يموت أختار محمد بن علي لخلافته في الدعوة ضد الأمويين وأوصاه بوصية مهمة شرح فيها له أسرار الدعوة وأسماء الدعاة ومحلاتهم وأسماء الأحياء العربية التي تساند الدعوة وأسماء القبائل العربية المؤيدة ، وقيل أن الصحيفة الصفراء التي أوكلها لمحمد بن علي تحتوي على الوقت المناسب لأعلان الثورة . (٢٣) فأنتقلت بذلك الأمامة من ابي هاشم بن الحنفية الى محمد بن علي بن عبدالله ابن عباس .

وكان محمد بن علي شخصية ذكية وجريئة اذ أنه بعد حصوله على هذا المكسب الديني السياسي سارع في تنظيم الدعوة مركزاً على الدعاية وجعل جميع هذه الأساليب سرية جداً ، ثم من موقعه في الحميمة وزع تعليمات الدعوة سرياً الى جميع الدعاة والنقباء والعمال في كل الأماكن التي كان له فيها دعاة .

أبتدأت هذه الأنشطة في سنة ١٠٠ هـ/٧١٨م ، وفي وقت قصير أستطاع محمد بن علي ودعاته على كسب الكثير من المؤيدين لاسيما في الأجزاء الشرقية وبالأخص في خراسان حيث كانت تبعد جغرافياً عن مركز الخلافة الأموية والتي كانت موطن المعارضين والمتذمرين سواء كانوا من بعض القبائل العربية لاسيما القبائل اليمنية التي أمتعضت من سياسة مروان وغيره من الخلفاء الأمويين المتأخرين الذين مالوا الى القيسية دون اليمانية . علاوة على ذلك فأن خراسان كانت موطن المسلمين من غير العرب الذين أسلموا لا لشيء

---

(٢٢) فوزي ، فاروق عمر: العباسيون الأوائل جـ ١ ص ٣٩-٤٠ .

(٢٣) حول نشاط الدعوة : أنظر: فوزي م- ن. ص ٣٩ ؛ - الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٣٢ .

إلا الطعن بالعرب وحضارتهم، أولئك الشعوبية، فكانوا يحقدون على الحكم العربي الأموي. وقد أستثمر الدعاة العباسيين نفوس هؤلاء الموالي فرفعوا شعار المساواة بأعتبار أن الأمويين – حسب تفسيرهم – كانوا مناصرين للعرب دون سواهم من المسلمين غير العرب، خاصة وأن بعض الولاة الأمويين قد أتبعوا سياسة غير منصفة في خراسان مما أدى الى حدوث وضع غير مستقر تسوده الأضطرابات في هذه المنطقة.

نشط الدعاة العباسيون في نشر دعوتهم وهم يتجولون سرياً في كور خراسان ومدنها ورساتيقها، بزي التجار أو غير ذلك لكي يفلتوا من أعين جواسيس الأمويين. وظلوا يبشرون بالدعوة حوالي عامين بعدها رحلوا الى الحميمة ليقدموا تقاريرهم التي توضح نتائج نشاطاتهم خاصة في خراسان حيث غرسوا فيها غرساً يطمعوا أن يثمر في وقته. فكان هؤلاء الدعاة على أتصال مستمر ودائم بزعيم الحركة في الحميمة محمد بن علي الذي كان على أطلاع دقيق بنشاطات الدعاة وبالظروف السائدة في خراسان من جهة وأوضاع الأمويين في بلاد الشام من جهة أخرى. وفي ولاية سعيد بن عمرو الحرشي أتسع مدى نشاط الدعاة وأمتد الى بلاد السند حيث أثروا على واليها من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك الجنيد بن عبد الرحمن.(٢٤)

وعلى أثر موت محمد بن علي العباسي خلفه ابناؤه أبراهيم وابو العباس والمنصور ليكملوا المسيرة التي بدأ بها محمد بن علي، فحمل أبراهيم لواء الدعوة العباسية وتوسع في أرسال الدعاة الى خراسان والأطراف الأخرى من العالم الأسلامي.

لقد وافق تولي ابراهيم بن محمد زعامة الدعوة بداية فترة الانحلال الذي عانى منه البيت الاموي الحاكم على اثر وفاة الخليفة هشام بن عبدالملك، وهو بحد ذاته يعدّ مرحلة جديدة في حياة نشاط الدعاة.

كان من اولى نتائج هذه الأوضاع خروج بعض انصار الدعوة العباسية في مرو مستغلين ظروف الضعف السياسي للامويين. لكن ابراهيم لم يوافقه على هذا العمل الذي لم يعجبه توقيته فبعث في سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٤م مبعوثاً سرياً ينصح الثوار في مرو الى التراجع ويثنيهم عن الحركة والعودة الى الطاعة والانضباط، وكان ابو مسلم الخراساني برفقة المبعوث الذي كان ابو سلمة الخلال. وفي سنة ١٢٨ هـ اضطر ابراهيم الامام ان يبعث بمبعوث آخر الى

---

(٢٤) مؤلف مجهول: أخبار العباس وولده ص ٢٠١؛ – فوزي، فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية ص ١٥٥.

مرو وهو ابو مسلم ليتولى الاشراف على شؤون الثورة ويقيم في مرو. وفي مرو كان يقيم رجال عرب قادرون على قيادة الثورة من امثال سليمان بن كثير الخزاعي وقحطبة بن شبيب، لكن ابو مسلم بما يحمله من مخططات توسعية وروح انانية استغل الفرصة في اثارة الشقاق بين هذين الزعيمين العربيين وحالة الصراع السائدة بين صفوف العرب في مرو ليصبح هو المنفذ. وبالفعل فقد ظل منذ سنة ١٢٦هـ حتى سنة ١٣٢/ ٧٤٤- ٧٤٩م مشرفاً ومسؤولاً عن الدعوة العباسية وتهيئة امكانات نجاحها. فاعلن الثورة ورفع الرايات السود علانية في شهر شوال من عام ١٢٩ هـ/ ٧٤٧م، وخلال يومين فقط منذ اعلان الثورة حصلت على تأييد واسع بين قرى مدينة مرو، وتزايد جمعه حتى بلغ خلال شهر واحد حوالي سبعة آلاف رجل.

استمر ابو مسلم والزعماء الآخرين على تحشيد الجند والمؤيدين في حين عين ابراهيم الامام قحطبة بن شبيب الطائي قائداً للجيش العباسي الزاحف نحو نصر بن سيار والي الأمويين فجرت معركة بين الجيشين قرب مدينة طوس انتهت باندحار جيش نصر، واحتلت الجيوش طوس ثم نيسابور.

حينئذ فقد تنبه الخليفة الأموي الى خطورة الوضع فأرسل جيشاً للقضاء على الثورة من عشرة الآف، لكن الجيش أخفق في معركة قرب مدينة جرجان في ذي الحجة سنة ١٣٠ هـ/٧٤٨م. وفي سنة ١٣١ هـ التقى جيش العباسين بجيش أموي آخر أكثر عدداً قرب أصفهان لكن قحطبة هزمه. وزحف العباسيون الى نهاوند ودخلوا المدينة بعد فترة قصيرة من الحصار، وبذلك صار الطريق نحو العراق مفتوحاً، فتوجه قحطبة نحو الكوفة بسرعة وأشتبك مع جيش يزيد بن هبيرة والي العراق، فكانت النتيجة الى جانب قحطبة أيضاً في موقعة حدثت على شاطىء الفلوجة.

دخل ابن قحطبة حصن الكوفة دون قتال يوم الثلاثاء الرابع عشر من المحرم عام ١٣٢ هـ/٧٤٩م، وبدخوله صار أبو سلمة الخلال وزيراً نيابة عن العباسيين، ومع أن

أسم أبراهيم بن محمد أمام الهاشمية كان الأسم الشائع للخلافة العباسية ، غير أن وفاته دعت الى تعين اخيه ابي العباس عبدالله بن محمد خلفاً له . (٢٥)

وبذلك فأن نجاح الدعوة العباسية بدخولها الكوفة وتسلم ابي العباس كرسي الخلافة ، جعل دعائم الدولة الأموية قد تتقوض بشكل نهائي لاسيما بعد أن تعقب العباسيون فلول الجيش الأموي الهارب الى مصر . فكانت الثورة العباسية هي الضربة القاضية التي أنهت حكم الأسرة العربية الأموية التي أتعبتها الظروف والمشاكل السياسية والأدارية والأجتماعية حتى صارت بوضع لاتستطيع معه على الوقوف أزاء الجيش العباسي المتوجه نحو الكوفة أو حتى الصمود أمام تقدم هذا الجيش .

وبمقتل مروان بن محمد في ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ بمصر زالت دولة بني أمية التي عمرت ألف شهر ، هي قرابة أحدى وتسعين سنة منذ أن تنازل الحسن ابن علي لمعاوية بن أبي سفيان عن الخلافة سنة ٤١ هـ حتى مصرع مروان سنة ١٣٢ هـ .

---

(٢٥) أنظر مقالة Abbasids في دائرة المعارف الأسلامية ؛ فوزي ، فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية ؛ شعبان ، محمد عبد الحي : الثورة العباسية ص ٢٥٠-٢٥٦ الخربوطلي ، علي حسني : الدولة العربية الأسلامية (١٩٦٠) ص ٣٠٩-٣١٣ .

العباسيون : ينتسب العباسيون الى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي عم النبي (ﷺ) ، وقد ولد قبل عام الفيل بثلاثة أعوام ، فهو يكبر المصطفى (ﷺ) بثلاث سنين ، وكان يكنى ابا الفضل وكانت له السقاية وزمزم ، دفعها اليه النبي (ﷺ) يوم فتح مكة وكان يوم العقبة مع النبي (ﷺ) فعقد له على الأنصار. وقد أسلم العباس قبيل فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة . توفي العباس سنة ٣٢ هـ بالمدينة وهو ابن (٨٩) سنة . وأشتهر من عقبه : عبدالله ، الذي عرف في التأريخ "بابن عباس" وكان مولده في مكة قبل الهجرة بعامين أو ثلاثة . كان مفسراً قديراً ومحدثاً ثقة وفقيهاً وجندياً شجاعاً . توفي في الطائف سنة ٦٧ أو ٦٨ هـ . وكان قد نفاه عبدالله بن الزبير الى الطائف أيام خلافته . ومن أبناءه (علي) وهو أبو الخلفاء من بني العباس ، ولد سنة ٤٠ هـ وكان من أعبد الناس وأحلمهم . وقد أرتحل مع أسرته سنة ٩٥ هـ الى قرية الحميمة بأقليم الشراة جنوبي فلسطين ، أجلاه اليها الوليد بن عبد الملك ، وفيها ولد أكثر أبناءه ، توفي عام ١١٧ هـ . وكان من ولده : محمد داؤد ، عيسى ، سليمان ، صالح ، وعبدالله ، وبيت الخلافة في عقب ولده الأكبر (محمد) . وبعد موت علي خلفه في زعامة الأسرة ولده محمد هذا الذي كان على جانب كبير من الدهاء السياسي وطموح النفس . وهو والد أبراهيم الأمام والسفاح أول الخلفاء بني العباس ، والمنصور ثانيهم .

٤ - التناقضات الأجتماعية

والمقصود بذلك ماواجهه البيت الأموي من تحدٍ أجتماعي فرضته الظروف السياسية - الأدارية. فالمعروف أن الخلافة الأموية بدأت في الأسرة السفيانية من البيت الأموي حتى مؤتمر الجابية الذي أنعقد في سنة ٦٤ هـ، اذ نجح شيخ الأسرة المروانية من هذا البيت مروان الأول بن الحكم بن العاص الى أن يسحب الخلافة الى أسرته المروانية في ذلك المؤتمر أما خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان أنذاك صغير السن، قليل الخبرة مقارنة بالشيخ مروان بن الحكم. والحقيقة أن مروان لم يعمر طويلاً فترك الخلافة في ابنه المقتدر عبد الملك بن مروان الذي نجح تماماً في سياسته الداخلية وفي أعادة الوحدة السياسية للحكم الأموي على البلاد الأسلامية يساعده في ذلك بعض الولاة الكفوئين وعلى رأسهم الحجاج الثقفي.

لكن منذ ولاية سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩/ ٧١٥-٧١٧م) بدأت تظهر متغيرات جديدة يسودها عنصر التباغض والحقد بين أفراد الأسرة المروانية، اذ كان سليمان مثلاً يبغض الحجاج الثقفي وأهله وولاته ومن بينهم قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي لا لشيء إلا لأنه الوليد بن عبد الملك أثناء خلافته حاول أن يخلع سليمان من ولاية العهد ويبايع أبنه عبد العزيز بن عبد الملك بدلاً عنه، فأبدى سليمان تبرمه وبغضه من أخيه وسياسته فشمل هذا البغض جميع العمال الذين عملوا مع أخيه وأيده في سياسة الخلع تلك. فمثلاً أن السبب الرئيسي لتغير سليمان بن عبد الملك على قتيبة يرجع الى فترة خلافة الوليد عندما رفض سليمان خلع نفسه من ولاية العهد لأبن الوليد، حينئذ كتب الوليد كتاباً وجهه الى عماله في البلاد يدعوهم فيه الى مبايعة عبد العزيز أبنه بدلاً من سليمان ودعا الناس الى ذلك. لكن كتابه هذا لم يثمر عن نتيجة أيجابية اذ لم يوافقه على مشروعه إلا الحجاج الثقفي وقتيبة وخواص الناس.[٢٦] فقد طابق قتيبة رأي الحجاج في نقل ولاية العهد الى عبد العزيز، لذلك عندما توفي الوليد وتسنم سليمان الخلافة لم ينس ذلك الموقف فبدأ بتطهير جهازه الأداري من أولئك الرجال الذين وقفوا مع أخيه ضده كولي للعهد. ولأول مرة تولد عنصر الشك وعدم الثقة والتبرم بين الخليفة وقواده وولاته، فصار هذا العنصر سياسة أتبعها عدد ممن جاء بعد ذلك من الخلفاء الأمويين المتأخرين وهي أبعاد الخليفة الجديد، لابل الأنتقام من ولاة وأداري الخليفة المتوفى أو الخليفة الشرعي.

---

(٢٦) الطبري: تأريخ جـ ٦ ص ٤٩٨-٤٩٩.

كما واجه يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وخالد القسري وغيرهما ذات المصير.

فسليمان بن عبد الملك مثلاً لم يرغب أثناء خلافته أن يولي أحد أخوته ولاية العهد بل أقدم بمشورة من رجاء حيوه أن يرشح أبن عمه عمر بن عبد العزيز وذلك لأن محاولة أقصائه من ولاية العهد أثناء خلافة الوليد قد ولدت عنده الكراهية والبغض لأخوته وأفراد أسرته.

كما ظهر مثل هذا التبرم وعدم الرضا خلال خلافة عمر بن عبد العزيز عندما وقف بعض أمراء البيت الأموي موقفاً سلبياً من الأجراءات الجديدة التي أنتجها لاسيما مسألة الصلات والهبات التي أعتاد أفراد الأسرة على تسلمها من الخليفة الأموي، فقد قال أحدهم للخليفة عمر "ياأمير المؤمنين أن قومك بالباب يسألونك أن تجري عليهم ما كان قبلك يجري عليهم، فقال عمر: والله ماهذا المال لي، ومالي الى ذلك من سبيل" (٢٧) وازاء هذا الموقف فأن أفراد البيت الأموي وقفوا بشكل قوي بوجه عمر بن عبد العزيز فوكلوا أحدهم من المقربين أن يتحدث مع الخليفة فقال له: "أن قرابتك يشكونك ويزعمون ويذكرون أنك أخذت منهم خير غيرك فقال: مامنعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم، فقالت (عمة الخليفة) أني رأيتهم يتكلمون وأني أخاف أن يهجموا عليك يوماً عصيباً..." (٢٨).

ولما كان الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥ هـ / ٧٢٠ – ٧٢٤م) منصرفاً الى شؤونه الخاصة بلهوه فقد ظهر في عهده توتر جديد مع أخيه هشام وكاد يصل هذا التنافر الى حالة من الأصطدام لولا ركون هشام الى السلم وعدم أثارة المتاعب.

غير أن أخطر تغير في التركيب الأجتماعي أو البنية الأجتماعية للأسرة الأموية ماحدث أيام خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ هـ / ٧٤٣م) الذي لم يبق في الخلافة إلا سنة وشهرين وأياماً الى أن قتل بأحدى قرى دمشق سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٤م، أن الوليد كان أيضاً سيء السيرة منهمكاً بملذاته في الوقت الذي كانت فيه الدولة الأموية تعاني من أزمات سياسية واقتصادية خطيرة فأغضب شيوخ البيت الأموي، وقادهم غضبهم الى أن يتآمروا ضد الخليفة مع بعض الرجال المتنفذين فهجموا على الوليد واغتيل على يد يزيد بن الوليد الذي أستولى على الخلافة بدلاً منه. ومع أن يزيد لم يستمر خليفة إلا خمسة أشهر وأعقبه أخوه أبراهيم بن الوليد إلا أن الحادثة بذاتها تعد تطوراً خطيراً وظاهرة لم يسبق

(٢٧) أبن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٩.

(٢٨) ن. م. ص ٥٨.

أن مرّ بها تأريخ البيت الأموي اذ جهد آخر خليفة أموي مروان بن محمد الى أن يأخذ بثأر الخليفة المقتول وربما لكي يستثمر هذا التناقض والضعف لنفسه فجرد حملة عسكرية ضد الخليفة أبراهيم بن الوليد وطارده وقبض عليه ثم قتله وصلبه وقتل من كان يؤيده من البيت الأموي.

أن هذه الأعمال من الحقد والكراهية بين أفراد البيت الأموي أدت كما يظهر من حوادث التآمر والقتل الى أضعاف سيادة البيت الأموي وعدم قدرته على متابعة التطورات والأشراف على شؤون الدولة بشكل دقيق وحازم.

والأكثر خطورة أن تلك الأحداث وغيرها قوت روح التعصب القبلي بين القبائل التي وقفت مع الأمويين وساندت حكمهم وأعني بذلك التصارع بين المجموعتين القبليتين القيسية واليمنية. ومع أن بوادر هذا التشاحن قد ظهر في أعقاب وفاة يزيد بن معاوية، لكن هذه الهوة لم تكن انذاك قوية بحيث تؤثر على وحدة البيت الأموي وتماسكه، وكان لموقف الخليفة عمر بن عبد العزيز المسالم قد ساعد على تخفيف النزاع القيسي اليمني. لكن وفاته كانت ايذاناً لظهور هذه الظاهرة بشكل قوي وواضح، اذ واجهت خلافة يزيد بن عبد الملك مشكلة سياسية بعثت الروح القبلية وأعني بها موقفه من يزيد بن المهلب بن ابي صفرة، اذ فرّ يزيد هذا من سجن عمر بن عبد العزيز وتوجه الى البصرة وأعلن تمرده ضد الخليفة الشرعي.

والمعروف أن أسرة يزيد المهالبة قد قدمت خدمات سياسية كبيرة للبيت الأموي، لاسيما ماقدمه المهلب بن أبي صفرة وأولاده من بلاء حسن في محاربة الخوارج الأزارقة الذين هددوا سيادة ووحدة الحكم الأموي، وكانوا مثلاً للنبل والشجاعة والفضل فأمتدحهم الشعراء والخطباء. وكان يزيد بن المهلب من القادة العسكريين المقربين للخلافة الأموية لكن الخليفة عمر أرتاب من أخلاصه وصدق موقفه فأودعه السجن، فلما هرب وتوجه الى البصرة وأجتمع حوله أنصاره من بني تميم، أخذ أهالي البصرة يفدون عليه من اليمانية والربعية (بنو ربيعة) فأجتمع حوله عدد كبير من الناس فحارب والي البصرة عدي بن أرطاة وأفلح في السيطرة على دار الأمارة والقبض على واليها وسجنه، كما أستولى على البصرة وضواحيها ومايتبعها من الأقاليم فبعث يزيد عماله على فارس والأحواز وعمان وجزيرة أبن كاوان (اوكاون) والبحرين وخراسان.[٢٩]

---

(٢٩) البلاذري: أنساب ص ٢٠٩؛ الطبري: تأريخ جـ ٦ ص ٥٨٥-٥٨٦؛ - العبود، نافع: آل المهلب بن ابي صفرة ص ١١٢.

كانت أعمال يزيد السياسية هذه قد دفعت، الخليفة يزيد بن عبد الملك الى أن يوجه مسلمة بن عبد الملك في جمع عظيم من أهل الشام لحرب يزيد بن المهلب الذي لم يستطع الصمود كثيراً على الرغم من محاولاته الجريئة، ففي معركة (عقر) فشل أبنَ المهلب في مواجهة الجيش الأموي وبالتالي مقتله في المعركة، وهرب المهالبة من ميدان المعركة وتعقبهم مسلمة في كل مكان حتى الهند وكرمان، وبدأت سياسة الثأر من المهالبة ومن وقف معهم فكانت أول ثلمة أجتماعية كبيرة، اذ صار من البديهي على الخليفة أن ينفر من اليمنية ويميل الى جانب القيسية. فولى أخاه مسلمة بن عبد الملك الذي قضى على المهالبة ولاية المشرق وولى عمر ابن هبيرة وهو قيسي والياً على العراق وأتخذ الخليفة شعار القيسية في سياسته بينما ضعف موقف اليمانية.

غير أن الحالة تبدلت عندما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك أخو يزيد. وكان هشام ينتقد سياسة أخيه يزيد ويتبرم من أنصرافه عن شؤون الدولة ولهوه. فعندما تولى الخلافة وجد أن القيسية قد علت كلمتها وأتسع نفوذها أجتماعياً وادارياً، فتحول في ميله الى اليمنية بغية أن يقلل من نفوذ المضرية الذي أخافه ويعيد التوازن بين المجموعتين إلا أنه ذهب بعيداً عن عملية تحقيق هذا التوازن حيث عمل على أبعاد كل من كان قيسياً من العمال ليولي بدلهم يمنياً. فصار خالد بن عبدالله القسري والياً على العراق وأخوه أسد بن عبدالله القسري والياً على خراسان، فدب النشاط والنفوذ في الجانب اليمني ليحل محل القيسيين ويأخذ بثأرهم مما أنتاب اليمنية على أيدي القيسية.

لكن هشام لم يثبت في سياسته هذه، ويبدو أنه أتبع سياسة فرق تسد، فأنه لم يرتح كثيراً الى هيمنة اليمنية مرة أخرى، فأنقلب عليهم وعزل ولاتهم وعمالهم، فعزل خالد القسري وولى يوسف بن عمر الثقفي العراق. والأكثر خطورة من كل هذا فأن الخليفة لم يكتف بعزل الولاة اليمانيين، فقد قتل خالد القسري فكان لمقتله اثراً سياسياً كبيراً في أضعاف الحكم الأموي لأن خالد كان يمثل زعيم اليمنية، وكما ذكر فلهاوزن "أن سقوط خالد القسري كان أيذاناً بنهاية الحكم الأموي القاضي، وكان خلفه يوسف بن عمر من آل الحجاج . . . بوده لو جلب لولاية خراسان قيسياً". [30] فكان خليفته يوسف أبن عمر قيسياً. فاليمانيون مازالوا يتذكرون نهاية أحد زعمائهم من آل المهلب ثم أعقبه نهاية لزعيمهم خالد القسري لاتهامه بميله الى العلويين وأغداقه عليهم الأموال، وقيل أنه أتهم بالزندقة.

---

(٣٠) فلهاوزن: الدولة العربية ص ٣٧٥ – ٣٧٦.

لذلك صمم اليمانيون على الأخذ بثأرهم والعمل على تقويض السلطة الأموية وكان الوليد بن يزيد الخليفة الجديد قد أستمر بميله للقيسين وأوغر في أقصاء اليمانيين مما زاد السخط والغضب ودفعهم الى تحيين الفرص للتآمر وتدبير المكائد وتأييد الحركات المناهضة للخلافة الأموية .

وقد ساعدت حادثة مقتل الخليفة الشرعي الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ علـى تصعيد التأزم بين القيسين واليمانيين لأن الخليفة الذي أستولى على كرسي الخلافة يزيد بن الوليد هو الآخر أتخذ جانب دون آخر محاولة منه تقوية حكمه وتدعيم سلطته ، وبدأ عمله هذا بعزل الولاة القيسيين وتعين ولاة جدد بدلاً عنهم .

وما أن سنحت الفرصة لليمانيين أن يتنفذوا حتى أخذوا يتعقبون القيسيين والأساءة لهم ، فكانوا وراء الحركات التي أشتعلت بسبب تنفذهم في بلاد الشام خاصة في حمص وفلسطين والأردن وأنضم الى اليمانيين يزيد أبن خالد بن يزيد بن معاوية وآخرين من الأسرة الأموية ، وكان يزيد بن سليمان بن عبد الملك وراء التمرد الذي حدث في فلسطين بينما قاد محمد بن عبد الملك تمرد أهل الأردن . وتعرضت سلطة الخليفة يزيد الى الخطر بسبب هذه الحركات لولا وقوف اليمانيين الى جانبه . فأخذ يعتمد عليهم بصورة كبيرة لاسيما الكلبيون منهم فأبعد كل قيسي من حاشيته وجعل منصور بن جهور الكلبي والياً على العراق .

وعلى العموم فإن الحركات السياسية التي وقعت في بلاد الشام أفقدت الخلافة الأموية الكثير من هيبتها ونفوذها ، فكيف بالمناطق النائية عن مركز الخلافة ، أي في خراسان وأطرافها . اذ أن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين عندما تولى الأمر وجد البلاد تسودها الفوضى ، وفي بعض الأجزاء أختفى أثار السلطة الأموية . والخطر الأول الذي جابهه بعد نجاح حملته ضد الخليفة الذي أعقب الوليد (أي أبراهيم) ذلك النزاع الحاد بين القيسيين المبعدين من النفوذ الآن وبين اليمانيين أصحاب الشأن . فكان مروان في بداية الأمر يطمح الى ترشيح أحد أولاد الوليد للخلافة ، بينما خطط اليمانيون أقصاء أبنائه خوفاً من أن يتغير عليهم فعمدوا الى قتلها وهما في السجن . لذلك حينما تولى مروان الأمر مال الى جانب القيسيين وطالب اليمانيين بدم الوليد ، ولهذا أقدم اليمانيون ، والكلبيون خاصة الى أشعال نار الثورة في بلاد الشام . (٣١)

---

(٣١) أنظر الطبري : تأريخ حوادث سنة ١٢٦ هـ و ١٢٧ هـ ؛
- أبن الاثير جـ ٥ ص ١١٧ - ١١٩ ، ١٢٥ ؛
- الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٦٤ .

وخلال فترة ولاية خالد بن عبدالله القسري تم بناء دار او سوق في الكوفة اذ بنىٰ فيه الحوانيت وسقفها بسقوف من ازاج معقود بالآجر والجص.[٣٧]

وشهد المسجد الجامع في الفسطاط اجراء تحسينات وزيادات وعمليات هدم وبناء زمن ولاية مسلمة بن مخلد الانصاري ايام الخليفة معاوية فزاد فيه من الجانب البحري واتخذ له رحبة وبيضة وزخرفة وفرش ارضه بالحصر بعد ان كان مكسواً بالحصىٰ وجعل له اربع صوامع في اركانه الاربعة. كذلك عمل عبدالعزيز بن مروان اثناء ولايته الفسطاط اذ اعاد بناءه وزاد في مساحته.[٣٨] وبنىٰ عبدالعزيز هذا داراً عظيمة هي دار الامارة واطلق عليها اسم دار «الذهب» وبنىٰ لها قبة مذهبة.

والملاحظ ان ولاة مصر اثناء الخلافة الاموية اهتموا ببناء وتنظيم الاسواق مما شجع الى ايجاد حركة تجارية نشطة.

وكان حظ مدينة الموصل ايام الامويين افضل مما نالته ايام العباسيين اذ بنيت فيها الدور والقصور امثال قصر الحر بن يوسف والي هشام الذي ابدىٰ اهتماماً ايضا بالاسواق حيث بنىٰ سوقاً كبيرة سمي بسوق الحر.[٣٩] وحفرت فيها الانهار، وبنى سعيد بن عبدالملك سوراً للمدينة ونظم شوارعها وسككها، وفرش صاحب شرطة الخليفة مروان بن محمد شوارعها بالحجارة؛ وقد استمرت خلال خلافته اعمال البناء حيث تم توسيع المسجد الجامع فيها.

---

(٣٧) البلاذري: م. ن. ص ٢٨٤؛ عبدالجبار ناجي: **دراسات** ص ١٧٠.

(٣٨) ابن عبدالحكم: **فتوح** ص ١٣٣، ١٣٩.

(٣٩) البلاذري: م. ن. ص ٣٢٧ – ٣٢٨.

